

موجز تاريخ العالم

تأليف
ه. ج. ويلز

ترجمة
عبد العزيز توفيق هاريد
مراجعة
محمد أمين نجما





موجز تاريخ العالم

تأليف
ه. ج. ويلز

مراجعة
محمد أمين نجما

ترجمة
عبد العزيز توفيق هاريس

مكتبة المطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع مصر بالقاهرة

199Y

محتويات الكتاب

صحة

ز	فهرس الخرافط
ط	مقدمة للترجم
م	مقدمة للؤلف
٣	الفصل الأول : العالم والنضاء
٦	الفصل الثاني : العالم والزمان
٩	الفصل الثالث : بدايات الحياة
١٢	الفصل الرابع : عصر الأسماك
١٥	الفصل الخامس : عصر مستنقعات النعم
١٩	الفصل السادس : عصر الزواحف
٢١	الفصل السابع : الطيور الأولى والثدييات الأولى
٢٧	الفصل الثامن : عصر الثدييات
٣١	الفصل التاسع : القروء والقردة العليا وأعباء الإنسان
٣٦	الفصل العاشر : الإنسان النياخدرتالى والروديس
٤١	الفصل الحادى عشر : الإنسان الحقيقى الأول
٤٥	الفصل الثانى عشر : الفكر البدائى
٤٩	الفصل الثالث عشر : بدايات الزراعة
٥٤	الفصل الرابع عشر : حضارات مصر الحجرى الحديث البدائية
٦٠	الفصل الخامس عشر : سومر ومصر فى الصور الأولى ونشأة الكتابة
٦٤	الفصل السادس عشر : الشعوب للرحلة البدائية
٦٨	الفصل السابع عشر : أول الشعوب البحرية
٧٣	الفصل الثامن عشر : مصر وبابل وآشور
٧٩	الفصل التاسع عشر : الآريون البدائيون

- ٨٣ الفصل العشرون : الإمبراطورية البابلية الأخيرة وإمبراطورية دارا الأول
- ٨٩ الفصل الحادى والعشرون : تاريخ اليهود القديم
- ٩٥ الفصل الثانى والعشرون : كهان وأنبيا في بلاد اليهودية
- ٩٩ الفصل الثالث والعشرون : الإغريق
- ١٠٥ الفصل الرابع والعشرون : الحرب بين الإغريق والفرس
- ١٠٩ الفصل الخامس والعشرون : بلاد الإغريق إبان مجدها
- ١١٢ الفصل السادس والعشرون : إمبراطورية الإسكندر الأكبر
- ١١٦ الفصل السابع والعشرون : متحف الإسكندرية ومكتبتها
- ١٢١ الفصل الثامن والعشرون : حياة جوتاما بوذا
- ١٢٦ الفصل التاسع والعشرون : ثلاث آسوكا
- ١٢٨ الفصل الثلاثون : كوتوشيسوس ولاهوتس
- ١٣٣ الفصل الحادى والثلاثون : ظهور روما على مسرح التاريخ
- ١٣٨ الفصل الثانى والثلاثون : بين روما وقرطاجنة
- ١٤٣ الفصل الثالث والثلاثون : نمو الإمبراطورية الرومانية
- ١٥٤ الفصل الرابع والثلاثون : بين روما والصين
- ١٦٠ الفصل الخامس والثلاثون : حياة الرجل العادى في عهد الإمبراطورة الرومانية القديسة
- ١٦٦ الفصل السادس والثلاثون : التطورات الدينية في ظلال الإمبراطورية الرومانية
- ١٧٢ الفصل السابع والثلاثون : تالميم يسوع
- ١٧٧ الفصل الثامن والثلاثون : تطور المسيحية الفقهية
- ١٨٢ الفصل التاسع والثلاثون : البرابرة يشطرون الإمبراطورية إلى شطرين : شرق وغرب
- ١٨٧ الفصل الأربعون : الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية
- ١٩٢ الفصل الحادى والأربعون : الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية
- ١٩٧ الفصل الثانى والأربعون : أسرتا « سوى ، وتانج » بالصين
- ٢٠٠ الفصل الثالث والأربعون : محمد والإسلام

- ٢٠٤ الفصل الرابع والأربعون : عهد عظمة العرب
- ٢١٠ الفصل الخامس والأربعون : تطور عالم المسيحية اللاتينية
- ٢١٩ الفصل السادس والأربعون : الحروب الصليبية وعصر السيادة الباباوية
- ٢٨٢ الفصل السابع والأربعون : الأمراء المارشون والصدع الأعظم
- ٢٣٦ الفصل الثامن والأربعون : فتوح المغول
- ٢٤١ الفصل التاسع والأربعون : النهضة الفكرية للأوروبيين
- ٢٥٠ الفصل العاشر : إصلاح الكنيسة اللاتينية
- ٢٥٤ الفصل الحادي والعشرون : الإمبراطور شارل الخامس
- ٢٦٢ الفصل الثاني والعشرون : عصر تجارب سياسية وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا
- ٢٧٥ الفصل الثالث والعشرون : إمبراطوريات الأوروبيين الجديدة في آسيا وماوراء البحار
- ٢٨٠ الفصل الرابع والعشرون : حرب استقلال أمريكا
- ٢٨٦ الفصل الخامس والعشرون : الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا
- ٢٩٣ الفصل السادس والعشرون : السلم الأوروبي المقلقل بعد معقوط نابليون
- ٢٩٨ الفصل السابع والعشرون : نمو الرفاه المادي
- ٣٠٧ الفصل الثامن والعشرون : الانقلاب الصناعي
- ٣١٠ الفصل التاسع والعشرون : تطور الآراء السياسية والاجتماعية المعاصرة
- ٣٢٣ الفصل العشرون : امتداد رقعة الولايات المتحدة
- ٣٣١ الفصل الحادي والعشرون : ألمانيا تصبح دولة عظمى
- ٣٣٤ الفصل الثاني والعشرون : الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية
- ٣٤٠ الفصل الثالث والعشرون : العدوان الأوروبي على آسيا ونهرض اليابان
- ٣٤٥ الفصل الرابع والعشرون : الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤
- ٣٤٨ الفصل الخامس والعشرون : عصر التسليم في أوروبا والحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨
- ٣٥٤ الفصل السادس والعشرون : التنظيم الجديد بالروسيا
- ٣٦٢ الفصل السابع والعشرون : عصبة الأمم

صفحة

الفصل الثامن والستون : إخفاق عصبة الأمم	٣٦٧
الفصل التاسع والستون : الحرب العالمية الثانية	٣٧٩
الفصل السبعون : أزمة التكيف البشرى	٣٩٣
الفصل الحادى والسبعون : من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ العقل البشرى فى أقصى توتره	٣٩٧
جدول تاريخى زمنى	٤١٤
فهرس أبجدى للكتاب	٤٢٨

فهرس الخرائط

رقم الخريطة	رقم الصفحة	عنوان الخريطة
١	٣٩	خريطة تقرىبة لماعم أوروبا وآسيا الغربية
٢	٥٧	علاقت الأجناس البشرية
٣	٨٥	العلاقة بين الإمبراطورية لليدية والبابلية الثانية
٤	٨٧	إمبراطورية دارا
٥	٩١	فلسطين
٦	١٤١	امتداد سلطان روما وأحلافها حوالى ١٥٠ ق. م
٧	١٥٧	الإمبراطورية والبرابرة
٨	٢٠٥	اتساع رقعة الدولة الإسلامية فى ٢٥ عاما
٩	٢٠٧	الإمبراطورية الإسلامية سنة ٧٥٠ م
١٠	٢١٤	حدود ممتلكات الفرنجة فى عهد شارل مارتل
١١	٢١٦	أوروبا عند وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م
١٢	٢٣٧	إمبراطورية جانكيز خان عند وفاته سنة ١٢٢٧
١٣	٢٤٠	الإمبراطورية السبانية عند وفاة سليمان القانونى ١٥٦٦
١٤	٢٧١	أوروبا الوسطى بعد صلح وستفاليا (١٦٤٨)
١٥	٢٧٧	ممتلكات بريطانيا وفرنسا وأسبانيا بأفريكا فى ١٧٥٠
١٦	٢٨٣	امتداد الاستيطان فى أراضى الولايات المتحدة فى ١٧٩٠
١٧	٢٩٦	أوروبا بعد مؤتمر فيينا
١٨	٢٣٢	أوروبا من ١٨٤٨ إلى ١٨٧١
١٩	٢٣٨	الإمبراطورية البريطانية سنة ١٨١٥
٢٠	٣٥٠	الإمبراطوريات الأوربية وراء البحار يناير ١٩١٤

موجز تاريخ العالم

مقدمة المترجم

كان طبعيا وقد ترجمت «العالم» أن يتجه الفكر إلى حقيقة «الوجز». «أن
أن «العالم» ليس سلفا يسجل التاريخ ويدون أحداثه بحسب بل هو قوة دافعة تتكبد
تجمل من صناعات التاريخ، فهو يجمع من دعوات ومذاهب وتعاليم من ذات أفكار
مؤلفه، يمد من الصور التي تتحول عندها أحداث هذا الكوكب. وبحسب القارئ
ما به من بصيرة لمن حجب عنه البصر بأمور الدنيا، وتورب لحياتنا به مدقة
الظلمات. بحسب ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذي عليه نعيش،
تدعه إقليدس واحدا بل قطرا واحدا، استقر الله بن قريه واحدة، يجب أن يقوم فيها من
التكافل والتحاب والتعاطف ما يقوم في كل ريف. ويجب أن يزول منه من أسباب
الخلاف والتنافر ما ينبغي أن يزول من الريف السيد الذي يفرق عليه ألوية الوطام.
وبحسب القارئ، أيضاً ما بالكتاب من نظرة عملية بيولوجية إنسانية إلى سكان هذه
الدنيا ترجو أن تصمم للساواة والإخاء والصفاء، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود
ولا أسمر ولا استعاري ولا مستمر ولا استغالي ولا مستغل، بل الكل في حظ
الحياة سواء. والرزق والثمرات وركاز الأرض وخيراتنا قسمة بين الجميع، وقسمة عادلة
لا قسمة ضيقة.

كان طبعيا وقد ترجمت للعالم بما حوى من ذم لحول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا
ونرى على سوء تدبيرها، وضيق أفق رجالها وقلة درايتهم بطابع البشر وسوء استغلالهم
للموارد البشرية، أقول كان طبعيا أن يتجه الفكر إلى هذا الوجز الذي تجده بين
يديك عسى أن يفيد به من لم يتبع كتاب العالم في يده.

كان هذا الوجز عندي منذ كنت طالبا بمدرسة اللطيف، تراودني نفسي على
ترجمته وتأتي ظروفي إلا أن تحول دون ذلك. بل لقد حالت الظروف دون مطالعته
كله. وإن ألمت به في بعض مايسر لي بين وقت الفراغ واللمات وصلت بين عسى
وبين مؤلفه العظيم إلى أن حانت الساعة السعيدة التي أصلت فيها به منذ ١٩٤٠ حين

رجعت للعالم ، غالطت آراء الكتّاب منذ ذلك الوقت من مهجة اللحم والدم . وإذا هي قطعة من حياتي النكرية . ويغفل هذا المؤلف العظيم بات قطعة من حياتي الإيمان بالمجالي النائية المستورية . وجرى في العروق مجرى الدم الإيمان بالحرة الفردية والحرة العامة . وذلك فضلا عما كان يحاطل الروح بطبيعة الحال من كره الإنجليزى الذى كان منذ حدثنا يتصب السلطان في هذا البلد المسكين ، فضلا عما ألحقت به النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستنار الأجنبى والاستغلال : استغلال الأجنبى للمصري واستغلال النفس للفقير واستغلال الاقطاعى للضعيف .

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ . ج . و . بعد انقطاع الصلة به فترة ما بين العالم والشروع في تقل اللوجز . وزاد من شعور السعادة إحساسى بأن أقرب لقارىء متلهيا جديداً إن عز عليه في العالم ارتياده لطعم سمته ، لقد سهل عليه في اللوجز وروده . وسرني أنى وجدت آراء الرجل في الكثير من الآخرين مبثوثة في الصغير ، فطعت أنى أقدم لقارىء الحرية أفكار الرجل نفسها في ثوب موجز أنيق ، يستطيع تناولها منه ما هن له وقت فراغ في ليل أو نهار ، مع يسر المأخذ وقرب التناول . ولا يفرنك قوله في مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة العالم . إذ الواقع الذى لا مره فيه أنه خلاصة له نظر إليها من زاوية جديدة . وإلا فقيم طرب المؤلف الجليل في الكتائين كليهما بنشوء الحضارات وإعادته بالبدائيات التى أثرت في الثقافة والفكر الإنسانى ؟ وانظر إليه في الكتائين كليهما وهو يدق البشارف رحاب الكتابة وصناعة الورق ، ونشوء العلوم الحديثة على أيدي يونان ، وسمود منار العلم البطلى بالإسكندرية ، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين . وكى تهزله الحروب ويشقيه ما تعود به على الإنسانية من دمار ووقوف ببولاب المدينة عن التقدم ، وإذا أهالزع العصر تتناقل أقطابها حتى لتردد في الآذان ربات المرائى الفاجعة .

هكذا كان موقف المؤلف في الكتائين من نابليون ومن غليوم ومن هتلر وكل مضيق لجهود البشرية مبدد لها في أتون الحديد والنار . فإن كان القارىء المصري الضيق الوقت يستطيع بهذا الكتاب أن يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التى دعا إليها الإسلام وهو في أوج مجده ألا وهى الحضارة ومسايرة ركب التقدم والحرة ودعم إليها انتفاضة مصر في عهد ثورتها الثانية عام ١٩٥٣ ، فذلك حسى وغاية ما أرجو .

وفي الكتاب آراء المؤلف قد تخالف رأينا ولكننا أبتياها في موضعها عملاً بحرية
ى ومن قبيل ذلك ما جاء بالصفحات ١٧٣ و ١٧٦ عن قصة صلب المسيح فقد
شاها لأنها تمثل وجهة النظر المسيحية ، أما رأى الإسلام في هذه القصة المعروف
تاج إلى بيان .

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصدرها المؤلف قبل وفاته وأضاف إليها فصلاً
الحرب العظمى الثانية (أكلنا ما يتقصه من حلقات) وضمنه أمانته الخالصة للبشرية
رأى إياها عواقب أخطائها وموضعاً لها حيل النجاة .

مصر الجديدة في ١٤ يونيو ١٩٥٨

عبد العزيز توفيق جاور

مقدمة المؤلف

الغرض من هذا الموجز لتاريخ العالم أن يقرأ من أوله لآخره قراءة سريعة متتابعة كما لو كان إحدى الروايات . إذ يقدم إلى القارئ بأبسط الطرق وأعمها بياناً بعمارنا التاريخية الراهنة مجردة من التفاصيل والتعقيدات . كما يراد منه أن يحصل القارئ على تلك الصورة الكلية للتاريخ التي يتكون منها الهيكل الذي لا بد منه عند دراسة حقبة معينة أو تاريخ قطر بالذات . وهو توطئة نافعة لعهد القارئ اصطلاحاً بمطالعة شقيقه الأكثر جلاء واستيفاء للمصوم « Outline of History »^(١) لنفس المؤلف . ومع ذلك فإن الناقبة الرئيسية منه هي سد حاجة القارئ العادي الكثير المشاغل ، الذي يضيق وقته عن الاقطاع لدراسة تفصيلية لما في « العالم » من خرائط ومصورات زمانية ، والذي يرغب في تجديد ما يبقى في مخيلته من صورة زاوية مضمحلة للنامرة العظمى للجنس البشرى .

وليس كتابنا هذا ملخصاً « للعالم » ولا صورة مركزة لما فيه . ذلك أن كتاب « العالم » - في حدود الهدف الذي رسم له مركز تركيزاً ليس وراءه زيادة لمستزيد ، وكل ما في الأمر ، أن هذا الكتاب تاريخ أكثر شمولاً أقيم على خطة أخرى وحرر تحريراً جديداً .

هـ . ج . ول

(١) وقد نكح إلى العربية مترجم هذا الكتاب تحت اسم « عالم تاريخ الإنسانية » وحرره لجنة التأليف والترجمة والنشر .

موجز تاريخ العالم

(٢ - تاريخ العالم)

الفصل الأول

العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال بتراء يتورها النقص من كل جانب . فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا بقرنين ، لم يمكن مدها يتجاوز الثلاثة آلاف عام الأخيرة . أما ما حدث في العالم قبل ذلك فكان أمراً ضارب فيه الأساطير والظنون بنهم وقبر ، وكان الناس في شطر كبير من العالم للتحضر ، يعتقدون ويلقنون أن العالم قد خلق على حين بئنة في عام ٣٠٠٤ ق . م ، وإن اختلف الثقافات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث في خريف تلك السنة أو ربيعها ١١١٠ . . . وقد قام هذا الوم الحاطي « السجيب في دقة تحديده على اللبانة في تأويل « العهد القديم » العبراني ، تأويلاً حرقياً أو بالأحرى على اقتراضات وتفسيرات لاهوتية رائدها التصف . ولقد تخلى مفكرو الأديان منذ أمد بعيد عن مثل هذه الأفكار ، لوجهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذي نعيش فيه كان — فيما توحى به جميع الظواهر — موجوداً طوال حقبة هائلة من الزمان ، ربما لم تكن لها بداية . ومن البديهي أن تلك الظواهر ربما انطوت على شيء من الخداع والتضليل ، على غرار الهيئة اللانهائية التي تتراءى لنا عن حجرة وضعت بها مرأيا متعاقبة في كل من طرفيها . أما القول بأن العالم الذي فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام ، فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطلة تماماً .

والأرض ، كما يعرف كل إنسان اليوم ، ذات شكل شبه كروي ، أي أنها مسكرة مضغوطة قليلا على غط البرقاقة ، ذات قطر طوله ثمانية آلاف من الأميال تقريبا . وكان شكلها الكروي معروفا لدى عدد يسير على الأقل من نبياء الناس ، منذ قرابة ٢٥٠٠ سنة ، ولكن الناس كانوا قبل ذلك الزمن يظنون أنها منبسطة ، كما كانوا يذهبون في شأن علاقاتها بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى تبدو اليوم غريبة . ونحن اليوم نعرف أنها تتوز حول محورها (الذي هو أقصر من قطرها الاستوائي بأربعة وعشرين ميلا تقريبا) مرة في كل أربعة وعشرين ساعة ، وأن ذلك هو السبب في تماكب الليل والنهار ، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة

في كل عام في مدار يضاوي منحرف قليلا ومتغير تغيراً بسيطاً . ويتراوح بعدها عن الشمس ، بين واحد وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال في أقرب أوضاعها ، وبين أربعة وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال .

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجماً ، هي القمر ، على مسافة متوسطها ٢٣٩٠٠٠ ميل . وليست الأرض والقمر الكتلتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس . فهناك كذلك من الكواكب السيارة ، عطارد والزهرة ، على بعد ٦٧،٣٦٠ من ملايين الأميال ؛ وفي وراء مدار الأرض وبض النظر عن منطقة من أجرام كثيرة أصغر حجماً ، هي السيارات الصغرى (الكويكبات) Planetoids ، يوجد للريخ وللشترى وزحل وأورانوس ونبتون على أبعاد متوسطها ٢٤١،٤٨٣،٠٨٨،١٧٨٢،٢٧٩٣ مليون ميل على التتابع . ولا شك أن من المسير على الأقدام ستؤخر هذه الأرقام للقدرة بملايين الأميال . وزعماء الأمر على خيال القارئ تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكون أدنى إلى التصور .

فإذا نحن على هذا الاعتبار صغرنا الأرض إلى كرة قطرها بوصة واحدة ، وجب أن تكون الشمس كرة كبيرة ذراع قطرها تسعة أقدام وعلى مسافة ٢٣٣ ياردة ، أي ما يقارب خمس ميل تستغرق أربعاً أو خمساً من الدقائق مشياً على الأقدام ، وعند ذلك يكون القمر في حجم حبة صغيرة على بعد اثنين ونصف من الأرض . ثم يأتي بين الأرض والشمس الكويكبات الداخلان ، عطارد والزهرة ، على مدى ١٢٥ ياردة . ٢٣٣ ياردة من الشمس . ثم ينض من حول هذه الأجرام فراغ يمتد حتى تبلغ للريخ وهو وراء الشمس ٤٩٠ ياردة ، وللشترى وهو على ما يداني الليل ، وقطره قدم واحدة ، ثم يهي زحل وهو أصغر قليلاً وعلى مسافة ميلين ، فأورانوس على أربعة أميال ، ثم نبتون على ستة أميال . ثم تأتي اللاشعيرة والعدم لولا بعض جزئيات صغيرة وقطع متتمة من البخار الخفيف يمتد إلى آلاف من الأميال ، ويكون أقرب نجم من الأرض على هذا المقاييس نفسه على بعد ٥٠٠ ميل .

وزعمنا أمانتنا تلك الأرقام على تكوين صورة عن الجواء النذير الذي يحيط بالنضاء الذي فيه تتوالى مسير حياة الحياة .

ذلك أننا في كل هذا الجواء النذير الذي يحيط بالنضاء لا نعلم يقيناً بوجود الحياة

إلا على سطح أرضنا ، تلك الحياة التي لا تنوص في باطنها لأكثر من ثلاثة أميال من الأربعة الآلاف التي تفصلنا عن مركز كوكبنا الأرضية ، كما أنها لا تنال إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها . وكل ما بقي بعد ذلك من فضاء لا حده ولا نهاية يشكون — حسباً يبدو — من خواء وعدم .

وأعمق ما بلغته النوص في أعماق المحيطات هو خمسة أميال . كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع في أطباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلاً حقاً إن الإنسان قد صعد في الجو إلى سبعة أميال بالتناطيد ، إلا أنه كابد في سبيل ذلك آلاماً مخرقة . ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال ، إذ أن صفار الطيور والحشرات التي حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع .

الفصل الثاني

العالم والزمان

ذهب العلماء في السنوات الخمسين الأخيرة مذاهب حتى ومتمعة في تقدير عمر الأرض وأصلها . ولست أدعى ههنا أننا استدلى بموجز تلك الآراء ، وذلك لانتطوائها على أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية . والحق إن العلوم الطبيعية والفلكية لا تزال حتى الآن بعيدة عن الاكتمال بدءاً بحصل كل ما يندل في مظاهرها مجرد افتراضات تخمينية . والانحياز العام للعلماء ينجح كل يوم إلى زيادة العمر التقدير للأرض . وأرجع تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاته ككوكب دوار يواصل الدوران حول الشمس لأكثر من بلونين (٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من السنين . وربما كانت اللة أطول من ذلك كثيراً ، ولكنها مدة يسجز الخيال تملأ عن تصورها .

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة السحيقة من وجودها للنصل دوامة هائلة من اللادة المنتشرة في الفضاء . ويكشف لنا للرعب (التلسكوب) في أجزاء مختلفة من السماوات عن غمامات لولية منيرة من المادة ، هي السدم الحلزونية التي تبدو في دوران مستمر حول مركز . ويظن كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوماً أحد تلك السدم الحلزونية ، وأن مادتها قد تحولت بالتركز إلى شكلها الحالي ، وتواصل ذلك التحول التركيزي دهوراً هائلة حتى أصبحت الأرض وقمرها يميزن في تلك الحقبة البعيدة من الماضي السحيق ، الذي ترجمناه بالأرقام . وكانا يدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتهما الحالية ، إذ كان بعدهما عن الشمس أقل ؛ فذلك كانا يسبحان حولها بسرعة أشد ، ولعلهما كانا عند ذلك متوجحين أو منصرفي السطح ، وكانت الشمس نفسها شاملة في السماء أكبر كثيراً مما هي عليه الآن .

ولو أننا استطعنا أن نحرق آحاد ذلك الزمان البرمدي ، نرى الأرض في تلك المرحلة المبكرة من تاريخها لشهدنا منظرأ أشبه بإطن أخون الصهر ، أو سطح

دافق من اللافا^(١) المنصهرة قبل أن يبرد وتصلب ، - منه بأي مشهد آخر معاصر ، ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال ، إذ أن الماء الموجود قد استحال إلى بخار مستمر في جو باصف من الأبخرة الصخرية والمدنية ، ولبننا نجد من دون هذه الأبخرة محرراً متلاطم من المواد الحجرية المنصهرة ، وإن وهج الشمس والقمر ليعر مارقاً كسهم من لافح الذهب عبر جو من سحب نارية .

وبتأقب السنين مليوناً في إثر مليون يأخذ ذلك المشهد الناري البركاني في فقدان لظاه المتأجج يطفئ تدريجى وتنساب أبخرة السباء إلى الأرض مطراً أفتل تركزها في الجوى . وتظهر على سطح ذلك البحر المنصهر كتل عظيمة من زبد الصخور الآخذة في التصلب ، ثم تهبط دون السطح ليحل محلها كتل أخرى طافية . وتتدفع الشمس والقمر عبر السموات في سرعة متضائلة وقد أخذتا زلزالان بدءاً ويصيران حياً ، وعند ذلك تكون حرارة القمر - نظراً لصغر حجمه - قد برقت بالفعل إلى ما دون التوهج ، ثم يأخذ على التوالى يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويكسه إليها في سلسلة متعاقبة من الكسوف والبدور الكاملة .-

وعلى هذا النحو من البطء التدريج في خلال الزمن السرمدي أخذت الأرض تزداد قرباً من حالها التي نعيش عليها اليوم ، حتى جاء في النهاية عصر بدأ فيه البخار يتكثف سحياً في الهواء البارد نوعاً ، ثم تساقط أول المطر محدثاً نشيئاً^(٢) على ما نحنه من الصخور الأولى . وتتدفق آلاف لا حصر لها من السخوات يظل أثناءها الجزء الأكبر من مياه الأرض بخاراً ، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من التيارات الساخنة التي تنساب على الصخور الآخذة في التبلور من تحتها ، كما توجد البرك والبحيرات التي تحمل تلك التيارات إليها حاة الأرض وتلقى فيها بالرواسب .

ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلة يستطيع فيها « إنسان » أن يقف على قدميه فوق الأرض وأن يتأمل ماحوله ويبحث على ظهرها ، ولو أنه قدر لنا أن نזור الأرض في تلك الزمان لاسطروريا أن يقف على كتل ضخمة من الصخر الشبيه « باللافا » دون أن نشعر على أي أثر للثربة أو أية حياة للنبات ، في جو مكثف بالزواجب .

(١) اللافا (Lava) هي اللادة الذائبة التي تنفثها البراكين من فوهاتنا .
(٢) النشيش . صوت التليان . وذلك لأن المطر عندما يقف بالصخور الساخنة يفسخ على الفور

وربما تعرضنا آنذاك لحصف رياح حارة عنيفة تفوق أعنف ما نعرف من العواصف
الموجاء ، ولنبدأنا من المطر أهمارات لا تنأى اليوم لأرضنا إلا أكثر وداعة والأخذ
بطناً ، ولوجدنا ماء ذلك المطر النهر يتدافع حولنا عكراً بمحطام الصخور ويلتقي
بعضه بعض في سيول جارفة تحت الجوانق التائرة والوديان وهى متدفقة إلى البحار
الأولى لتودعها رواسبها .

ولابد أننا كنا نلح من خلال السحب شمساً هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر السماء ، كما
كنا نشهد في أعقابها حين تمر في أعقاب القمر حركة مدبومة قوامها الزلازل والارتفاعات
والانقياسات في القشرة الأرضية . ولابد أن القمر الذي يطل الآن على الأرض بوجه واحد
لا يتغير ، كان حينئذ يدور منيراً مرئياً ككشف الوجه الذى يدوم الآن ستره .

فلما شاخت الأرض ، وطال اليوم ، وغدت الشمس أبعد مسافة وأهدأ حدة ، وبطؤت
سرعة القمر في السماء ، خفت وطأة الأمطار والعواصف ، وتزايد الماء في البحار الأولى
وجرى جملة إلى المحيط الذى أصبح منذ ذلك الحين دائراً لسكوننا .

ومع ذلك فلم تكن ثمة حياة على الأرض ، فكانت البحار خلوا من الأحياء ،
والصخور جرداء قاحلة .

الفصل الثالث

بدايات الحياة

المصدر الذي نستقي منه إلى حد كبير معلوماتنا عن الحياة قبل ابتداء المحافظة على التذكيرات والتقاليد الإنسانية الأولى هو الآثار والحفريات التي خلفتها الكائنات الحية في الصخور الطباقية . ذلك بأن الطفل والإردواز والحجر الجيري والزمل على كلها تحتفظ لنا بالعظام والأصداف والألياف والجذوع والفواكه وآثار الأقدام والخدوش وما إليها ومعها آثار للد والجزر منذ أقدم العصور ، والخدوش التي أحدثتها أقدام الأمطار ، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحياة الأرض فلاة بعد فلاة بطريق الفحص اللطيف عن هذا السجل الحجري . وذلك أمر يعد اليوم . من الملومات المادية . ولكن الصخور الطباقية (الرسوبية) لا ترصد طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أتيق ؛ بل إنها تنضفت وانثرت وتبعثرت وتفرقت ثم اختلطت على نحو ما يصيب صفح مكتبة منيت مراراً وتكراراً بالنهب والحريق ، ولذا فلم يتسن تنظيم هذا السجل وقراءته إلا بعد أن استنفدت في سبيل ذلك أعمار كثيرة تهاوى أصحابها في الإخلاص لذلك العمل . وقد ولدى الزمان الكامل الذي يمثله سجل الصخور بليون وسبعمائة مليون سنة — ١٩٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سنة .

والجيولوجيون (علماء طبقات الأرض) يسمون أقدم صخور ذلك السجل الصخرى باسم الصخور « الأزوية Azoiic » أي التي لا يبدو فيها أي أثر للحياة . وتوجد مساحات مترامية من هذه الصخور الأزوية عارية جرداء في شمال أمريكا ، وهي بدرجة من السمك جعلت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصف عمر السجل الجيولوجي بأكمله . وإن لمكرر على مسامعكم هذه الحقيقة الخطيرة : وهي أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التي انقضت منذ أن تهاوى اليابس ولما لا أول مرة على ظهر الأرض ، لم يغلف لنا أي أثر للحياة ، حقاً لا تزال توجد على تلك الصخور آثار موجات الماء وشدشات الأمطار ، ولكن ليس بها دلالات ولا آثار لأي كائن حي .

فإذا بعدنا درجات السجل بعد ذلك ، نبت علامات الحياة اللازمة . وأخذ عندها

يريد . ويسمى الجيولوجيون هذا العصر من حياة العالم الذى نجد فيه هذه الآثار النادرة باسم الزمن الباليوزوى Palaeozoic السلى

وأول الدلالات على وجود الحياة ، الآثار والرفات الباقية لكائنات بسيطة وديعة نسبياً ؛ مثل أسداف أحماك بحارية صغيرة وجذوع حيوانات نباتية^(١) ، ورؤس لها تشبه الأزهار وأعشاب بحرية ، وآثار لحركات ديدان البحر والقشريات وبقايا لها . وتظهر منذ زمن مبكر جداً مخلوقات معينة تكاد تشبه قمل النبات ، وهى كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها ، كما يفعل قمل النبات ، وتسمى التريلوبيت أى الثلاثة القصوص^(٢) . وبعد ذلك بيضة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية ، وهى كائنات ألين حركة من كل ما شهده العالم من قبل من كائن حتى وأكثر كفاية وقدرة .

ولم نعد أية واحدة من هذه المخلوقات ضخمة الحجم . وأكبرها صنف من العقارب البحرية كان طوله تسعة أقدام . وليس هناك أى دليل شهد على وجود أى نوع من الحياة فى البر نباتية كانت أو حيوانية ، ولا يحتوى هذا الجزء من السجل على أحماك ولا كائنات بحارية . وجميع النباتات والكائنات التى تخلقت لنا بقاياها عن تلك الالة من تاريخ الأرض ، ليست بالضرورة إلا كائنات مياه ضحلة أو مياه للناطق التى يتماور هاللد والجزر . وإذا شئنا أن نجد فى العالم اليوم شبيها لنبات وحيوان الصخور للتكون . فى الزمن الجيولوجى (الباليوزوى) السلى العتيق ، لوجدناه على أحسن صورة من كل النواحي إلا فى الحجم فى قطرة من الماء تأخذها عن بركة صخرية أو حفرة مزبدة آسنة ، ثم تنقصها تحت الميكروسكوب (المهر) . فلما نجد هناك من القشريات والسمك الحارى الضئيل والحيوانات النباتية والطحالب يكون ذا شبه أخذ بتلك الأصناف الأولى النتيجة الأكبر حجماً التى كانت فى يوم من الأيام أمسى ما يلتته الحياة على « كوكبنا » الأرض .

ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أنه يحتمل أن صخور الزمن الباليوزوى السلى قد لا تزودنا بشئ مما يمثل أول بدايات الحياة على كوكبنا . فإذا لم يكن للمخلوق عظام

(١) مثل ذلك الإسفنج والرجان وأشبها على للريجات Zoophytes

(٢) الثلاثة القصوص Trilobite . هى خفيات من العصر الباليوزوى السلى العتيق لحيوانات ذات قصوص ثلاث وبدون عظام وهى من فصيلة العناكب Arachnida .

أجزاء أخرى صلبة ، وإذا لم يكن مكتسباً بشجرة صدفية أو ذا حجم كبير واه ونفذ
 فليطبع على الطين آثاراً بارزة للأقدام والدروب والطرقة ، فمن غير المحتمل تخلف
 مار حفرة بعده تدل على وجوده . ويوجد في العالم اليوم مئات الآلاف من أنواع من
 مخلوقات الصغيرة الهشة الأجسام التي لا يتصور عقل إنسان تركها أي أثر بطوع لبيولوجي
 عند البثور عليه . ولعل لماضي السحيق لهذا العالم كان يجمع بملايين الملايين من أنواع
 تلك المخلوقات التي عاشت وتكاثرت وازدهرت ثم بدت من غير أن تترك أدنى أثر لها .
 ربما كانت مياه البحار والبحيرات الدنيئة الضحلة في ذلك الزمن ، للسمي بالآزوي
 Azoi ، زاخرة بعينات لا آخر لها من أنواع الكائنات الدنيئة ، شبه الهلامية والمجردة
 من الأصداف والمظام ، وعينات أخرى لا حصر لها من النباتات الرخوة منتشرة فوق
 الصخور والعواطف المعرضة للحد والجزر والتمزقة بجفاء الشمس . ولم يصل السجل
 لصخرى للحياة النابتة بعد إلى درجة الكمال ، مثله في ذلك مثل دلائل أحد للمارف
 من حيث عدم وفاتها بمحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للمصرف ، ولا يتيسر لأي نوع من
 الأنواع أن ينطبع على السجل حتى يأخذ في تكوين عمارة أو شوكية أو درقة أو جذع
 متكلس^(١) ، يحفظه على هذه الصورة للمستقبل . على أنه يحدث أحيانا أن يوجد
 الجرافيت في صخور سابقة في عصرها على تلك التي تحمل آثار الحفريات ، والجرافيت
 الذي يسمى عادة باسم الرصاص الأسود — صورة من الكربون غير المركب ، ويرى
 بعض الثقات أنه ربما فصله عن مركباته النشاط الجيوى لكائنات حية مجهولة .

الفصل الرابع

عصر الأسماك

كان الظنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف من الأعوام ، أن النباتات والحيوانات بأنواعها المختلفة إنما هي أشياء ثابتة ونهاية ؛ وأنها خلقت جميعاً كما هي عليه الآن تماماً ، وخلق كل قائماً بذاته . ولكن حدث عندما شرع الناس يتقنون في سجل الصخور ويدرسونه أن تزعم هذا الاعتقاد بسبب الاحتباب في أن كثيراً من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور ، ثم تمت هذه الفكرة بدورها حتى أصبحت اعتقاداً بما يسمى النشوء والارتقاء ، وهو الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة سواء منها الحيوانى والنباتى ، يخضع لعمليات تغير بطيء دائم ، من صورة سلفية غاية في البساطة للحياة : مادة حية لا شكل لها تقريباً ، كانت موجودة أثناء الصور السحيقة فيما يسمى بالبحار الأزوية .

وقد بدأ كانت مسألة النشوء والارتقاء العضوى هذه ، مثار مجادلات ألهمه كثيرة بين الناس على غرار المسألة المتعلقة بسر الأرض ، حتى لقد آتى على الناس - بين من الدهر كانوا يظنون فيه أن الاعتقاد في النشوء والارتقاء العضوى Organic Evolution لا يستقيم - لمة لانعقادها - وتعاليم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة . وقد انقضى ذلك الزمان ، وأصبح أحد الناس تمسكاً بالقائد الكاثوليكية الصحيحة والبروتستانتية واليهودية والإسلامية ، لا يخرجون من قبول هذا الرأى الأحدث والاشتمل القائل بأن لجميع الكائنات الحية أصلاً مشتركاً . إذ لا يلوح أن الحياة نشأت فجأة على ظهر التبراء . بل إن الحياة قد نمت ولا تزال تنمو . انقضت عصور بعد عصور ومرت دهور من الزمان بكل الخيال دون تصور لها ، والحياة تتطور من مجرد هزة في السلسلة المنخفض بمياه الد والجزر إلى مجبوحة الحرية والقوة والإدراك .

تتكون الحياة من أفراد . وهؤلاء الأفراد أشياء محددة ، فليسوا مثل القطع والكتل ، ولا هم يعاقلون البورات غير المحدودة وغير المتحركة المكونة من المادة

ير الحية ، ثم إن لهم خاصيتين مميزتين لا تشاركهم فيهما أية مادة في عالم الجياد ، ذلك
 هم يستطيعون أن يمثلوا في أنفسهم مادة أخرى ويحولونها إلى جزء منهم ، كما أنهم
 يستطيعون أن يتجسوا لأنفسهم خلفاً : فهم يأكلون وهم يقتاتون ، وهم يستطيعون أن
 يشعروا أفراداً آخر يشبهونهم إلى حد كبير ، وإن اختلفوا عنهم مع ذلك نوعاً ما . وإن
 تلك المشابهة نوعية وعاطفية بين الفرد ونسبه ، كما أن هناك فارقة فردية بين كل والد وكل
 يولد له ، وهذا صحيح في كل نوع من الأنواع وفي كل مرحلة من مراحل الحياة .

ورجال العلم لا يستطيعون حتى الآن أن يبينوا لنا ما الذي يوجب على النسل أن
 يشابه والديه وما الذي يوجب عليه أن يختلف عنهما . ولكن نظر الآين الذرية مجتمع
 بالمشابهة والاختلاف في وقت واحد ، فإن من المقول وإن لم يثبت علمياً أنه إذا
 تيرت الظروف التي يعيش فيها النوع ، وجب أن يطرأ على النوع بعض تغيرات مناسبة .
 يرد ذلك أن أي جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد ذوي العلم
 وارقمهم الذرية قدرة أكبر على التكيف بالظروف الجديدة التي لابد للنوع أن يعيش
 بها ، (وعدد آخر) فوارقه الذرية تجعل من العير عليه نوعاً ما أن يعيش . والقسم
 أول يكون أطول في الجملة عمراً وأكثر تسامحاً . القسم الثاني ؛ وهكذا يتطور مستوى
 نوع جيلاً بعد آخر في الاتجاه لللاثم ؛ وهذه العملية التي يطلق عليها الانتخاب
 الطبيعي ، ليست نظرية علمية بقدر ما هي نتيجة حتمية لحقائق التوالد والوفارق
 لفرقة ، لقد تكون هناك عوامل كثيرة تعمل عملها في تبديل النوع أو إبادة أو صيائه ،
 ون أن يتنبه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيها برأى ، ومع ذلك فالرجل الذي يتأني له
 ن ينسكب سرعان عملية الاختيار الطبيعي هذه في الحياة منذ بدايتها ، لابد أن يكون إما
 ماعلاً بالحقائق الأولية للحياة وإنما غير أهل للتفكير العادي .

ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظر حول البداية الأولى للحياة ، وغالباً
 ما تكون نظراتهم تلك عظيمة النفع ، ولكن أحداً منهم لم يصل إلى أية معلومات ثابتة
 بدة ولا فرض على ركن إليه من الصورة التي بدأت بها الحياة . على أن جميع العلماء
 كادون مجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بإلقاء الفتنة الضخمة القليلة
 لوحدة والمرتبة لنور الشمس ، وإنما امتدت على السواحل حتى بلغت شدة كافية لتعاقب لها
 الجزر ثم إلى خارج ذلك من المياه للكشفة .

كان ذلك العالم التابر عالم مدوجزر وتيارات قوية . ولا بد أن إبادة الأفراد لم تكن تقف عند حد قذف التيارات لها إلى الشواطئ ثم جفافها هناك ، أو عن طريق دفعها إلى عرض البحر وغرقها فيه في غور لا تصله الشمس ولا الهواء . وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطور يتجه إلى تثبيت الجنود والبقاء ، وتشجع أى اتجاه لتكوين قشرة خارجية وغلاف يقي الفرد للتخلف على الشاطئ شر الجفاف المفاجئ . ومنذ البداية الجيدة كان أى اتجاه شعورى للفرد يجر الفرد إلى ناحية الطعام ، وأى اتجاه شعورى إلى الضوء يهديه إلى التخلص من الظلة في أعماق البحر ومجاهاه أو إلى التلوى فراراً من الوهج الشديد في الأمثال (١) الخطرة .

ولعل أول المهارات والدروع الواقية لأجسام الكائنات الحية كانت وقايات لها من الجفاف لامن أعضائها . ولكن لوحظ أن الأسنان والأظفار تظهران في حبة مبكرة من تاريخ الأرض .

وقد سبق أن ذكرنا حجم القرب للمائة الأولى . واتخذت عصور طويلة ومثل هذه التحولات هي صاحبة السيطرة في الحياة . ثم يظهر بعد ذلك في قسم من الصخور الباليوزوية يسمى بالقسم السيلوري Silurian ، (الذى يعتقد كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٤٠٠ مليون سنة) طراز جديد من الكائنات مزود بالآئين والأسنان واتحدرة على السباحة بشكل قوى لم يسبق له مثيل . ذلك الطراز الجديد أول ما نعرف من الحيوانات ذوات العمود الفقري ، وهو أقدم « الأسماك » : أول الفقاريات البروفة .

الفصل الخامس

عصر مستنقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحياة تماماً كما هو واضح . فإن سوانح الصخور والأراضي الجبلية المرتفعة الجرداء كانت تسبح في أحمة الشمس ومياه نظر ، أما التربة بمثلها الصحيح فلم تكن موجودة — إذ لم توجد حتى آنذاك أية بلدان أرضية تساعد على تثبيت جزئيات الصخور ونحوها إلى تربة ؛ كما أنه ليس هناك ثر مطلقاً لطحلب أو عشب بحري . وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده .

وتناولت هذا العالم الصخري الأجود عوامل تغيرات عظيمة في المناخ . وأسباب هذه التغيرات للمناخية في غاية التعقيد ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى من يقدرها التقدير الصحيح . ولعل من أسباب ذلك تغير شكل مدار الأرض ، والتوزن التدريجي في ميل محور الدوران ، وتغير أشكال القارات بل ربما أيضاً ما ألم بحرارة الشمس من تقلبات ، كل هذه الأسباب مجتمعة قد تصافرت تارة على غمر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد إبان أحقاب طويلة من الزمن وتارة أخرى على نشر مناخ دافئ أو معتدل امد ملايين من السنين على سطح هذا الكوكب . ويلوح أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطني العظيم ، فترادت إبان ضبع ملايين من السنين عمليات رفع منخفضة عن سلاسل متلاحقة من الثوران البركاني والارتفاعات ، فأعيد بذلك تشكيل الجبال ومعالم القارات على ظهر الكرة الأرضية وبذلك زادت البحار عمقا والجبال ارتفاعا ، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود . ثم يقب تلك الفترات عصور مرتامية من الهدوء والتوازن النسبي ، تصافر فيها السحب والطر والأنهار على قمم ارتفاعات الجبال ، وحمل مقادير ضخمة من الترن لتملأ أغوار البحار وترفع قاعها فتتسع بذلك رقبتها مع زيادة ضحلة البحر واقتشاره فوق قدر متزايد من اليابسة . وكل من عصر في تاريخ العالم اجتمع فيه الارتفاع والعمق أو تجاوز فيه الارتفاع والاستواء . ويجب أن يمد القارئ عن ذهنه كل فكرة توحى بأن سطح الأرض ظل يبرد باستمرار منذ أن وجدت قشرتها فيبعد أن بلغت وقتئذ ذلك القدر الكبير من البرودة ، كانت الحرارة الباطنية عن أن تؤثر في أحوال السطح . وشاهد ذلك أن هناك آثاراً لفترات تكثر أثناءها الثلج

والجلد بوفرة عظمى ، وهى « الصور الجلدية » التى حدثت حتى فى الصر الأزوى نفسه (مع شدة قدمه) . ولم تمكن الحياة من الانتشار من اللاء إلى اليابسة بطريقة فعالة حقاً إلا عند قرب نهاية عصر الأجماك وفى فترة كثر فيها البحار والمستنقعات الفسيحة الضحلة . ولا شك أن الأنماط الأولى من الأشكال التى بدأت عندئذ فى الظهور بوفرة كبيرة ظلت تتطور قبل ذلك تطوراً خفياً إلى أن عثرت من ملايين السنوات ولكن هادئة وافت الآن فرصتها .

ولا شك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية فى غزو هذا قيايسة ، ولكن الراجح أن الحيوانات تعقبت بخطى النبات فى هجرته . يواصل مشكلة وجوب عمل النبات حلها هى مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم خوصاته (1) Fronds التى يدفع بها نحو ضياء الشمس عندما تنفصب المياه التى يطفو عليها ؛ والمشكلة الثانية هى صعوبة الحصول على اللاء - الذى لم يعد آنذاك قريباً فى متناول اليد - من الأرض المواجهة فى أسفل إلى أنسجة النبات . وقد جعلت المشكلتان بنشوء الألياف الخشبية التى صلب بها سويك النبات وأوصلت اللحاء إلى أفراده . وعلى حين بقية يكتظ بهجن ، الصخور بأضرب حجة ومن النباتات الخشبية المستقيمة ، كان الكثير منها خضيم الطبع ، كالطحالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأمسوخ (2) المائلة وما أشبهها وضارت بزحف هذه النباتات من اللاء عصر آخر عصر أضرب كثيرة من الأشكال الحيوانية ، مثل أم أربعة وأربعين والدود ذو الألف رجل ، وأوائل الحشرات البدائية ، ثم مخلوقات قردة الشبه بالنوع البعيق التى تسمى ملك السكوريا (3) King-Craz والعقارب البحرية التى تحولت إلى أقدم الحناك والعقارب الأرضية . وسرعان ما وجدت حيوانات تفارية .

وكان بعض الحشرات الأولى كبيراً جداً . فهناك دبابات (4) (Dragon Flies) ربما بلغ امتداد جناحيها تسعاً وعشرين بوصة .

(١) الموصات Fronds وتسمى أيضاً القروش . نباتات بصلية تم يتأخر فيها الساق من الورق لى سيقان ودية أو متورقة .

(٢) الأمسوخ هو ما يسمى بذيل الفرس .

(٣) هو عنكبوت بحرى عجيب له خرع على شكل حدوة أحمال وهو آخر من تيز من نصيته .

(٤) وتسمى بالنمرمان أيضاً وهى حشرة زاحية الأذان ذات زشاع شفاه المتحنين .

وقد استطاعت هذه الرتبة (orders) والأجناس (genera) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفة لتنفس الهواء . وكانت الحيوانات حتى ذلك الحين تنفس الهواء الذائب في الماء ، والحق أن ذلك نفسه هو ما لا تزال الحيوانات جميعا مضطرة أن تفعله . ولكن مملكة الحيوانات كانت قد شرعت عند ذلك أن تتكسب ، بطرائق متنوعة ، القدرة على تزويد نفسها بما يجوزها من رطوبة حينما دعت الحاجة ، فإن رجلا له رئة جافة تماما لا منحة له اليوم من الاختناق ؛ إذ لابد لسطوح رفته من أن تكون رطبة لكي ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه . والتكيف لتنفس الهواء قوامه في جميع الحالات أحد أمرين : فإما أن يشكون للحياتيم القديمة الطراز غطاء يوقف عملية البخر ، وإما أن تنشأ أنابيب أو مسالك أخرى جديدة لتنفس . تندس في صميم الجسم وترطبها إفرازات مائية . ذلك أن الحياتيم القديمة التي كان السمك الذي يمد سلفا للسلافة الفقارية يتنفس بها كانت غير صالحة للتنفس على البر . وقد حدث في هذا القسم من مملكة الحيوان ، أن ثمانية العوم هي التي أصبحت عضواً جديداً متأسلا لتنفس هو الرئة . والحيوانات اللعروفة باسم البرمائيات ، وهي الضفادع وبسمندل الماء الحالية ، تبدأ حياتها في الماء ، وتنفس بالحياتيم ؛ ثم يحدث بعد ذلك أن الرئة تتولى عملية التنفس إذ تتطور على نفس النمط الذي يحمل بثانات العوم عند كثير من الأسماك ، كنمو في الزور شبه الكيس ، فيمرز الحيوان إلى الأرض ، وتضطلع الحياتيم وتختفي حقوق الحياتيم (تختفي جميعا إلا توداً في شق واحد من حقوق الحياتيم ، يصبح فتحة الأذن وظيفتها) وعندئذ لا يستطيع الحيوان البرمائي أن يعيش إلا في الهواء ، ولكن لابد له أن يعود إلى حافة الماء على الأقل ، لكي يبيض بيضه ويحتج نوعه .

وكانت جميع الفقاريات للتنفس للهواء في هذا العصر عصر للسفقات والنباتات تنسب إلى فصيلة البرمائيات . وكلها تقريباً أشكال ذات قرني بسمندل العصر الراهن ، كما كان بعضها يصل إلى حجم ضخم ، حقا إنها كانت حيوانات برية ، غير أنها حيوانات برية تحتاج إلى أن تعيش في الأماكن الرطبة والسفقات وبالقرب منها ، وكانت جميع الأشجار الكبرى في ذلك العصر برمائية أخرى مثل حيوانه علما ، ولم يكن شيء منها قد أتج حتى ذلك الحين عمراً ولا جاً يمكن أن يقع على الأرض ويثبت بدون مساعدة أية رطوبة إلا ما قد يحمله الندى والظلمة . إذ لم يكن (٣ — طريق العلم)

أمانها فيما يلوح من أن تسقط أ孢ها Spores^(١) في الماء إن قدر لها أن توالد .

ومن أمتع وأحي ذلك العلم الجليل «التشريح للقارن» اهتمامه بتتبع التكييفات للعبية الدهشة التي حدثت للكائنات الحية وفق ما يستلزمه البقاء في الهواء . جميع الكائنات الحية سواء منها الحيوانية أو النباتية ، إنما هي قبل كل شيء كائنات مائية . مثال ذلك أن جميع ما يبار الأسماء من الحيوانات الفقارية العليا في تصاعدها حتى تشمل الإنسان نفسه ، تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو في الرحم قبل الميلاد ، في مرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تنمى قبل خروج الجنين .

والذين الذين هم في السمكة عارية متصلة بالماء ، ينمى من الجفاف في الأشكال الحيوانية الطليخون وغدد تفرز الرطوبة . وتوالت الصوت الخافتة في الهواء تخلق الحاجة إلى طلة للأذن . وإنك لتلاحظ في كل عضو من أعضاء الجسم تقريبا تعديلات وتكييفات غامضة لهذه ، فضلا عن توفيقات أخرى مماثلة لمواجهة الهواء وعزوفه .

وكان عصر الطبقات الفحمية (Carboniferous) هذا ، أى عصر البرمائيات ، عصر حياة في المستنقعات والبرك ، وعلى الشواطئ المنخفضة في تلك المياه . وكان هذا هو أقصى انتشار لظننه الحياة . فأما التلال والمرتفعات فكانت لا تزال مقفرة تماما من كل حياة . . . لقد تلمت الحياة أن تنفخ الهواء ، ولكن كانت لا تزال متأصلة في الماء موطنها الأول ، وكان عليها أن ترجع إلى الماء لتتوالد وتنتج سلالة نوعها .

(١) البوغ : Spore جم أو (بذرة) مفرد الحية منتج غير نشاط جنسى .

الفصل السادس

عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لصغر تكوين الطبقات الفحمية ، وجاءت في أعقابها دورة مترامية من عصور جفاف وعسرة ومثلها في سجل الصخور رواسب صلبة من الحجر الرملي وأصراخه ، الحفريات فيها قليلة نسبياً . ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تنقلب تقلباً شديداً فتمتد أزمان طويلة من الزمهرير القارس ، وترب جليها . هلاك تلك الوفرة الشديدة من نباتات السفقات فوق مساحات واسعة من الأرض ، حتى إذا غطتها الرواسب الأحدث عهداً ، بدأت فيها عملية الضغط والتحنن (١) التي صنعت العالم معظم رواسب الفحم في هذا العصر .

ولكن الحياة إنما تعرض لأسرع التبدلات أثناء فترات البخر ، كما أنها إنما تلتقي آمن ما تعلم من دروس إبان المن والإشدائد . حتى إذا ارتدت الأحوال نحو الدفء والرطوبة وجدنا سلسلة جديدة من الأشكال الحيوانية والنباتية قائمة متألجة . وكوجدنا في السجل بقايا حيوانات قملرية تبيض يضاً ، لا يفتح عن أي ذنبيات تحتاج إلى البصر فترة ما في الماء ، بل هو شيء ارتقى في سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب صورة الفرد التام الناشج من أبناء جنسه قريباً يستطيع الصنير معه أن يعيش في الهواء منذ اللحظة الأولى التي يفصل فيها ويستقل بوجده . لقد ذهبت الحياض تماماً ، ولم تظهر شقوق الخيشوم إلا كمرحلة من مراحل الجنين .

هذه المتغيرات الجديدة المبردة من مرحلة الذنبيات هي الزواحف . وصحب تطورها تطور للأعشاب الجسامة للبحور ، والتي كانت تستطيع أن تنثر بذورها دون حاجة إلى السنتع أو البجرة . فكانت هناك آنذاك حزازيات غريبة بالخيال وكثير من أشجار الخروطيات الاستوائية ، وإن لم يوجد حتى ذلك الحين نباتات ذات أزهار ولا عتب .

(١) التحنن أو المدنة أو التفتز : اكتساب الأشياء غير المعدنية خصائص للمعادن .

كان هناك عدد عظيم من السراخس . وزايد كذلك ضروب الحشرات وأنواعها . فكانت هناك الخنافس ، وإن لم يكن النحل قد ظهر بعد ولا الفراشات . ولكن لا شك أن الدعامة الأساسية لجميع الأشكال الجوفرية لحيوانات ونباتات جديدة أرضية ، قد وضعت حقاً أثناء هذه الصور للترامية من الصر والشفة . ولم يصكن يعوز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شيء واحد هو الظروف للوامة لازدهارها وانتشارها .

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجو تخف عصرًا بعد عصر ومع كثير من التقلبات ! وتكاثرت حركات القشرة الأرضية التي لم ترجع بتعاقب بغير حصر ، وتغيرات مدار الأرض وتقلب زاوية الميل للتبادليين للدوار والمحور زيادةً وقصاهاً ، وراحت تعمل جميعها على إبعاد فترة عظيمة من الهدف الواسع النطاق . وروى العلماء اليوم أن تلك الفترة دامت في مجملها ما يربى على مئتي مليون من الأعوام . وهي تسمى باسم الزمن البروزوي ، تمرقًا لها عن الزمنين الأزوي والبالوزوي الساجين لها والتفريقين عليها عسما في الضخامة (ومجموعهما ألف وأربعمئة مليون سنة) وتميز ألها أيضاً عن الزمن الكاينوزوي (أي فترة الحياة الجديدة) الذي جاء بين نهايتها وخصرنا الراهن ، كما أنها تسمى أيضاً باسم عصر الزواحف بسبب تسلط هذا الشكل من أشكال الحياة فيها وكثرة أضربه إلى حد يمت على الدهشة وقد أشبه ذلك العصر منذ حوالي ثمانين مليوناً من السنين .

وأجناس الزواحف قليلة نسبياً في العالم اليوم ، كما أن توزيعها فيه محدود جداً . نعم إنها أكثر تنوعاً من القلة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التي كانت صاحبة السلطان في العالم في عصر الرواسب البجمية . إذ لا يزال لدينا الثعابين والرتسة البحرية والسلاحف البرية (Chelonia) والتمساح الأمريكي (Alligator) والتماسيح العادية والسحالي (١) . وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلى الهدف على مدار السنة ، فهي لا تستطيع أن تتحمل التعرض للبرد ، والزاجع أن جميع زواحف الزمن البروزوي قد كادبت الأهوال لنفس هذه السبب . كانت حيوانات مما ينمو في البيوت الزجاجية الهائلة ، تمشي بين نبات مما يربى في تلك البيوت الزجاجية نفسها . فلم تسكن تتخمل

(١) السحالي : Lizards : دوية علماء تسمى مشياً سريعاً ثم تقف وتسمى أيضاً الطليانة والمظامة وجنبا عظام وعظايا وعظايات (التجدد) .

صحيحاً : ولكن العالم قد وصل إلى حيوان ونبات الأرض الجافة الحقيقي، والمتخلف تماماً عن حيوان ونبات الظل والمعتقات في العصر السابق من عصور ازدهار الحياة على سطح الأرض .

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عدداً في تلك العصور ، فهناك برسات وسلاحف كبيرة ، وغماسيح ضخمة وكثير من السمكيات والثعابين ، ولكن كان هناك عدا ذلك عدد من مائلات من المخلوقات السمية التي اختفت الآن تماماً من هذه الأرض . فتم أنواع جملة من كائنات تسمى الديناصور : [الطوايا للهولة] . وكان النبات قد شرع في الانتشار حيث قد فوق ما في العالم من السنترات المنخفضة : فشكل القصب (البوص) وأجام السرخس وما مائلها ؛ وفي هذه الفترة : من الحشرات أخذت جبهة غفيرة من الزواحف للقتالة بالأعشاب (Herbivorous) تعيش وترعى ، وأخذ حجمها يترادف بطراد كلما تقدم الزمن للبروزوى إلى ذروة ومن هذه الوحوش ما تفوق في حجمه على كل حيوان يرى عاش على ظهر البسطة قبلها ؛ فهي تضارع الحيتان في حجمها فكانت العظاء مزدوجة العنق (الديلودوكس كارنيجاي Diplodocus Carnegi) ثلاثية أربعة وعنايين قدما من البروز إلى الابل ؛ كما أن العظاء للردة (الجيجاتوصور) كانت أكبر منها أو تكاد ، إذ كان طولها مائة قدم ، وكان يعيش على هذه الوحوش جسد من الطوايا للهولة (الديناصور) آكلة اللحوم (Carnivorous) التناسية معها حياً . وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع وهو الطوايا الجبارة (التيراصور) وتصفه بأنه قد بلغ الناحية في شناعة الزواحف .

وبينا كانت هذه المخلوقات الضخمة ترعى وتتغذى بعضها بعضاً بين السيقان الورقية (Frons) والنباتات الداعية الخضرة للأجام البروزوية ، إذا قيلة أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه للضرب — ولا وجود لها الآن — تأثر الحشرات وتتغذى بعضها البعض ، بلدة بالوثب والمهبط ثم طائرة بعد ذلك بين أعضان الغابة وسيقاتها الورقية وتلك هي التيروداكتيل (أي ذو الأصبع المنيح)^(١) . وهو أول الكائنات الطائرة ذات العمود الفقري ، ووجوده يشير إلى فوز جديد أحرزته القوى النامية للحيوانات الفقارية .

(١) وهي إحدى المفردات البروزية لحياة لها جبهة كبيرة كجبهة طير وغمام طيران يصل بالأصبع المنيح الطول .

وفضلا عن ذلك فإن بعض الزواحف أخذت في العودة إلى مياه البحر . فإن طوالف ثلاث من كائنات كبيرة سباحة ، عادت إلى اجتماع البحر الذي خرجت منه أسلافها ؛ ه عظاما نهر اللوز (للوسصور) وأهباء العظاما (البلسيوسور) وعظاما البحر النذر (الإخثيوسور) . وبعض هذه يقارب في حجمه جيتانا الراهنة ، ويلاحظ أن الإخثيوسور كان حيوانا تام القدرة على ارتياد البحر ، ولكن البلسيوسور طراز من حيوان ليس الآن مائاته . جسمه كان يدينا ضخما له مجاذيف عرضة ، مكيفة إما للسبح أو الزحف في المستنقعات أو فوق قاع المياه الضحلة . أما الرأس الصغيرة نسبيا فتصوبه فوق رقبة كالتيان هائلة لا تكاد تمانها رقبة البجعة . والظاهر أن البلسيوسور كان يعوم ويحش عن الطعام تحت الماء ويتنذى كما تفعل البجعة ، أو يترص تحت الماء ويختطف ما يمر به من سمك أو بومة .

تلك هي أم أنواع الحياة الموجودة في البر طوال الزمن البرزوي . فهي تعتبر — بقايسا البشرية — تدمنا في كل شيء سبقها . إذ أنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجما وأوسع انتشارا وأعظم قوة ونشاطا ، وأحفل بالحياة (كما يقول الناس) من أي شيء شهدته العالم قبلها . أما البحار فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك ، بل ظهر تكثر عظيم لأشكال جديدة من الحياة . فظهرت في البحار للشجعة أضرب هائلة العدد من مخلوقات تشبه أم الجردات عار مقسم إلى تجايف معظمها حاروفي ، وهي العموي^(١) بأنواعه ، والعموي أسلاف قديمة في بحار الزمن الباليوزوي ، ولكن هاقدا حل الآن عصر مجده . غير أنه انقضى كله ولم يبق منه اليوم أي كائن يمثله ، وأدنى السككيات شبا به في الوقت الحاضر هو النوق المؤلوي^(٢) ، الذي يعيش في المياه الدارية ، ثم ظهر به ذلك طراز جديد من سمك أكثر فصلا وأهد تكثر وأدعى قشور أخف وأرق من تلك الأغنية المشبية بالدرقات والشمبية بالأسنان ، التي كانت متفكرة حتى آنذاك ، فأصبح هو النجم السائد في البحار والأنهار ولا يزال كذلك إلى اليوم .

(١) العموي Ammonites صنف من حيوانات البرزوي .

(٢) النوق المؤلوي Nautilus صنف من الحيوانات البحرية جميل الصدف

الفصل السابع

الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم في إيجاز حالة النبات الوثير والزواحف الحاشدة التي كانت تخرج في ذلك الصيف العظيم الأول للحياة : أعني الزمن الميزوزوي . وبينما كانت العناصر تمسود ذلك البصر في مزاجي السلطان وسهول المستقعات الحارة ، والتيزودا كتيل بلا مجاء القباب بقرقة أجنحته ، بل وربما يشق الجو أيضاً بصرخاته ونحيقه ، وهو يتعقب الحشرات الطائرة بين الشجيرات والأشجار التي لم تزل بعد مجردة من الزهر ، كانت أشكال حيوانية أخرى أقل أهمية وأدنى في عدد أشكالها ، تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة وتحرز قوتها خاصة وتعلم دروساً معينة من الإحتمال عادت على نوعها بالخير الجيم عندما حل أخيراً اليوم الذي شرعت فيه الشمس والأرض تضئان بمباهما البسامة .

والظاهر أن مجموعة من قبائل وأجناس الزواحف النطاطة ، وهي مخلوقات صغيرة من طراز الدينوصور ، قد أكرهتها النافسة وتسبب الأعداء لها على اللامانع بين أميين : إما الانقراض أو التكيف وفق الظروف الأكثر برودة فوق التلال العالية أو إلى جوار البحر . وفي هذه القبائل التي ابتليت بالحن تطور طراز جديد من القشور ؛ قشور مطت فأصبحت ذات أشكال تشبه أنايب الريش ؛ وسرعان ما تفرعت تلك الأنايب وأصبحت بدايات ريش الريش . وكانت هذه القشور الشبيهة بأنايب الريش تزداد إحداها فوق الأخرى مكوّنة خلافاً جافلاً للحرارة أكثر من أي غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين . وبذلك أتاحت لها أن تغزو المناطق الأكثر برودة والتي كانت قبل ذلك غير مأهولة . وربما صاحب تلك التغيرات زيادة في اهتمام هذه المخلوقات ببيئها فمن الجلي أن معظم الزواحف لا تبيض بيضها أقل عناية ، بل تتركه لتتولى قسه الشمس والوقت المناسب . ولكن بعض أنواع هذا الفرع الجديد من شجرة الحياة أخذت تكسب عادة حراسة بيضها والحفاظ على دقته بواسطة حرارة أجسامها .

وفضلاً عن هذه التكيفات وفق البرودة، كانت تحري مكيفات باطنية أخرى جعلت هذه الحفوفات - وهي الطيور البدائية - دفيئة الدم محتضنة عن الاصطلاء والاستلقاء . ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيوراً بحرية تعيش على السمك ، وأن أطرانها الأمامية لم تكن أجنحة بل مضارب أو مجاذيف شكلت شبه ما يوجد في طائر البطريق . (البحورن) وإذا نظرنا إلى طائر الكيوي النيوزيلندي ذلك الطير البدائي المسمى في بدايته وجعل له ريشاً ذا طراز بسيط جداً ، ورايته لا يطير ولا يبدو عليه أنه ينحدر عن سلف طيار . ذلك أن الريش ظهر في عملية تطور الطير قبل الأجنحة . ولكن ما كاد الريش يتطور، حتى أصبح من الختم أن يؤدي إمكان انتشاره انتشاراً أخيراً إلى ظهور الجناح ، وإنا نعرف حفريات لطائر واحد على الأقل كانت له في عكسه أسنان من نوع أسنان الزواحف ، كما كان له ذيل كذيل الزواحف طويل ، ولكن كان له أيضاً جناح طير حق ، ولا مرء أنه كان يطير ويقوم بمشئون نفسه بين التيرودا كتيل في الزمن الميزوزوي . ومع هذا فالطيور لم تكن بالتنوع ولا الوفرة في الأزمنة الميزوزوية فلو تها الإنسان أن يكر راجعاً إلى قطر ميزوزوي نموذجي، لمار ألبما كثيرة دون أن يرى شيئاً يسمى بالطير أو يسمع له صوتاً ، وإن رأى كثرة عظيمة من التيرودا كتيل والحشرات بين السيقان الورقية والقصبات .

وتم شيء آخر لعل عييه لاختمان على أي أثر له هو الثدييات . والراجع أن الثدييات الأولى كانت موجودة لعدمتلدين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بذلك الاسم ، ولكنها كانت من الضرع والناقة والأنزواء بحيث كان من الصعب أن يلاحظها المشاهد .

والثدييات الأولى - شأن الطيور الأولى - مخلوقات وفصها النباشية والطاردة إلى تجمع حياة حافة بالشدائد والتكيف مع البرد . وفيها أيضاً اتخذ القشر شكل قصبه الريشة ، ثم تطور إلى غلاف حافظ للحرارة ؛ ثم آلت لها أيضاً عيسى تمديدات . تتشبه في نفس الاتجاه والنوع وإن اختلفت في التفاصيل ، وأصبحت على أثرها دفيئة الدم مستنخية عن الاستلقاء والاصطلاء . قبلأ من الريش طورت الثدييات الضرع وبدلاً من حراية يقصها واحتضانه ، كانت تحتفظ به داخلها مصروفاً باستبقائه داخل أجسامها حتى يجارب النضج . وأصبح معظمها ولوداً بصفة نهائية وأخذ يخرج صغاره إلى الدنيا بحية ، وحتى بعد ميلاد صغارها ظلت تنجح إلى الارتباط بها ارتباطاً يقوم على الوقاية والتخذية .

وجل الثدييات اليوم، إن لم تكن كلها، ذات أئداء وتضع ضغارها، ولا يزال هناك حيوانان ثدييان بيضان البيض وليس لهما أئداء بالمعنى الصحيح. وإن غديا ضغارها بإفراز مفد يخرج من تحت جلداهما، وهما البلايب البطي للتقار والإخذتا (١). والحيوان الأخير بيض يشبه الجله، ثم يضعه في كيس أسدل بطه، وبذلك يحمله أينما ذهب وهو في دفاء وأمان حتى يفقس.

وكما أن الزائر للعالم الميزوزوى ربما بحث ألبما وأسابيع قبل الشور على طائر، وربما اضطر أيضا إلى البحث عن آثار الحيوان الثديي دون جدوى، مالم يكن يعرف بالضبط أين يبحث عنه. ولا شك أن كلا من الطيور والثدييات كانت تبدو في العصر الميزوزوى مخلوقات غريبة الأطوار فائقة الدرجة غير ذات أهمية.

ويقدر أهل العلم عمر عصر الزواحف بثمانين مليون سنة، فلو فرض أن كانتا أوتى ذكاء الإنسان وعقله ليت رقب العالم طوال ذلك الأمد البعيد الذى لا يكاد يتصور عقله، فكيف كانت الوفرة والحيرات وضياء الشمس تلوح له عند ذلك أيدى راسخة القدم ١١٠٠. وكما كان ذلك الرغد الذى يتمرغ فيه الديصور وتلك السكرة الوفيرة التى بلتها السطابا الطائرة يبدوان مطمئنين إلى الأمام. ثم حدث بعد ذلك أن أخذت التقلبات الحادة للتأثرة والقوى النجمية فى العالم تقلب ظهر المجن لكلك الاستقرار شبه الأبدى ذلك أن الحظ أخذ يدير ظهره للحياة. ففى عصر بعد عصر وفى آماد من السنين بعد آماد، مع فترات من التوقف لاجرم، وفترات من النكوص والتدهور، أتجه العالم صوب تغيير حافل بالشدائد والتطرف، فتبدل مستوى سطح الأرض تبديلا عظيما وتبدل توزيع الجبال والبحار تبديلا شاملا. وهما ذلك كله أنا نجد فى سجل الصخور أئداء فترة إدار الزمن الميزوزوى الطويل الكبير الوفرة والنماء، شيئا لا مفزاء الواضح فى التغيرات المتواصلة للظروف، هو حدوث تقلب عنيف فى أشكال الكائنات الحية وظهور أنواع جديدة وغريبة. فإن القبائل والأجناس القديمة للكائنات الحية أخذت تظهر إزاء الخطر المحقق يزعجها المهدد بإبادةها أقصى مالهيا من قدرة على التغير والتكيف. فقواقع السموى مثلا أنتجت فى هذه السفحات الأخيرة من الزمن الميزوزوى عددا غفيرا من الأشكال الحسية. والظروف المستقرة لا تدعو إلى مثل ذلك الإحتداث؛ فالمتحذات

(١) الإخذتا Echidna ويسمى السلول وهو حيوان من الثدييات للطنكة سكر أسداليا.

لا تتطور في ظلها ، بل تتوقف ؟ إذاً أحسن الأتواج بكيفاً يكون موجوداً بالنسل .
فإذا وافق ظروف جديدة فالطراز المادي هو الذي يقاسى ، والذى للبحث هو الذى
ربما أتاحت له فرصة أحسن للبقاء وتوطيد أقدامه إلى حين .

ثم تسمى فترة انقطاع في سجل الصخور ربما كانت تمثل عدديتين من السنوات .
والواقع أن هناك ستاراً مسدداً يحجب كل شيء حتى معالم تاريخ الحياة نفسها : فإذا ارتفع
ذلك الستار ثانية إذا بصير الزواحف قذولي ، وإذا بالديصور والبليصور والإيخثيوسور
والثيرودا كتيلاً ، وجميع أجناس السموي وأنواعها التي لا يحصرها عد قد اختفت تماماً .
لقد بادت جميعاً على أرضها بالدهشة والفرق ولم تخلف أى أثر بعدها . فقد قضى البرد
عليها جميعاً . ولم يبق عنها شيئاً أقصى ما استحدثته بنفسها من تغييرات لعدم كفايته ؛
فهي لم تصب ظروف البقاء . وذلك لأن العالم مر في دور من التناخ للتطرف يتجاوز قوة
احتياله ، ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياة للبروزوية ، وهنا تشهد أماننا منظرأ
جديداً ، إذ استرات على العالم مملكة نباتية جديدة أخرى بأساً ومملكة حيوانية جديدة
أشد قوة .

ولم أنه تشهد لا يزال به أثر الزمهرير والجذب ذلك الذى يستج به هذا المجلد الجديد
من حفر الحياة . فإن الحزازيات والخروطيات (١) الاستوائية حلت محلها إلى حد كبير أشجار
تنفس أودانها توقفاً للهلاك من خلوج الشتاء ، كما أن نباتات وعشيرات ذات أزهار قد
ظهرت ، وأخذت أنواع مزائدة من الطيور والثدييات تشوى على تراث كثرة عظيمة
من الزواحف .

(١) الخروطيات : Conifers : قسمة من النبات من أشال الصنوبر .

الفصل الثامن

عصر الثدييات

كان مطلع الزمن الكينوزوي الفترة التالية الكبرى من فترات حياة الأرض ، حافلاً بالارتفاعات في القشرة الأرضية والنشاط البركاني الشديد . وذلك هو -الأوان التي دفت فيه إلى أطل الكتل الجليدية الشاسعة : الألب والمغلايا ، كما رقت سلاسل جبال روكي والأنديز التي يشبهونها بالصوم القفري ، وذلك أيضاً هو الأوان التي ظهرت فيه للعالم الإجمالية لمخيطاتنا وقاراتنا الراحنة ، وفي ذلك الأوان أيضاً تتخذ خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة ألمانا هذه وتقدر للدة التي تتصل عصرنا وأوائل الزمن الكينوزوي بما يتراوح بين أربعين وثمانين مليوناً من السنين .

كان مطلع العالم صارماً قليلاً عند بداية الزمن الكينوزوي ، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجه العموم حتى دخل في دور جديد من أدوار الوفرة والجماء القوي ، مالبث أن تحول بعده إلى دور جديد من الصبر والإحمال ؛ وممرت الأرض في سلسلة من الدورات للفرطة البرودة ، هي الصور الجليدية التي يلوح أنها تخرج منه الآن ببطء .

غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات الناحية ليست في الوقت الحاضر من الكفاية بحيث يمكننا أن نتكهن بما يشتمل حدوثه من تقلبات في الأحوال الناحية التي نجدها لنا عند وريما كنا نسير نحو المزيد من الدفء وضيء الشمس ، أو نتكهن نحو مزيد من البرد جليدي آخر ؛ وربما كان النشاط البركاني ورفع الكتل الجليدية آخيراً في الزلزلة وربما في نقصان ، فلما ندرى عن ذلك شيئاً ، إذ يجوزنا القدر الكافي من العلم .

وبإتداء هذه الفترة تظهر الأغشاب بأنواعها ، ويظهر الرعي في العالم لأول مرة ، وباكتمال تطور النوع الثديي الذي كان منموراً فما سلف ، يظهر عسجد من

الحوانات الشائعة الآكلة للشب، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانات الآكلة للحوم التي تعيش على تلك .

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح إلا في بضع خصائص مميزة فقط . عن الزواحف الآكلة للشب والآكلة للحوم التي ازدهرت قبل ذلك بصورة ودهور ثم بدت من الأرض . وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطبيعة في هذا العصر اللدني الثاني من عصر البف ، والوفرة التي شرع يبدأ آتئذ ، إنما كانت فقط تكرر العصر الأول ، مع قيام الثدييات الآكلة للشب والحوم مقابل العاصب واللاحم من الدناصير ، ومع حلول الطير محل الثيرودا كئيل وهكذا . على أن هذا إنما يكون مقارنة سطحية بحتة . ذلك أن تغير الدنيا لا يتهى ولا يقف عند حد ، فهو يتقدم تقدماً أبدياً ، والتاريخ لا يجد نفسه أبداً ، وليس هناك أية متانلات تتطابق صورها بالتبسط تماماً . والفرق بين صورتي الحياة في الزمن للبروزوى وحقيقه الكاينوزوى أعظم كثيراً من أوجه التشابه .

وأم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقلية للثديين . وهو ينشأ بالضرورة عن استمرار العلاقة بين الوالد والولد ، تلك العلاقة التي تميز حياة الثدييات (وحياة الطيور بدرجة أقل) عن حياة الزواحف ، والزواحف - باستثناء القليل النادر منها - تركب أيضاً بنفس وحده . كالزواحف الصغير لا يعرف والديه أدنى معرفة ، وحياته العقلية - كما هو الواقع - تبدأ وتنتهى بخبراته الخاصة . وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره ، ولكن ليس بينه وبينها أى اتصال ، وهو لا يفتنهما أبداً ، ولا يتعلم منها أبداً ، كما أنه غير قادر على القيام بأى جهد مشترك معها . حياته حياة فرد منعزل . ولكن نشأت مع إرتفاع الصغار وتدليلها - وهما من مميزات السلالتين الجديدتين ، الثدييات والطيور - حالة جديدة إمكان التعلم بالمحاكاة والتواصل بصيحات التحذير وغيرها من الأهل الجمية ، والمهينة والإرشاد المشترك . لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم .

واللع عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوى لا يفوق في الحجم إلا قليلاً من الدناصير الآكلة للحوم والأكثر نشاطاً ، ولكن كما قلنا صفحات السجل متغيرين نحو الزمن الحديث ، وجدنا زيادة عامة ثابتة في سعة التبراغ الحى (١) في كل قبيل وسلسلة من

(١) سعة التبراغ هي حجم اللع ومدى اتساع المحبة من الداخل .

بذلات اخيوانات الثديية ، مثال ذلك : أننا نلاحظ في مرحلة مبكرة نسبياً وجود وحوش شبه الكركدن . فلما نجد في أكبر عهد تلك الفترة مجاوراً هو التيتانويوم ؛ نراجع أنه كان شديد الشبه بالكركدن المصري في عاداته وحاجاته ، ولكن فراخه لم يصل إلى عشر ما لحظه الحى .

ويعتدل أن الثدييات الأولى كانت تتفرق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة ، لكن ما كانت القدرة على التهام التبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابط بين الصغار والكبار عقيمة جداً ، قد لا نثبت أن نجد عدداً من أنواع الثدييات تتجلى فيها بدايات حياة اجتماعية حقة ، وتعيش مجتمعة في أسراب وقطعان وعلان . هي تلاحظ بعضها بعضاً ، وتلد بعضها بعضاً وتطلق التحذيرات من أعمال الآخرين وصيحاتهم . ذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية . ولا شك أن الزواحف الأممكة قد توجد في أسراب وأفواج ؛ ولكن مزد ذلك أنها قصت بكيات وعملت لظروف المتشابهة على استبقائها معا ، أما الترابط في حالة الثدييات الاجتماعية الميالة إلى التجمع فلا ينشأ قط عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية ، بل يدعمه دافع داخلي . وهي ليست مجرد كائنات متشابهة ، وجدت صدقة في نفس الأما كن في نفس الأوقات ، بل هي تحب بعضها بعضاً ولذلك فهي تتواجد معا .

والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف وعالم العقول البشرية شيء لا نستطيع تجاهله من الناحية العاطفية ، فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة لللمعة الساذجة التي تتحكم في الدوافع التريزية عند الزواحف من شهوات ومخاوف وكراهية . ولما يستطيعون أن يفهموا فيها هي عليه من بساطة ، وذلك لأن جميع دوافعنا مقددة ؛ فدوافعنا موازنات وتناجج وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة . إن الثدييات والطيور تصنف يكبح لنفس واعتبار لحقوق الآخرين ، ومحابوب اجتماعي : أى ضبط للنفس مهما بلغ انخفاض مرتبته فإنه شيء بما نحن عليه . ونتيجة لذلك نستطيع أن ننشئ العلاقات مع جميع أنواعها قريبا . فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأنت بالحركات التي تحرك مشاعرنا . وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلية أليفة تفهمنا وتعيرونا . وغير هذا . وفى الإمكان ترويضها حتى تظهر على حشمتها إزائنا وأن تستأنس وتعلم .

إن ذلك النوع غير الاعتيادي للبع، الذى هو أهم حقائق الزمن الكائىنوزوى يستلزم وجود ارتباط جديد بين الأفراد واعتماد بعضهم على بعض - كما أنه يشير الآن بتطور الجماعات الإنسانية التى سنفصلك به من فورنا .

وكما انكشف لأبصارنا للزبد من صفحات الزمن الكائىنوزوى تزايدت درجة الشابهة بين حيوانه ونباته وبين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات . أجل إن الوبثانثيرات (Uinatheres) والتيتانوثيرات (Titanotheres) الضخمة القبيحة الشكل قد انقرضت ؛ وهى وحوش ضخمة قيعة ليس بين أحياء هذا العصر ما يشبهها . غير أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقى بخطى ثابتة متواصلة من أسلاف بشمة مضحكة حتى تحولت إلى زرافة عالنا الحاضر وجملة وحسانه وقيلته وطيائه وكلابه وأسوده ويوره (١) . أما الحصان فنشوءه وتطوره تقرأ سطورهما واضحة بوجه خاص فى صفحات السجل الجيولوجى ، فإن لدينا سلسلة كاملة نوعا ما من أشكال الحصان تبدأ فى بكور الزمن الكائىنوزوى بسلف منير يشبه التناير (٢) . ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها فى شيء من الضبط هى سلسلة الالما والجل .

(١) البير وجمعه البيور : Tiger : ضرب من الأسد مخلوط وليس هو النمر كما نسميه العامة

(٢) التاير Tapir أحد الثدييات آكلة الفص بهبه الخنزير موطنه أمريكا الوسطى والجنوبية وجرائر الهند الصينية .

الفصل التاسع

القرود والقردة العليا^(١) وأشباه الإنسان

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب ، ويجعلون على رأس هذه رتبة الثدييات العليا التي تحتوى على البومور والقرود والقردة العليا والإنسان . والأصل في ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها ، ولا فخل فيه لأى صفات عقلية .

ووالواقع أن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العليا في السجل الجيولوجي . ذلك أنها في الغالب حيوانات تغطى النابتة كالليمور (المبار) أو القردة التي تعيش في الأماكن الصخرية الجرداء كالبابون (الرباح) . ومن ثم قلما غرق الواحد منها وغطته الرواسب ، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد ، ولذا لا يكثر وجودها بين الحفريات كسلاف الحصان والجمال وما إليها . ولكننا نعلم أنه حدث في عهد مبكر من الزمن الكاينوزوى ، أى منذ ما يقارب الأربعين مليوناً من السنين ، أن ظهرت القردة البدائية والحلقات شبه البومورية الأولى ، وكانت أصغر حجماً وأدنى تخصصاً من أسلافها المتأخرة .

وما لبثت أن دنت نهاية السيف المسمى العظيم الذى ساد الدنيا في الزمن الكاينوزوى الأوسط . وكان مصيره مصير العديد من العظميين الآخرين في تاريخ الحياة : منصف مستقمات النعم ، والسيف المائل الذى هو عصر الزواحف والبراة الثانية طارت الأرض دورتها واتجهت نحو عصر جليدى . فبرد مناخ العالم ، ثم اعتدل فترة من الزمن ثم تلتج مرة ثانية وكانت أفراس البحر تزلج في الماضي القلبي ، حين نباتت خضرة شبه مدارية ، وكان ير هائل له ناب مثل السيف هو الپر للسيف ، يتصيد قرائسه في المنطقة التي يجدها .

(١) القردة العليا هي أدنى أنواع القرود التي تعبه الإنسان ولا تقل لها أو تكاد .

الصحفيون اليوم ذهباً وجبة في شارع فليت بلندن (١). ثم جاء عصر مكهبر فارس
فصور أهد بدأ وزمهرراً . فأدى ذلك إلى غربة (٢) كثير من الأنواع وإبادة
كثير غيرها ، وظهر في العهد خربت صوفي مكيف للناخ البارد ، كما ظهر للاموت
وهو ابن عم صنم قليل ذو صوف غريز ، وظهر ثور السك القطبي وغزال الرنة .

ثم أخذ وشاح الجليد القطبي ، وأخذ شبح الثوت الثلجي في العصر الجليدي زحف
نحو الجنوب قرناً بعد قرن . قامت في إنجلترا حتى داني منطقة التاميز ، ووصل في أمريكا
إلى نهر الأهيو : ثم جاءت أمداً أكثر دفئاً ذرعها بضع آلاف من السنين ، ولكن
أعقبها ارتكسات نحو البرد للرور .

ورطلق البيولوجيون على هذه الأدوار الشتوية اسم العصر الجليدي الأول
والثاني والثالث والرابع ، كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصور
« بين الجليدية » . . . ونحن إنما نبين اليوم في عالم لا يزال يتن من آثار الجليد
والجراح التي خلفها ذلك الشتاء الرهيب . والعصر الجليدي الأول قد حل بهذه الدنيا
منذ سبعة آلاف سنة ؛ على حين بلغ العصر الجليدي الرابع أقصى زمهرره للرور منذ
خمين ألف سنة تخريباً . وفي هذا الشتاء الطويل الشامل ، وبين الثلوج القارسة
عاشت على كوكبنا هذا أول الكائنات الشبيهة بالإنسان .

وعندما حل الزمن الكاينوزوي الأوسط كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ، ذات
خواص شبه إنسانية كثيرة في الفك وعظام الساق ، ولكننا لا نعثر على أية آثار لخلوقات
نستطيع أن ننمنا بأنها « إنسانية على وجه العموم » إلا عند اقترابنا من هذه الأعصر
الجليدية ؛ وليست هذه عظاما بل أدوات . إذ عثر للقبون في أوروبا ، في رواسب
تنمو إلى تلك الفترة صحرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون من الأعوام ، على
طرائف وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قسداً . يد مخلوق ذي مودة بدوية
يريد أن يترك أو يخدم أو يقاتل باليد المشعرة .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات العجيرة الأولى (Eoliths) . وليس في

(١) غرعى المسافة بالهاسة البريطانية .

(٢) الغربة ، التقيّة وإزالة ما لا خير فيه .

أوردنا أبة عظام ولا أبة بقايا أخرى لذلك الخلق الذى صنع تلك الأشياء ، وإذنا توجد الأشياء نفسها وحسب ، ومهما يكن قدر ما نعالجنا من يقين أو شك فى شأنه ، فقلنا لم يكن إلا قرداً غير إنسانى تماماً ، وإن يكن ذكياً . ولكن حدث أن أحد العلماء عثر فى « ترينل Trinil » بحضرة جاوة ، وبين ركاب تعود إلى ذلك المصر نفسه ، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع ما من إنسان قردى ، له وعاء عظمى (١) أكبر من وعاء أى قرد راق يعيش الآن ، ويلاحظ أنه كان يسير منتصب القامة ويسمى هذا الخلق الآن باسم الإنسان القردى للتصنيف القامة (Pithecanthropus erectus) ، كما أن هذا للقدار الضئيل من عظامه هو كل ما لقيه خيالنا من المون حتى الآن فى تصوره لصناع الأدوات الحجرية الأولى .

ثم لا نضر بعد ذلك فى السجل على أى جزء آخر من كائن شبه إنسانى إلا عندما نبلغ رمالا يقارب عمرها ربع مليون سنة . ولكن الأدوات كثيرة ، كما أنها تتحسن تحسناً مطرداً كلما تقدمنا فى مطالعة صفحات السجل . فهى لم تصد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل هى أدوات حسنة للنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلاً عن أنها أكبر كثيراً من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك فى حفرة رملية قرب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهى عظمة فك قبيحة الصورة ، مجردة من اللقن مجرداً تماماً ، وهى أقل كثيراً من أبة عظمة فك إنسانية حقة ، ولكنها أضيق ضيقاً رجح معه أن لسان صاحبها لم يكن ليستطيع أن يتحرك فيه بالنطق الواضح البين . ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا الخلق كان وحشاً ضحكاً كالإنسان تقريباً ، وربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وربما كان جسمه مكسباً بطبقة كثيفة من الشعر ، وهو يسمى باسم إنسان هيدلبرج .

وعندى أن عظمة الفك هذه من أحد الأشياء استقارة لرغبتنا فى الاستطلاع . وكأنى بالنظر إليها يشبه النظر إلى الماضى من خلال عدسة متعينة ، والحصول بواسطتها

(١) الوعاء العظمى (Brain Case) هو الجمجمة ، ويسمى فى علم الأحياء بالقفص ، ويسمى إنسانها من القاعل بالفراغ العظمى .

على لحة واحدة مشاة بحيرة تلك الخقوق ، وهو يذلف متاثلاً خلال البرية الباردة الوحشة ، ويتسلق للارتفاع ليتجنب الير للسير ، ويرقب الكركدن الصوفى فى الغابات . وإذا بالوحش يغتنى عن نواظرنا قبل أن يتاح لنا أن نحصه . ومع ذلك فإن تربة الأرض ملوثة بوفرة بتلك الآلات غير القابلة للبلى التى نعتها ليتفع بها .

ومع بقايا أخرى أشد فتنة وغروراً ، وجدت فى « بلنداون » بمقاطعة ماسكس فى طبقة يقدر عمرها بما يقارب بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفاً من السنين ، وإن جنح بعض التفتة إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقدم من عظمة فك « هيدلبرج » .

وهذه البقايا هى جزء من جمجمة غليظة شبه إنسانية أكبر كثيراً من جمجمة أية قرودة عليها موجودة فى الوقت الحاضر ، ومعها عظمة فك تشبه عظام الشمبانزى ، وربما كانت تابعة لنفس الخقوق وربما لم تكن ، هذا إلى قطعة من عظم « الليل » على شكل للضرب ، تتجلى فيها النتابة فى الصنع ، وقد تمب فيها تمب واضح لا شك فيه . وهناك أيضاً عظمة غنذ النزال عليها قطوع وحزوز كالتى توجد على قائم المد (١) . ثم لا شئ بعد ذلك . فأى نوع من الوحش كان ذلك الخقوق الذى كان يجلس ويثقب العظام ؟

لقد سماه رجال العلم باسم إنسان النعبر (Eoanthropus) ، وهو يختلف عن ذوى قريابه ، فهو مخلوق مختلف جداً عن الخقوق الهيدلبرجى ، وعن أى قرود راق آخر يعيش اليوم ، وليس هناك أى بقايا أخرى تماثل ذلك الكائن . غير أن الحطباء والرواسب التى انقضت عليها مئة ألف سنة فصاعداً تزداد غنى بما يكشف فيها كل يوم من آلات الطران وما شابهه من أحجار . ولم تعد هذه الآلات مجرد « أدوات حجرية أولية » غير مهذبة إذ لا يلبث علماء الآثار (الأركيولوجيون) أن يقينوا فيها : للكشط والحفر ، والسكاكين ، والنبال ، وأحجار القذف والبلط اليدوية . . .

(١) قائم المد أو عمال المساب : Tally ، قطعة من الخشب تخدش فيها خدوش للدلالة على الأرقام .

فنحن إنما ندنو كثيراً من الإنسان . ونصف لك في الفصل التالي أعجب هذه الأنواع للؤذنة بظهور البشر ، وهم النياندرتاليون ، القوم الذين كانوا بحرياً - وليسوا تماماً - أناساً حقيقيين .

ولكن لعل من الخير أن نذكر هنا بمضى الموضوع ، أنه ليس بين رجال العلم من يرى أن أيًا من هذين المخلوقين : إنسان هيدلبرج ، وإنسان النجر ، هو السلف للبشر للإنسان العصري ، وإنما هما - مهما دنت قرابتهما - أشكال تمت إليه بالقرى .

الفصل العاشر

الإنسان النياندرتالي والروديسي

كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة خلت ، وقبل بلوغ العصر الجليدي الرابع أوجه ، مخلوق بلغ من قوة مشابهته للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضع سنوات مضت بشرة علما . ولدينا الآن منه جماجم وعظام وكية ضخمة من الآلات الكبيرة التي كان يصنعها ويستخدمها . كان يستطيع أن يوقد النار . وكان يلجئ إلى الكهوف أثناء البرد . ولعله كان يجهز الجلود تجهيزاً خشناً ثم يرتديها . كان يسراً يستعمل عتاه كما يفعل الناس .

غير أن علماء السلالات البشرية (Ethnologiste) يرون اليوم أن هذه المخلوقات لم تكن من الإنسان الحق في شيء . بل هم نوع آخر من نفس الجنس ، ولهم فكاك هجينة بارزة وجباه منخفضة جداً وحروف حواجب كبيرة بارزة فوق العينين . ولم يكن لإبهامهم ما يتقابل والأصابع كإبهام الإنسان ، وقد خلقت أعضائهم على وضع خاص لا يسمح لهم أن يرفسوا رؤوسهم إلى الوراء وينظروا إلى السماء . ولعلمهم كانوا يعيشون في استرخاء ورؤوسهم مدلاة إلى أسفل منحنية إلى الأمام . وعظام فكاهم العديدة القن مماثل فك هيدلبرج ، كما أنها تختلف فكاك الإنسان مخالفة ظاهرة ملحوظة . ويؤمن أعضائهم والأضنان البشرية بون بعيد . فإن أضراسهم أشد تعقيداً من أضراسنا ومن عجب أنها أشد تعقيداً من أسناننا وليست دونها في التعقيد ، إذ ليست لديهم الأسنان العلوية التي لأضراسنا ؛ وكذلك لم يكن لأشياء الإنسان هؤلاء تلك الأنياب التي للكائن الإنساني السادي . على أن سمة جماجم إنسانية تماماً ، ولكن اللع أكبر في اللؤخرة وأخفص في القدم من اللع الإنساني . وكان لقدراتهم وملكاتهم العقلية ترتيب آخر متمايز . فهم ليسوا أسلافاً للسلالة الإنسانية ، إذ يخلطون عن الأرومة الإنسانية من التانجيتين العقلية والجثائية .

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسان قرب نياندرتال بوضع

إما كن أخرى ، ولذا أطلق على هذا الجنس العجيب من الإنسان الأول : اسم إنسان
نياندرتال ولعله ظل يقطن أوروبا مئات كثيرة بل آلافا من السنين .

وفي ذلك الأوان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جداً عما هما عليه في الزمن
الحاضر . فكانت أوروبا مثلاً مقطعة بجليد يمتد جنوباً حتى نهر التايمر ، ويتوغل حتى
ألمانيا الوسطى والروسيا ؛ ولم يكن هناك مضيق إنجليزى (بحر اللانز) يفصل بين
بريطانيا وفرنسا ، أما البحر للتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين عظيمين ، وربما
احتوت أجزاؤهما الأكثر انخفاضاً على مجموعة من البحيرات ، كما أن بحراً داخلياً عظيماً
كان يمتد من البحر الأسود الحالى عبر روسيا الجنوبية ، ويتوغل إلى آسيا الوسطى
وكانت أسبانيا وكل ما لا يغطيه الجليد خلا من أجزاء أوروبا . تتكون من مرتصات
جرداء باردة ، مناخها أشد قسوة من مناخ ليرادور ، ولم يكن الإنسان ليجد للتأق
للتعدل إلا حين يصل إلى أفريقيا الشمالية .

وكانت تتقلع عبر السهوب الباردة بأوروبا الجنوبية بمساحات من نبات قطبي
مقتار ، مخلوقات جديدة التحمل للبرد من أمثال اللاموث السوفى والحريث البوفى
والثيران الضخمة وغزلان الرنة ، وكلها ولا مراء تتحب التبات نحو الشمال في الريح
ونحو الجنوب في الحرف .

ذلك هو الشهد القدى كان الإنسان النياندرتالى يتجول بين ظهرانيه ، متلقفاً من
القضاء ما كان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير أو الفواكه والثمار والجذور
ومن المحتمل أنه كان نباتياً في معظم أمره يعضغ الصاليج والجذور . ذلك أن أسنانه
للسطحة المنحكة توحى بفذاء يظلب فيه التبات . ولكننا نرى في كهوفه أيضاً عظاماً
نخاعية طرية لحيوانات كبيرة ، وقد كسرت لاستخراج ما بداخلها من نخاع ومن
البديهي أن أسلحته لم تكن كبيرة الجدىوى في القتال مع الوحوش الضخمة وجها لوجه ،
ولكن يظن أنه كان مهاجماً بالحرايب عند المأوى الصعبة للأشهار ، بل حتى غتقر لها الحفاثر
ليوقصها . ويحتمل أنه كان يتخب القطعان وغتقر أى فرد منها يموت في القتال ؛
ولعله قام بدور إن آوى إزاء البير السيف القدى كان لا يزال جيا في أيامه . ومن
الممكن أن هذا الحافق قد جنح في أثناء من الضر الجليدى وجدائمه البريرة إلى
مهاجمة الحيوانات بد بطورة من التكيف التبات .

ولسنا نستطيع أن نتخيل هيئة هذا الإنسان النياندرتالي . وأكبر الغن كائن
غزير الشعر جداً فوهيته غير إنسانية حقاً . بل إننا لنرى شك من أنه كان يسير مستعجب
القامة . ولعله كان يستجبل يديه بالإضافة إلى قدميه لئلا يسل جسمه . والراجح أنه كان
يضرب في الأرض بمفرده أو في جماعات عائلية صغيرة ، ويدل تركيب فككه على عدم
قدرته على الكلام بالصورة التي نلقونها .

وقد ظل هؤلاء النياندرتاليون آلاف السنين وهم أعلى ما شهدت القارة الأوروبية
من حيوان ؛ ثم حدث منذ حوالي ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ
نحو البقاء قليلاً أن نزح إلى عالم النياندرتاليين من الجنوب جنس من كائنات تحت إليهم
بالقرب ، ولكنه أكثر ذكاءً وأوسع معرفة ، ثم إنهم يتكلم ويتعاون بعضه مع بعض -
فطردوا الجنس النياندرتالي من كهوفه ومتجساته ، وتحصّدوا نفس الطعام الذي كان
يأكله ، ولعلهم قد قاتلوا سابقيهم هؤلاء البشع وأعمالوا فيهم القتل . هؤلاء الوافدون
من الجنوب أو الشرق (فلسنا نعلم في الزمن الحاضر ببلادهم الأصلية) الذين أبادوا
النياندرتاليين آخر الأمر إبادة تامة ، كائنات من نفس فصلا وجنسنا ، وهم الإنسان
الاول الحق . وآية ذلك أن جماجمهم (أوعية أعينهم) وإبهاماتهم وأصابعهم وأسنانهم هم
من الناحية التشريحية نفس ما لدينا . وقد عثر الباحثون في كهف عند كرومانيون وفي
آخر قرب جرجع على عدد من المياكل العظمية ، هي أقدم ما عثر في اليوم من
البقايا البشرية الحقة .

وبذلك يدخل جنسنا في سجل الصخور وتبدأ قصة البشرية .

في تلك الأيام أخذ العالم يصبح أشبه بجالنا وإن بقي المناخ شديداً قاسياً . وقد
أخذت ثلجات العصر الجليدي في التراجع بأوروبا ؛ وسرعان ما أخلت غزلان اترنة
بفرنسا وأسبانيا مكنتها لأسراب عظيمة من الخيول كما تكاثرت الكلاب على السهوب ،
وأخذ المموت يزاد ندرة في جنوب أوروبا حتى تراجع في النهاية نحو الشمال تراجعاً
مطلقاً .

ولسنا ندرى أين نشأ الإنسان الحقيقي أولاً ، ولكن حدث في صيف ١٩٢٢ ، أن
اكتشفت جمجمة بالغة الأهمية مع أجزاء من هيكل عظمي قرب بروكن هل بإفريقيا
الجنوبية ، جمجمة يلوح أنها هيئة نصف نالسمن الإنسان متوسط في خواصه الميزية بين



خريطة رقم (١٩)

النياندرتالي والكائن الإنسان الحق ، وبدل الوعاء الخفى على أن عنه أكبر في القدم وأصغر في المؤخرة من مخ النياندرتالي ، كما أن الجمجمة منتسبة فوق العمود الفقري على شاكلة إنسانية تماماً . وكذلك الأسنان والعظام فإنها إنسانية بحثة ، أما الوجه فالراجع أنه كان غيبه قردى له حروف حواجب هائلة مع بروز على امتداد وسط الجمجمة أجل إن ذلك المخلوق إنسان حق ولكن على وجه التقريب فقط ، لأن له وجهاً نياندرتالياً شبه قردى ، ومن الواضح أن هذا الإنسان الروديس أوثق شبهاً بالإنسان الحق من الرجل النياندرتالي .

والراجع أن هذه الجمجمة الروديسية ليست إلا الدفعة الثانية من مكتشفات قد تتكون منها في النهاية قائمة طويلة من أجناس شبه إنسانية عمرت هذه الأرض في الفترة الزمنية الهائلة الممتدة بين بدايات العصر الجليدي وبين ظهور الإنسان الحق ورشها جميعاً ، ولعله أيضاً ميدها جميعاً ، وربما لم تكن الجمجمة الروديسية نفسها مفرطة القدم ، إذ أن العلماء لم يصلوا حتى يوم صدور هذا الكتاب إلى قرار دقيق بشأن عمرها المحتمل ، وربما كان هذا المخلوق شبه الإنسان يعيش في إفريقيا الجنوبية حتى أزمنة حديثة جداً .

الفصل الحادى عشر

الإنسان الحقيقى الأول

إن أقدم ما يعرفه العلم فى زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لا يتطرق الشك إلى قربتهم لدنات أمتنا ، عثر عليه فى أوروبا الغربية وخاصة فرنسا وأسبانيا . وقد اكتشفت فى كل من هذين القطرين عظام وأسلحة وخدوش على النظام والصخر وقطع من العظم المنقوشة ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور ، ترجع فيما يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر . وأسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المختلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين .

ومن البديهي أن مآلدينا فى الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأحياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمه مستقبلا ، يوم يتواجد العدد الكافى من التكوين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ؛ ويوم يتاح لملء الآثار اريتاد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ، فيفحصونها فى شيء من التفصيل . فمن العلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب بهم بهذه الأمور ويستمتع بحرية الارتياح ، وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرص الحرس كله من أن نستنتج أن الإنسان الحق الأول امتازت به أوروبا الغربية أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة .

وربما انطوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق يغطيها اليوم البحر ، على رواسب تحوى بقايا إنسانية حقة أكثر عديداً وأقدم عهداً من أى شيء عثر عليه حتى يومنا هذا . إنى أتكلم عن آسيا وإفريقيا . ولا أذكر أمريكا ، إذ لم يشر فيها . هذا من واحدة . على أى شيء يعود إلى الحيوانات العليا ، سواء أكانت من القرود العليا أو أشباه الإنسان أو النيامرثالين ، أو الإنسان الأول الحقيقى . ذلك أن هذا التطور الذى تتناول الحياة ، يلوخ أنه شيء اقتصر أمره على السلا القديروحدة تقريباً ، والتظاهر أن الكائنات الإنسانية

لم تتخذ طريقها إلى القارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضي يخترقه الآن مضيق بهرنج ، إلا عند نهاية العصر الحجري القديم .

ويبدو أن الكائنات الإنسانية الحقيقية الأولى التي نعرفها في أوروبا ، كانت تتنصب بالفعل لأحد جنسين على الأقل متميزين تماماً أحدهما عن الآخر . وكان أحد هذين المنصرين من طراز راق جداً فهو طويل القامة كبير اللع . وهناك جمجمة لإحدى النساء يفوق فراغها الخي فراغ مخ الرجل للتوسط في هذه الأيام . كما أن أحدهما كل الرجال يتجاوز الستة الأقدام طولاً . أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنود الحمر بأمريكا الشمالية . وقد سمي هذا الشعب باسم الكرومانى نسبة إلى كهف كرومانيون . الذي وجدت فيه أولى قباهه . كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون من طراز راق .

فأما المنصر الثاني الذي عثر على قباهه في غار جرعافى ، فكان عنصرًا ذا سمات شبه زنجية (نيجريدية)^(١) لا شك فيها . وأقرب الأحياء إليه هم شعبا البوشمن والهوتنتوت يحبون إفريقيا . ولعله لما يثير اهتمامنا أن نجد البشرية منقسمة فعلاً منذ ابتداء قصة الإنسان للوقوف إلى عنصرين رئيسيين اثنين على الأقل ؟ وقد يجمع للراء منا إلى أن يفترض بغير أساس على أن المنصر الأول كان على الأرجح أسمرًا أكثر منه أسود وأنه جاء من الشرق أو الشمال ، وأن الثاني كان أميل إلى السواد منه إلى السمرة ، وأنما جاء من الجنوب الاستوائى .

هؤلاء التوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألف سنة بلغ موت انصافهم بالسمات البشرية أنهم كانوا يشقون الودع ليصنعوا منه القلائد ، وينقشون أجسامهم ، ويصنعون التماثيل من الحجر والعظام ، ويحشون الصور على الصخور والعظام ، ويرمون على جدران الكهوف للساء ، وعلى سطوح الصخور التي تسميهم رسوماً للحيوان وماشاهه ، قد تكون ساذجة ، ولكنها تتم في الغالب عن مقبرة كبيرة .

وقد صنعوا أنواعاً كثيرة من الأدوات ، أصغر حجماً وأدق صنماً مما كان للرجل

(١) النيجريدى Negroid هو المنصر . الذى يشابه الزنج الفكل والنسبت وإن لم يكن زنجياً بحتاً . (الترجم)

التي اندر تالي . وبناحنا الآن مقادير عظيمة من أدواتهم ، وعائلهم الصغيرة ، وما خلقوا من صور على الصخور إلى غير ذلك .

وكان أقدم هؤلاء للتوحشين صيادين ، أم ما تصيدونه الحصان البري ، وهو السيس الصغير للتحى الذى كان يعيش فى تلك الأزمان . كانوا يتقبضونه فى مسيره وراء للرعى وكذلك كانوا يتقبضون الجاموس البرى « اليزون » . وقد عرفوا للاموت ، فإنهم تركوا لنا صوراً أخاذة رائعة لتلك المخلوق وهناك رسم مبهم إلى حد ما ، يدل على أنهم كانوا يوقصونه فى الجبال ويقتلونه .

وكانوا يصطادون بالحرب وبالقذف بالأحجار . ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس ، وإنما لقي شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان . ولم تكن لديهم كلاب . وهناك صورة محفورة لرأس حصان ورسم أو اثنين كأتى بهما يمثلان حصاناً ملجأ ، وحوله جلد أو وتر مجدول . على أن الحيدل الصغيرة فى ذلك العصر وتلك المنطقة لم تكن لتستطيع أن تحمل رجلاً ، ولو فرض أنهم استأنسوا الحصان ، فالراجح أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه . وبما نشك فيه ولا ترجحه أنهم تعلموا طريقة الاعتناء بلبان الحيوان وهى شىء غير طبيعى أو يكاد .

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء ، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد ، وهم وإن قاموا بصنع دى من الطين فإنهم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع الفخار . ولما لم تكن لهم أدوات طبخ ، فلا بد أن طبخهم كان بدائياً أو لا وجود له البتة . وما كانوا يعرفون عن الزراعة شيئاً ، ولا شيئاً عن أى نوع من أنواع صنع الللال أو القماش النسيج . ولولا ما كان لهم من أردية من الجلد أو الفراء ، لجاز لنا أن نقول إنهم من للتوحشين العراة المتقشى البشرة .

ظل هؤلاء الناس الذين هم أقدم من عرف من البشر يصيدون على سهوب أوروبا بالبساطة دهرأ لمدة مئة قرن ، ثم أخذت تغيرات المناخ تعمل فيهم قلبها وتبدل من أحوالهم . فإن مناخ أوروبا أخذ يتحول قرناً بعد قرن ، وصبح أكثر اعتدالاً ومطراً شرأج غزال الرة نحو الشمال والشرق ، وعقبه الجاموس البرى والحصان . وحلت القبايات محل السهوب ، وحل التزال الأحمر محل الحصان والجاموس البرى ، وظهر فى الأدوات وصفاتها تغير محب هذا التغير فى استعمالها ، وبات الصيد من الأشجار

والبحيرات ذات أهمية كبرى للإنسان ، وتزايدت الأدوات العظمية الرفيعة ، يحول ديسموتليه : وإن الإبر العظمية في هذا العصر أجود كثيراً من للتأخرة عنها في الزمن ، حتى ما كان منها في الأزمنة التاريخية إلى عصر النهضة . فلم يكن للرومان مثلاً إلا يمكن مقارنتها بإبر تلك الحقبة .

ثم انتقل إلى جنوب إسبانيا منذ حوالي خمسة عشر ألف سنة شعب جديد من آثاره صور رائعة جداً ، رسمها على سطوح الصخور المكشوفة . هذا الشعب هو الأزيطيون (نسبة إلى كهف ماس دازيل Mas de Azil) . وقد عرفوا القوس ؛ ويلوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش ؛ وكانوا يرمون رؤوساً مشرقة ، ولكنهم حولوا رؤوسهم إلى نوع من الرمزية — فالرجل مثلاً يمثل عندهم بخط رأسي من خطين أفقيين أو ثلاثة — وفي ذلك ما فيه من تلويح بيزوغ فكرة الكتابة . وكثيراً ما نجد إلهام رسوم تخطيطية تمثل الصيد علامات كالتي على قائم المد ، وثم رسم يمثل رجلين يطردان النحل من خليته بالخنا .

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسميهم الباليوليثيين أهل العصر الحجري القديم لجرد أنهم نحتوا الأدوات ، ثم بزغ في أوروبا منذ عشرة آلاف أو اثني عشرة ألف سنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش ، إذ تعلم الإنسان لأن ينحت الآلات الحجرية فحسب بل أن يستقلها ويشتغلها ، كما أنه شرع في الزراعة ، وبذلك أقبلت بداية حضارة العصر الحجري الحديث (النيوليثي) .

وقد يشوق القارئ أن يعلم أنه كان هناك منذ أقل من قرن مضى في صقع ناء من العالم ، هو جزيرة تساميا ، عنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجنائي والقلبي أخفض من أي من هذه الأجناس البشرية الأولى التي تركت آثارها في أوروبا . لقد قطع هذا الشعب التسامائي عن بقية الجنس البشري منذ آباء طويلاً بفعل تغيرات جغرافية ، كما قطع عن عوائل التنيه والتسمن . ويروى أنهم انحطوا بدل أن يتطوروا ويرثقوا وعندما اكتشفهم البكتشفون الأوروبيون ، وجدوهم يعيشون عيشاً خجفياً بمقتدين بالحمار والسيد الصغير ، ولم تكن لهم مساكن بل بيتيمات ، ولا ملكاتهم ربيات حقيقيون من نفس نوعنا ، ولكن تبوزم للهارة البدوية والواهب الفنية التي كان الإنسان البقي الأول يتعلل بها .

الفصل الثاني عشر

الفكر البدائي

لنطلق الآن لأفكارنا النان لتجول في عالم الخيال بضع جولات متعة ؛ فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإنسانيته في تلك الأيام الأولى للمغامرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون وفيهم كانوا يفكرون في تلك الأيام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعة مائة قرن متلت وقبل ابتداء أوان البذار والمحصول ؟ تلك أيام تسقى بزمن مديد كل سجيل مكتوب يدون الانطباعات والأفكار الإنسانية ، لذا ليس أمامنا الآن من سجيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرهما في إجابتنا عن هذه الأسئلة .

وغنى عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقليّة البدائية وإعادة تركيب أجزائها معاً ، متوعة جداً . ففي العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسي قد أتى قدراً عظيماً من النضج على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأسلوبه الذي يتخصص الطريقة التي بها تكشف المواقف الأنانية وال عاطفية في الطفل . أو تعدل أو تغطي بأشياء أخرى ، حتى تيسر تمثيلها وفق حاجات الحياة الاجتماعية (١) ؛ ونعمة مندر آخر للاحتياج ذاتي القطر ، هو دراسة أفكار وعادات للتوحشين الذين لا يزالون يعيشون في هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التطور والجود (٢) العقلي نجد في الفولكلور (الأدب الشعبي) وفي الخزعات والتحف غير للعقولة العميقة الرسوخ في النفوس والتي لا تزال موجودة بين الشعوب العصرية للمدنة . ثم إن لنا في تلك الصور والتماثيل والرسوم المنقوشة والرموز وما أشبهها مما يكثر عدداً وتزايد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقاً وحديراً بالتسجيل والتخيل .

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب: « معتقل في عالم النفس الحديث » ترجمة المترجم لأشكت

تعميلاً لتفاريات التحليل النفسي .

(٢) النضر : تحول الشيء إلى خفية من المفريات . وهو هنا بمعنى عازي هو التجرد والتجبر العقلي وبقاء القديم على قدمه . (للمترجم)

والراجع أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيراً طريقة تفكير الأطفال
أعني أنه كان يفكر في سلسلة من الحيات . فكان يستدعي إلى مخيلته الصور العقلية
للأشياء أو كانت الصور العقلية ^(١) تخدم نفسها لمقله ، كما أنه يتصرف حسبما تخيله عليه
الاتصالات التي تثيرها تلك الأحياء . وذلك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص
غير متعلم . ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الإنسانية
وهو لم يلعب دوراً كبيراً في الحياة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة آلاف سنة الأخيرة .
بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقا في هذه الأيام نفسها وينظمونها فعلاً ليسوا
إلا أقلية ضئيلة من الناس . ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة .

ومن المحتمل أن أقدم ما ظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لقصة الإنسان
الحق ، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة . وكما أن قطعان ورعائل الثدييات
الأولى نشأت عن عائلات ظلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ، فمن المحتمل أيضاً أن
القبائل الأولى قد ظلت مثل ذلك . ولكن قبل حدوث ذلك ، كان الأمر يقتضي أن
تفيد بصورة ما أبحاث الفرد البدائية . وكان لابد من بسط فكري « الخوف من الأب
واحترام الأم » حتى تتفكك في حياة الكبار ، وكان لابد من تخفيف خبرة الرجل الكهل
الطبيعية من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون . وكانت الأم من الناحية الأخرى هي
الناصح الطبيعي والحامي الفطري للصغار . وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن
طريق التفاعل بين التفرقة النقية التي تدفع الصغار إلى الاتصال وتكوين أزواج من
أنفسهم عندما يشبون — وبين ما يترضون له من أخطار العزلة ومضارها . وهناك
عالم من علماء الأجناس البشرية (Anthropology) أوتي عبقرية عظيمة هو « ج. ج.
أنتكينسون » راح في كتابه « القانون البدائي » ، يوضح إلى أي حد يمكن نسبة القانون
العرفي لدى التوحشين — (وهو تلك المخطورات « Taboo » التي هي حزمة بارزة في
الحياة القبلية) — إلى ذلك التوفيق العقلي بين حاجات الحيوان البشري البدائي وبين
حياة اجتماعية آخذة بأسباب التطور . وأظهرت الأيام إلى حد كبير صدق تأويله لهذه الأمور
المحتملة بفضل جهود علماء التحليل النفسي في الآونة الأخيرة . —

ومن الكتاب الليالي إلى إطلاق النان لتأملاتهم من يرون منا أن نعتقد بأن احترام

الرجل العجوز والحرف منه ، والاتصال العاطفي الذي يحسه للتوحش البدائي إزاء العجائز للسنان اللواتي يتولين حمايته ، (وهي وجدانات تزيدنا الأحلام شدة، وضاعفها عبث الأوهام والأخيلة) كانت مصدر خطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ومن فكرة الأرباب والرباب . وما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القدرة على المساعدة شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور في الأحلام . لذا كان من اليسير الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة حقا وأن كل ما في الأمر أنها نقلت نقلا وهميا إلى متأى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها .

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته وعخوفه أكثر إشراقا وواقعية من أحلام الراشد العصري ، وما كان الرجل البدائي دائما إلا طفلا في تفكيره أو يكاد . كما أنه كان أيضا أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التي له وكان يستطيع أن يتدخل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية وحيوانات آلهة . ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون في صفه طفلا واسع الخيال ليدرك من جديد كم كانت الصخور الثرية الشكل أو السكل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لأعين رجال العصر الحجري القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منفذة بالثبور أو مظهره للمودة وكيف كانت الأحلام والأوهام تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ، ما كان يصبح مقبولا ومصداقا عندما يروى . ومن هذه الحكايات ما يكون من الجودة بحيث يتذكر وتماد روايته . وإن النساء ليوينها للأطفال وبذلك يؤسسن التقاليد . ولا يزال معظم واسمى الخيال من الأطفال يخرعون إلى يومنا هذا قصصا طويلة بطلها آدمية محبوبة أو حيوان أثير أو كائن خيالي شبه إنساني ، ولعل الرجل البدائي كان يفعل مثل ذلك — مع اختصاصه بنيل أقوى كثيرا إلى الاعتقاد بحقيقة بطله ، ومرد ذلك أن أقدم من شرف من البشر الحقيقيين ، ربما كانوا كائنات برثارة عامما . وكانوا يختلفون من هذه الناحية عن التياندرتاليين ويمتازون عليهم فالتياندرتالي ربما كان حيوانا أبكم . وحديث الإنسان البدائي ربما لم يزد بداهة عن مجموعة ضئيلة جداً من الأسماء ، وربما كان مصدر مقتضبا مصغوريا بالحركات والإشارات والعلامات .

وليس من أسنان للتوحشين من يبلغ من الاحتياط أن يكون لديه نوع من العلم بالهالة واللامول ، ولكن الرجل البدائي لم يكن قادرا في ربطه السبب بالنتيجة إنما أسهل

ما كان يربط نتيجة بشيء جيد تماماً عن غلبتها . كان يقول : لا أنت تعمل كذا وكذا فتحدث كيت وكيت . فأنت تعطى ثمرة لأحد الأطفال فيموت . وأنت تأكل قلب عدو منوار فتصبح قويا . هذان مثالان للربط بين السبب والنتيجة ، وأحدهما حقيقي والثاني باطل ، ونحن نسمى طريقة ربط الله بالمولود في غفل للتوحشين باسم التبتشة (١) ولكن التبتشة إنما هي قطع علم للتوحشين وهي تختلف عن السلم المصري في حكمونها لا تقوم على أى أساس من التنظيم أو التخصيص ، فهي لذلك خاطئة في الأعم الأغلب .

ولم يكن من العسير في الكثير من الحالات ربط السبب بالآخر ، بينا تحدث في أحيان كثيرة أخرى أن الخبرة صححت على الفور المفكرات الخاطئة ، ولكن هناك مجموعة عظيمة من النتائج ذات أهمية عظمى للرجل البدائي ، كان يلتبس فيها الأسباب بإضرار ولجاجة فلا يستكشف إلا تفسيرات خاطئة ، ولكن خطأها ليس من الكفاية ولا من الواضح بحيث يستطيع استنباطه . ولشد ما كان يهجم أن يكون الصيد قبيحاً والسماك كثيراً سهل الصيد ، ولا شك أنه طلاس جرب آلافاً من التعاويذ والرقى والتدور وآمن بها ليحصل على هذه النتائج للرغوة ، وغمّة شاغل عظيم له هو الرض وللوت . وكثيراً ما كانت العدوى تنتشر ، ويعتو الناس بها أو تضعف أجسامهم دون سبب ظاهر . فهذا الأمر أيضاً لابد أنه كان يسبب لعقل الرجل البدائي للتسرع الانتمالي كثيراً من الإجهاد والقلق . وكانت الأحلام أو التعمينات الوهمية تجعله يولم هذا الرجل أو الحيوان أو الشيء أو يلتبس منهم الموتة . كانت لديه قابلية الطفل للخوف والذعر .

ولابد أنه حدث في زمن مبكر جداً من تاريخ القبيلة الإنسانية الصغيرة ، أن العقول الأكبر سناً والأثبت جناناً ، والتي كانت تسهم في المخاوف وتسمم في التخيلات ، ولكنها أقوى قليلاً من العقول الأخرى ، قد تصدرت للتصنع ووصف الوصفات وإعداد الأوامر . فراحوا يضرحون أن هذا أمر مشؤوم وذلك شيء عتوم ، وأن هذا بشر بخير وذلك تذرير بشر... وكان الخبير بالتبتشة ، وأعني به الطبيب الساحر هو الكاهن الأول . وهو الذي يقدم النصائح ويقرر الأحكام ، ويحذر ويقوم بالتعازيم الجوفاء التي تجلب الحظ وتجنب السكبات ، ولم ترق التباينة البدائية إلى ما نسميه الآن باسم الديانة من حيث هي طقوس وحضائر ، كما أن الكاهن الأول كان يعمل على الناس ما هو في الحقيقة علم عمل محكمي (١) التبتشة وهي اعتقاد للتوحش أن كل شيء ملهي يمكنه روح تقوم تلك التي بالتمسك . (للتبريم)

الفصل الثالث عشر

بدايات الزراعة

لا يزال علنا يبدأيات الزراعة والاستقرار في العالم قاصراً جداً ، وإن يكن قد بذل في هذا السيل إبان الحنين عاماً الأخيرة شيء كثير من البحث وإعمال الفكر . وكل ما يصحنا قوله في شيء من اليقين في الوقت الحاضر ، أنه حدث في مكان ما قبل موله المسيح بخمسة عشر ألف عام أو اثني عشر ألفاً ، بينا الشعب الأزيل يقطن في جنوب أسبانيا وبيننا البقية من الصيادين القدامى تنقل شمالاً وشرقاً ، أن كان هناك في مكان ما بجبال أفريقيا أو غرب آسيا أو بالوادي المتوسط الكبير الذي تضره الآن مياه البحر المتوسط ، قوم داموا عصراً بعد عصر يستكشفون ويتطون شيئاً هامين أهمية حيوية كبرى : ذلك أنهم شرعوا في الزراعة وأخفوا يستأنسون الحيوان كما أنهم شرعوا أيضاً يصنعون أدوات من الحجر للصقول بالإضافة إلى الآلات للنسج التي ورثوها عن أسلافهم الصيادين . وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والفسوجات الخشنة النسيج للصناعة من ألياف النبات ، وشرعوا يصنعون فخاراً بدائى الصنع .

لقد شرع هؤلاء القوم يتقدمون نحو مرحلة من مراحل الثقافة البشرية ، هي العصر الحجري الحديث (النيوليث) تمييزاً له من العصر الحجري القديم (الباليوليث) عصر الكرومانيين والشعب الجرمانى والأزليين ومن إليهم ^(١) وماليت هذا الشعب شعب العصر الحجري الحديث أن انتشر رويداً رويداً في أقطاع العالم إلا كتردفاً كما أن الفنون التي خلقها ، والنباتات والحيوانات التي تعلم أن يستخدمها ، انتشرت معه عن طريق المحاكاة والتقليد ، ولكن بصورة تكاد تتفوق انتشار الشعب نفسه . فلما وافق

(١) ربما لاحظنا أن كلمة « باليوليث » تطلق على الآلات النياترثالية بل حتى الأدوات الحجرية Eoliths ، ويسمى عصر ما قبل الإنسان « الحجري القديم الأول » . أما عصر الإنسان الحقيقى الذى استعمل أحجاراً غير صقيلة فهو « الحجري القديم الثانى » .

سنة ١٠٠٠ ق.م. كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجري الحديث .

وعملات حرق الأرض وبذر الببوب وجنى المحصول والقدس والطحن ، ربما بدت للعقل المصري خطوات بديهية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء وربما تساءل بعض الناس : وما الذى يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء ؟ وعلى أية صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر ؟ ... ولكن الرجل البدائي الذى عاش منذ عشرين ألف سنة ، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج العقلى التى تبدو لنا اليوم أحكيمة جليلة واضحة لديه على الإطلاق . لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية النافعة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء ، مع الشرود إلى تلمصلات خيالية غريبة لا لزوم لها ، وتأويلات خاطئة عند كل لفظة . كان القمح ينمو برىا في مكان ما من منطقة البحر المتوسط ؛ وربما تعلم الإنسان كيف يذق حبوبه ، ثم كيف يطبخها قبل أن يتعلم كيف ييندها بزمن مديد فيكأنه جنى قبل أن يينذر .

ومما هو جدير بالملاحظة حقا أنه ما من صقع من أصقاع العالم وجد فيه بذر وجنى إلا أمكن فيه تحقب آثار ارتباط بدائي قوى بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالدم ، مما التضحية بكائن إنسانى قبل كل شيء . ولا مراء أن دراسة الأصل فى الخلط بين هذين الشئيين تستوى كل ذى لب مستطلع ؛ وما على القارئ الذى يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا للوضع مدروسا دراسة وافية فى ذلك السطر الخالد للوسوم بالنصن الذهبي « Golden Bough » الذى ألفه السير ج. ج. فريرز . ويجمل بنا أن نتذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث فى العقل البدائي الطفولى العالم صانع الأساطير ، ولما قلن نستطيع تفسيره - مهما انتضلنا من أساليب الفكر والاستنتاج للتعلق .

وكل ما يمكننا قوله أنه يلوح أنه كان من عادة ذلك العالم السعيق قبل اثنى عشرة ألفا إلى عشرين ألفا من السنين خلت ، أنه كلما دارت الأيام دورتها وحل أوان البذار على شعوب العصر الحجري الحديث حلت فيه تضحية جبرية . ولم يمكن التضحية بأى شخص خيس أو منبوذ ، بل كانت فى العادة تضحية بشاب مختار أو فتاة متقاة ، وإن كان فى الأغلب الأعم شيا يعامل معاملة تطوى على الإجلال العميق ، بل حتى على

العبادة إلى لحظة تقديمه قربانا . كان يجد ضربا من تلك إله يقدم قربانا ، كما أن كل تفاصيل قته أصبحت طقوسا يتولاها الرجال بالنسبة العارفين ، وبقراها عرف الصور للوروث .

ولا بد أن البدائيين بما لديهم من فطنة ساذجة جداً عن فصول السنة ، كانوا يجدون في البداية صعوبة كبيرة في تحديد أنسب اللحظات للبذر . والقربان في موسم البذار ، وهناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأنه آتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أية فكرة عن شيء اسمه السنة . ثم نشأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية ؛ ويرى بعض العلماء أن السنوات التي يذكرها « الآباء » في العهد القديم إنما هي أشهر قمرية ، كما أن التقويم البابلي تتجلى فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثة عشر شهراً قمرياً لإتمام الدورة . ولا يزال أثر هذا التقويم القمري باقياً إلى يومنا هذا ، ولولا أن مألوف العادة قد بلغ شعورنا ، لبعثنا حقاً من أن الكنيسة للسجدة لا تحتفل بذكرى صلب المسيح وبشبه في الوعد السنوي الصحيح بل في مواعيد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر .

وربما جاز لنا أن نشك أن أحداً من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم والأرجح أن أول من رقب النجوم هم الرعاة الرحل ، الذين كانوا يجدون فيها وسيلة مناسبة لتوجيههم وجبهتهم ، ولكن ما كاد الإنسان يدرك تفهماً في تحديد الفصول ، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جداً ، ومن ثم ربط قربان موسم البذار بمسير أحد النجوم الكبيرة جنوباً أو شمالاً ، وكان اتخاذ ذلك النجم أسطوره ومعبوداً أمراً لا يحصى منه تقريباً عند الرجل البدائي .

من أجل ذلك أصبح من السهل أن تدرك مبلغ الأهمية التي يلقيها في بكور أيام العالم الحجري الحديث ، رجل اللقمة والحجرة ، الرجل الذي كان يعلم علم قريبان الدم والنجوم .

أما الخوف من النجس والتدنس ، والطرق المصنوعة للوضوء والتنظيف ، فحدث عنها ولا حرج ، كمثل آخر من مصادر القوة لقوى العلم الفزرج من الرجال والنساء . وذلك لأن الأمر لم يخل أبداً من ساحرات عند السحرة ، ومن كاهنات فضلاء عن الكهنة .

والكاهن الأول ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقي .
فصله على الجملة تجريبي ، كما أنه في الأغلب من صنف رديء ؛ وكان يحتفظ به
صراً مصوناً ، ويشار عليه من الناس عامة ؛ ولكن ذلك لا يثير جوهر الأمر ،
وهو أن وظيفة الأولى هي « المعرفة » وأن استخدامها الإماسي لديه كان
استخداماً عملياً .

ومنذ اثني عشر ألفاً أو خمسة عشر ألفاً من السنين ، وفي جميع أجزاء العالم القديم
الدقيقة والحسنة الرى إلى حد مناسب ، أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التي تعيش عيش
العصر الحجري الحديث في الانتشار ، بما حوت من طبقة الكهان والكاهنات
وتعاليمهم ، وبما لها من حقوق مزروعة ، وما حصلت من تطور في القرى واللدن
الصغيرة للسورة . وترادفت الصور عصرًا بعد عصر ، وتواصل انتقال الأفكار
وتبادلها بين هذه المجتمعات .

وقد أطلق إليوت سمث وريغرز اسم « الثقافة الميوليثة » (الشمسية الحجرية)
على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى ، وربما لم يكن لفظ « هيلوليث » هذا خير
مصطلح يمكن إطلاله على هذه الثقافة ، غير أنا مضطرون إلى استعماله حتى يوافقنا رجال
العلم بخير منه .

وهذه الثقافة التي نشأت في مكان ما بإقليم البحر المتوسط ومنطقة آسيا الغربية ،
ظلت تنتشر عصرًا بعد عصر ، متجهة شرقاً ومتفة من جزيرة إلى جزيرة
عبر المحيط الهادي حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيما يحتل ، وامتزجت بطرائق العيش
الشيدية البدائية لدى المهاجرين شبه النول (Mongoloids) للتحدين إليها
من الشمال .

— حينما ذهب الشعب الأسمر صاحب ثقافة العصر الحجري الشمسي (الميوليثة) ،
أخذ معه كل أو جل طائفة معينة من الأفكار والمبادئ الغربية . ومنها أفكارات يبلغ
من غزائنها أن تحتاج إلى تدمير من الحجز بالنواحي العقلية . فهم كانوا يقيمون
الأهرام والرقى الضخمة ، وينشئون دوائر عظيمة من الأجبار الكبيرة ، ولعل الغرض
منها كان تسهيل الرصد الفلكي الذي ينهض به الكهان ؛ وعزفوا التحنيط ، وأخذوا

وكثير من الأجناس البولينية ^(١) وشعب الناورى ، إلا أناس تتفاوت قيمتها وسط هذه الكتلة المظلمة الرئيسية من البشرية . وأنواعها النبرية أشد يابسا من الشرقية . على أن جيلا من الناس يدعوه الكثيرون اليوم باسم الجنس النوردي ، ويقع في غابات أوروبا الوسطى والشرقية ، وهو أكثر عذرة وله عيون زرقاء أخذ يتميز بنفسه ، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمراء .

وثمة تفرع آخر كان يحدث في أقاليم آسيا الشمالية الشرقية للنبطة الأكثر براحة اقتضل به فريق من الناس عن هذه البشرية السمراء وأجه إلى تكوين طراز لنفسه عيون أكثر انحرافا ، وعظام وجنات ناعمة ، وجلده مصفر وشعره أسود شديد الاستقامة وهو الشعوب النغولية . وبقيت في جنوب إفريقيا وأستراليا وفي جزائر مدارية كثيرة بحضوب آسيا ، بقايا من الشعب شبه النجمي (النجمي) القديم . وقد صارت الأجزاء الوسطى من إفريقيا بالنظر منطقة تخالط بين الأجناس البشرية . إذ يلوح أن جميع الأجناس الثلاثة التي تقطن إفريقيا اليوم تكاد دماؤها جميعا أن تكون خليطا من شعوب الشمال السمراء ومن طبقه أساسية شبه زنجية .

ويجب علينا أن نتذكر أن الأجناس البشرية تستطيع جميعا أن تتخالط وتتواءم بمشقة الحرية ، وأنها تفتقر ، وتتمزج ثم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب في السماء . والأجناس البشرية لا تفرح كالشجر فروعا لا تلتقي بعد ذلك أبدا . والواقع أن هذا الاختلاط المتكرر للأجناس الذي يحدث عند كل فرصة تسنح أمر ينبغي ألا يغيب عن بالنا البتة فإذا قلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والتحيز القاسية . والناس ينجحون إلى استعمال كلمة مثل « جنس » بصورة قضاة يتجلى فيها إطلاق القول على هواه ، ويبنون عليها أشد أنواع التعاليم مخالفة للثقل وللنطق . ثم يجدونون حتى جنس « بريطاني » أو عن جنس « أوروبي » : ولعكن الأمم الأوروبية كلها تحرياً خلاط مضطربة من عناصر سمراء وأخرى بيضاء قاعة وبيضاء ونغولية .

وكانت حجة التطور الإنساني الهامة بالمصر الجبري الحديث (النيوليثي) هي التي

(١) بوليتيا : مجموعة جزائر بالمحيط الهادئ الجنوبي حول خط طول ١٨٠° وأستراليا وماوي وبيجي وساموا .

اغذت فيها شعوب من الجنس القولى طريقها لأول مرة إلى أمريكا . وواضح أنهم بلغوها بطريقة مضيق بيرنج ثم انتفروا جنوباً فوجدوا في الشمال الكاريبو وهو غزال الرنة الأمريكي ، وفي الجنوب أسراباً كبيرة من الجاموس البرى (البizon) . فقاموا صوا إلى أمريكا الجنوبية كان لا يزال يعيش بها حيوان الجليستودون وهو نوع ضخم من الأرمدادلو ، ولليجاثريوم وهو طراز من حيوان الرسيف ^(١) بشع قبيح الشكل يبلغ ارتفاعه ارتفاع الفيل . والراجح أنهم ألدوا الحيوان الثانى وكان عاجزاً قليل الحيلة على منخامته .

ولم يرتق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية البتة عن مستوى حياة الصيد الرحلية لعصر الحجري الحديث فهم لم يكتشفوا الحديد أبداً ، وكان رأس ما في حوزتهم من المعادن الذهب والنحاس الموجودين في بلادهم . أما الكسكس ويوقطان وييرو ، فكانت ظروفها تؤائم الزراعة للسترة ، وهناك نشأت قرابة ١٠٠٠ ق. م . مدنات شائعة جداً ، تناظر مدنات العالم القديم وإن خالفتها في الطراز . ذلك أن هذه المجتمعات أظهرت — شأن الحضارة البدائية الأقدام منها كثيراً في العالم القديم — تطوراً عظيماً في القرايين البشرية يتصل بعمليات موسم البذار والحصاد ؛ ولكن على حين أن هذه الفصكرات الأساسية قد لظفت في النهاية بالعالم القديم كاسترى وتمقدت ثم غطت عليها فصكرات أخرى ، فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت درجة عالية جداً من الشدة . وبدى أن هذه الأقطار الأمريكية للحضرة كانت بالضرورة أقطاراً متدنية يحكمها الكهنة ؛ وأن قادتهم في الحرب وحكامهم كانوا يخضعون لقواعد صارمة من الشرمة والتطير . . .

وصل هؤلاء الكهان بلم الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والدقة . فمرفقهم بالستين وحسابها كانت خيراً من معرفة الباطنيين الذين سمعناك عنهم من فورنا . وكان لهم في يوقطان نوع من الكتابة ، هو كتابة اللنايا *Maya* ، ومن أعجب ما نقل التاريخ من الكتابات وأعداء إحكاما . وقد عرفنا بقدر ما استطعنا حله من رموزها أنها كانت تستعمل بوجه خاص في تسجيل التقاويم الضبولة للتعدة التي كانت الكهنة يبدون فيها ذكاهم . وبلغ الفن في حضارة اللايا ذروة مجده حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ ق. م .

(١) الرسيف Sloth: أجد أنواع كثيرة من التميميات الفجرية الطويلة الشرايطية الحركة يوجد في غابات أمريكا الجنوبية ويسمى أيضاً حيوان الكلال

وفن النحت عند هذا الشعب يذهل للشاهد المصري بقوة تشكيكه العظيمة وجماله الزاحم كما يحيره بفرائه للضحكة وبسمة جنونية من التقيد والزام التقاليد التي تخرج بالضرورة عن المجال الفكري لملك الشاهد .

وليس في العالم القديم شيء يماثل تماماً . وأدنى الأشياء شبهاً إليه . وهو شبه بعيد يوجد في الطراز القديم للهجور من النحات الهندية . فالريش يتسج مع كل موضع منه ، والتماثيل تنفلت فيه في الداخل والخارج . وكثير من كتابات المايا تشبه صنفاً معيناً من الرسوم المتينة التي يصنعها المجانيق في مستشفيات الأمراض العقلية بأوروبا ، أكثر مما تشبه أى شيء آخر في العالم القديم . فكأن عقل المايا قد تطور في اتجاه جديد يختلف عن الاتجاه العقلي للعالم القديم ، وكأنما تناول أفكاره التواء مغاير وكأنه من ثم ليس البتة منزناً إذا هو قيس بمعايير العالم القديم .

والواقع أن هذا الربط بين الحضارات الأمريكية المتفرقة وبين القول بوجود الانحراف العقلي العام ، يدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم تسلطاً غير عادي . والدينه المكسيكية بوجه خاص كانت تربق الدماء أنهاراً ؛ فكانت تقدم في كل عام آلافاً من الضحايا البشرية . وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء ، واستخراج القلب وهو لا يزال ينبض أم ما يشغل عقول وحياة هذه الكهانات الفرية . فصور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب في غرابته .

أما الحياة العادية لعامة الناس في هذه المجتمعات فهي قوية التشبه بالحياة العادية لأي مجتمع محلي آخر من الفلاحين . وقد برعوا في صناعة اللسان والنسيج والأصباغ . ثم إن كتابة المايا لم تحمر فقط على الحجر بل كانت تكتب وترقى على الجلود وما أشبهها . وتضم دور المتاحف في أوروبا وأمريكا كثيراً من المخطوطات المايوية الهيرة التي لم يزل من معيانتها في الوقت الحاضر عدا التواريخ إلا الشيء القليل . ونشأت في يرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه ، ولكن حلت عليها طريقة للتدوين بواسطة عقد تقعد في الحبوب . وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه من الكتابة بالحيط كوسيلة لمساعدة الذاكرة .

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة ، أي قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، كان ينطوي على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدن الأمريكية ، وهي

« إمبراطورية » مدينة إريتش السومرية ، وهي أول مآذر التاريخ من إمبراطوريات
وكان إلهها وملكها الكاهن يدعيان أن سلطتهما يمتد من الخليج الفارسي إلى
البحر الأحمر .

وكانت الكتابة في البداية مجرد طريقة محزنة من التدوين الصوري . كما أنهى
سعيه إذ أن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجري الحديث نفسه بأزمان
سحيقة . والصور الأزيلى الصخرة التى أشرنا إليها أعظمها بداية تلك العملة . فإن كثيراً
منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية والأشكال الإنسانية في معظمها رسوم متروسة
واضحة . على أن للصور لم يكن يهتم في بعضها بالرأس والأطراف ؛ بل يكتفى بتصوير
الإنسان بخط رأسى وخط آخر أفقى أو اثنين .

وكان من أسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابة تقليدية مركزة
بالصور . وما لبثت خدشات الحروف في كتابة سومر التى كانت تكتب على الطين يعود
أن أصبحت من البدع مماثلة من صور بحيث لم يعد فى الإمكان تمييزها ، أما مصر التى
كان الناس يكتبون فيها - على الجدران ، وعلى خفافق من نبات البردى (وهو أول ما عرف
من أنواع الورق) . فقد بقيت فيها للشاهة بين الحروف وبين الصور التى نقلت عنها
تلك الحروف . والكتابة السومرية تسمى بالكتابة للشارية أو الإسمية أى للشاهة
للشار أو الإسمين ، وذلك لأن الأقلام الخشبية التى كانت تستعمل في سومر ، كانت تحدث
خدوشاً على شكل الوند أو الإسمين .

وتمت خطوة هامة صوب الكتابة . عندما استعملت الصور لالدلالة على الشيء الذى
تمثله بل على شيء مشابه له . ولا يزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم فى ألتاز أسماء الصور
(^(١) Rebus) ، وهى لعبة يحبها الأطفال . وإنا نرسم معسكراً بخيام وجرس ، فينتج
الأطفال حين يخمنون أن هذا يرمز إلى الاسم الاسكوتلندى (Campbell^(٢) كابل) .
واللغة السومرية مكونة من مقاطع مترابطة ، تكاد تعادل بعض لغات الهندو الجرالماصرة

(١) ألتاز أسماء الصور : تمثيل مثلث لأحد الأسماء بصور فيها تورية تمثل أجزاء من
الكلمة (المترجم) .

(٢) هنا يجمع الأطفال الإنجليز بين كلمتي Camp وجرس Bell فتنتج لفظة :
Campbell . (المترجم) .

وقد استجابت في سر لهذه الطريقة للتطبيق في كتابة الكلمات المبررة عن أفكار لا يستطيع نقلها بطريق الصور مباشرة . وصارت بالكتابة المصرية تطورات موازية لهذه . وحدث فيها بعد عندما تمها لشعوب أجنبية تكون لغاتها من مقاطع بدرجة أقل ، أن تعلموا هذه الكتابة بالصور ويستخدموها . أنهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التي تطورت في النهاية حتى أصبحت كتابة الهيكلية ، وجميع ما ظهر في العالم بعد ذلك من أعمديات حقة ، مشتق من خليط من الكتابة السومرية للهارية والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان) . وحدث بعد ذلك في الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضع عليها ، ولكن لم يحدث قط يولد الصين أنها وصلت إلى المرحلة الهيكلية .

وكان اختراع الكتابة ذات أهمية كبيرة جداً في تطور الجماعات الإنسانية . فكان من أثره أن سجلت الاتفاقات والقوانين والوصايا . وهي التي هيأت السبل لتدوول أكبر من دول المدن القديمة . وجعلت في الإمكان قيام وعى تاريخي متواصل وبها أصبح في إمكان أمر الكاهن أو الملك أو خاتمها أن يذهب إلى أماكن بعيدة عن مجال بصره وصوته وأن يقيا بعد موته . ولعل مما يشوقك أن تلاحظ أن الأختام كانت تستعمل بكثرة في بلاد سومر القديمة . وأن الملك أو النبيل أو التاجر ليتخذ خاتماً كثيراً ما يكون محفوراً حراً فنيا جميلاً ، وإنه ليطبعه على أية وثيقة طينية يريد أن يصادق عليها . فكم اقتربت الحضارة من الطباعة منذ ستة آلاف سنة ! ثم يخفف الطين بعد ذلك ويخدو مستديماً . ذلك أن القارئ ينبغي له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان ما لا عديد من السنين ، كانت الرسائل فيها والسجلات والحسابات ، تكتب جميعاً على ألواح غير قابلة للبل نسيماً . وإلى هذه الحقيقة ندب ثروة عظيمة من المعارف للترجمة من بطون الثرى .

ومنذ زمان سحيق جداً كان البرونز والنحاس والذهب والفضة معادن معروفة في مصر وسومر جميعاً ، فضلاً عن الحديد المستخرج من النيازك بوصفه مادة نادرة قيمة . ولما نشك البتة في غدة تشابه الحياة اليومية بمصر وسومر أول أقطار العالم القديم ظهوراً على مسرح التاريخ . عندما تزدنا من وجود الحميز واللغاية في الشوارع ، فلا بد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيراً عن الحياة بمصر حالياً بعد ذلك بخلاصة أو أربعة آلاف سنة . وكان معظم الناس يقضون أوقاتهم زمن السلم في الرى والزراعة لا ينقطعون عنها إلا أيام الحفلات الدينية . لم تكن لديهم قنود ولا كانت بهم حاجة إليها

إذ أنهم كانوا يديرون تجارتهم الصغيرة العارضة بالمقايضة ، واستخدم الأمراء والحكام الذين يملكون دون سواهم للممتلكات الكثيرة قضباناً من الذهب والفضة والأحجار الثمينة في أية صفقة تجارية طارئة يتمونها . وكان للمبد متسلطاً على حياة الناس ؛ وللمبد في سومر بناء كبير شامخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه النجوم ، وهو في مصر بناء ضخيم ليس به إلا طابق أرضى فقط ، وفي سومر كان الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأعظمها . فأما مصر فكان فيها فرد يرفع فوق الكهنة ؛ وهو التجسيد الحي للمثل لرب البلاد الأعلى ، وهو فرعون الملك الرب .

وفي تلك الأيام لم تكن تحدث في العالم إلا تغييرات قليلة ، فالتاس يقضون أيامهم ككادحين في ضياء الشمس ملتزمين لتقاليدهم القديمة . وقل أن هبط البلاد أجني أو غريب ، فمن اغترب منهم لم يذق الراحة طمعا ، وكان الكاهن يدبر شئون الحياة وفق قواعد سحيقة القدم ، ويرصد النجوم ارتقاباً لوقت البذار ويدرس النذر التي تتمخض عنها القرايين ويؤول مايجيء به الأحلام من تحذيرات . وكان الناس يحملون ويشقون ويموتون غير محرومين من أفوايق السعادة ، ناسين ما كان لجنسهم من ماض متوحش وغير عابئين بما يكنه لهم المستقبل . وكان الحاكم في بعض الأحيان رحباً مترقفاً . شأن يبي الثاني الذي ظل يحكم مصر تسعين عاماً ، وكان طموحاً في أحيان أخرى يأخذ أبناء الشعب جنوداً ويرسلهم على دول للندن المجاورة ليقاتلوا وينهبوا ، أو كان يسومهم النساء والكسح في إقامة اللباني العظيمة . كذلك كان خوفه وخضوعه ومنقرع الذين يتوا تلك التواويس الجبارة : أهرام الجيزة . وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ٥٥٠ قدماً ووزن ما به من حجر ٨٨٣٠٠٠ طن . وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل في الزوارق ، ودفعته إلى موضعه قوة الضلالت الإنسانية بوجه خاص . ولا بد أن تشيده قد أنهك قوة مصر أكثر من أية حرب عظمى .

الفصل السادس عشر

الشعوب المترحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة وتكوين دول للدين إبان القرون المحصورة بين ٦٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ق م ، قاصراً على أرض الجزيرة ووادي النيل وجدها ، فحينما أتتحت للناس إمكانيات لرى ومورد لاطعام ثابت على مدار السنة كانوا يتبدلون حياة الاستقرار بصعوبات الصيد والتجوال وعدم ثباتهما . وشرع شعب يسمى بالأشوريين يؤسس للدين في أعلى دجلة ؛ وكانت هناك في وديان آسيا الصغرى وعلى شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، مجتمعات صغيرة أخذت تكبر وتسير في طريقها إلى اللدنية . ومن الجائز أن تطورات عميقة لهذه في الحياة الإنسانية كانت تحدث أيضاً بالمناطق اللواعة لها من بلاد الهند والصين . وكان في أجزاء عديدة من أوروبا كثرت بها البحيرات التي يعمرها السمك بوفرة ، مجتمعات صغيرة من الناس استقرت منذ أمد جيد في مساكن بنيت على أعمدة فوق اللاء ، كما أخذت تظل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها القنص. وصيد السمك . ولكن مثل هذا النوع من التوطن لم يكن بمكان في مناطق العالم القديم التي تسكر عن هذه كثيراً منذ كانت البشرية (وأدواتها وعلمها على ما نعلم من قنص وهجـز) لا تستطيع أن ترسى جذورها وتثبت أقدامها ، إنما كانت الأرض أخشن وأوعر من أن تسمح بذلك ، أو كانت النباتات كثيفة ، أو كانت التربة فقيرة جداً أو اللصول متقلبة عدمة الاستقرار .

وكان الناس يحتاجون إن شادوا الاستقرار في خلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من اللاء ودفء وشمس ساطعة مشرقة . فإذا لم تنبأ هذه للستازمات للانسان ، عاش جوالاً منتقلاً وقضى عمره ضيالاً يتبع صيده ، وزراعياً يتعقب الكلال للوصى ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر . وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الرامى تدريجياً جداً ، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطبان للماشية البرية أو الخيول البرية (في آسيا) ، إلى تكوين فكرة عن تملكها ، كما تطلوا أن يحبسوها في بعض الوديان ، وأن يقاتلوا دونها الذئب والكلاب الضارية والوحوش السكاسرة الأخرى .

ومن ثم فبينما كانت حضارات الزراع البدائية تنمو بوجه خاص في وديان الأنهار العظمى ، كانت تنمو أيضاً طريقة عيش عفايرة لهذه ، هي حياة الترحل ، وهي حياة تقضى في حركة مستمرة ذهاباً ورجوعاً من مرمى الشتاء إلى مرمى الصيف ، وكانت الشعوب المترحلة أصلب على وجه الإجمال عوداً وأصبح قولاً من الزراع ؛ وهم أقل إنتاجاً للأولاد وأقل عدداً ، ولم تكن لهم معابد مستديرة ولا كهانات شديدة التنظيم ؛ وهم أقل أدوات وأجهزة ؛ ولكن لا ينبغي للقارىء أن يستنتج من ذلك أن طريقة عيشهم كانت بالضرورة أدنى تطوراً. فلإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه عديدة حياة أوفى وأكمل من حياة عازق الأرض . فكان الفرد منهم أكثر اعتماداً على نفسه ؛ وأكثر استقلالاً . وكان القائد لديهم أكثر أهمية منه في المجتمعات الأخرى ؛ والطبيب الساحر أقل أهمية فيما يختص به .

ولا شك أن نظرة الترحل إلى الحياة أرحب مجالاً ، لتحركة فوق متسعات مترامية من الأرض . وهو لا يقتضى عى حدود هذه الأرض المستمرة وتلك ، وقد ألف رؤية الوجوه القريبة . ولم يكن له مفر من أن يدبر الخطط في سبيل المرحى وأن يتشام في شأنه مع القبائل النافسة ومعرفته بالمعادن تفضل معرفة الشعوب التي تقطن أرض المهرات ، وذلك لأنه كان يسير فوق الممرات الجبلية ويحترق المناطق الصخرية . ولعل عمله بالصناعات المعدنية كان أكبر من علم الزراع . إذ يحتمل أن صهر البرونز والحديد أيضاً على أرجح التقديرات . كان من المكتشفات التي وصل إليها الرحل . وآية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المستخرج من خامه قد وجدت في أوروبا الغربية على بعد عظيم من الدنيات الأولى .

وكان للمستقرين من الناحية الأخرى منسوجاتهم وغارم كما أنهم كانوا يصنعون كثيراً من الأشياء الرغوية . وبينما كان مذهب الحياة هذان الزراعة والترحل يتأرجح أحدهما عن الآخر ، لم يكن يد من أن يحصل بينهما قدر معين من التهب والاتجار . ولا شك أنه كان من الأمور المألوفة في بلاد سومر بوجه خاص بما يكتشف جانبها من صحراوات وأراض موحية الناح ، أن يحيم القرحلون بالقرب من الحقول المزروعة وأن يسبروا في سرقا . وربما أخذوا صناعة المعادن حرفة لهم ، كما يعمل الأخيار (النور) إلى يومنا هذا (ولكنهم لم يكونوا ليسرقوا الدجاج كالأخيار ، لأن الدجاجة التي ليسوقها في الأصل دجاجة إعرافى عتدية . لم يتأقنوها الإنسان إلا حوالي ١٠٠٠ ق . م) . وإتهم (٥ — تاريخ العالم)

ليجتلبون للزراع الأخبار الكرمية والصنوعات المدنية والحرفية ، فإن كانوا يهاذرون جلبوا معهم الفراء . ولأنهم ليجلبون مقابلها على الفخار والحروز والزجاج واليابس وما إليها من أشياء مصنوعة .

وكانت هناك ثلاث مناطق رئيسية وثلاثة أصناف رئيسية من التجمعات والامتيازات غير الثابتة في تلك الأيام السبعة التي قامت فيها الحضارات الأولى بسومرو ومصر القديمة . فهناك في الغابات النباتية بأوروبا ، كانت تقيم الشعوب النوردية للشعراء المسكونة من قناصين ورعاة ، وهم جنس خميس القدر . ولم تر الحضارات البدائية إلا النذر اليسير جداً من ذلك الجنس قبل ١٥٠٠ ق م . وكانت تقيم في السهوب القصية من آسيا الشرقية ، قبائل متنوعة ، هي الشعوب المورونية . وهي تستأنس الحصان ، وتكون في نفسها عادة الحركة الموسمية السبعة المجال بين مواضع ضرب خيامها صيفاً وشتاء . ومن المحتمل أن الشعوب النوردية والمورونية كانت لا تزال تفضلها بعضها عن بعض مستنقعات الروسيا ، كما يفضلها بحر قزوين الذي كان في ذلك الزمان أعظم روضة . ذلك أن قدراً عظيماً من الروسيا كان حينذاك مكوناً من مستنقعات وبحيرات .

أما صحراوات سوريا وبلاد العرب ، التي كان جديها وجفافها آخذاً عند ذلك في الزيادة ، فإن قبائل من شعب أبيض قائم أو أسمر ، هي القبائل السامية ، كانت تتدفع فيها قطعاناً من الغنم والمز والحيز من مرعى إلى مرعى . وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم ممة نيجريدية قوية وموطنهم جنوب إيران ، هم الميلانيون) ساءلوا الرحل الذين اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالحضارات الأولى جاءوا متجربين ومفكرين ، حتى إذا ظهر فيهم في النهاية قادة أجراً جناناً ، أصبحوا غزاة لأعجب .

وفي قرب من ٢٧٥٠ ق م ، كان قائد سامي عظيم شو « سرجون » قد فتح بلاد سومر بأكملها ، وأصبح مبدأ لحكام كله من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط . كان جميعاً آمياً وتعلم جميعه الأكاديون الكتابة السومرية ، وأخذوا السومرية لغة للوظائف والطب . وبعد قرنين من الزمان انحطت الإمبراطورية التي أسسها ، حتى إذا وتقسيم البلاد في قبضة الساميين ، جاء شعب سامي جديد ، هو السوربون ، فوطد بالتدريج دعائم حكمه في سومر . وأخذوا من بابل عاصمة لهم . وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعلى النهر . — وأنشأوا إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى ،

وقد وقع من هاتها وعد من تماسكها ملك عظيم اسمه حورابي (حوالي ٢١٠٠ ق. م.)
وهو الذي سن أول مجموعة من القوانين يعرفها التاريخ اليوم .

أما وادي النيل الضيق فإن موقعه جعله أقل من أرض الجزيرة معرضاً لغزوات
الرحل ، ولكن حدث حوالي عهد حورابي أن نجح الساميون في غزو مصر
وأقاموا أسرة جديدة من الفراعنة ، ثم ملوك المنكسوس أو الرعاة ، الذين دام ملكهم
قروناً عديدة . ولم يندمج هؤلاء الغزاة الساميون قط بالمصريين ، وذلك لأن الشعب
كان ينظر إليهم على أنهم غزاة العداء بوصف كونهم أجانب وبرايرة . وأخيراً طردتهم
من البلاد ثورة شعبية حوالي ١٦٠٠ ق. م. .

على أن الساميين كانوا قد استقروا في بلاد نوح إلى الأبد ، وتمثل الجنسان
بعضهما بعضاً ، وأصبحت الإمبراطورية البابلية سامية في لغتها وسماتها .

الفصل السابع عشر

أول الشعوب البحرية

لابد أن أقدم القوارب والسفن أخذت تستعمل منذ خمسة وعشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من الأعوام . ولعل الإنسان كان يحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب أو قرية منبوعة ، في زميت لا يقل عن بدايات العصر الحجري الحديث . وكان زورق من السلال مغطى بالجهد مقلط التيجات يستخدم في مصر وسومي منذ مستهل معرفتنا بهذين القطرين ، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك ، كما أنها لا تزال تستخدم حتى الساعة في إرلندة وويلز وألاسكا ، حيث لا تبرح زوارق من جلد الفخمة تستخدم لعبور مضيق بيرنج ، فلما تحسنت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية المجوفة ، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره في تعاقب طبيعي .

وربما كانت أسطورة فك نوح استبقاء قد كرى مغامرة في بناء السفن ، مثلما أن قصة الطوفان القائمة الصيغ بين شعوب العالم ، ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن عمر حوض البحر المتوسط بالمياه .

وكانت السفن تخمر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمان مديد ، كما كانت تمة سفن على البحر المتوسط والخليج الفارسي منذ عام ٧٠٠٠ ق . م . والأغلب أن هذه السفن كانت ملكاً للصيادين ، ولكن بعضها كانت فلامناً لتجارة والقرصة . ذلك أنا نفترض بناء الاطمشان عرفانا منا بالطبيعة البشرية ، أن البحارة الأول كانوا ينهبون حيث يستطيعون ؛ ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك .

وكانت البحار التي تنامر فيها هذه السفن الأولى محاراً داخلية تهب عليها الرمح في اندفاعات فجائية ، أو تقطع في القالب انقطاعاً تاماً أيما يرمتها . لذلك لم تتقدم الملاحة ولم تتجاوز مرحلة الاستعمال الإضافي ، ولم تتطور سفينة الملاحة الحسنة المعدة للمخافة للبحر إلا في السنوات الأربعمئة الأخيرة ، وسفنت العالم القديم إنما هي بالضرورة

سفن تجديف تلازم الشاطئ ، وتلوح بالرفق عند أول بارقة للبحر العاصف . حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة ، أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلى أسرى الحرب ليكونوا أرقاء للسفن .

سبق أن أشرنا إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب ، على صورة متجولين ورحل وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الأكادية أولاً ثم البابلية الأولى . وتزعت هذه الشعوب نفسها في الترب إلى البحر . لذلك أقاموا مجموعة من المرافئ على امتداد الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، كانت أهمها صور وسيدا ، فلم يأت عهد حمورابي في بابل حتى كانوا قد انتشروا في طول حوض البحر المتوسط وأخذوا يتجرون ويتجولون ويستعمرون .

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين . استقروا إلى حد كبير بأسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل السكان القدامى من شعب الباسك الإيبيري ، وأرسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل ؛ كما أنهم أقاموا المستعمرات على شاطئ إفريقيا الشمالى . وسنذكر - فيما بعد - يانا هن قرطاجة إحدى تلك المدن الفينيقية .

على أن الفينيقيين لم يكونوا أول شعب يجرى السفن على صفحة البحر المتوسط . إذ كانت هناك آفا سلسلة من المدن والبلاد تنتشر على جزائر ذلك البحر وهواطته وتنسب إلى جنس أو أجناس تلوح كأنها ترتبط برابطة الرحم واللفة بالباسك غربا والبربر والمصريين جنوبا ، وهى الشعوب الإيجية .

وينبغى أن لا نخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق ، الذين يدخلون مسرحنا بعد ذلك بكثير ؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهداً ، وإن كانت لهم مدن في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، منها : مثلاً : ميسيناي ، وطروادة ؛ كما كان لهم في كنوسوس جزيرة يكرت مستقر مريض الرغد عظيم الثراء .

ولم تظهر لنا جمود علماء الآثار القدامين ، بل الحقائق منى انتشار الشعوب الإيجية . ونكشف لنا عن حضارتهم على الأقل في القرنين سبعة والأخير من ذلك إن آثار كنوسوس ارتدت لارتداداً بالتمام والكمال ، ومن غير الطالع أنه لم يبق فيها أثر من حضارتها . كانت من البكر

بحيث تدمر أطلالها ، ومن ثم قضى الصدر الرئيسى لمعلوماتنا نحن تلك الحضارة التي
كاد النيان يرم عليها .

وتاريخ كنوسوس يبادل في قديمه تاريخ مصر ؛ وكانت التجارة بين القطرين
نشطة عبر البحر حوالي ٤٠٠٠ ق . م وبلغت الحضارة الكريتية أوج عظمتها حوالي
٢٥٠٠ ق . م أي بين عهدى سرجون الأول وحمورابي .

لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قصراً عظيماً للعاهل الكريتي وتعبه ،
بل إنها لم تكن حصنة . فلم تحسن إلا قداماً بعد عندما قويت شوكة المينيقيين ، وعندما
انحدر إليها في البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد قسوة ، هو الإغريق .

والعاهل عندما يلقب بالمينوس Minos ، شأن العاهل المصري للقب بالفرعون ؛
وكان يدبر شئون دولته من قصر مزود بالماء الجارى ، وبه الجماعات وما أشبهها من
وسائل الترف التي لا نعرف لها ضرباً في أى طلل آخر من الأطلال القديمة . وهناك
كان يقيم حفلات وأعياداً عظيمة . وكان لديهم مصارعة ثيران تغايه مشابة قرصة
بمصارعة الثيران التي لا تزال باقية في أسبانيا ؛ والشاببة قائمة في الحالين في كل شيء حتى
في ثياب مصارعى الثيران ؛ وعة حفلات لألعاب الجياز . أما ثياب النساء عندما قضى
عصرية الروح بشكل يلفت النظر ؛ فلهن كن يرتدين اللشدات والأثواب ذات الأهداب
للدلاة . والكثير مما أكتسبه هؤلاء الكريتيون من الفخار والنسوجات وفن النحت
والتصوير والجواهر والمج والمعادن والتطعيم بالصدف وغيره جميل جداً مذهناً .
ولاقوم طريقة الكتابة لا تزال تنتظر من يحل رموزها .

وقد دامت هذه الحياة السعيدة للشرق للمدة ما يقارب العشرين قرناً . فلو
استمررت كنوسوس وبابل حوالي ٢٠٠٠ ق . م لوجدتهما تسبان بآناس مثقفين
يسمون بوسائل الراحة ويعيشون في الراجح حياة دعة ومسرة . وهم يقيمون الحفلات
والأعياد الدينية ، ولديهم هيد للنازل الذين يقومون بلى خدمتهم والصيد الصناعات الذين
يدرون عليهم الربح . فكم كانت الحياة في كنوسوس تبدولي بين هؤلاء الناس آمنة مطمئنة ،
ومن فوقها الشمس تضيئها الباهر ومن حولها الحج البحر الزرغار القرامية : ومن

الديهي أن مصر كانت تبدو في تلك الأيام قطراً متدهوراً ، وهي تحت حكم ملوكها
الرعاة نصف الممّج ، وإذا كنا نحن مهتمون بالسياسة ، لم نفتأ أن نلاحظ كم كانت
الشعوب السامية تنقشر في كل مكان : فهي تحكم مصر وتحكم بابل القوية ، وتبنى
نينوى بأعلى الدجلة ، وتبحر غرباً حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وتنشئ
مستعمراتها على تلك السواحل النائية .

ولا شك أنه كان في كنوسوس بعض العقول المفكرة الحية للاستطلاع ، إذ تحدثت
أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريت حاذق اسمه دايدالوس ، حاول أن ينشئ ضرباً
ممن آلة الطيران لها طائرة شراعية ، ولكنها سقطت وهوت إلى البحر .

ومن الشائقي أن تدرس بعض أوجه الشبه والخلاف بين الحياة في كنوسوس
والحياة عندنا . فإن الحديد كان يعد عند أي سرى من الكريتيين يعيش في ٢٥٠٠
ق . م معدناً نادراً يسقط من السماء كما كان شيئاً طريفاً أكثر منه نافعاً — إذ
لم يكن الناس يعرفون حتى آنذاك إلا حديد النيازك ، ولم يكن أحدهم قد استخلص الحديد
بعد من خامه المعروف . وعتدى أنه لا وجه للموازنة بين هذه الحال وبين حالتنا
الصرية التي يدخل الحديد في كل مرفق من مرافقها . ومن جهة أخرى يكون الحصان
حيواناً أسطورياً تماماً لدى سرية كريت ، فهو عندهم صنف من الحمار الراقى يعيش في
الأراضي الشالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود بمسافات شاسعة . وديهي أن أم
موطن للحضارة لدى السرى الكريتي كان المنطقة الإيجية وآسيا الصغرى ، حيث كان
الليديون والكاريون والطرواديون يعيشون عيشاً كعيشة وربما يتكلمون لغات كلغة.
وكان ثمة فينيقيون وإيجيون يستقرون في أسبانيا وشمال إفريقيا ، ولكن تلك
الأنظار كانت تترامى لمن خياله بلاداً صحيحة البعد . وكانت إيطاليا لا تزال أرضاً
موحشة تطيحها الثغابات الكثيفة ، إذ لم يكن الإرمسك (التومكان) ذوو البشرة
السمراء قد انتقلوا إليها بعد من آسيا الصغرى . ولعله حدث ذات يوم أن هبط ذلك
السرى الكريتي إلى الميناء ورأى أسيراً استرعى انتباهه بشدة شفرته وزرقة عينيه .
ولعل هذا السرى حاول أن يتحدث إليه فلقى الجواب رطالة غير مفهومة . جاء هذا
الخلق من مكان ما وراء البحر الأسود ، وبدأ كما هو متوحش منط الثقافة . ولكنه
كان في الواقع أحد أفراد القبائل الآرية ، وسنحدثك من فورتنا بالشئ الكثير عن

جنسه وثقافته ، كما أن الرطانة السحيبة التي تحدث بها هي التي قدر لها أن تتمايز فيما بعد إلى السنسكريتية والفارسية والإغريقية واللاتينية والألمانية والإنجليزية . ومعظم لغات العالم الرئيسية .

تلك هي كنوسوس في أوج مجدها : - ذكية مغامرة مشرقة سميدة . ولكن كارثة زلت بها قرابة ١٤٠ ق . م ، ولعلها ذهبت برغدها على حيق بنة ، فدمر قصر مينوس ولم تبق أطلاله يد ولا أقدام به أحد منذ تلك الساعة . ولستأفدى كيف حدثت هذه الكارثة . ولكن المحتررين من علماء الآثار يشهدون به أثر التهب والبعثرة وعلامات الحريق . ولكن وجدت كذلك آثار لزلازل عنيف متميز . وإذن فربما كانت الطبيعة وحدها هي التي دمرت كنوسوس ، وربما آثم الإغريق مابداً الزلازل .

الفصل الثامن عشر

مصر وبابل وآشور

لم يخضع المصريون البتة برضاء تام لحكم ملوكهم الرعاة السامين ، ثم قامت حركة وطنية قوية حوالي ١٦٠٠ ق . م ، انتهت بطرد الناصب الأجنبي من البلاد . وأعقب ذلك دور انتماش جديد لمصر ، وهي فترة يطلق عليها علماء الدراسات المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة . فإن مصر التي لم تكن قبل غزوة الهكسوس قوية التماسك أصبحت آنذاك قطراً متحداً تماماً ؛ وكان لفترة خضوعها لنير الأجنبي وثورتها عليه الفضل في إذكاء الروح العسكرية بها . فأصبح الفراغة غزاة لأعين ، خاصة وقد حصلوا قبل ذلك على حسان القتال وعجلة القتال ، التي جلبها الهكسوس معهم وسرعان ما بسطت مصر سلطانها في آسيا حتى نهر الفرات في عهد نخوتيس الثاني وأمنوتوب الثالث (أمينوفيس) .

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب دامت ألف سنة بين حضارتى النيل وأرض الجزيرة التي كانتا يوماً متفضلتين إحداهما عن الأخرى تماماً وكانت لمصر الغلبة أول الأمر . وجاءت الأسر الكبرى وهي الأسر الثامنة عشرة التي من ملوكها نخوتيس الثاني وأمنوتوب الثالث والرابع وملكة عظيمة هي حتاتسو ، والأسرة التاسعة عشرة ومنها رمسيس الثاني (ويحسبه بعضهم فرعون موسى) الذي حكم سبعة وستين عاماً ، - رفعت هاتان الأسرتان شأن مصر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء وفيما بين ذلك آلت بمصر أدوار التدهور ، إذ غزاها السورليون ثم غزاها الإيتوبيون من الجنوب فيما بعد .

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهرأ ، ثم ارتفع شأو الحيثيين بها فسوربي دمشق إبان دور عزة قصر الأم ؟ وجاء أوان غزا فيه السورليون مصر ، وترجع نجم الآشوريين في تينوى بين السعود والأفول ؛ فخارة تصكون للدينة منزوعة مهضبة ؛ وتارة يحكم الآشوريون بابل وشيرون على مصر . والبراح الذي بين يدينا أضيق من

ان يسمح لنا بأن نحدثك عن غدوات وروحانيات جيوش مصر والدول السامية للتوسع
بآسيا الصغرى وسوريا وأرض الجزيرة . وعجبتك أنها كانت آنذاك جيوشاً مزدوجة
بأرتال ضخمة من السجلات الحربية ، ذلك أن الحصان (الذى لم يكن يستخدم إلا فى
الحرب وإظهار العظمة) كان قد انتشر فى ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد
الديانات القديمة .

ويظهر على السرح فى النور الخافت للبحث من ذلك الزمن السعيق غزاة كبار
يظهرون ثم يذهبون ، منهم قسراتا ملك ميثانى ، الذى استولى على نينوى ، ومنهم
وتجلاث بلسر الأول الذى فتح بابل . وأخيراً أصبح الآشوريون أعظم قوة خيرية فى
فى ذلك الأوان . فنزاتجلاث بلسر الثالث بابل فى ٧٤٥ ق . م ، وأسس ما يسمى
للزورخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وكان الحديد قد وفد الآن هو أيضاً من
الشمال إلى بلاد الحضارة ؛ إذ حصل عليه أولاً الحيثيون أسلاف الأرمن وضمهم أخذه الآشوريون
كما أن مغتصباً للعرش الآشورى ، اسمه سرجون الثانى صلح به جيوشه فكانت مملكة
آشور أول قطر أخذ يبدأ الحديد والدم . وزحف سنحريب بن سرجون بجيشه إلى
حدود مصر ، ولكنه ارتد عنها لا لمزعة لحقته من قوة عسكرية بل بسبب وباء الطاعون .
وتم لحيد سنحريب الملك آشور بانينال (الذى يعرف أيضاً فى التاريخ باسم الإغريق
ساردانابالوس) فتح مصر فعلا فى ٧٦٠ ق . م . لكن مصر كانت فى ذلك الحين قطراً
محتلاً تحكمه أسرة إثيوبية . فكل الذى فعله ساردانابالوس هو أن أحل فاتها
محل آخر .

فلو أتيت لنا مجموعة من الحرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ ؛
للمتدة على تلك القرون العشرة ، لوجدنا مصر تمتد وتنقلس كما تنقلس آسيا تحت
المعسكر وسكوب ، ولرأينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين
وسوريين نجى ، وتندو ، وتبتلع إحداها الأخرى ثم تمود فتلتفط إحداها الأخرى مرة
ثانية . وإنا نجد فى غرب آسيا الصغرى دولا إيجية صغيرة مثل ليديا ، التى كانت عاصمتها
سارديس ومثل كلريا . ولكن الذى حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق . م وزيجا قبلها ،
هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم المتيق ، هابطة من الشمال
الشرقى والشمال الغربى . وما هذه إلا أسماء قبائل همجية معينة ، تتسلح بأسلحة الحديد
وتستخدم العجلات التى تجرها الخيل ، وتغير على الحضارات الإيجية والسامية فى مناطق

تخومها الشمالية وتزل بها السكبات . وكانوا جميعاً يتكلمون ضرباً مختلفاً من لسان كان في الأصل لغة واحدة ، هي الآرية .

أخذ الميديون والفرس يسيطرون من الشمال الشرقى للبحر الأسود وبحر قزوين . وتغلط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكثيين (الأشقدزين) والصرمانيين . ومن الشمال الشرقى أو الشمال الغربى انهدم الأرمنيون ، وجاء من شمال غربى ذلك البحر الفاصل وبطريق شبه جزيرة البلقان الكيرون والفرجيون والقبائل الهلانية التي تسمى الآن باسم الإغريق .

كان هؤلاء الآريون مقبرين وسارقين ونهابين للبلد ، سواء في ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب . كانوا جميعاً شعوباً متشابهة تربط بوهائج الرحم ، كما كانوا رعاة أشداء زرعوا إلى السلب والنهب . على أنهم لم يكونوا في الشرق إلا سكاناً نازلين على التخوم وجيراناً مقبرين ، ولكنهم استولوا في الغرب على المدن وطردوا منها السكان الإيجيين المدينين . وبلغ الضيق بالشعوب الإيجية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم في مناطق تخرج عن مثال الآريين . فأخذ بعضهم يحاول السكنى في دنيا النيل لولا أن صدم المصريين ؛ وبعضهم وهم الإرسك يفرح أنهم أجبروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة في برارى وسط إيطاليا الكثيف الغابات ؛ وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر للتوسط الجنوبية الشرقية ، وأصبحوا فيما بعد الشعب المعروف في التاريخ باسم الفلسطينيين .

سنزيدك في فصل تال يانا عن هؤلاء الآريين الذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة بتلك الحشونة البالغة . وستقتصر هنا على مجرد الإغارة إلى مجمل تلك الحركات والمجرات التي حدثت في منطقة الحضارات القديمة ، والتي بدأت بدوام التقدم التدريجى للعواصم هؤلاء الآريين المجمع المهابطين من الغابات والبرارى الشمالية بين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق.م.

وسنزيدك أيضاً في فصل تال عن شعب سامى صغير ، هو العبرانيون ، سكان ما وراء سواحل الفينيقيين والفلسطينيين من تلال ، الذين بدأت أهميتهم في الظهور في قديم من نهاية هذه الفترة . ذلك أنهم أصبحوا « أدبا » أو « أهمية كبيرة فيما تلا تلك

من عصور التاريخ ، وذلك الأدب هو مجموعة من الكتب والتواريخ والقصائد وكتب الحكمة وأسفار التنبؤات وهو التوراة العبرانية .

ولم يسبب ظهور الآريين أى تغيير جوهري بأرض الجزيرة [العراق] ومنعزل الأبد ٩٠٠ ق م . ولابد أن فرار الإيجيين أمام الإغريق بل حتى تدمير كنوسوس ، قد بدا لكل من سكان مصر وبابل حركة اضطراب غالية جداً . وكانت الأسر المالكة تذهب وتجيء في هاتين الدولتين مهدا الحضارة ، على أن الحياة البشرية سارت في مجراها الرئيسى ، وإن حلت بها يبطء على مر العصور زيادة طليقة في التهذيب والتعميد . وأما مصر فكانت الآثار التى تكلمت عن العصور التليدة السابقة قد زادت كثيراً بما أضيف إليها من ميان جديدة فاخرة ، شهدت بوجه خاص في عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة كما كانت فرجة يتخرج عليها الزوار كما يفعلون الآن تماماً ، ويرجع مبدأ السكرنك والأقصر الكيوان إلى ذلك الزمان . أما نينوى فإن الآثار الرئيسية بها : المعابد الكبرى والثيران للجنحة ذوات الرؤوس البشرية ، والحفر البارز الذى يمثل الملوك والسجلات وصيد الأسود — من صنع تلك القرون بين ١٦٠٠ ، ٩٠٠ ق م . كما أن هذه الفترة تشمل أيضاً على معظم ما بلغته بابل من أبهة وجلال .

ولدينا الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعاً سجلات عامة كثيرة العدد ، وحسابات لأعمال تجارية وحكايات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة . ومنها نعلم أن حياة المصريين وفوى النفوذ فى مدن من أمثال بابل وطيبة المصرية ، تكاد تبلغ من التهذيب والترف مبلغ حياة من يستظلون الرقابة واليسار فى أيامنا هذه .

كان هؤلاء الناس يعيشون عيشة منتظمة حافلة بالواسع ويقطنون منازل جميلة الشكل أنيقة الأثاث والزخرفة ، ويرعدون ثياباً جزلة الزينة والوشى وجواهر بديعة وكانت لهم أعياد وحفلات فإن شاء الواحد منهم أن يكرم الآخر ويسليه أحكمه بالموسيقى والرقص ، كما يقوم على خدمتهم خدم رقيقو التدريب ، كما كان الأطباء وأطباء الأسنان يعالجونهم . وهم لا يكترون من السفر وإن فعلوا لم يذهبوا جيداً ، ولكن التزعة بالزوارق كانت من أسباب السرة صيفاً فى كل من نهري النيل والفرات . أما دابة الحمل

هتدم قهى الحمار؛ فى حيق لم يستخدم الحصان إلا فى المرات الحربية والناسيات الرسمية دون غيرهما . وكان البخل لا يزال حينئذ جديداً ، كما أن الجدل لم يكن قد دخل مصر بعد وإن عرفته أرض الجزيرة من قبل . ومن الطبع أن الأوعية المصنوعة من الحديد كانت قليلة ؛ إذ أن النحاس والبرونز ظلّاها للعدنان للتكران . وكانت الرفائع من أنسجة القطن والتيل معروفة هى والصوف . ولكن لم يكن هناك حرر . وعرف الناس الزجاج وأضفوا عليه الألوان الجميلة ، ولكن الأوعية الزجاجية كانت فى العادة مشيرة . ولم يكن الزجاج صافيا شفافا كما أنه لم يستخدم فى الصدسات . وكان الناس يحشون أسنانهم بالذهب وإن لم يضرؤا للتأثير فوق آؤفهم . .

وهناك فارق عجيب بين الحياة فى طية القديمة أو بابل وبينها فى الصور الحديثة ، هو غيبة العملة المسكوكة . فالقايضة هى الأساس فى القدر الأعظم من الصفقات التجارية . وكانت بابل تسبق مصر من الناحية المالية بأعوار بيّنة . واستعمل الذهب والفضة فى التبادل وجسلا فى صورة سبائك ؛ وقبل سك النقود بزمن مديد كان هناك أصحاب مضارب ، يمتعون أسماهم وألوزن على تحذ السكتل من المعدن النفيس . وكان التاجر أو المسافر يحمل الأحجار الجنية ليبيها ويطلق منها . وكان معظم الحدم والعمال عبيدا لا يتأولون أجورهم نقدا بل عينا . ولما ظهرت النقود انحط الرق .

ولو أن زائرا من أهل عصرنا زار هاتين المدينتين اللتين أصبحتا تابعا على مفرق العالم القديم ، لاقصد صنفين هامين جداً من أصناف الغذاء ، هما الدجاج والبيض . ولذا فإن الطاهى الفرنسى ما كان يحدسرة كبيرة فى بابل . فإن هذين الصنفين وصلا من الشرق فى عصر الإمبراطورية الآشورية الأخيرة تقريبا .

وكذلك الديانة قد ألم بها ككل شىء آخر تهذيب عظيم . إذ اخضت القرابين البشرية مثلا منذ أمد بعيد ؛ وحل الحيوان أو الدمى المصنوعة من الخبز محل الضحية . (على أن الدينين وخاصة سكان قرطاجنة أعظم مستقراتهم فى إفريقيا ، اتهموا نيا بد بالتضحية بالكائنات البشرية) . وجرت العادة كلمات رئيس كبرى الأيام الحالية أن يضى زواجه وعييده وأن تكسر الحراب والقسى عند قبره ، وذلك لى لا يكون فى عالم الأرواح بلا اتباع ولا أسلحة . وقيت بمصر عن هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة هى دفن نماذج صغيرة للبيت والدكان والحدم والماعية مع الميت ، وهى

نحتاج عددا اليوم بأروع تخيل حتى يمتلك الحياة الواعدة الثقافة لهذا الشعب العتيق قبل
ثلاثة آلاف سنة أو تزيد .

هكذا كان العالم القديم قبل انحدار الآريين من غابات الشمال وسهوله . وحدثت
بالمند والصين تطورات موازية لهذه . فقد نشأت بالوديان السكينية بهذين القطرين
كلهما دول مدن زراعية لشعوب سمراء وأخذت تنمو وتزدهر ، ولكن لا يندو أنها
تقدمت أو اتلفت ببلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر . لذا كانوا أدنى
إلى مستوى السومريين أو مربية حضارة النابا الأمريكية . أما الصين فتاريخها لا يزال
بحاجة إلى علمائها لكي تضي عليه الطابع العصري وتقيه من كثير مما يشوبه من
أباطير . والراجح أن الصين كانت في ذلك الأوان أكثر تقدما من الهند . وقد
عاصرت الأسرة الثامنة عشرة بمصر ، أسرة إمبراطورية في الصين ، هي أسرة شانج ،
وهم أباطرة كهنه يحكمون إمبراطورية منحة الروابط من ملوك قاجين . وكان رأس
واجبات هؤلاء الأباطرة الأول هو تقديم القرابين للوسمية . ولا يزال هناك إلى اليوم
أوان برونزية جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج وفيها من الجمال وجودة الصنع ما يجعلنا
نحس بأنها لم تصل إلى ما بلغت إلا بعد قرون عدة من الحضارة .

الفصل التاسع عشر

الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة، أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م، كانت أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا الوسطى أدفاً مناخاً على الأرجح، وأكثر مطراً وعلات ماضي الآن. وكانت تتجول في هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من النصار. النورد في الأقطر الأزرق البيون بلغ من اتصالهم بعضهم ببعض أن لناتهم لم تزد حرج مجرد فروج متنوعة من لغة واحدة مشتركة تنتشر من نهر الراين إلى بحر قزوين. ولعلهم لم يكونوا في ذلك الوقت شعباً وثير العدد جداً، ولعل البابليين الذين كان حواري يمنهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم. ولا أحست بهم أرض مصر العريقة آنفاً في القدم والتخيف، والتي كانت تذوق في تلك الأيام لأول مرة مراوة النزو الأجنبي.

وقد لهذه الشعوب النوردية أن تلب دوراً هاماً جداً بالفعل في تاريخ العالم. كانوا شعوب أحرار أو أراض قطعت منها الثابات؛ ولم يملكوا الحصان في البداية وإن وجدت فيهم اللحية؛ فلذا هم تجولوا وضوا خيامهم وبقية متاعهم على عربات خشنة تجرها الثيران؛ وإذا استقروا زمناً ما قللمهم كانوا يسمون عشوها من رفيع النصول والطين. وإذا مات واحد من ذوي للسكان فيهم أحرقوا جثته؛ ولم يدفونه بالراسم كما كانت الشعوب البيضاء القائمة تفعل. وكانوا يضعون تراب حكيار زعمائهم في أوان ثم ينشئون حولها راية مستديرة. وهذه الروابي هي القبور المستديرة التي تنتشر في جميع أرجاء أوروبا الشمالية. ولم تكن الشعوب القائمة السابقة لهم تحرق موتاهم، بل تدفنها في هيئة جالوس داخل رواب مستطيلة هي «القبور الطويلة» Long barrows.

وكان الآريون ينتحبون القمح، وحرثون الأرض بالثيران، ولكنهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محاصيلاتهم؛ فلك أنهم ما يكدون يحصدون حتى يرحلون. وقد ملكوا البرونز، ثم حصلوا على الحديد حوالي ١٥٠٠ ق.م. ولعلهم أول من اكتشفت ظهر الحديد وما لبثوا في زمن ما يقارب ذلك الوقت نفسه أو يكاد أن حصلوا

أيضاً على الحصان - الذى بدأوا باستخدامه فى أغراض الجردون غيرها ، ولم تتركز حياتهم الاجتماعية حول معبد كالذى تركزت حوله شعوب البحر المتوسط الأكثر استقراراً . وكان كبارهم قادة فى ميدان الحرب أكثر منهم حكماء . ونظامهم الاجتماعى أرسقراطى وليس فيه رغبة لملك ، وكانوا منذ مرحلة سحيقة جداً فى تاريخهم يعترفون لعائلات بينها بالزعامة والتبلى .

وهم قوم ذوو فصاحة ولسن . وكانوا يعيشون فى تجموالم الهبة بما يقيمون من حفلات يترفون فيها فى الشراب ، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال هم الشمرء بالثناء والتلاوة . ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة ، ومن ثم كانت ذاكرة حذلاء الشمرء سجل أدهم الحفلة ، وقد عاد استعمال اللغة للتلاوة كوسيلة للتسلية بأكثر الفضل عليها إذ جعلها أداة تعبير جيدة طيبة لمنازة ، كما لاشك أنه يعود إليه الفضل إلى حد ما ، فيها تلاك من هو اللغات المشتقة من الآرية ، وراح كل شعب أرى يطور تاريخه الأسطورى فى تلافات عمرية ، تختلف أسماءها باختلاف الشعوب ، فعلى تارة تسمى باللامع ، وتارة بالساجا ، وأخرى بالفيدا .

والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب تتركز حول دور زعمائهم . فإن قادة الرئيس الذى يستقر القوم بها حيناً من الزمان ، كثيراً ما كانت بناء خشياً رحيماً جداً . ولاشك أنهم أعدوا بحراهم أحكواخا لقطعان ومباني ريفية فى مواضع منها متطرة ؛ ولكن هذه القاعة كانت لدى معظم الشعوب الآرية هى المركز العام ، الذى إليه ينهب كل إنسان ليحضر الوليمة ، ويسنى إلى الشمرء ، ويشترك فى الألعاب والنقادات ، وتحيط بالقاعة حظائر البقر واسطبلات الخيل . وينام الرئيس وزوجته ومن إليها على منصة أو شرفة عليا ؛ أما العامة فنومهم فى أى مكان هناك ، كما هو الحال إلى اليوم « بالهورات » الهندية . وقد درجت حياة القبيلة على ضرب من الشيوعية قائم على نظام الأبوة فى كل شىء غذا الأسلحة والعلل والآلات ، وما أشبهها من الممتلكات الشخصية . وكان الرئيس يملك الماشية وأراضى رعيها من أجل المصلحة العامة ؛ فى حين أن الثعالب والأنهار هى والبرارى لا يمكنها أحد .

ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذى كان يتكاثر ويتزايد على إرض البراج السكيرية بأوروبا الوسطى وآسيا الوسطى الغربية أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجوز وتوالى

ذلك الشعب الذى نجده ينفط فى كل مكان على شعوب الحضارة الحجرية الشمسية (الميلوليثية) فى الألف الثانية قبل المسيح ، كانوا يتحدرون إلى فرنسا وبريطانيا واسبانيا . ويتقدمون غرباً فى موجتين . وتسلك أول فوج منهم بلغ بريطانيا وإرلندة بأسلحة من البرونز . فأبادوا أو أخضعوا الشعب الذى صنع من قبل الآثار الحجرية العظيمة للسما بكارناك فى برتاني وستون هنج وآفبوري بأجلترا . وقد بلغوا إيرلندة وأصبح السكلت الجويديليون (Goidelic Celts) . أما اللوكة الثانية لشعب وثيق القرى هؤلاء ، ربما خالطته عناصر من أجناس أخرى ، فهى التى أحضرت الحديد معها إلى بريطانيا العظمى ، وهى تعرف باسم موجة السكلت البرثونيين (Britthonic) وعندهم يشتق أهل مقاطعة ويلز لغتهم .

وأخذت شعوب كلتيه ذات رحم هؤلاء تشق طريقها بالقوة نحو الجنوب فى اسبانيا وتصل إلى شعب الباسك (الميلوليثى) وحده الذى كان لا يزال يحتل البلاد ، بل وبالسحمرات الفينيقية السامية على ساحل البحر أيضاً . كما أن سلسلة من القبائل وثيقة الشبه بهذه حتى الإيطاليون ، شرعت تتقدم فى شبه الجزيرة الإيطالية وهى بعد برارى . وسلسلة مكسوة بالنابات ، ولكن لم تكن لهم القدرة على طول الخط فإن روما تظهر فى التاريخ فى القرن الثامن ق . م . مدينة تجارية على نهر التيير يسكنها اللاتين الآريون ولكنها تحت حكم نبلاء وملوك من الإروسك (التروسكان) .

فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الآرى . نجدنا قبائل عائلية تتقدم هى الأخرى نحو الجنوب . فإن شعوب آرية تتكلم السنسكريتية انحدرت من خلال الفترات الترية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق . م . زمن مديد . وهناك اتصلوا بحضارة بلاد الهند ، هى الحضارة الهندية ، وتعلموا منها الشيء الكثير .

وهناك قبائل أخرى آرية يغرب أنها انتشرت فوق السكلت الميلية بآسيا الوسطى ، متوغلة شرقاً توغلا بعيداً عن المجال الحالى لثل تلك الشعوب . ولا تزال بلاد التركستان الشرقية قبائل تورانية شقراء الشعوب ذرقاء العيون ، ولكنها تتكلم الآن بآسن مغولية .

وفى بين بحر قزوين والبحر الأسود غطى الأرمنيون على الحثيين القدماء .
(٧ — تاريخ العالم)

وصنوم صينة آرية قبل ١٠٠٠ ق. م ، كما أن الآهوريين والبابليين قد شعروا خلا بوطاة أجناس هندية جديدة عديدة للراس في القتال على التخوم الشمالية الشرقية ، وهي مجموعة من القبائل لا تبرز أسماء الإسكيزيين واليديين والفرس أبرز ما بقي من أسمائها .

ولكن شبه جزيرة البلقان هي للرم الذي شق فيه أول زحف قوى للقبائل الآرية طريقه إلى صميم حضارة العالم القديم . على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق. م . بعدة قرون على الانحدار جنوبا ، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى . فجأت أولا مجموعة من القبائل أبرزها الفريجيون ، ثم جاء على التعاقب الإغريق الأبوليون والأبونيون والهوريون ، لما وافت ١٠٠٠ ق. م . حتى صارت الحضارة الإيبية القديمة في خيركان في كل من بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزائر اليونانية ؛ فصحبت من الوجود مدينتا « ميسيناى » و « تيروز » (Tiryns) ، وكاد النسيان يحنى على « كنوسوس » .

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق. م . وذلك بعد أن استقروا في جزيرتي كريت ورودىس ، وشرعوا يؤسسون للمستعمرات بصقلية وجنوب إيطاليا ، على متوال المدن التجارية الفينيقية المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط .

فينا كان « تجلات بلسر الثالث » و « سرجون الثانى » و « سارداناپالوس » يحكمون مملكة آشور وقاتلون بابل وسوريا ومصر ، كانت الشعوب الآرية تعلم طرائق الحضارة وتستلهمها لأغراضها الخاصة في إيطاليا وبلاد الإغريق وشمال إيران . ولم يلبث التاريخ كله منذ القرن التاسع ق. م . فما بعده بسة قرون أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية وكيف قويت شوكتها وأخذت بأسباب للظاهرة ، وكيف ترمى بها الأمر إلى إخضاع العالم القديم بأسره السامى منه والإيبى والعصرى سواء ، لقد كانت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتصرة بصورة مطلقة ؛ ولكن الصراع الذى نشب بين الأفكار والطرائق الآرية والسامية والعصرية ظل مستمرا بعد انتقال الصولجان إلى يد الآريين بزمن جيد ، بل الحق إنه كفاح مستمر طيلة ما عتب ذلك من التاريخ ، بل لا يزال مستمرا على شكل ما إلى يومنا هذا .

الفصل العشرون

الإمبراطورية البابلية الأخيرة

وامبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشور دولة عسكرية عظيمة تحت حكم نبلاث بلسر الثالث ، ومتعصب العرش سرجون الثاني . ولم يكن الإسم الأصلي لذلك الرجل هو سرجون ، إذ الواقع أنه أخذ لنفسه رغبة منه في تعلق البابليين للنلوبين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول ، للتوسس القديم للإمبراطورية الأكادية ، الذي جاء قبل زمنه بألفي سنة . وعلى الرغم من أن بابل كانت مغوبة على أمرها ، فإنها كانت تفوق نينوى في الأهمية وعدد السكان ، ولم يكن بد من معاملة رهبها الكبير « بل مردوخ » وكهنتها وتجارها أحسن معاملة . فلقد أصبحت أرض الجزيرة في القرن الثامن قبل الميلاد على درجة أرقى كثيراً من تلك الأيام الممجية التي كان فيها معنى فتح مدينة هو التهب وإعمال السيف . وصار الفاعلون يحاولون استرضاء للنلوبين وضمهم إلى جانبهم ودامت الإمبراطورية الآشورية الجديدة قرناً ونصفاً بعد سرجون ، كما أن آشور بانيبال (سارداناپالوس) قد استولى على مصر السفلى على الأقل كما سبق .

ولكن قوة آشور وتماسكها ما لبثت أن انضحت . فاستطاعت مصر طرد الناصب بشىء من الجهد بزعماء فرعونها « أبسمتيك الأول » ، كما حاولت أن تثنى حرباً للفتح سوريا بقيادة « نحاو الثاني » . وفي ذلك الوقت كانت آشور تكافح أعداء أقرب إلى ربوعها ، فلا تستطيع إزادهم إلا أضف للقاومة . ذلك أن شعباً سامياً من الجنوب الشرقى لأرض الجزيرة هو السكلدان ، اتحد ضد نينوى مع الليديين والفرس الآريين المهابطين من الشمال الشرقى ؛ وفي ٦٠٦ ق. م . بالضبط (إذ أننا دخلنا الآن في مرحلة التأريخ للضيوط) استولوا على تلك المدينة .

وتم تقسيم غنائم آشور . وأنشئت في الشمال إمبراطورية مبدية تحت حكم كاسارس

(سيآخار) شمت إليها نينوى وجعلت عاصمتها إكباتانا . وامتدت حدودها شرقاً إلى نهر المند . وإلى الجنوب من هذه ، وفي عسكل هلال عظيم تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة ، هي الإمبراطورية البابلية الثانية ، التي ارتفعت إلى درجة عالية من الثراء والقوة تحت حكم نبوخذنصر العظيم (وهو نبوخذنصر المذكور في التوراة) ، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة ، بل أعظم أيامها جميعاً ، وظلت الإمبراطوريتان في سلام ودحاً من الزمن ، وتزوج سيآخار من ابنة نبوخذنصر .

وفي نفس الوقت كان تغلو الثاني يواصل فتوحاته في سوريا دون مقاومة ، فهزم في معركة مجدوسة ٦٠٨ ق م : يوشع ملك يهوذا وقتله . وهي قطر صغير سنحدثك عنه بالزبد عما قليل ، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا يلتقي بمملكة آشورية منتهكة ، بل بدولة بابلية ناهضة . وقد قاوم الكلدانيون للصريين وأخذوا قوياً . ودحر نخاو ورد على أعقابهم إلى مصر ، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة .

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٣٩ ق م ، مزدهرة ازدهاراً غير وديد ، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية الليدية الأقوى منها بأساً ، والأصلب عوداً في الشمال . وفي غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار في المدينة القديمة على الحياة وحدها . بل شمل العلوم أيضاً .

وكانت بابل مسرحاً لنشاط فكري عظيم ، حق وهي تحت حكم ملوك الآشوريين سباردانا بالوس ، وهذا لك وإن كان آشورياً إلا أنه اصطبغ بالصبغة البابلية تماماً فإنه أنشأ مكتبته لم تصنع مجلداتها من الورق ، بل من ألواح الطين التي كانت تستعمل في الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم العصور السومرية . وقد أزعج الستار عن مجموعة كتبه ، ولعلها آمن ما في العالم من النخائر التاريخية .

وكان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل ، وهو نابونيداس ، ذوق أدبي أرهف أو يكاد ، فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته . حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول العرش ، خلفه ذكرى تلك الواقعة بما سطر من نقوش . يد أن إمبراطوريته كانت تتطوى على كثير من دلائل التفكيك ، فحاول أن يثبت فيها روح المركزية بأن أحضر إلى بابل عدداً من الآلهة ، المحليين المختلفين ، وأقام بها للمابد تلك الآلهة . وقد استعمل الرومان تلك



خريطة رقم (٣)

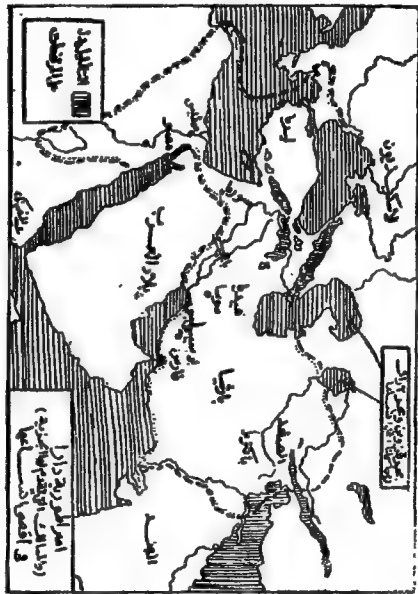
الطريقة بنجاح تام فبا تلى ذلك من الزمان ، ولكنها أثارَت في بابل غيرة كهنه بل مردوخ الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر . فأخذوا يدبرون الحُطط للتخلص من نابونيداس ، والبحث عن بديل له ، ووجدوه في شخص قورش الفارسي ، حاكم الإمبراطورية للسيدية المجاورة . ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثرى في شرق آسيا الصغرى . وزحف الملك على بابل ودارت للمركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة (٥٣٨ ق . م .) فدخلتها جنوده بلا قتال .

ونذكر التوراة أن ولي العهد يلشاصر بن نابونيداس كان في وليمة عندما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من تار : « منا ، منا ، تعيل ، وفرسين ليقرأ اللغز بأن « منا أحصى الله ملكوتك وأنتاه ، وتعيل وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، فرسين قسمت ملكتك وأعطيت لمدى وفارس (١) » . وربما كان كهنه بل مردوخ على علم بأمر تلك الكتابة للسطورة على الحائط . وقتل يلشاصر في تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيراً ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة ليعلم مردوخ دون أى توقف .

وهكذا تم توحيد الإمبراطورية البابلية واليدية . وأخضع قبيز بن قورش مصر ، ثم جن قبيز وقتل صدقة ، وخلعه على الفور دارا اليدى الملقب دارا الأول ، وهو ابن هستاسيس أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول الفارسية ، وهى أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة في الشرق موطن الحضارات القديمة ، أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين إذ كانت تضم آسيا الصغرى بأكملها وسوريا ، وجميع الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ، ومصر ومناطق القوقاز وقزوين ، وبلاد ميديا وفارس ؛ كما أنها كانت تمتد في بلاد الهند حتى نهر السند . وقد أصبح وجود مثل تلك الإمبراطورية في حيز الإمكان عند ذلك في العالم ، بفضل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق المرسوف .

(١) التوراة : دانيال الإصحاح الخامس .



أما قبل ذلك فإن الحمار والثور والجل (في الصحراء) كانت أسرع وسائل النقل . وأنشأ حكام الفرس طرقاً عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم الجديدة بعضها إلى بعض ، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول الإمبراطور أو المسافر الذى يحمل إذناً رسمياً بالسفر . وغضلاً عن ذلك فإن العالم كان قد شرع آنذاك فى استعمال النقود المكوكة . التى سهلت التجارة والتعامل تسهيلاً كبيراً . ولكن عاصمة تلك الامبراطورية الضخمة لم تعد بابل . وانقضت الأيام ولم يبق كهان بعل مردوخ من خيانتهم حيثاً . وأخذت بابل تضمحل وإن بقي لها شيء من أهميتها ، على حين صارت المدن الكبرى فى الإمبراطورية الجديدة هى برسيوليس وإكباتانا . وكانت سوسا هى العاصمة . بينما هجرت نينوى وأخذت تنساقط أطلالها بالية .

الفصل الحادى والعشرون

تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود ، وهم شعب سامى ، لم يؤثروا فى زمانهم من الأهمية قدر ما تركوا من التأثير فى عقب ذلك من تاريخ العالم . استقر اليهود فى بلاد يهوذا (Judaea) قبل ١٠٠٠ ق . م . زمن طويل ؛ وبعد ذلك العهد صارت أورشليم أكبر مدينة لديهم . وتتشابك قصتهم بقصة الإمبراطوريات الكبيرة الواقعة على كل من جانبيهم : مصر إلى الجنوب وتلك الإمبراطوريات الكثيرة فى الشمال ، إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل . ولم يكن مفر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسى بين تلك الدول ومصر .

وترجع أهميتهم فى العالم إلى كونهم أدباً وتاريخاً عالمياً ومجموعة من القوانين والتواريخ والزماير وكتب الحكمة والشعر والقصص والكلم السياسية ، وهى التى أصبحت فى النهاية ما يسميه المسيحيون باسم العهد القديم ، وهو التوراة العبرانية . وقد ظهر ذلك الأدب فى التاريخ فى القرن الرابع أو الخامس ق . م .

والراجع أن ذلك الأدب قد جمع ثلثاته لأول مرة فى بابل ، وقد أسلفنا عليك كيف أن الفرعون نحاو الثانى غزا الإمبراطورية الآشورية ، وآشور تقاتل الميديين والفرس والسككديان قتال حياة أو موت ؛ وهنا كيف اعترضه يوشع ملك يهوذا ، فهزمه نحاو وقتله عند مجدو (٦٠٨ ق . م) . وبذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر ، وعند ما تمكن نبوخذ نصر الكبير الملك الكلدانى الجديد الذى تولى الحكم فى بابل ، من رد نحاو على عقبه إلى مصر ، حاول أن يهزم يهوذا بإقامة لوك ضمايف يأمرون بعشيته فى أورشليم ولكن فشلت المحاولة ، فإن الشعب أحمل التبع فى موطنه البابليين ، وعند ذلك صمم الملك أن يمزق تلك الدولة الصغيرة كل عمزق بعد أن ظلت أمداً جيداً تستفيد من تأليب مصر على الإمبراطورية الشمالية ، فأمر قهت أورشليم وأحرقت ، وحمل من بقى يهامن الناس إلى بابل أسرى .

وهناك أقاموا حتى استولى قورش على بابل (٥٣٨ ق ٠٢٠) وعند ذلك جميعاً جئنا وأعادهم إلى بلادهم ليستكنوها من جديد وليعيدوا بناء أسوار أورشليم ومعبدها .

ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعباً متحضراً ولا متحداً . وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة . غير أن تاريخهم نفسه لا يذكر البتة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت قراءاً ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا في عهد يوشع . ولكن الأسر البابلي مدتهم ووجدتهم ، فنادوا إلى بلادهم شديدي العقلة إلى أديهم ، عادوا شعباً متأجج الوعى الدافئ مشرباً بالزعات السياسية .

ويلاحظ أن توراتهم لم تكن تحتوي في ذلك الوقت إلا على أسفار موسى الخمسة (Pentateuch) ؛ أى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الذى نعرفه جميعاً . وفضلاً عن ذلك كان لديهم قفلا ، وعلى صورة كتب منفصلة ، - كثير من الكتب الأخرى التى ألحقت منذ ذلك الحين هى وأسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة ومنها مثلاً أسفار التواريخ والمزامير والأمثال .

ولوثأملت قصص خلق العالم وآدم وحواء والطوفان ، التى تبدأ بها التوراة ، لوجدتها وثيقة المأثلة لأساطير بابلية تشبهها ؛ والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشعشون فإن لها نظائر سومرية وبابلية . ولكن بداية أمر الشعب اليهودى بوجه أخص لا تبدأ حقا إلا بقصة إبراهيم لما تلاعب .

وربما كان إبراهيم يعيش في نفس الوقت المبكر الذى عاش فيه حوراب في بابل كان إبراهيم رجلاً بوريا سامياً تبعى عشيرته على نظام الأبوة ، وعلى التقارى ، أن يرجع إلى سفر التكوين بحثاً عن قصة تجولاته وقصص أبنائه وحفدته وكيف أصبحوا أممى بأرض مصر وكيف جاس خلال أرض كنعان ؛ ويقول رواية التوراة : إن رب إبراهيم وعده وأولاده بهذه الأرض السامية ذات المدن الغنية .

وبعد مقام طويل بمصر وجد أربعين عاماً من التجول في البرية بزعامة موسى ، يزايد أبناء إبراهيم فيمبعون شعباً مكوثاً من اثني عشر سبطاً ، ويغزون أرض كنعان من

الفياني العربية في الشرق . ولعلمهم فعلموا ذلك في زمن ما بين ١٦٠٠ ق م . ١٣٠٠ ق م . وليس فيما دونه مصر عن تلك الحقبة أى ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزول ما يكتنف تلك القصة من غموض . ومهما يكن من أمر فلهم لم يفتحوا . إلا منطقة التلال الداخلية في أرض الميحاد ولم يزعجوا عليها شيئاً . فإن الساحل في ذلك الأوان لم يكن في أيدي الكنعانيين ، بل في أيدي قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الإيجية الذين يسمون بالفلسطينيين ؛ وقد استطاعت مدتهم غزوة وجات وأعدود وعسقلان ويافا ، أن تصمد لهجوم العبرانيين ؛ وظل أسباط إبراهيم أجيالاً عديدة ضحبا مغموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية مشغولاً بتناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وذوى قربانهم من القبائل النازلة حولهم وهم المؤابيون وأهل مدين ومن إليهم . وسيجد القارئ في سفر القضاة سجلاً يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة . ذلك أنك تجد في الأغلب سجلاً من النكبات والإخفاقات التي دونت بصراحة .

وكان حكام اليهود خلال أكبر جزء من هذه المدة - لو افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع - قضاة من الكهنة ينتخبهم كبار الشعب ، ولكنهم عمدوا في النهاية في زمن ما يقارب ١٠٠٠ ق م . إلى انتخاب ملك هو هامول ، ليكون لهم قائداً في القتال ولكن قيادة هامول لم تزد كثيراً على قيادة القضاة ، فهلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين في معركة جبل جلبوع ، وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ، ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان .

وكان خلفه داود أكثر توفيقاً وفطنة . وبتولى داود أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التي قدر للشعب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر كله . وهي تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية ، التي يلوح أن ملكها حيرام كان رجلاً أوفى نصياً كبيراً من الدكاء والقندرة على الفصاحة . وكان ينبغي أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آتياً عبر منطقة التلال العبرانية . وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ، يد أن مصر كانت في ذلك الزمان في حالة بالغة من الفوضى ؛ ولعل عقبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطريق ، ومهما يكن من شيء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات وعند ذلك نشأت برعاية حيرام ، أسرار أورشليم وقصرها ومبناها ، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه . وأخذ سيل جسيم من التجارة

يشدق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب . وأولى سليمان من اليسار والأية ما لم يره شعبه من قبل . حتى لقد بلغ من أمره أن سمح فرعون بزواج ابنته منه .

يد أن من الحيز الأضيق غن بالنا التقديرات النسبية للأمور . فليسان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً تابعاً يحكم مدينة صغيرة . وكانت دولته من المزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقش بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والشرين على أورشليم ونهب معظم ما فيها من كنوز . ويقف كثير من النقاد موقف السخرية إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأنام . وهم يقولون إن الكبرياء القوي لدى حكتاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة وللبالغة فيها . بيد أنك إذا أنشمت النظر في قصة التوراة وقرأتها بمزيد من العناية لم تجد لها الروعة التي تخيل إليك عند أول قراءة .

قلو أنا استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان ، لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي ، وأما عرباته الألف والأربعمائة فإنها استكف عن بحث الإكبار في نفوسنا عندما نفهم من أحد الأبطال الآشورية أن خلفه آحاب (Ahab) أرسل كتيبة من الفين لتتضم إلى الجيش الآشوري . وواضح مما تنقص التوراة أن سليمان بدد ما يملك في المظاهر وأنه أهبط شعبه بالعمل والضرائب . ولما أن مات انفصل الجزء الشمالي من مملكته عن أورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة . بينما ظلت أورشليم حاضرة يهوذا .

ولم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمداً وجيزاً . فبات حيرام ، واضطلع عون صور الذي كانت تقوى به أورشليم . ثم قويت شوكة مصر ثانية . وبصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرعي تمركما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب . وهي قصة نكبات وتحررات لا حدود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية . هي قصة ملوك همج يحكمون شعباً من المميج . حتى إذا وافق ٧٢١ ق م عت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً . وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها في ٦٠٤ ق م ماحل إسرائيل كما أسلفنا : وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة قلائها موضع الشك والتقد ، ولكنها بوجه الإجمال قصة

واضحة الصدى تتفق مع كل ما علمناه عن طريق أعمال الحفر التي تمت في مصر وآشور
وبابل إبان القرن للصرم .

وهناك في بابل جمع الشعب العبراني تاريخه بعنه إلى بعض وطور تقاليده وتماها .
ذلك أن القوم الذين آبا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعباً مختلف اختلافا عظيماً في
الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسورا . فإتهم تعلموا الحضارة .

وظهرت إبان تطوهم الخلق الفريد في بابه طائفة معينة من الرجال لعبت دوراً عظيماً
جداً في تاريخهم ، وهم طراز جديد من الرجال ، هم الأنبياء ، الذين ينبغي لنا الآن
أن نوجه إليهم اهتمامنا . ويؤذن الأنبياء بظهور قوى جديدة جديدة بالملحظة في التطور
للطرد للجماعة البشرية .

الفصل الثاني والعشرون

كهان وأنبياء في بلاد اليهودية

لم يكن سقوط آشور وبابل إلا فاتحة سلسلة من التكتبات التي كتب للشعوب السامية أن تهاجمها . ومن قبل ذلك كان العالم المتحضر بأكمله يلوح في القرن السابع ق . م كأعما هو نموشك أن يسلط عليه حكام ساميون . ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الآشورية العظمى كما استولوا على مصر؛ وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التي كانت تتكلم لغات متفاربة يمكن فهمها بينهم جميعاً . وكانت تجارة العالم في أيدي الساميين . فلن صور وصيدا مدينتا الساحل الفينيقي الأصليتان الكبيرتان قد ثرتا المستعمرات التي كبرت في النهاية حتى فاقت أمها حبا في أسبانيا وصقلية وإفريقيا . ذلك أن قرطاجنة التي أسست قبل ٨٠٠ ق . م . تزيد عدد سكانها حتى أربى على الليون . وظلت أعظم مدن العالم ردها من الزمن . فذهبت سفنها إلى بريطانيا وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسي . ولعلها بلغت جزائر ماديرا . وقد رأينا من قبل كيف تعاون حيرام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة الحرة وربما الهندية أيضاً . وحدث في زمن الفرعون نخاو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا .

وكانت الشعوب الآرية لا تزال في ذلك الحين غارقة في العممية . لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلوا يمدون بناء مدينة جديدة على أنقاض تلك التي دمرها ، وكذلك الليديون الذين أصبحوا « ذوى بأس وقوة » في آسيا الوسطى ، كما تصفهم بعض النقوش الآشورية . ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن في ٨٠٠ ق . م بأن كل أثر لسلطان الساميين سيمحوه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق . م ، وأن الشعوب السامية ستغدو في كل مكان خاضعة أو تابعة أو مشتقة كل مشتقة . ففي كل مكان ، ما عدا مخارص بلاد العرب الشمالية ، حيث استمسك البدو بشدة بطريقة عيش الترحل ، سادت طريقة العيش التي كانت للساميين قبل زحف سرجون الأول والأكاديين للشع سومر . بيد أن العرب البدو لم يغمز البتة سادة آريون .

ولم يتاسك من جميع هؤلاء السامعين للتعرضين الذين هزموا وأخضعوا في إبان تلك القرون الحسنة الحافلة بالأحداث ، أقول لم يتاسك منهم ولم يستمسك بتقاليد القديمة إلا شعب واحد فقط ، هو هذا الشعب الصغير ، وأعني به اليهود الذين أعادهم قورش الفارسي ليشيدوا مدينتهم أورشليم . وقد تيسر لهم ذلك كله ، بفضل جمعهم شتات أديهم ذلك ، وهو التوراة ، أثناء مقامهم في بابل .

والواقع أن اليهود لم يصنعوا التوراة بل إن النوراة هي التي صنعت اليهود . ذلك أن تلك التوراة تخطو دفتها على فكرات بينها ، تخالف فكرات من حولهم من الشعوب ، وهي فكرات شديدة النفيية للأذهان شديدة الدغم والتثبیت للأفئس ، قدر لهم أن يتلقوا بها إبان خمسة وعشرين من قرون الحقن واللفامرة والاضطهاد .

وأول هذه الفكرات اليهودية وأبرزها ، هي اعتقادهم بأن إلههم حتى مستر وبسید ، إله غير مرئي يعيش في معبد لم تصنه يد ، وهو رب الحجر والبر في أرجاء الأرض كافة . أما الشعوب الأخرى فاطلة فلها أرباب قومية تماثلوها أسناما تعيش في معابد . فإذا تحطم الصنم وانهدم للبد ، ولى ذلك الرب على الفور . ولكن رب اليهود هذا كان فكرة جديدة ، فهو يعيش في السماء ، ساميا متعاليا على السكينة والأقربان . وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله أبراهام ، قد اسطفاهم له شعبا مختارا ، ليسترجعوا أورشليم ويعملوها حاضرة البر في العالم . فهم إذن شعب سماه إلى الملاحشوره بمصره المشترك . ذلك هو الاعتقاد الذي ملأ جوانب نفوسهم جميعا يوم عادوا إلى أورشليم بعد الأسر في بابل .

أفسيب إذن أن تهفر إلى هذه القديمة لللهمة نفوس كثير من البابليين والسوريين ومن إلهيم ، ونفوس كثير من الفينيقيين فيا تلا ذلك من الزمان ؟ - وهم أروام تعدشون بلسان واحد تقريبا ، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والمادات والأذواق والتقاليد ، وأن يحاولوا الإسهام في عضويتها ووعدها ولاسيا بعد أن تمرغوا في مهاوى الهزيمة والذلة ؟ وقد لوحظ أن الفينيقيين اختلوا فجأة من صفحات التاريخ بعد سقوط صور وسيدا وقرطاجنة ولندن الفينيقية الأسيانية ؛ كما ظهرت المجتمعات اليهودية مسكنهم ويمثل تلك الطريقة النجائية عنها لاني أورشليم وحدها بل وفي أسيانيا ، وإفريقيا ومصر وبلاد العرب ، وفي الشرق حينا وضع الفينيقيون أقداسهم . وكانت

الرابطة التي تربطهم جميعاً هي التوراة وتلاوة التوراة . ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الإسمية ؛ أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شملهم فهي هذه التوراة « سفر الأسفار » ، وذلك شيء جديد في التاريخ . وهو شيء بذرت بذوره قبل ذلك زمن مديد ، عندما شرع السومريون والاصريون أن يحولوا كتاباتهم الميروغليفية ذات الصور إلى كتابة عادية .

كان اليهود حيناً جديداً في هذه الدنيا ، فإنهم كانوا شعباً بلا ملك ، وما لبثوا أن غدوا بلا معبد (إذ أن أورشليم نفسها — كما ستحدثك — قد قضى عليها في سنة ٧٠ بعد الميلاد) ، ولم يكن يجمعهم — على تباين أصولهم ، واختلاف عناصرهم — إلا قوة الكلام للسطور .

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكري بين اليهود ، ولا تنبأ به إنسان ، ولا كان ثمرة جهد كاهن أو سياسي . ولم يظهر في التاريخ بتطور اليهود نوع جديد من المجتمع وحسب ، بل نوع جديد من الإنسان ، وفي أيام سليمان لم يكن يتبدى على العبرانيين إلا أنهم ميسحيون شعب صغيراً يجمع كل شيء صغير آخر في ذلك الزمان حول بلاط ومعبد ، تحكمه حصة الكاهن وتقوده مطامع الملك . ولكن هذا الصنف الجديد من الإنسان الذي عنه نتحدث ، وأقضى به « النبي » كان موجوداً آنفاً ، كما يستطيع القارئ أن يتحقق من ذلك بنفسه من التوراة . وتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تراحم الصواب على رأس العبرانيين للتقسيم على أنفسهم .

فما هؤلاء الأنبياء ؟

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد . فإني حزقيال مثلاً كان من الكهنة ، وكان النبي عاموس يلبس رداء الرعاة للصنوع من جلد اللامع ، بيد أنهم يشتركون جميعاً في شيء واحد : هوانهم لا يدينون بالولاء إلا لرب البر وأهم يتصلون بالناس مباشرة ، كانوا يظهرون دون ترخيص من ذوى السلطان ودون تحكيمات مقدس كالكهنة . أما طريقة تصيرهم عما في نفوسهم ، فهي قولهم : « الآف جاءتني كلمة الرب » . كانوا يخوضون في السياسة إلى أقصى حد : ولطالما حرضوا الناس على مصر ، « تلك القصة للهشمة » على حد تصيرهم ؛ أو على آشور أو بابل ، وقد نوا على طبقة الكهنة تراحمهم ، كما نددوا بأثام الملوك الصارخة . ووجه تسميتهم (١ — تاريخ العالم)

عنايته إلى ما قد نسميه اليوم « بالإصلاح الاجتماعي » . فقالوا إن الأغبيا « يستحقون وجوه الفقراء سحقا » ، كما أن للترفين يستعدون خبز الأطفال ؛ وأن للوسرين يصادقون الأجانب ويقلدونهم في ألبستهم ورفذاتهم ؛ وأن هذا بيض إلى « باهواء » رب « أبراهام » الذي سيزل سوط عقابه على هذه الأرض .

كانت هذه التدبيدات الضيقة تدون وتحسان وتدرس . وكانت تذهب حينما ذهب اليهود ، وحينما حلوا نشرت بين الناس روحا دينية جديدة . فباعدت بين الرجل للهادي وبين الكاهن وللمبد والبلاط ولللك ، ووضعت وجهها لوجه أمام حكم البر . وتلك هي أهميتهم العليا في تاريخ البشرية . والأقوال العظيمة التي ينطق بها أشعيا يرتفع بها الصوت النبوي إلى ذروة سامية من رافع التنبؤ ، ويتوقع اتحاد الأرض كلها في ظل إله واحد . وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها .

ولم يكن كل الأنبياء يتكلمون على هذه الشاكلة ، كما أن القاريء الفطن يجد في كتب الأنبياء الشيء الكثير من البخضاء ، والشيء الكثير من التعيز والتعامل ، والشيء الكثير مما سيذكره تلك اللادة الشريرة ، ألا وهي المؤلفات التي تسطرها الدعاية في الزمن الحاضر . ومع ذلك فإن الأنبياء العبرانيين الذين عاشوا حوالي زمن الأسر البابلي هم الذين يؤذنون بظهور قوة جديدة في العالم ، هي قوة الالتجاء إلى الفرد من الناحية الخلقية ، الالتجاء إلى ضمير البشرية الحر عند القرايين الحراقية (الفتيشية ^(١)) . وعختلف أنواع الولاء الاستبدادي التي ظلت حتى ذلك الحين قيداً يذل جنسنا البشري .

(١) الفتيشية : كل شيء ينتظر إليه جوفير لا يقوم على منطق أو عقل . وهي في الأصل الاعتقاد أن لكل شيء روحاً يتفكر وتصور . [للترجم] .

الفصل الثالث والعشرون

الإغريق

في نفس الوقت الذي كانت فيه مملكتا إسرائيل ويهوذا اللقسمتان على نفسيهما تكايدان التدمير وقتل السكان بعد عهد سليمان (الذي حكم على الأرجح حوالي ٩٦٠ قبل الميلاد) وبينما الشعب اليهودي يطور تقاليده وينمى إبان الأمر البابلي ، كانت تنشأ أيضا قوة عظيمة الأثر في القتل الإنساني ، هي التقاليد الإغريقية . وبينما كان الأنبياء العبرانيون يكونون في الناس شعوراً جديداً بوجود مسئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سرمدي للعالم كافة يتصف بالعدل والحق ، كان فلاسفة الإغريق يدربون العقل الإنساني على الفاعمة الفكرية بطريقة وروح جديدتين .

والتقاليد الإغريقية - كما سبق أن المنا - فرع من الدوحة الناطقة بالآرية ، انهدم إلى المدن والجزائر الإيبية قبل ١٠٠٠ ق . م يضة قرون . والمراجع أنهم كانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذي راح فيه نحو خمس فرعون مصر يصيد فيلته الأولى وراء إقليم القررات الذي استولى عليه ؛ ذلك أنه كانت هناك في تلك الأيام أفيال بأرض الجزيرة وأسود في بلاد الإغريق .

ومن الجائز أن إحدى غارات الإغريق هي التي أحرقَت كنُوسوس ، ولحكن ليس بين الأساطير الاغريقية ما يتفق بمثل هذا النصر ، وإن حوت تلك الأساطير قصصاً تحدث عن مينوس ، وقصر « الليراتن » ، وعن مهارة بعض الصناع الكريهين .

وكان هؤلاء الإغريق كعظم الشعوب الآرية مننون وقصاصون ، وكان غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة ، وقد قلوا عن أيام صميم المسجية الأولى ملحميتين عظيمتين :

(أ) الإلياذة : التي تحدثنا كيف أن عصبة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بأسيا الصغرى ، واستولت عليها واتبتها .

(ب) والأوديسيا : وهي قصة مطولة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم أثناء عودته من طروادة إلى جزيرته .

وقد دوت هاتان للحمتان في زمن ما من القرن الثامن أو السابع ق . م ، عندما تعلم الإغريق استعمال الحروف الأبجدية من جيرانهم الأكثر مدنية . ولكن نظن أنهما كانتا موجودتين قبل ذلك زمن طويل جداً . وكأنا تخمينان فما سلف إلى شاعر ضر . اسمه « هوميروس » ، زعم الناس أنه هو الذي صاغهما مثلما ألف « نيلتون » قصيدة الفردوس المفقود ، فهل وجد هذا الشاعر حقاً ؟ وهل ألف هاتين للحمتين أو اقتصر أمره على تدوينهما وصلفهما إلى غير ذلك ؟ ..

الواقع أن هذا موضوع يلا العلماء أن يعرضوا له بالنقاش . وما نحن بحاجة أن نشمل أنفسنا بمثل هذه النزاعات . وكل ما يهمنا أن اليونانيين ملكوا للحمتين في القرن الثامن ق . م ، وأنهما كانتا ملكاً مشاعاً لهما جميعاً وسيلة تربط بين قبائلهم المتنوعة ، وتغنيهم شعوراً بالرمالة ضد البرابرة^(١) . ذلك أنهم كانوا مجموعة من شعوب متشابهة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولاً ، ثم الكتابة فيما بعد ، ويسهمون كلهم في مثل عليا مشتركة من الشجاعة والسلوك .

ولللاحم تظهر لنا الإغريق في صورة الشعب الفطري الذي لا يعرف الحديد ، ولا الكتابة ، والذي لم يسكن للدين بعد ، ويلوح أنهم كانوا يسكنون في البداية قرى غير مسورة مصنوعة من أكواخ يقيمونها حول قاعات رؤسائهم ، خارج أطلال للدين الإيبية التي دمروها من قبل ، ثم شرعوا يحيطون مدنها بالأسوار ، ويقولون فكرة للمابد عن الشعب الذي غزوه .

وقد معنا آتفاً إلى أن مدن الحضارات البدائية تمت حول مذبح آلهة إحدى

(١) البرابرة اصطلاحاً م من عنا اليونانيين من الشعوب [للتزج]

القبائل ، وأن السور بنى حولها فيها بئر ؛ أما مدن الإغريق فالسور فيها سابق على
 للبعد . كما أنهم شرعوا يتجرون وينشئون المستقرات بكل مكان . فلما والى القرن
 السابع ق . م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قد نمت في أودية بلاد الإغريق
 وجزائرها ، ضاربة صفحة النسيان على المدن والحضارة الإيبية التي سبقها ؛ ومن أهمها
 أثينا واسبارطة وكورنثة وطيبة وساموس وميليتوس . وانتشرت المستقرات الإغريقية
 على امتداد ساحل البحر الأسود وفي إيطاليا وصقلية . وكانت (كب) الحذاء
 الإيطالي ومقدمه بسميان ماجناجرىكا (بلاد اليونان الكبرى) . كما أن مدينة مرسيليا
 ليست إلا بلدة إغريقية أسست على أنقاض مستعمرة فينيقية قديمة .

- والأقطار للكون من سهول عظيمة أو التي تكون وسيلة للواصلات الرئيسية فيها
 أحد أنهار العظيمة كالنهرات أو النيل ، تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك . ومن أمثلة
 ذلك أن مدن مصر وسومر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحد . ولكن الشعوب اليونانية
 كانت موزعة بين الجزائر والوديان الجبلية ؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق والجزء
 الجنوبي من إيطاليا (للجانجرىكا) جبلية وعرة ؛ لذا كان الوضع يزعج صوب التفرق
 لا الاتحاد . وعندما ظهر اليونان في التاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى عدد من
 الدويلات الصغيرة التي لا يبدو عليها أى أثر للاتلاف . وكانوا يقبضون في كل شيء حتى
 في الجنس . فمن تلك الدويلات ما تألف بصفة أساسية من مواطنين من إحدى القبائل
 اليونانية الثلاث الأيونية أو الأيولية أو العورية ؛ ومنها ما كان سكانه خليطاً من اليونان
 ومن سلاسل جنس البحر المتوسط السابق ليونان ؛ ومنها ما فيه مواطنون أحرار من
 اليونان الحاصلين يتسلطون عليها وعلى سكانها المقهورين المستبدين شأن « الهلوطيين »
 في أسبارطة . ومنها ما سارت فيه العائلات الآرية القديمة المزعة ، طبقة أرستقراطية
 منعزلة ؛ وبعضها كانت تقوم فيه ديموقراطيات تضم جميع المواطنين الآريين ؛ بينما تولى
 الحكم بعضها الآخر ملوك متعصبون بل حتى وراثيون ، على حين كان في بعضها
 متعصبون للعرش أو طغاة .

والظروف الجغرافية التي جعلت الدول الإغريقية منقسمة ومختلفة على الدول فيما
 بينها ، هي التي عادت عليها أيضاً بغير الحجب . فإن أعظم دولها حجماً أمغرين كثير .

من المقاطعات الإنجليزية ، وإنا لنرى ريب من أن سكان أى مدينة من مدنها زاد في يوم من الأيام عن ثلث المليون . وقل منها من بلغ سكانه الخمس ألف . وقد قامت بينهم الاتحادات بدافع المصلحة والتعاطف ولكن لم تنشأ أية وحدة واتلاف . ولا تزايدت التجارة راحت المدن تنشأ بينها العصيات وتعقد المحالقات ، كما راحت المدن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة . ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان مجموعها كلها أمران يحصلان منها مجتمعاً ذا شعور مشترك إلى حدنا ، وهما الملاحم وعادة المساهمة كل أربع سنوات في المباريات الرياضية التي كانت تقام في أولمبيا ، على أن هذا لم يحل دون نشوب الحروب والنزاعات ، وإن خفف شيئاً مما تنسم به الحرب من وحشية وضراوة ، كما أنه استلزم قيام هدنة تصون حياة المسافرين إلى الألعاب والعائدين منها ، ونما بعض الوقت شعورهم بأن لهم إراثاً مشتركاً ، وتزايد عدد الدول المشتركة في الألعاب الأولمبية حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم ، بل صبح بدخولها لتبارين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإسبوس ومقدونيا إلى الشمال .

نمت أهمية المدن الإغريقية واتسعت تجارتها ، وأخذ نوع حضارة القوم يرتقى باطراد أثناء القرنين السابع والسادس ق . م . وتختلف حياتهم الاجتماعية في كثير من النواحي الشائقة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجة ووديان الأنهار ، إذ كانت لديهم معابد ضخمة ، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة ، التي كانت موجودة في مدن العالم القديم ، والتي كانت مستودع المعرفة كلها ، وعيّن الفسكات ، كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة ، ولم يكن لديهم عاهل شبه قدسى يحيط به بلاط يحكم التنظيم . والواقع أن نظامهم كان بالأحرى أرستقراطياً له عائلات مترتبة تتقف إحداها للأخرى بالمصاد وتلزمها الجادة . وحتى النظم التي يسمونها بالديموقراطية لم تكن في الواقع إلا أرستقراطية ولكل مواطن حر أن يشترك في الشؤون العامة بتصليب ، ومن حقه حضور جلسات الجمعية إن كان نظام المدينة ديموقراطياً ، ولكن لم يكن كل إنسان مواطناً حراً .

ولم تكن الديموقراطيات اليونانية تماثل ديموقراطياتا المصرية التي ليكل إنسان فيها صوت . فإن كثيراً من تلك الديموقراطيات كانت تخفى على بضع مثالب أو بضع

آلاف من المواطنين الأحرار ، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والنساء ومن إلكهم ، لا يستمتعون بأى نصيب فى الشؤون العامة .

وطى وجه العموم كانت مقاليد الأبور ميلاد الإغريق فى يد طائفة من رجال ذوى مكانة . وكان ملوكهم وطفاتهم على السواء مجرد رجال وضعوا على رأس غيرهم من الرجال أو اغتصبوا الزعامة اغتصاباً ؛ ولم يكونوا أشباه آلهة فوق مستوى البشر مثل فرعون ومينوس أو عواهل أرض الجزيرة . ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا عظيمين فى ظلال الإغريق بحرية لم عظيميها فى أى من اللدنيات القديمة . وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى اللدنية تلك « الشخصية الفردية » وللبلدات والابتكار الشخصى اللذين ينتم بهما للتجولون الرحل فى أراضى الأحرار الشمالية ، فهم أول « جمهوريين » لهم أهمية فى التاريخ .

وبينا هم ينفضون عن أنفسهم غبار حرب وحشية ضروس دارت بينهم ، يستكشف للشاهد أن شيئاً جديداً أصبح واضحاً فى حياتهم العقلية لأول مرة فى التاريخ . ذلك أنا نلتقى هنا برجال ليسوا من البكته ، يطلبون المعرفة ويسجلونها ويفحصون عن أسرار الحياة والوجود ، بطريقة كانت حتى ذلك الحين هى امتياز الكهنة الرفيع ، أو تسلية للوك التى يزاولونها فى كثير من الادعاء والمنطرس . فإننا نجد فى القرن السادس ق . م (بينا كان أشعيا لا يزال يقبأ فى بابل) رجالاً مثل « طاليس » و « أنا كساندر الليلطى » و « هرقليتوس » من أهل إفيوس ، وهم قوم بمن نسيم اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرموا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب التدكى الأريب فى أحوال العالم الذى نعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الحقة ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائر ؟ . . . ورافضين جميع الإجابات للعدة أو المحفوظة التى لاتصدر عن أعمال فكر ، أو تتطوى على التملس . ومنزىدك عما قيل يانا عن هذا التساؤل الذى وجهه العقل الإغريق إلى هذا الكون . وهؤلاء الساحتون الإغريق اللذين أخفوا يروزون ، وملتقون إليهم الأنظار فى القرن السادس قبل الميلاد ، هم أول الفلاسفة ، أى أول عبي الحكمة فى العالم .

وربما أمكننا أن نتوه بعظم أهمية القرن السادس قبل الميلاد في تاريخ البشر .
ذلك أن هؤلاء الفلاسفة الإغريق لم يكونوا وحدهم أول من جدى طلب الأفكار
الخاصة النفاذة حول هذا الكون ومركز الإنسان فيه ، على حين راح
« أشعيا » يسمو بالتنبؤ اليهودى إلى أرفع مراتبه ، بل إن « جوتاما بوذا » أيضا
— كما سمعته فكما بعد — كان يعلم الناس آنذاك بالهند ، وكذلك « كونفشيوس »
ولاوتسى (لاهوتسى) يلاذ الصين . فكان العقل الإنسانى من أمينا حتى المحيط
المهادى كان فى حركة ونشاط دالين .

الفصل الرابع والعشرون

الحرب بين الاغريق والفرس

بينما كان الإغريق في المدن القائمة يلادم وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى مقبلين على البحث الفصكري الحر ، وبينما كان آخر الانبياء السبرانيين في بابل وأورشليم يخلعون ضميراً حراً ، استولى شعبان-آريان مخاطران : البديون والفرس ، على زمام حضارة العالم القديم ، وشرعوا في تكوين إمبراطورية ضخمة هي الإمبراطورية الفارسية ، التي كانت أوسع رقعة بكثير من أية إمبراطورية رآها العالم حتى ذلك الحين .

ولم تلبث بابل وليبيا الثرية ذات الحضارة العريقة أن أضيفتا في عهد قورش إلى أملاك الفرس ، ثم ضمت إليهم مدن الفينيقيين بالشرق وجميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى وأخضع لبيز مصر ، كما لم يلبث دارا الأول الذي تالت ملوك الفرس (٥٢١ ق م) أن وجد نفسه عاهلاً للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان . وصار رساله بجويون الطرق بحراسيمه على الحيل من الدردنيل إلى السند ، ومن مصر العليا إلى آسيا الوسطى .

أجل ، إن يونان وأوربا وإيطاليا وقرطاجنة وصقلية وللسمرات الفينيقية بآسيا انيا لم تستقل « السلم الفارسي »^(١) ؛ بيد أنها كانت تعامل فارس بالاحترام ، ولم يجد الفرس مضايقة جدية إلا من قبائل آبائهم القدماء من الشعوب الآرية القاطنين بجنوب روسيا وآسيا الوسطى ، وهم الأشقوديون (الإسكيزيون) الذين كانوا دائمى الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية .

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لم يكونوا جميعا بطبيعة الحال من الفرس ، فلم يكن هؤلاء إلا الأقلية الصغيرة القائمة والحاكمة لهذه المملكة الضخمة .

(١) السلم الفارسي : السلم الذى تقوم بهياته دولة فارس بالتحالف التى يرفق عليها عليها .
[للترجم]

فأما سائر السكان فكانوا على ما هم عليه قبل نزول الفرس بهم بأزمان مسيقة ، وكل ما جد في الأمر هو أن الفارسية أصبحت ثمة الحكم والإدارة . وقد ظلت التجارة وللالية ساميتين إلى حد كبير ، وبقيت صور وصيدا كشأتهما في الساضي للبناءن السطيان على البحر للتوسط ، كما أن السفن النامية ظلت تخرج باب البحار . بيد أن كثيراً من هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا من مكان إلى آخر وجدوا تاريخاً مشتركاً يجتمع فيه مصلحتهم وتماطفهم ، ويتمثل في التقاليد والكتب للترلة العبرانية . وعة جنس جديد كان عدده يزداد بسرعة في تلك الإمبراطورية ، وهو الجنس الإغريق . وتالت الساميون فإذا باليونان قد صاروا لهم منافسين خطرين على صفحة البحر ، فضلاً عن أن ذكاهم الفياض البعيد عن الموى جعل منهم موظفين نافعين غير متعيزين .

وكان الإسكينيون هم السبب الذي من أجله فزا دار الأول أوروبا . فإنه شاء أن يصل إلى جنوب روسيا موطن الفرسان الإسكينيين . فمبر البوسفور بهيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى نهر الدانوب ، ثم عبر ذلك النهر بحسر من الزوارق وأدخل شمالا . فلقى جيشه الأهوال . لأنه كان في معظم شأنه قوة راجلة من الشاة ، على حين راح الإسكينيون - وهم من الحياة - يناوشونه بخيلهم من جميع جوانبه ، فيقتطون عنه اللد ، ويهلكون كل من ضل من جنده ، ولا يدخلون معه في أية معركة فاصلة . واضطر داراً أن يراجع تراجعاً مزرباً شائناً .

عاد داراً بشخصه إلى سوس ، ولكنه خلف جيشاً في ترايا ومقدونيا ، وخضعت مقدونيا لداراً . ولما رأت مدن الإغريق الأسيرة ما حل بالملك من إخفاق شبت فيها اللتن ، وانجذب إغريق أوروبا إلى حومة النزاع ، وصمم داراً على إخضاع إغريق أوروبا ولما كان الأسطول الفينيقي رهن إشارته تسنى له بمساعدته أن يخضع الجزر واحدة تلو الأخرى ، حتى انتهى به الأمر في ٤٩٠ ق . م أن قام بهجومه الرئيسي على أثينا . وأقلمت عمارة بحرية عظيمة من موانئ آسيا الصغرى وشرق البحر للتوسط ، وأزلت الحلة جنودها عند ماراتون إلى الشمال من أثينا . وهناك تقسم الأثينيون وهزروهم شر هزعة .

وفي تلك اللحظة الحرجة حدث شمر خارق . فقد كانت إسبرطة الله منافس لأثينا ييلاد الإغريق ، واليوم لجأت أثينا إلى إسبرطة لتتس العون ، فأرسلت إليها رسولا

هذه سرى ما ، يتوسل إلى الإسرطيين أن لا يدهوا الإغريق . يصبحون للبرابرة عبيداً ، وقطع هذا النداء (وهو النموذج للنثالي لتفرائه من عدائى ماراثون) أكثر من مثله ميل من أرض وعرة فى أقل من يومين . وهب الإسرطيون نصيرة إخوانهم فى سرعة وكرم نفس ، ولكن عندما بلغت القوة الإسرطية أثنينا بعد ثلاثة أيام ، لم نجد شيئاً عمله إلا أن تشهد ساحة للمركة وجث جنود دارا للتدحرج . هذا إلى أن الأسطول الفارسى كان قد عاد إلى آسيا . وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسى على بلاد الإغريق .

على أن ما حدث بعد ذلك كان أشد وأبلغ . إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار اندحاره فى ماراثون بقليل ، وظل ابنه وخلفه أجزرسيس ، أربع سنوات يجهز جيشاً عظيماً ليسحق به الإغريق . وجمع الذخيرة كلها الإغريق إلى حين . إذ لا شك أن العالم لم يشهد من قبل جيشاً فى ضخامة جيش أجزرسيس . ولكنه كان جماعاً هائلاً مكوناً من عناصر متنافرة . فبعد المردنيل فى ٤٨٠ ق . م . يحسر من الزوارق ؟ وكما تقدم الجيش تحرك معه بمحاذاة الساحل أسطول لا يقل عنه غلظاً يحمل للؤن . وهناك عند مضيق « ثرموبلاى » وقعت قوة صغيرة مكونة من ١٤٠٠ رجلاً بقيادة ليونيداس الإسرطى تخاوم هذا الجسل الجرار ، ولم تلبث تلك القوة أن أيدت بأكملها بعد قتال أيدت فيه ما ليس له نظير من البطولة ؟ لقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم . على أن الحسائر التى أنزلوها بالفارس كانت فادحة ، وأطبق جيش أجزرسيس على طية^(١) وأثنينا كسير الروح . وخضعت طية وكتبت شروط التسليم . وتخلى الأثينيون عد مدينتهم فأحرقها العدو .

وبدت بلاد الإغريق كأنما قد أصبحت فى قبضة الفاعحين ، ولكن النصر عاد فحالفهم رغم كل الظروف للضادة ، وعلى التقيض من كل ما كانوا يتوقعونه . فإن الأسطول الإغريق أخذ يهاجم الأسطول الفارسى فى خليج سلاميس ودمر ما وإن لم يبلغ ثلث حجمه . ووجد أجزرسيس أنه وجيشه المرمم قد صاروا محرومين من للؤن ، غفاته شجاعته ؟ وتراجع إلى آسيا بنصف جيشه ، تاركاً النصف الآخر لشكى يهزم فى بلاتيا (٤٧٩ ق . م) . وفى نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايا الأسطول الفارسى ويحرقونها عند ميكالى بآسيا الصغرى .

(١) طية : مدينة إغريقية - نرجو أن لا يخلط القارىء بينها وبين سميتها الطيبة بصعيد مصر

[للترجم]

لقد زال كل خطر فارسي . وبات معظم المدن الإغريقية بآسيا حرة . وقد سطرت هذه الأحداث جميعا بتفصيل عظيم وفي شيء كثير من الجمال الجذاب في أول كتاب تاريخي مدون ، وهو تاريخ هيرودوت . ولد هيرودوت حوالي ٤٨٤ ق . م في مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى ، فحمل زور بابل ومصر التماسا للتفاصيل للضبوطه وللشاهدات الصحيحة . وهوت فارس عند معركة ميكاى في بحر من النوضى والخلاف على العرش : فاغتيل اجزرسيس في ٤٦٥ ق . م ، وعبت الثورات في مصر وسوريا وبلاد اللددين ققت على النظام الذى استتب أمدأ وجيزاً على يد تلك للملكة الجبارة ، وتاريخ هيرودوت يحاول أن يؤكد ضعف فارس ، والواقع أن هذا التاريخ ضرب مما قد نسميه اليوم باسم الدعاية - فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس ، وإن هيرودوت ليحمل من أرمستاجوراس إحدى الشخصيات للذكورة في كتابه داعية يذهب إلى الإسبرطين بخريطة للعالم المعروف ويقول لهم :

« ليس هؤلاء البرابرة شجعانا في القتال ، وأتم من جهة أخرى بلقنهم اليوم أقصى المهارة في الحرب .. وليس ثم شعب آخر في العالم يملك ما يملكون ؛ من ذهب وفضة وبرنز وثياب موهغة وحيوانات وعبيد ، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم ذلك حقاً .. »

الفصل الخامس والعشرون

بلاد الإغريق إبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبا هزيمة فارس عصر عظمة الحضارة اليونانية وجلالها . أجل إنه شمل بلاد الإغريق تمزق في صراع على السطوة والعزة امتدأت فيه كل من أثينا واسبرطة ودويلات أخرى (وهي حرب اليلوبونيز ٤٣١ - ٤٠٤ ق م) وأنه حدث في ٣٣٨ ق م أن أصبح اللقدونيون بالفعل سادة لبلاد الإغريق ؛ ومع ذلك فإن الفكر الإغريق وبواعث الخلق والابتكار ودوافع الفن فيهم سميت في تلك الفترة إلى مستويات رفيعة جعلت ما أنجزوه فيها من عظم الأعمال نبراسا تهدي بالبشرية على كبر التاريخ كله .

وكانت أثينا للرأس للفكر وللركز الأساسي لتلك النشاط العقل . وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيد (٤٦٦ - ٤٢٨ ق م) تحت سيطرة رجل قوى الشخصية حر الفكر سمح العقل ، هو بركليس ، الذي نصب نفسه لإعادة بناء المدينة بعد الحريق الذي أئزله بها الفرس . والآثار الجلية التي لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمجد والجلال تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم . والواقع أن بركليس لم يقتصر على إعادة بناء أثينا من الناحية المادية فقط ، بل أعاد بنائها من الناحية الفكرية أيضا . فلم يكف بركليس بأن يجمع حوله للمبارية وللتالين وحدها ، بل حشد أيضا الشعراء ولؤلئين انترامين والفلاسفة والمعلمين . وفي عهده جاء هيروdotus إلى أثيناليتوثارخه على مسامع الناس (٤٣٨ ق م) كما جاء أناكزاجوراس إليها يحمل بدايات وصف على الشمس والنجوم . وفيها نهض إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس الواحد منهم بعد الآخر بالدراما (المسرحية) الإغريقية إلى أعلى ذرا الرقة والجلد .

وقد دفع بركليس حياة أثينا الذهبية دفعة ظلت حية بعد وفاته ، وذلك رغم أن السلام يبلاد الإغريق كانت تصكروه وقتد حرب اليلوبونيز ، وأن كفاحا قتالا طويلا على السيادة بالبلاد قد اندلعت شرارته . والحق إنه يلوح أن تلبد الأفق السياسي بالقيوم ظل إلى حين يصل على شحد أذهان الناس لا تثيطها .

وقبل عهد بركليس بزمن طويل كان جو الحرية العيب الذى تستمتع به النظم الإغريقية يعنى أهمية كبرى على الشهادة فى المناقشة والجدال . إذ لم يكن البت فى الأمور حقاً ملك ولا كاهن ، بل كان يد جميعات الشعب أو الزعماء . ومن ثم غدت الفصاحة والاعتدال فى الجدل مزاجاً مرغوبة مطلوبة . ونشأت طبقة من اللعين ، هم السفسطائيون الذين تصدوا بإذكاء مواهب الشباب فى هذه الفنون . يد أن للرد لا يستطيع أن يحكردون مادة لفكره ، ومن ثم جاءت المعرفة فى أعقاب فنون الكلام . وكان من الطيبى جداً أن يؤدى نشاط هؤلاء السفسطائية ومناقضاتهم إلى وضع الأسلوب فى بوتقة الامتحان القاسى ، هو ومناهج الفكر وصحة الجدل . وعندما مات بركليس كان شخص يدعى سقراط قد أخذ يبرز كناقذ قدير للجدل الردى . ولا نفس أن الشيء الكثير من تعاليم السفسطائية كان جدلاً من النوع الردى . واجتمعت حول سقراط طائفة من الشبان الأذكاء . وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس . (٣٩٩ ق.م) ، حكم عليه بالوت بالطريقة الكريمة الوقورة التى كانت تتبعها أثينا فى ذلك الزمان ، بأن يتناول فى منزله الخامس وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران ، يد أن تكدير عقول الناس ظل قائماً على الرغم من تنفيذ الحكم فيه . وواصل تلاميذه الشبان أداء رسالته .

وكان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) من أعظم هؤلاء الشبان ، فصرح من فوره بلم الفلسفة فى حديقة الأكاديمية . وينقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين :

(أ) اختبار أسس التفكير الإنسانى ومناهجه

(ب) البحث فى النظم السياسية

وهو أول من كتب كتاباً فى اليوتوبيا (الطوبى) ، أى رسم خطة لمجتمع يختلف عن أى مجتمع قائم ويكون أفضل منه ، وذلك أمر يتم عن جرأة ليس لها قبل ذلك من ضرب فى القبل الإنسان الذى ظل حتى ذلك الحين يقبل التقاليد الاجتماعية والعرف للأولف ولا يكاد قلب فيها فكراً أو يحتمها بؤوال واحد . قال أفلاطون للإنسانية بصرى العبارة :

« إن معظم الأعداء الاجتماعىة والسياسية التى منها تخاسون إنما هى أمور يسهل

عليكم التصرف فيها ، لو أنكم أوتيتهم الإرادة والشجاعة اللزمتين لتغيرها . فأنتم تستطيعون أن تعيشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيراً وبجهاً وتكتشفوا بالدراسة كنهه . فأنتم لا تشعرون بما عليكم من قوة . « ولا شك أن ذلك تعليم راق يدعو العقل إلى المخاطرة وللغامرة ، وأنه لم يتخلل جد بصورة عامة في فطنة جنسنا البشري ولا بد لها من تحريه . ومن أول مؤلفاته كتاب « الجمهورية » ، وهو كتاب يتخيل قيام حكومة أرستقراطية شيوعية ؛ فأما كتابه الأخير الذي لم يشمه فهو كتاب « القوانين » ، وهو رسم خطة لتنظيم دولة مثالية (يوتوبية) مثالية لذلك .

وجاء أرسطو الذي كان تلميذاً لأفلاطون قوامل بدوافع أستاذه تدهمناج التفكير وأساليب الحكم وكان يعلم في اليسيوم . وقد أرسططاليس على أثينا من مدينة اسطاجيرا بمقدونيا ، وكان أبوه طبيباً لبلاط الساحل للمقدون . وقضى أرسططاليس بض الزمن معلما للاسكندر ابن الملك الذي قدر له أن ينجز أعمالا عظيمة جدا مستكمل عنها قريبا . وقد أدت جهود أرسطو في مضار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفع علم للنطق إلى مستوى ظل ملازما له مدألف وخمسائة من السنين أوتريد ، أى حتى عاصر رجال العلم في الصور الوسطى إلى تناول للسائل الشيقة من جديد . لم ينشأ أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) . ذلك أن أفلاطون كان يرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف في مصائره ؛ ولكن أرسطو كان يدرك أن الإنسان لا بد له قبل ذلك من قدر أعظم من المعرفة ، قدر من المعرفة الصحيحة المحققة أعظم كثيرا عما يمكن . ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة للنظمة من المعرفة التي نسميها اليوم باسم « العلم » . فأرسل للتشكفيين ليجمعوا له الحقائق . وهو أبو التاريخ الطبيعي . وهو للؤسس لاسلم السياسة . وقام تلاميذ في اليسيوم بخصى دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها ببعض . . .

فنحن نجد هنا وفي القرن الرابع ق ، م قوما ذوى تفكير عسرى أو يكاد ، لقدولت طرائق الفكر البدائى الشبيه بطرائق الأطفال والأحلام ، وحل محلها تناول مشاكل الحياة بطريقة منظمة وقادة ، وهنا أيضا يحمل تماما كل لجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشمة الدائرة حول الآلهة البشمة والوحوش للعبدة ، كما تلتى جميع المخطورات (التابوهات) والخاوف والقيود ، التي ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان . لقد ابتدأ التفكير الحر للضبط للنظم ، إن القنن الجديد الناشط غير التكليل بالقيود لهؤلاء الوافدين حديثا من الغابات الشمالية ، قد ألقى بنفسه في صميم خفايا العبد وصمغ لضوء النهار بالتقاد إلى غيابتها .

الفصل السادس والعشرون

إمبراطورية الاسكندر الأكبر

ظلت حرب اليايونيوز بدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق.م وفي نفس الحين كانت مقدونيا تنهض تدريجياً ، وهى قطر يقع إلى الشمال من بلاد الإغريق ويرتبط بها ببعض سلات القربى وللشابة . وكان للقدونيون ينطقون بلسان وثق القرابة باللسان الإغريق ، وكثيرا ما اشترك للتبارون اللقدونيون فى الألعاب الأولمبية . وفى ٣٥٩ ق.م تولى عرش ذلك القطر الصغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جداً هو فيليب اللقدونى . وقد عاش فيليب شطراً من أيامه يلاذ الإغريق ، وكان فيها رهينة؛ وتلقى تلمها إغريقياً بحتاً ، ولله كان ملأً بأراء هيرودوت ، التى طورها ونماها الفيلسوف إزوقراطيس ، والتى تقول بإمكان اضطلاع بلاد الإغريق - إذا اتحدت كلها - بفتح آسيا .

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته وتنظيمها وإعادة تكوين جيشه . فقد مضت ألف سنة قبل ذلك الأوان ظلت أثناءها السبلة التى تقوم بالمعجم ، هى العامل الحاسم فى المارك ، وذلك عدا الجنود المشاة للترامة فى القتال . وكان الفرسان يقاتلون أيضاً ولكن بوصفهم سرباً من اللناوشين يعملون فرادى ودون نظام ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهاجمون فى كتلة كثيفة مقراصة ترامساً شديداً ، هى الفيلق اللقدونى ، كما درب وجهاء قومه الراكبة (وم الفرسان أو الرفاق) على القتال فى تشكيلات ، وبذلك اخترع نظام الحياة .

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الحياة أم الحركات فى معظم معاركه ومعاركه ابنه الإسكندر . فكان الفيلق اللقدونى يصد مشاة العدو على حين كانت الحياة تجتاح فرسان العدو فى الجناحين ثم تنثال على جانب مشاته ومؤخرتهم . وكانت العجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقىه الرملة على خيولها من سهام .

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا ومد حدوده إلى بلاد الإغريق ؛ حتى

إذا خاض معركة خيرونيا (٣٣٨ ق. م) مع أثينا وحلفائها ، أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة له ، وبهذا أخذ حلم هيرودوت يؤتى ثماره في آخر الأمر ، واجتمع مؤتمرون جميع دول المدن الاغريقية فعين فيليب قائداً عاماً لاتحاد مقدوني إغريقي ضد فارس ؛ وفي ٣٣٦ ق. م عبرت فرقة الحرس الأمامي البحر إلى آسيا لتبدأ هذه للفتنة التي طال التمسك فيها ، ولكن الملك لم يلحق البتة ذلك الحرس ، لأنه اغتيل ؛ وكان ذلك فيما يعتقد بعضهم بتعرض من زوجته الملكة أولمبياس أم الاسكندر . وذلك لتوقد نفسها بالنفيرة لأن فيليب تزوج من أخرى .

يبد أن فيليب عني عناية فائقة بتربية ولده ، فلم يكتف بأن اتخذه من أرسطاطاليس أعظم فلاسفة عصره معلماً للفلام الصغير ، بل شارك الصبي أيضاً في آرائه ودوره بتدريسه عسكرياً ، فجعل الاسكندر قائداً للخيالة في معركة خيرونيا آتة الذكر وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، وبهذا تسنى لذلك الشاب الذي لم يزد عمره على العشرين يوم توليته العرش ، أن يتولى أعباء أبيه على الفور وأن يضطلع بالفتنة الفارسية بنجاح .

ولكنه قضى سنتين كاملتين في تثبيت أقدامه في مقدونيا وبلاد الإغريق قضاهما في إخماد ماشب ضده من الثورات ، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا في ٣٣٤ ق. م وهزم جيشاً فارسياً لا يكبر جيشه كثيراً في معركة جرانيكوس ، واستولى على عدد من المدن في آسيا الصغرى ؛ لزم الاسكندر ساحل البحر ، وكان من الضروري عليه أن يفتح كل المدن الساحلية كما تضمن في السير وأن يتركها للحاميات ، وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صور وصيدا ، وبذا كانت لهم الميادة البحرية . فلما ترك وراءه ميناء معاديا دون حماية تحرسه ، لجأ أن ينزل به الفرس قولتهم للاطارة على مواسلاته وقطع خط رجسته . والتقى قرب إسوس (٣٣٣ ق. م) بجميع هائل غلظت تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة .

وكان ذلك الجيش المائل — شأن جيش إجزرئيس الذي عبر المردنيل قبل ذلك بقرن ونصف — جمّاً من المبتدين غير متملق ولا مراقب ، بهظمه شديداً من موطن البلاط فضلا عن حریم دار وكثير ممن يتعقبون للسكرات القنصاء للرزق ، وسلبت صيدا للاسكندر ، ولكن صور قاومت بشدة ، وأخيراً فتحت تلك المدينة الكبيرة عنوة واثبتت ثم دمرت ، وفتحت غزة أيضا عنوة ، وعند قرب نهاية ٣٣٢ ق. م دخل الفراع مصر واستولى من الفرس على مقاليد حكمها .

وبى الإسكندر مدينتى الاسكندرية والشام والاسكندرية بمصر بموقعين يمكن بلوغهما من البر ، وبذا تصبحان غير قادرتين على التمرد عليه . وإلى هذين الرقائين تحولت تجارة المدن الفينيقية . وهنا يختفى من التاريخ على حين بنة فينيقيو الحوض الغربى للبحر المتوسط — وينسب الطريقة الفجائية يظهر يهود الاسكندرية والمدن التجارية الأخرى التى شيدها الإسكندر .

وفى ٣٣١ ق . م تقدم الإسكندر من مصر بجيشه إلى بابل ، كما فعل من قبله تخمس ورمسيس ونخاو . يد أنه سار بطريق صور . وعند أريلا (إريل) بالقرب من أقناض نينوى التى كانت قد عفى عليها آنذاك النسيان ، التقى بدارا فى معركة حاسمة . وبات هزيمة السجلات الفارسية بالفشل ، وحمل الحياة للقدونيون على ذلك الجيش العظيم المخلط حملة بددت شمله ، وأحرز الفيلق بقية النصر . وتقهقر دارا بجيشه . ولم يحاول مقاومة للتير مرة أخرى ، بل فر شمالا إلى إقليم الليديين .

وواصل الإسكندر زحفه على بابل ، وكانت لا تزال بدت ريا هاما ، ثم إلى سوسا (سوس) وبرسيبوليس . وهناك أقام حفلا أديرت فيها الحور ثم أمر فى أعقابها بحرق قصر دارا ملك اللوك .

وما لبث الإسكندر بعد ذلك أن جل من آسيا الوسطى ميدانا عسكريا لمرض جيشه على الانتظار ، وانطلق به إلى أقصى تخوم الامبراطورية الفارسية ، متجها بادية الأمر نحو الشمال . وتعب الإسكندر دارا ، حتى أدركه عند الفير وهو يلفظ فى عربته آخر أنفاسه ، بعد أن قتله شبه . وكان لا يزال على قيد الحياة عندما وصل إليه جنود القدمة الإفرقية .

وجاء الإسكندر فوجده قدمات ، وسار الإسكندر بمحاذاة بحر قزوين ، وتوغل فى جبال التركستان القريبة ثم انحدر إلى بلاد الهند بطريق هيرات (التى أسسها) وكابول وجر خير ، والتحم فى معركة عظيمة على نهر السند مع ملك هندي اسمه يوروس ، وهنا التقت الجنود المقدونية بالبلية لأول مرة ودحرتها . وانتهى به الأمر أن يقتل نفسه سفناً انحدر بها إلى مصب السند ، ثم عاصراً على الأقدام بحذاء ساحل بلوخستان ، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية فى ٣٢٤ ق . م بعد غيبة دامت ست سنوات . وعند ذلك أخذ يستعد لتنظيم إمبراطوريته العظيمة وعندما بين أجزاءها من روابط ، فحاول أن يغوز

بحجة رعاياه الجدد ، بأن أخذ ثياب العاهل الفارسي وتاجه ، فأثار ذلك غيرة قواده
للقدونيين الذين لقي منهم شراً كبيراً ، ثم عقد قران كثير من الضباط القدونيين بنساء
فارسيات وبابلات ؛ وهو ما يسمى « بزواج الشرق والغرب . » على أنه لم يمر لينفذ
الترابط الذي أعد عدته . إذ اتبته حتى بعد ولجته شراب ألامها في بابل فمات في
٣٢٣ ق . م .

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقبة الماهلقة من الأرض . وقبض سلوقوس أحد قواده
على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى إفيوس ؛ واستولى على مصر قائد آخر هو
بطليموس ، كما احتاز مقدونيا قائد آخر اسمه أنتيجوناس . أما بقية الإمبراطورية فإنها رزحت
في غمرات الفوضى وعدم الاستقرار ، وجعلت تنتقل إلى أيدي مجموعة متعاقبة من
الغامرين المحليين . وابتدأت غارات البرابرة من الشمال وأخذت تنسج مجالا وتزداد حدة .
حتى انتهى الأمر كما سنخبرك فيما بعد ، بظهور قوة جديدة هي قوة الجمهورية الرومانية ،
التي جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزء منها تلو الجزء ، إلى أن دبت بينا جميعا في
في إمبراطورية جديدة أطول عمراً .

الفصل السابع والعشرون

متحف الاسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجارا وقنانيين وموظفين وجنوداً مرتزقة ، ينتشرون في معظم للممتلكات الفارسية . وقد حدث أثناء المنازعات التي قامت حول العرش بدوفاة جزوسيس ، أن فئة من مرتزقة الإغريق عنتها عشرة آلاف جندي لمبت دوراً تحت قيادة كسينوفون (زينوفون) ولهذا القائد كتاب أسماء وتظهر العشرة الآلاف وهو من أوائل قصص الحروب التي كتبها قائد أثناء توليه القيادة — يصف هودتهم من بابل إلى بلاد الإغريق الأسبوية . على أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بين أولاده ، زادت كثيراً من انتشار الإغريق ولتتهم وطرائقهم وثقافتهم في أرجاء العالم القديم فقد وجدت في مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربي الهند آثار تتم عن انتشار هؤلاء الإغريق بتلك الأسقام . وكان تأثيرهم في تطور الفن الهندي عيقاً .

ظلت أثينا قروناً عديدة محتفظة بثقوقها كركز للفنون والثقافة ؛ وبقيت مدارسها حية حتى ٣٢٩ م ، أي أنها عاشت ما يقارب الألف سنة ؛ ولكن زعامة النشاط الفكري في العالم ما لبثت أن انتقلت عبر البحر للتوسط إلى الإسكندرية ، وهي للدينة التجارية الجديدة التي أسسها الإسكندر . وهنا كان القائد القنودوني بطليموس قد أصبح فرعوناً على مصر ، وجعل من حوله بلاطاً لفته الرسمية هي اليونانية . وكان صديقاً حميماً للإسكندر قبل توليه العرش ، كما كان متمعفاً في دراسة آراء أرسطو ، فأخذ يعمل على تنظيم المعرفة والبحث بهمة واقتدار عظيمين . كما أنه ألف كتاباً عن حملات الإسكندر ، لم يثر عليه لسهو الحظ .

وكان الإسكندر قد رصد مبالغ طائلة من المال للاتفاق منها على أبحاث أرسطو ، ولكن بطليموس الأول كان أول من حبس على العلم منعاً وحيات مستديمة . فأقام بالإسكندرية مؤسسة هي متحف الإسكندرية الذي خصص بصفة رسمية لربات الفنون Musea وانضى جيلان أو ثلاثة كانت الأبحاث العلمية التي تجري أثناءها بالإسكندرية

ممتازة الجودة . وظهرت هناك مجموعة خارقة من رواد العلم وعلاء الطلبة ، من ألح نجوماً إقليدس وإراتوستينس الذي قاس حجم الأرض ووصل في تقدير قطرها إلى نتيجة تقل عن قطرها الحقيقي بخمسين ميلاً ، وأبولونيوس الذي ألف في «القطاعات المخروطية» وهيارخوس الذي رسم أول خريطة للعالم وصنف أقدم فهرس للنجوم ، وهيرون مخترع أول آلة بخارية . وجاء أرشميدس من سيراكوزة إلى الإسكندرية ابتغاء الدراسة والبحث وكان دائب الاتصال بالتحف . وكان هيروفيلوس من أعظم علماء التشريح لدى الإغريق ويقال إنه مارس تشريح الأحياء .

وانقضى جيل أو ما يقارب ذلك حكم أثانه بطليموس الأول والثاني ، وتأجبت فيه المعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جذوة لم يقدر للعالم أن يشهد لها ضرباً حتى القرن السادس عشر الميلادي . بيد أن تلك الحركة الفكرية لم تستمر طويلاً . وربما اجتمعت على انحلالها أسباب عدة ، وعلى رأسها فيما يرى للرحوم الأستاذ ماهاقي أن التحف كان كلية ملكية ، وأن فرعون هو الدين بين جميع أسانذتها ومساعدتهم وهدفهم لهم أجورهم . ولم يك في ذلك أدنى ضير طالما كان ذلك الفرعون هو بطليموس الأول ، تلميذ أرسطو وصديقه .

ولكن أسرة البطالة تمصرت بمرور الزمن ، ووقعت تحت سلطان كهنة مصر والتطورات الدينية المصرية ، وكفوا عن موالاة ما كان يجري من عمل ، ولم يلبث إشرافهم عليه أن خفق روح البحث والتقصي خفقا تاما . لذلك لم ينتج للتحف بعد القرن الأول من نشاطه إلا القليل من الإنتاج الجيد .

ولم يقتصر بطليموس الأول على محاولة تنظيم الكشف عن ينابيع جديدة للمعرفة متوخيا في ذلك روحاً عصرية خالصة ، بل حاول كذلك أن ينشئ مكتبة الإسكندرية لتكون داراً موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة . لم تكن المكتبة مجرد مستودع للمكتب ، بل كانت أيضاً مؤسسة تتوفر على نسخ الكتب ويجمعها . قد جرد حشد كبير من النسخ للعمل للنواصل مما أدى إلى مضاعفة إعداد الكتب ونسخها .

وعلى ذلك فالتأنيب في هذه المؤسسة لأول مرة البداية الأولى المهددة للحركة

السكرة التي تعيش فيها اليوم ؛ وفيها نجد للفرقة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمة . فإنشاء هذا التحف وهذه المكتبة يد إزدانا يده إحدى الحقب العظيمة في تاريخ العالم . فهي لبداية الحقبة لتاريخ الحديث .

وكان يعترض طريق البحث العلمي ونشر العلم بين الناس عوائق عظيمة . منها تلك الهوة الاجتماعية السحيقة التي تفصل الفيلسوف — وهو سيد مذهب — عن التاجر والصانع . كان صناع الزجاج وللمادن في تلك الأيام كثيرى العدد ، ولكن لم يكن بينهم وبين للسكرين أى اتصال عقلى . فكان صانع الزجاج يصنع أجمل الحروز والقوارير وغيرها ألوانا ، بيد أنه لم يصنع البتة قنينة فلورنسية ولا عدسة من العدسات . وليس يبدو أن الزجاج الصافي لقي منه اهتماما . وكان صناع المادن يصنعون الأسلحة والمجوهرات ، ولكن أحدا منهم لم يصنع أبدا ميزانا كباويا . وفي نفس الوقت الذى أدام فيه الفلاسفة التأمل في ترفع حول الثرات وطبيعة الأشياء ، ولم تكن لهم خبرة عملية بالبناء ولا الأصباغ ولا أشربة توليد الحب إلى غير ذلك . لم يكن الواحد منهم ينى بالواد الطبيعية . ولذا فإن الإسكندرية لم تنتج يوم صنعت فرصتها الوجيزة ميكروسكوبا ولا كيمياء . ومع أن هرون اخترع آلة بخارية ، فإنها لم تستعمل قط في رفع الماء أو في دفع قارب أو في عمل أى شئ نافع . وقل أن وجدت للعلم تطبيقات عملية اللهم إلا في مغمار الطب ، كما أن تقدم العلوم لم يكن يحفزهم ويحافظ عليه اهتمام القوم بالتطبيقات العملية ولا ما تحدثه تلك التطبيقات من هزة في النفوس . لذا لم يكن هناك شئ يدعو إلى الاستمرار في العمل عندما ولي بطليموس الأول والثاني وزال أثر حبهما للاستطلاع . ولذلك أيضاً دونت مستكشفات التحف في خطوطات خفية غامضة ، ولم تصل قط إلى الناس كافة ، حتى بحث حب الاستطلاع العلمي في عصر النهضة .

ولم تنتج المكتبة — من ناحية أخرى — أية تحسينات في صناعة الكتب . ولم يكن ذلك العالم القديم يصنع من هيئة الحرق ورقا له حجوم مربعة . ذلك أن الورق اخترع صينى لم يصل إلى العالم الغربي إلا في القرن التاسع الميلادى . وأما المسواد الوحيدة المستعملة به في صنع الكتب فهي الرق وملغآت (شقائق) قصب البردى الموصولة حروفها بعضها ببعض . وكانت هذه الشقائق تجعل في صورة ملفات . من أعسر الأمور فتحها ولها للاطلاع عليها ، كما أنها متعبة جدا لكل باحث شاء الرجوع إليها .

تلك هي للوانع التي حالت دون نشأة الكتب المطبوع ذي الصفحات . أما الطباعة نفسها فالظاهر أنها كانت مفروقة في العالم ، منذ زعمت سحيق ليله المعبر الحبرى القديم ؟ .
 فقد وجدت الأخام في بلاد سومر العتيقة ، بيد أنه لم يكن لطبع الكتب أية ثمرة مالم يكثر الورق ، هذا عدا أن الطباعة تنطوى على تقدم لم يمكن بد من أن يلقي للقاومة من ثقات المال رعاية لصالح النساخين للمستخدمين في صناعة النسخ . وكانت الإسكندرية تنتج كتباً وفيرة ولكنها ليست بالرخيصة ، كما أنها لم تنشر للعرفة ثنائيا بين سكان العالم القديم إلا في مستوى الطبقة للوسرة ذات النفوذ .

هكذا حدث أن شملة التقدم الفكرى لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس للتصليين بمجموعة الفلاسفة الذين جمعهم بطليموس الأول والثاني . كان مثلها كمثل نور في مصباح مغمى يحجب النور دون العالم كافة . وقد تكون الشملة في الداخل وهاجة تخطف الأبصار ، ولكنها مع ذلك مستورة لأزراها الأنظار . أما بقية أصقاع العالم فلإنها سارت على طرائقها القديعة غير دائرية أنه قد بذرت بذرة للعروة العلمية التي ستحدث فيه انقلابا تاما في يوم من الأيام . وسرعان ما غشيت الدنيا سحابة حالكة من التعصب الدينى وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها . ومرت على تلك اللحظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس ، الذى غطى على البذرة التي بذرها أرسطو . ثم اهتزت وأخذت تنبت . وما هي إلا بضعة قرون حتى غدت تلك البذرة دوحه المعرفة الفارعة وسدرة الأفكار الخالصة التي تغير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها .

لم تكن الاسكندرية هي المركز الوحيد لنشاط اليونان الفكرى في القرن الثالث ق .م . فإن بين الحطام المتخلفة عن إمبراطورية الاسكندر البصيرة الأمد ، مدنا أخرى كثيرة سطعت فيها حياة فكرية وقادة . فهناك مثلا مدينة سيراكوزة الاغريقية بصقلية ، التي ازدهر بها الفكر والعلم قرنين ؛ وثمة برجامة (برجاموم) بآسيا الصغرى ، التي كان لها هي أيضا مكتبة عظيمة . بيد أن هذا العالم المليخي الولاد الذكاء أصيب آنذاك بشارت أهل الشمال . فإن همجا نورديين جددا هم «الناليون» ، كانوا سيرون في نفس الطرق التي اخترقها يوما ما أسلاف الإغريق والفرجيين والمقدونيين . كانوا يسيرون ويخطمون ويدهمون . وجاء في أعقاب الناليين شعب قارع جديد من إيطاليا هو الرومان ، الذين قاموا بالتدريج بإخضاع جميع النصف الغربى من مملكة دارا

والاسكندر الهائلة . كانوا قوما ذوى كفاءة واقتدار ، ولكنهم محرومون من نعمة
الخيال ، فهم يؤثرون القانون والمنفعة على كل من العلم والفن . ونعمة خزانة جدد كائرا
ينحدرون من آسيا الوسطى ليدمرُوا الإمبراطورية السلوقية ويخضعوها وليقطعوا مائة
ثانية ما قام بين العالم الغربي وبلاد الهند من اتصال ، وكان هؤلاء هم الأشفانيون
(البارثيون) ، وهم أرحام من رعاة القسي الراكيين ، فغاملوا إمبراطورية بيسيوليس
وسوس الإغريقية الفارسية في القرن الثالث ق . م تنس للامعة التي عاملها بها الميديون
والفرس في القرن السابع والسادس . وكان هناك عندئذ أقوام آخرون من الرعاة
يأتون هم أيضاً من الشمال الشرقى ، ولم يكونوا قوما هقرا ولا نورديين ولا ناطقين
بالآرية ، بل كانوا ذوى جلود صفراء وشعر سوداء ولم لغة مغولية ، على أننا سنزيدك
بهم بيانا في فصل تال .

الفصل الثامن والعشرون

حياة جوتاما بوذا

الآن ينبغي لنا أن نرجع بقصتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لتحديثك عن معلم عظيم أوعك أن يحدث انقلاباً ثورياً في فكر آسيا بأجمعها ومشاعرها الدينية . ذلك للمعلم هو جوتاما بوذا ، الذي كان يعلم تلاميذه في بنارس بالهند في نفس الوقت الذي كان أشيا يتنبأ فيه بين اليهود في بابل ، والذي كان هيراقليطوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه الفكرية في طبيعة الأشياء بمدينة إفيسوس . كان هؤلاء الناس جميعاً يعيشون في العالم في وقت معاً في القرن السادس ق . م . دون أن يدري أحد منهم بوجود الآخرين .

والحق إن هذا القرن السادس ق . م من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة . ففي كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة ، وذلك لأن هذه الحالة تفتت في بلاد الصين أيضاً كما ستدلى إليك فيما بعد . وفي كل مكان ، كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد للكهنة والكهنة والقرايين ويسألون أهد الأسس ؟ تعصفاً وتقاذاً . وكأنما الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة .

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضاً جداً . ففي زمن ما لمه يقارب عام ٢٠٠٠ ق . م ، هبط الهند من الشمال الغربي شعب ناطق بالآرية ، إما في غزوة واحدة أو في سلسلة متعاقبة من الغزوات ، ، فاستطاع أن ينشر لفته وتقاليده فوق الشطر الأعظم من شمال الهند . وكان النوع الذي يتحدثون به من اللغة الآرية هو الفرع السنسكريتي . فوجدوا في إقليم السند والكنج هعباً أمر أرقى حضارة وأضف إرادة . ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالكثرة التي تخالط بها الإغريق والفرس . فظلوا عنه بمنزل . حتى إذا مرت الأيام أصبح ماضي الهند مريباً للورخ على عشاة تشبه ، إذا بالجنم الهندى مقسم إلى طبقات كثيرة ، (مع عدد متغير من الأقسام الثانوية) ، لا تأكل بعضها بعضاً ولا تزواج ولا تختلط اختلاطاً حراً . وإذا بهذا التقسيم الطبقى إلى طوائف يستمر

أمد التاريخ كله . وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئاً يخالف المجتمعات الأوربية وللتنولية البسيطة السهلة الزواج ، فهم في الحقيقة مجتمع مجتمعات .

وكان سيداتاً جوتاما أحد أبناء عائلة أرستقراطية تحكم مقاطعة صغيرة على منحدرات الهملايا . فتزوج وهو في التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة ، وكان يصطاد ويلهو ويتجول في طله للشمس للكون من الحدائق والأحراش وحقول الأرز للتموزة بالياه وفيما هو ينعم بتلك الحياة حل به تهمر عظيم . كان ذلك هو شعور التماسه الذي يحسه العقل للتماز الذي يريد أن يعمل . ذلك أنه شعر أن الحياة التي يحياها لم تكن هي الحياة الحقة ، وأنه كان في عطفة . دامت أكثر مما ينبغي .

وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوى بالمرض والنفاه ، وبأن جميع ألوان السعادة غير مأمونة وغير مرضية ، وبينما هو على تلك الحال التقى برجل من أولئك الزهاد المتجولين الذين يكثر وجودهم بيلاد الهند حتى قبل أجياله . كان هؤلاء الناس يتبعون في عيشهم قواعد قاسية ، ويقتضون شطراً طويلاً من وقته في التأمل والحوار الديني ، وكان للفروض أنهم يتفكرون وراء أعظم ما في الحياة من حقائق ، واستولت على جوتاما رغبة حارة في احتذاء حذوهم .

وتقول القصة إنه كان يتفكر في هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته وضعت بذكر أبنائه . فقال جوتاما « تلك رابطة أخرى لا مفر من فسمها » .

عاد إلى القرية بين نهاليل أبناء عشيرته ومظاهر ابتهاجهم ، وأقيمت وليمة عظيمة وورقت الراقصات احتفالاً بيلاد هذه الصلة الجديدة ، ولكن جوتاما استيقظ في موهن الليل والألم الروحي العظيم يقطع فؤاده ، « وكأنه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار في منزله » ففهم على أن يهجر منذ تلك اللحظة حياته السيدة التي لا هدف لها ، فتسلل إلى باب غرفة زوجته ، فراحا على نور قنديل زيت صغير وهي ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعيها طفله الرضيع ، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويمانه عنقا يكون هو الأول والأخير قبل الرحيل ، ولكن خوفاً من إزعاج زوجته منه من ذلك ، وأخيراً ولي ظهره وخرج إلى ضياء القمر الهندى الساطع وامتنطى جواده وانطلق إلى العالم .

سار في تلك البلاشة جيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضي عشيرته ، وترجل على ضفة نهر رملية . وهناك قطع بسيفه ذوائباً للتهذبة ، وأماط عنه كل حلية وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله . ثم واصل سيرة حتى التقى - لوقت - برجل في أسماح وجادل وإياه الثياب ، حتى إذا ثم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق الدنيوية أصبح حراً في متابعة بحثه وراء الحكمة . وانجه جنوباً إلى مثنوى للنساك وللصلين يقوم على طنف ^(١) بين التلال يجال المُنْدهيا . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لاستزاداتهم البسيطة ، ويدلون شوقاً بما لديهم من المعرفة لكل من معنى بالحضور إليهم . وأصبح جوتاما ضليعاً بكل علوم ما وراء الطبيعة في عصره . غير أن ذكاه الوقاد لم يقنع بالعلوم التي قدمت إليه .

والعقل الهندي ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليهما بإزهادة للفرطة أي بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس ، وهنا وضع جوتاما هذه الفكرات في بوتقة الاختبار ، فانطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة ، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكيرات ، وطار حيله : « كرين جرس عظيم معلق في قبة السماوات » ، بيد أن ذلك لم يجتلب له أي شعور بأنه فاز بالحقيقة ، وبينما هو يسير ذات يوم ذهاباً وجيئة ، عاوا أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب عن وعيه فجأة . حتى إذا أفاق من غشيته ، تجلت أمام ناظره سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فألقي الرعب في أفئدة رفاقه بطلبه العلم المادي ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبخوخ أية حقيقة هي العقل الجيد التغذية في جسم سليم . وكانت مثل تلك الفكرة غريبة غريبة مطلقاً على أفكار البلاد والمصر . فمجره تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس في حالة حزن وقنوط . وأخذ جوتاما يتجول بعفره ...

والعقل عندما يصطرع مع مشكلة عظيمة ومعقدة ، فإنه يتقدم في سبيل الفوز خطوة في إثر خطوة ، دون أن يدرك إلا قليلاً قدر السكاسب التي أحرز ، وإذا هو يدرك نصره

ويحققه على حين بنة مع إحساس بالاستنارة الفاجئة . وهذا هو ما حدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه في ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشمرور بالرؤية الصافية يحمل به . فلاح له أنه يروى الحياة هبة واضحة . ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليه في تفكير عميق ؛ ثم قام ليبلغ العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد في البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم ، وأنعمهم ثانية بتعاليمه الجديدة . فنادوا لأنفسهم في حديقة التزلان لللكية بينارس أكوأخ وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

وكانت نقطة البداية في تعاليمه هي السؤال الذي وجهه لنفسه كشاب حاله التوفيق : « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس . وهو سؤال يختلف اختلافاً كبيراً في النوع عن حب الاستطلاع الصريح النطوى على فسيان الذات وللوجه نحو العالم الخارجى — حب الاستطلاع الذى كان طاليس وهيراقليطوس يحاولان به فهم مشاكل الكون ، كما يختلف كثيراً عما يعادل ذلك من نسيان لذات يتجلى في صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذى كان أواخر الأنبياء يفرضونه في العقل العبرانى فرضاً .

فالعلم الهندى لم ينس « النفس » ، بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يسمرها . وعلم الناس أن كل ما يقاسيه الفرد يعود إلى رغباته الشرهة . حتى يخضع للرء تلهفاته الشخصية ، لحياته متاعب ونهايته شجن .

والتلطف على الحياة يتخذ أشكالاً رئيسية ثلاثة كلهن شر . فأولها حب الشهوات والشرهة وجميع أنواع الإحساسات الجسدية ، وثانها الرغبة في الخلود الشخصى والأثانى ، وثالثها التهاق على التجاج الشخصى وحب الدنيا والشح وما إليه . ولا بد من التئلب على أنواع هذه الرغبات التماساً للقرار من محن الحياة وأشجبتها — فإذا تم قهرها واختفت النفس تماماً ، بلغ الرء مرتبة « الترقانا » أى صفاء النفس وهى أعلى درجات الخير .

تلك خلاصة مذهبه . ولا شك أنه مذهب خفى جداً وميتافيزيقى ، وهو لا يسكاد بدأى في سهولة الفهم وحية الفلسفة الإغريقية التى تدعو الناس أن ينظروا ويرفوا بلا

خوف وبالطريقة الصائبة ، ولا الوصية المبرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر ، كان ممكناً يملأ - كثيراً على فهم تلاميذ جوتاما للتصديق به اتصالاً مباشراً . فلا عجب إذن أنه ما كاد تنوذه الشخصى يزول حتى داخل للنهب الفساد والتلطم ، وكان أهل الهند يستقنون في ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على قترات طويلة وأنها تتجسد في شخص مختار يسمى « البوذا » . وأعطى تلاميذ جوتاما أنه بوذا ، وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يتم أى دليل على أنه هو نفسه قبل القرب . ولم تكسدتففى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تتسج من حوله ، فإن من دأب القلب الإنسانى أن يفضل دائماً قصة مملوءة عجباً على جهد خلقى ومعنوى ، ولذا تحول جوتاما إلى أعجوبة مذهشة جداً .

ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فإن كانت « الترقانا » أعلى وأدق من أن يتسامى إليها خيال معظم الناس ، وإذا كانت دوافع العقل البشرى إلى نسج الأساطير أقوى من أن تقف في سبيلها حياة جوتاما وما بها من الحقائق البسيطة ، فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئاً من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثمان » ، وهو الطريق الآرى أو النيل في الحياة . وهذا الطريق ينطوى على الإصرار على الاستقامة الذهنية ، وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب وعلى السواك الصائب والتميش الحريص . وبفضله تم إنعاش الضمير وظهر اتجاه نحو الأهداف المكررة للخطوة على نسيان اللذات .

الفصل التاسع والعشرون

الملك آسوكا

انقضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما ، ولكن تلك التعاليم البوذية البالية النيلية ، أول التعاليم البسيطة القائمة بأن أعلى درجات الخير للإنسان هي في إخضاع النفس ، — لم يكتب لها إلا تقدم قليل نسبيا في العالم . ثم ما لبثت تلك التعاليم أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم .

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الاسكندر الأكبر انحدروا إلى بلاد الهند وقاتل ملكها « بوروس » على شفاف نهر السند . ويروي مؤرخو الاغريق أن شخصا اسمه شاندر اجوبتا موريا وقد حل بمسكن الاسكندر حلوله أن يقنعه بأن يتقدم حتى نهر الكنج ويفتح بلاد الهند جميعا ، ولم يستطع الاسكندر أن يفعل ذلك لأن اللقديونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة في غمرات عالم مجهول ، ثم تمكن شاندر اجوبتا فيما بعد (٣٢١ ق . م) من الحصول على عون قبائل عديده بمنطقة التلال وأن يحقق أحلامه دون مساعدة الاغريق . فأسس إمبراطورية في شمال الهند ، وسرعان ما تسق له في (٣٠٢ ق . م) أن يهاجم ممتلكات سلوقس الأول بإقليم البنجاب وأن يزيل عن الهند آخر آثار للحكم الاغريق ، وبسط ابنه رحمة هذه الامبراطورية الجديدة ، ووجد حفيده « آسوكا » — وهو العاهل الذي تتكلم عنه الآن — نفسه في ٢٦٤ ق . م حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس .

وكان آسوكا ميالا في البداية إلى اتباع مثال أبيه وجده ، وأن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية . فغزا كالينجا (٢٥٥ ق . م) ، وهي إقليم على ساحل مدراس الشرقي ، وأوقى النصر في عملياته الحربية ، ولكن بلغ من اشترازه من مساواة الحروب وأهوالها أنه غفل عنها ونبذها فكان بذلك نسيج وحده بين الفاتحين جميعا . وزهدت فيها نفسه

تماماً . وبمبنى مذهب البوذية العلمى ، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين
فتوحاً فى ميادين الدين .

وكان حكمه الذى دام ثمانية وعشرين عاماً من أزهى فترات المدور الجلية فى تاريخ
البشرية المضطرب . ققام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالهند ، وزرع الأشجار لتظليل .
وأسس للمستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تروى فيها الأعشاب الطيبة . وأنشأ
وزارة للعناية بأهالى الهند الأصليين وأجناسها الخاصة . وأخذ العدة اللازمة لتعليم
النساء . وخصى هبات خيرية هائلة لمؤسسات التعليم البوذية ، وحاول أن يمهّم على نقد
للؤلفات الدينية للتكسدة لديهم بقدا أحسن وأقوى أنراً . ذلك أن اللامساو والخرعيلات
سرعان ما تنجمت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك العلم الهندى العظيم . وانطلقت
البووث الدينية من لهن آسوكا إلى كشمير وفارس وسيلان والاسكندرية .

ذلكم هو آسوكا ، أعظم الملوك كافة . كان سابقاً لصره زمن بعيد جداً . ومن
أسف أنه لم يخلف من وراءه أميراً ولا هيئة من الرجال تواصل جهوده ، لذلك تكدرت قضي
مئة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه المنظمة ذكرى بعيدة فى بلاد الهند التى عبثت
بها أبداً التمزق والانحلال ، لقد كانت طائفة الكهان البرهمانية ، وهى أعلى طوائف
المجتمع الهندى وأكثرها امتيازات ، متعصبة على المواقف لتعاليم بوذا الصريحة
السكرية . فراحوا يقوضون على التدرج نفوذ البوذية فى البلاد : واستردت الآلهة
القديمة البشعة سلطانها ، وهى والمقائد الهندوكية التى لاعدادها . وأصبح نظام الطوائف
أشد قوة وأعظم تقيداً . وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداهما إلى
جوار الأخرى ، أخذت البوذية تشمل يبطه ، وأخذت البرهمانية تحمل عليها متخذة
هدداً كبيراً من الصور والأشكال . بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيداً
عن سلطان نظام الطوائف — حتى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان ،
وهى بلاد لا تبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم .

الفصل الأول

كونفوشيوس ولاهوتسى

بقى علينا الآن أن نحددك عن رجلين عظيمين آخرين هما كونفوشيوس ولاهوتسى (لاهوتسى) ، اللذان كانا يعيشان في ذلك القرن المدهش الذى ابتدأ برهده الإنسانية ، وأعنى به القرن السادس ق . م .

ونحن في كتابنا هذا لم ندل إلى الآن إلا بطرف يسير عن قصة بلاد الصين في عهودها الأولى . ولا يزال النموذج ينشئ إلى اليوم ذلك التاريخ الباسكر ، وإنا لنشخص الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلما الآثار ببلاد الصين الحديثة التى تنشأ الآن نشأً جديداً راجين أن يمحطوا اللثام عن ماضيهم بنفس الاستقصاء الذى كشف به اللثام عن ماضى أوروبا إبان القرن الأخير .

نشأت أوائل الحضارات الصينية البدائية في وديان الأنهار العظيمة منذ زمن مسبق جداً متفرعة عن الثقافة الشمسية الحجرية (الميلوئية) الأولى . وكما حدث بمصر وسومر ، كانت تلك الحضارات تنس الخصائص العامة التى التهمت بها تلك الثقافة ، كما أنها تركز حول المبادئ التى كان الكهنة وللولاك الكهنة يتولون فيها تقديم القرابين الدموية الوحشية . ولابد أن الحياة في هذه المدن كانت شبيهة جداً بالحياة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين ، كما أنها شبيهة جداً بحياة المايا بأمريكا الوسطى قبل ألف عام .

فلئن كانت هناك فلا قرابين إنسانية ، لقد حل مكانها من زمن بعيد القرابين الحيوانية قبل تنفس فجر التاريخ . كما أن ضرباً من الكتابة بالصور أخذ يتكون قبل عام ١٠٠٠ ق . م . بعد جيد .

وكما أن الحضارات البدائية في أوروبا وآسيا الصغرى كانت في كفاح مع متوحشة الصحراء ورحل الشمال ، فسكذلك نكبت الحضارات الصينية البدائية بتجمعات ضخمة من الشعوب المترحة الضاربة على حدودها الشمالية . وكان هناك عدد من القبائل المتأثرة

لثة وطرائق عيش ، يتحدث عنها التاريخ على التعاقب باسم الهون والفلو والترك والتار كانوا يتغيرون وينقسمون ثم يسودون فيتحدون ، على نفس الشاكلة التي كانت الشعوب الآرية في شمال أوروبا ووسط آسيا ، تتغير بها وتختلف في الاسم دون الجوهر . وقد ملكت هذه الشعوب الفولية للترقة الحصان قبل الشعوب النورية ، ولهم اكتشفوا الحديد على انفراد بمنطقة جبال آلطاي بعد ١٠٠٠ ق . م زمن ماو كا حدث في بلاد الغرب ، فإن هؤلاء للترحلين الشرقيين كان تسكون بينهم الفنية بعد الفنية ضرب من الوحدة السياسية ، ويصبحون غزاة وسادة ، وباعثين للعبودية في هذا الإقليم المستقر التحضر أو ذلك .

ومن المحتمل جداً أن أقدم الحضارات الصينية لم تكن مغولية بأي حال ، شأنها في ذلك شأن الحضارات في أوروبا وآسيا الغربية التي لم تكن نوردية ولا سامية . ومن الجائز جداً أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة صمراء ، كما كانت عمالة في طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية والدرافيدية ، وأن ابتداء أول تاريخ سجل للصين قد حدثت قبله فتروح كثيرة ، واختلاط بين الأجانب .

ومهما يكن الأمر فإننا نجد أنه لما وافقت ١٧٥٠ ق . م ، كانت الصين مكونة فعلا من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن ، وكلها تعترف بولاء مفكك المرى ، وتدفع رسوما إقطاعية بصورة غير منتظمة ، وغير محددة تقريبا ، لإمبراطور كاهن واحد : هو « ابن السماء الكاهن الأعظم » . واتته حكم أسرة « شانج » في ١١٢٥ ق . م ، وخلفتها أسرة « تشاو » ، وأقامت بالبلاد وحدة ضيقة الأواصر امتدت حتى عهد أسوكا بالهند ، والبطالة بمصر وأخذت الصين تتمزق وتتحطم على التدرج أثناء حكم أسرة « تشاو » الطويل . وأحدثت إلى البلاد شعوب من الهون وأنشأت الإمارات ؛ وقطع الحكام المحليون الجزية وأصبحوا مستقلين . ويقول أحد ثقات الصينيين إن البلاد كان بها في القرن السادس ق . م خمسة أو ستة آلاف مقاطعة مستقلة تقريبا . وهذا المصير هو الذي يسميه الصينيون في سجلاتهم باسم « عصر الفوضى » .

على أن عصر الفوضى كان ملاءم للنشوء في كثير من النشاطات العسكرية ، ووجود كثير من مجالات الفن المحلية والمعيش المتضرر . وسنجد هنما نزاد علما بتاريخ الصين أن تلك البلاد كانت لها هي الأخرى مدن قامت بأدوار كالتى لعبتها ميلتيوس (ملطية) (١٠ - تاريخ العالم)

وأثينا وبرجامة ومقدونيا . لنا قانا سنلزم الإيجاز والتموض في الوقت الحاضر في حديثنا عن فترة الانقسام الصيني هذه ، وذلك لأن ما لدينا من المعلومات لا يكفي لصوغ قصة متسلسلة الحلقات حسنة التسلسل .

وكما أن بلاد اليونان انقسمت على نفسها ظهر فيها الفلاسفة ، كما نفا في اليهودية المخطمة للأسورة الأنبياء ، كذلك نشأ في الصين الحقبة النظام الفلاسفة والعلون في ذلك الأوان . وفي كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنان والحيرة قد بعث أحسن العقول إلى العمل الناضج . كان كونفوشيوس رجلا أرسقراطى الأصل تولى بعض للناسب الهامة بمقاطعة مينة اسمها « لو » . وهنا ألت به حالة عديدة الباتة للترعة العقلية الإغريقية ، فأقام ضرباً من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها . وقد أحرزته كثيراً ما ينشئ الصين من فوضى وخروج على القانون ، فاختط لنفسه صورة مثل أعلى للحكومة أحسن وحياة أفضل ، وأخذ ينتقل من ولاية إلى أخرى باحثاً عن أمير يأخذ بشكراته في التشريع والتعليم وينفذها . ولكنه لم يشر قط على ذلك الأمير ؛ أجل إنه وجد أميراً ، ولكن مؤامرات رجال البلاط قوضت سلطان العلم عليه وتلبت في النهاية على مشروعاته الإصلاحية . ومن الشائق أن نذكر أن الفيلسوف اليوناني أفلاطون كان يبحث هو أيضاً عن أمير بعد ذلك بقرن ونصف ، وأنه اشتغل ردحا من الزمان مستشاراً للطاغية ديونيسيوس الذي كان يحكم سيراكوزة بصفية .

مات كونفوشيوس معلم الآمال ، قال : « لم ينهض حاكم ذكى القواد ليتخذني استاذاً له ، وما قد حانت مني » ، يد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبان سني شيخوخته وتعلم رجائه ، فصارت بتلاميذه ذات أثر عظيم في تكوين الشعب الصيني ، إذ أصبحت إحدى « التلاميذ الثلاثة » على حد قول الصينيين — والشربان الآخران هما تلميها يوزا وإلاهوتس

ويتلخص مذهب كونفوشيوس في طريقة يعيى الرجل النبيل أو الأرسقراطى . فإنه شغل بسلوك الشخص انشغالاً جوتاماً بالسلام الزواج إلى نسيان النفس ، وانشغال الإغريق بمرقة العالم الخارجى ، واليهود بالبر والصالح ، كانت أعظم المعتقدات الكبار اهتماماً بالشئون العامة ، وكان يهتم إلى أقصى حد باضطراب أحوال العالم وتطوراتها ، كما أنه كان يريد أن يجعل الناس نبلاء . رغبة منه في إيجاد عالم نبيل . لنا حاول أن ينظم

السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ؛ وأن يدبر القواعد العلمية لكل مناسبة من مناسبات الحياة . وكانت صورة السيد للهندي يهتم بالشئون العامة والذي يكاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هي للثل الأعلى الذي وجده يتطور في عالم الصين الشمالية والذي أضفى عليه الهيئة الثابتة الدائمة .

وكان مذهب لاهوتى أحل بالتصوف والتموض والتحايل من مذهب كونفوشيوس . وقد مثل لاهوتى زمنا طويلا منصب أمين المكتبة الإمبراطورية . والظاهر أنه كان يدعو دعوة الرواقين من حيث عدم الاهتمام بمسرات الدنيا وضروب السلطان فيها ، كما كان يشتر في الناس بضرورة العودة إلى حياة بسيطة قديمة توجهها خياله ، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الانتصاب كما أنها غامضة جداً . كان يكتب في النساخ . وبعد وفاته أفسدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله ، وتفتشتها الأساطير ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيداً وخروجاً على للألوف .

وحدث في الصين مثلاً حدث في الهند بالضبط ، أن نشطت فكريات السحر البدائية ، وتحركت الأساطير البشعة التي ظهرت في ماضى طفولة جنسنا تكافع ضد التفكير الجديد في العالم ، ونجست في أن تسلب عليه ستاراً سائلاً من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية . وكل من البوذية والثاوية (التي تنسب نفسها إلى حد كبير إلى لاهوتى) ، كما نجدهما اليوم يلاذ الصين ، ديانة راهب ومعبود وكاهن وتحريب قرايين ؛ ديانة قديمة الطراز شكلاً إن لم تكن كذلك فكراً . ووضعاً كديانات القرايين بوسم القديمة ومصر ؛ على أن مذهب كونفوشيوس لم يلق مثل تلك الإضافات لأنه كان مذهبا محدوداً وواضحاً ومستقيماً للتهج ، كما أن طبيعته لم تكن تسمح له بقبول مثل تلك التشوهات .

وأصبح شمال الصين ، أى جزؤها الذي يخترقه نهر هوانج هو كونفوشيا في فكره وزوجه ؛ وغدت الصين الجنوبية التي يخترقها نهر اليانج تسي كيانج ، تاوية للذهب والفضة . ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذي هجر بالصين بين هاتين الزمتين زعة الشمال وزعة الجنوب ، أى بين يسكين وتانكيين (فيما عقب ذلك من أيام) ، بين الشمال للسقيم المحافظ صاحب عقلية للوطنين ، وبين الجنوب التشكك اللبالي إلى الفنون والتراخي والتجريب .

وبلغت انقسامات الصين أثناء عصر الفوضى أسوأ مراحلها في القرن السادس ق.م. وبلغ من ضعف أسرة تشاو وحطة شأنها ، أن اضطر لاهوتسى إلى ترك بلاطها النمس وإلى التقاعد .

وتسلطت على البلاد في تلك الأيام ثلاثة دول تدين بقبعة اسمية للإمبراطور ، هي « تسى » و « تسن » وهما دولتان شمالتان ، « تشوئو » التى كانت دولة عسكرية مبالغة إلى المدوان في وادى اليانج تسى . وأخيراً كيونت تسى حلفاء مع تسن . وأخضعتا تشوئو وفرضتا في البلاد معاهدة عامة تقضى بالسلام ونزع السلاح . وما لبثت قوة تسن أن صارت هى الغالبة . وانهى الأمر في زمان يقارب عهد آسوكا بالهند بأن استولى عاهل تسن على أوجية القربان التى للإمبراطور أسرة تشاو ، واضطلع بواجباته القربانية . ومدونات التاريخ الصينى تسمى ابنه شى هوانج فى (الذى أصبح ملكاً ٢٤٦ ق.م . وإمبراطوراً فى ٢٢٠ ق.م) باسم « الإمبراطور العام الأول » .

وكان شى هوانج فى أسعد حظا من الإسكندر لأنه حكم ستة وثلاثين عاماً قضاهها ملكاً وإمبراطوراً . ويؤذن حكمه الحافل بالنشاط والاعتدال بداية حقبة جديدة من الوحدة والرخاء للشعب الصينى . فإنه قاتل الهون للغيرين من الصحارى الشمالية أخذ القتال ، كما أنه بدأ ذلك العمل المائل ، وأعفى به سور الصين العظيم ، ليحد من اعتداءاتهم .

الفصل الحادى والثلاثون

ظهور زوما

على مسرح التاريخ

سيلحظ القارىء عمالاً عاماً فى تاريخ هذه الحضارات ، على الرغم مما بينها من التباعد الواقعى الناجم عن الحواجز العظيمة بتخوم الهند الشمالية الغربية والكتل الجبلية بآسيا الوسطى وآفامى الهند. وقد انتشرت الثقافة الهندية (الميلولية) أولاً وفى مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار القديمة الحصية بالعالم القديم ، وأنتجت حول قرابينها التقليدية نظاماً قوامه للبد والكاهن والحاكم .

وواضح أن أول من كون تلك الثقافة كانوا دائماً هم أولئك الشعوب السمرات الذين قلنا إنهم هم الجنس البشرى المركزى . ثم هبط بأرضها للفرقة من أقاليم الحشائش للرومية والمجبرات الرومية ، فبرزوا خصائصهم بل حتى لغتهم أحياناً على الحضارة البدائية . وحدث التفاعل بين الطرفين . فإتهم أخضعوها ونهبوها ، وحزرتهم هم بدورها إلى أحداث تطورات جديدة ، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا هيثا وهناك شيئاً آخر .

أما أرض الجزيرة فإن الميلايين ومن بعدهم الساميين ، وأخيراً النورديين من الليديين والفرس والإغريق هم الذين قسموا بها حناجر العز والنتيه ؛ وأما منطقة الشعوب الإيجية للإغريق فهام العائز لليه ، وكان العائز الذى أنشئ الهند هو أصحاب اللسان الآرى ؛ أما مصر فكان اندماج التزا فىها أيضاً بسبب هذه ارتباط حناجرها بالكهانة والسكان ؛ أما الصين فكان الملون يزونها فتمتصهم ثم يحقهم هون جدد . وصبت الصين بالصبنة القولية كما صبت بلاد الإغريق وشمال الهند بالقون الآرى ، وكما أنطع الطابع السامى ثم الآرى على أرض الجزيرة ، وكان للفرقة يسمرون حيث ملون تدبراً عظيماً ، يد أنهم كانوا حيث حلوا يدخلون روحاً جديدة من البحث الحر والابتداع الخلقى . وأحوا يمتحنون معتقدات المصور السحيقة . فأدخلوا منوء التهار إلى ظلمات اللبد . وأقاموا ملوكاً لم يكونوا كنه ولا آلهة بل مجرد زعماء قوادم ورفاقهم .

وإنما نجد في كل مكان إبان القرون التي أعقبت القرن السادس ق . م أن التقاليد العتيقة أصيبت إصابة ممتدة ، وأن روحاً جديدة من البحث الخلقى والنهقى قد استيقظت ، وهي روح لم يقيس لأحد بعد ذلك أن يجمعها تماماً في خضم التقدم البشرى العظيم . فالقراءة والكتابة تصيران تحصيلاً عادياً سهل التناول لدى الأقلية الحاكمة للوسرة ؛ ولم تعوداً بعد ذلك سرّاً يحتفظ بها الكاهن في حرمه واستشاره . وزيد إقبال الناس على السفر وبصبح النقل أسهل وأيسر مما تنهأ الناس من تخیل وطرق محمدة . وظهرت العملة للمكوك فكانت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة .

وسنقل الآن بؤرة اهتمامنا من الصين في أقصى شرق العالم القديم إلى النصف الغربي من البحر المتوسط . وهنا نجد زاماً علينا أن نسجل ظهور مدينة قديم لها أن تلعب في النهاية دوراً عظيماً في الشؤون الإنسانية : ألا وهي مدينة روما .

لم نحدثك حتى الآن في قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عن إيطاليا . كانت قبل ١٠٠٠ ق . م أرض جبال وغابات قليلة السكان . وقد زحفت قبائل ناطقة بالآرية في شبه الجزيرة وأنشأت مدناً وبلدانا صغيرة ، كما أن طرفها الجنوبي كانت تنتشر عليه المستعمرات الإغريقية . ولا تزال الأطلال الفاخرة لمدينة بايسم تحتفظ لنا إلى يومنا هذا بشيء من الأبهة والجلال التي كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكورة . وكان شعب غير آرى ، له من ذوى قري الشعوب الإيجية ، وأعطى به الإترسك وطد قدمه في الجزء الأوسط من شبه الجزيرة . وقد عكسوا هذا الآلة المتعاده بأن أخضعوا لتفوذهم قبائل آرية متنوعة . وعندما تظهر روما في ضياء التاريخ ، تكون بلعة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مجاعة على نهر التير ، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهم ملوك من الإترسك ، والتواريخ القديمة تحمل عام ٧٥٣ ق . م بدءاً لتأسيس روما ، أي بعد تأسيس قرطاجنة المدينة الفينيقية العظيمة بنصف قرن ، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأولمبية بثلاثة وعشرين عاماً ، ولكن الحفر في السوق (الفوروم الروماني) كشف مع ذلك عن قبور أترسكية ترجع إلى عهد أبعد كثيراً من ٧٥٣ ق . م .

وفي هذا القرن السيد الحافل بالذكريات ، وهو القرن السادس ق . م ، طرد ملوك الإترسك (٥١٠ ق . م) وأصبحت روما جمهورية أرستقراطية . إليها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فيمن عداها من عامة الشعب (البليبيان) .

ولولما كانت تنطق به من لسان لا تقي ، ما شعر أحد ببارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية .

وظل تاريخ روما الداخلى بضعة قرون وهو قصة كفاح مديد عند قام به العامة مطالبين بالحركة ونصيب في الحكم . ولو استعرضنا تاريخ الإغريق لما عسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع . ولوجدنا الإغريق يسمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . وانتهى الأمر بأن حطم العامة (البليبيان) معظم ما كان للامالات القديمة من امتيازات ، وتساوا معهم مساواة واقعية . فقصوا على اغترال البطارقة القديمة وجعلوا من اليسور والقبول لروما أن توسع « مواطنيتها » بحيث تشمل عدداً متزايداً من « الغرباء » . ذلك أنها ظلت رديحاً من الزمان تكافح في الداخل ، على حين كانت تعد سلطاتها في الخارج .

وشرع الرومان يسيطون سلطاتهم في القرن الخامس ق . م وكانوا حتى ذلك الحين في حروب دأمة مع الإرسك كانت تنتهى بالإخفاق على وجه العموم ، وكانت هناك على بضعة أميال من روما ، قلعة إرسكية ، هى قلعة فياى ، التى لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها على أن الإرسك حلت بهم في ٤٧٤ ق م نكية جأمة . إذ دمر إغريق سيرا قوزة بصقلية أسطولهم .

وفي نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من الغيرين النوردين ، هى موجة الغالة . فلما وقع الإرسك بين الرومان والغالة ، سقطت دولتهم واختفوا من التاريخ . واستولى الرومان على فياى . وتقدم الغالة إلى روما وانهبوا المدينة (٣٩٠ ق م) . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا الكاينول . فإن صليح الأوز كشف عن محاولة الغالة القيام بهجوم ليل مباغت ، وانتهى الأمر بأن اتحدى الرومان أنفسهم وحررتهم بالبل ، وتراجع الغالة إلى شمال إيطاليا .

ويلاحظ أن غارة الغالة قد عادت على روما بالقوة لا بالضعف . فإن الرومان غلبوا على الإرسك وتملأهم ، ومدوا سلطتهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى نابلى . وقد بطوا هذه البسطة في السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق م . يضع سنوات وكانت فتوحهم في إيطاليا تحدث في نفس الأيام التى تم فيها عو قوة فيليب في مقدونيا وبلاد اليونان ، وغارة الإسكندر المأنة على مصر وبلاد السند . ولما تمزقت إمبراطورية

الإسكندر، كان الرومان قد أصبحوا شعباً تملأ شهرته العالم للمدن إلى الشرق من بلادهم .

وكان الناله ينزلون إلى الشمال من دولة الرومان ؛ على حين تنازعت إلى الجنوب منهم مستعمرات الإغريق للنشأة بماجانجريكيا ؛ وأغنى بذلك جزيرة صقلية ومقدم حذاء إيطاليا وكلمها . وكان الناله شعباً حريياً شديد للراس ، حافظ الرومان على حدودهم معهم بخط من القلاع والمستعمرات المحصنة . فأما للدن الإغريقية في الجنوب وعلى رأسها تارتم (وهي مدينة تاراتو الحديثة) وسيراقوزه ، فلم تكن تهدد الرومان قدر ما كانت تخافهم وتخشى بأسهم . وكانت تنلفت من حولها ثلثم ناصراً يعينها على هؤلاء الفزاة الجدد .

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الإسكندر إربا عند وفاته وكيف تقسمها قواده ورفاقه . وكان بين هؤلاء الغامرين أمير من فوى قرابة الإسكندراسمه بيروس ، وطرد ملكه في إيروس ، وهي وراء البحر الإدياتي قبالة كعب إيطاليا ، وكان يطمع أن يلب من « لاجانجريكيا » دور فيليب للقدوني معها ، وأن يصبح حامياً وميداً عاما لمدينة تارتم وسيراقوزه وباقى ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يد في زمانه جيشاً عسكراً عظيم الكفاية ؛ كان لديه فيليب من اللثة وراكبة من تساليا ، كانت آنذاك تضارع في كفايتها الحياة للقدونية الأصلية ، دشم خمسة وعشرون فيلا مقاتلاً ، فنزا إيطاليا وبدد عمل الرومان في موقعتين عظيمتين إحداها معركة هراقليا (٢٨٠ ق م) والثانية أوسكولم (٢٧٩ ق م) . ولما تم له دفعهم نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية .

يد أن هذا جلب عليه عدواً كان في ذلك الحين أروع جانيا من الرومان ، وهو مدينة قرطاجنة الفينيقية التجارية ، التي لملها كانت آنذاك أعظم مدن العالم ؛ إذ كانت صقلية قرية من القرطاجيين قريبا لا يستطيعون معه أن يرجحوا بمقدم إسكندر آخر جديد إليها ؛ كما أن قرطاجنة كانت لا تزال تذكر الصير التي حل بأمرها صور قبل ذلك بنصف قرن . لذلك أرسلت أسطولا يشجع روما — أو يرغها — على مواصلة السككح ، كاقطعت مواصلات بيروس فوجد الرومان يهاجمونه من جديد ، ويعطمون بنصف ساحق هجموا قام به على مصكرهم في بنقتم بين نابلي وروما .

وعلى حين بئنة وردت إليه أنباء اضطرتته للعودة إلى إيروس . فإن الغالة أخذوا يغيرون من الشمال إلى الجنوب كمادتهم . ولكنهم لم يكونوا يغيرون في هذه المرة على بلاد إيطاليا ؛ إذ كانت التحوم الرومانية القوة التحصين والحراسة ، أمتنع من أن يستعليوا لها اختراقا : قد كانوا يغيرون الآن جنوبا محترقين إليريا (وهي الآن ألبانيا وبلاده الصرب) إلى مقدونيا وإيروس . وتغلى إيروس عن أطاعه في الفتح وعاد إلى بلاد (٢٧٥ ق م) بعد أن صدده الرومان ، وأحسق به في البحر خطر القرطاجيين ، وهدد الغالة ببلاده ، على حين خلا الجو لروما فبسطت سلطاتها حتى مضيق مسينا .

وكانت تقوم على الجانب الصقلي من المضيق مدينة مسينا الإغريقية ، وسرهان ماوقت هذه البلدة في قبضة جماعة من القراصنة . وكان القرطاجيون من قبل ذلك سادة مقلية أو يكادون ، كما كانوا خلفاء لسيراكوزة ، فكان من الطيبي أن ينهضوا للقضاء على القراصنة (٢٧٠ ق م) وأن يضعوا في المدينة حامية قرطاجية . ولجأ القراصنة إلى روما يلتمسون العون منها ، وأصغت روما لشكايتهم . وهكذا انتفت دولة قرطاجية التجارية العظيمة من وراء مضيق مسينا بذلك الشعب الفاتح الجديد : الرومان ، وأخذوا يتبادلان نظرات السداوة والنمضاء .

الفصل الثاني والثلاثون

بين روما وقرطاجنة

كانت سنة ٢٦٤ هي السنة التي ابتدأ فيها الكفاح العظيم بين روما وقرطاجنة ، وهو الذي يسمى باسم الحروب البونية . وفي تلك السنة كان أسوكا يستهل حكمه في بهار ، وكان شي هوانغ في طفلا صغيراً ، وكان متحف الإسكندرية لايفتأ ينتج إنتاجا عليا لا بأس به ، كما كان لفالة البرابرة قد حلوا عند ذاك في آسيا الصغرى وأخذوا يفرضون الجزية على برجاة .

وكانت أقطار الأرض المختلفة لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مسافات مترامية لاسيما إلى التغلب عليها ، ولعل بقية الإنسانية لم تكن تسمح إلا الشائعات الغامضة للفتنة عن ذلك القتال الفاتك الذي دارت رحاه قرنا ووصفا في أسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقيا والبحر المتوسط الغربي ، ذلك القتال الذي نشب بين آخر معقل لقوة الساميين وبين روما الوافد الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية .

وقد تركت تلك الحرب آثارها في مسائل لا تزال تحرك العالم إلى اليوم . أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة ، بيد أن التنافس بين الآري والسامي صكبت له أن يتدرج فيما بعد تحت الكفاح الذي نشب بين غير اليهودي واليهودي .

واخذرك التاريخ يقرب الآن من أحداث لا تزال عواقبها وتقاليدها للقوة تحفظ في منازعات اليوم وخصوماته بمثابة ضئيلة من حيوة تلفظ آخر أنفاسها ، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانا يسود عليها بالتمديد والاضطراب .

اجتذبت الحرب البونية الأولى في ٢٦٤ ق. م بسبب قرصانة مسينا ، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجمعها عدا ممتلكات ملك سيراقروزه الإغريقي . وكان لقرطاجيين التفوق البحري في مبدأ الأمر . فكانت لهم سفائن حربية كبيرة لم

يسمى ذلك الحين بمثل حجمها ، وهي الجحاشيات أى السفن ذات الصنوف الخمسة من المجاديف والسكبيش الضخم ^(١) . وكانت أعظم السفن فى معركة سلاميس ، قبل ذلك بقرنين من الزمان ، هى الثلاثيات ، وليس لها إلا ثلاثة صنوف ولكن الرومان نصّبوا أنفسهم همة خارقة على الزعم من قوة درايتهم بالأمور البحرية والتفوق على ما ينتجه القوطاجيون من سفن . وكانوا يستخدمون بحارة من الإغريق فى تسيير الأساطيل الجديدة التى أنشأوها ، ولكن يعضوا أنفسهم مما عليه الدوم من تفوق فى الملاحة ، اخترعوا طريقة لئساك سفن الأعداء بالكبايش (بالكلابات) واعتلائها ، فإذا أقبل القوطاجيون لصك مجاديف الرومان بالسكباش أو قطعها ، تعلقت كبايش منجحة من الحديد بسفنها ، وتراحم الجند الرومان إلى ظهورها زرافات . فهزم القوطاجيون فى كل من ميلامى (٢٩٠ ق . م) وإيكونو هاس (٢٥٦ ق . م) هزيمة ساحقة . ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول على البر بالقرب من قرطاجنة ، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة قرب بالرمو ، حيث خسروا مئة وأربعة من الفيلة - وأخذها الرومان وجساوها زينة لتوكب نصر عظيم أحرقت اللوروم لم ترومها من قبل نظيرا . ولكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين ثم جددوا قوتهم ثانية ، وما لبثوا أن بذلوا آخر ما لديهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية فى معركة الجزائر الأيهاية (٢٤١ ق . م) ، ومن ثم طلبت قرطاجنة الصلح . ونهلت الرومان عن صغيلة بأكملها فبا عدا ممتلكات هيزون ملك سيراقرزة .

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما ، إذ كان لكل منهما من المشاكل الداخلية ما يشغله . فإن النالة أهدروا جنوبا فى إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما - (خملها الملح على تقديم القرابين البشرية للآلهة ١٢) - ثم دحزوا وبدد قوتهم فى معركة تيلامون . وعندئذ تقدمت روما قداما إلى جبال الألب ، بل تجاوزتها ومنت سلطاتها جنوبا بحذاء ساحل البحر الإدرى حتى إليريا ، وكابدت قرطاجنة الأهوال مما كان بها من ثورات داخلية ومما حدث فى قوزسقة وسردينية من قتل ، على أنها لم تبلغ ما بلغت روما من قدرة على علاج الأمور ، وأخيرا ، استولت روما على الجزيرتين وألحقتهما بها ، وهو عمل عدوانى لا يطاق .

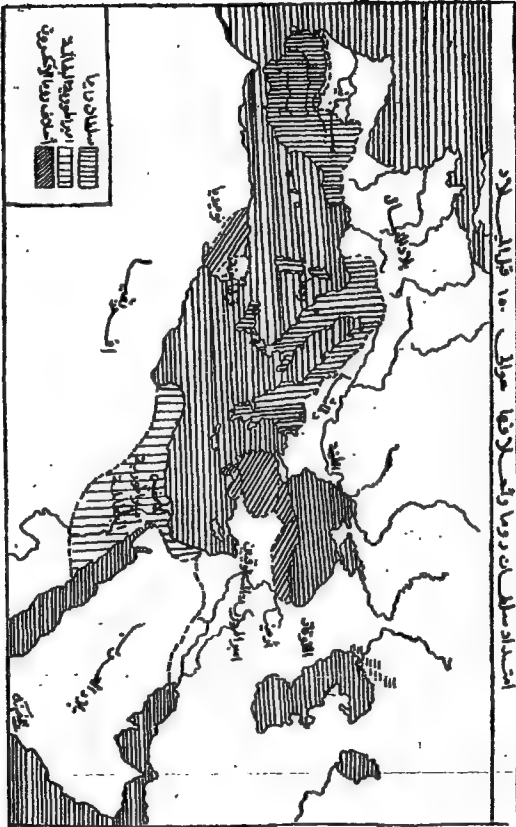
(١) السكبيش هو برأس كيش كالمش من جنسية لإكلاف سفن الأعداء .

وفي ذلك الأوان كانت أسبانيا حتى نهر إيرو شمالا تابعة لقرطاجنة ، إذ حرم عليها الرومان تجاوز ذلك الحد - فإذا عبرت قرطاجنة نهر الإيرو عد ذلك محلا بحريا معاديا للرومان . وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة في ٢١٨ ق . م لإزاء اعتداءات جديدة للرومان ، إلى عبور ذلك النهر فعلا بقيادة قائد شاب اسمه هانيال ، وهو قائد منفتح المبع القوادى على مر التاريخ كله . فسير عليها جيشه عترة أسبانيا وعبر به جبال الألب إلى إيطاليا ، وهناك أثار الفاقة على الرومان ، وواصل الحرب البونية الثانية في إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاما . وأزلى بالرومان هزائهم فادحة في معركة بحرية تراسينى وكانى ، ولم يستطع أى جيش روماني طيلة حملته الإيطالية بأكلها أن يقف أمامه دون أن تحقيق به المزعمة - غير أن الرومان أنزلوا عند مرسيليا جيشا قطع مواصلاته مع أسبانيا ، وكانت تعوزه أدوات الحصار ومعداته ، كما أنه لم يتمكن بإدامن الاستيلاء على روما . واضطر القرطاجيون أخير الأمور لإزاء ثورة قام بها النوميديون في أرض الوطن ، أن يردوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية ، وهنا عبر جيش روماني البحر إلى إفريقية . ولحق هانيال أول هزيمة أصابته تحت أسوار المدينة في معركة زاما (٢٠٢ ق م) على يد سييون الإفريقى الأكبر

وكانت معركة زاما هى خاتمة الحرب البونية الثانية ، واستسلمت قرطاجنة ؛ وتنازلت لروما عن أسبانيا وعن أسطولها الحربى ؛ ودفعت لها تعريضا هائلا ، ووافقت على تسليم هانيال للرومان ليتقموا منه ؛ لولا أن هانيال نجح أن قبضتهم وفر إلى آسيا حيث تجمع السمومات عندما أحس أنه موعك أن يقع في قبضة أعداءه الفلاظ الأكراد

واقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستطلان أثناءها السلام . وراحت روما في نفس الوقت تبسط سلطاتها على بلاد الإغريق للضطرية للتقسمة على نفسها ، وتغزو آسيا الصغرى وتهمز أنطيوخوس الثالث الملك السلوقى عند مدينة ماغنيسيا في ليديا . ثم جاء دور مصر ، وكانت لا تزال تحت حكم البطالمة ، كما جاء دور برجمانة ومعظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى ، لغولتها روما إلى حلفاء لها ، أو « دول محمية » كما قد نسميها اليوم .

وذلك في حين كانت قرطاجنة القليلة الضعيفة قد أخذت تسترد في بطون غيثا من رعاتها السالف ، فأثار ذلك حقد الرومان وعناؤهم ، فهاجموها (١٤٩ ق م) لأسباب تافهة منتمية إلى أقصى حد ، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عبيدة مريعة



خریطة رقم (۶)

ونجحت حصاراً طويلاً ثم فتحت عنوة (١٤٦ ق م) . واستمر القتال - أو قل المذبحة - في الشوارع ستة أيام ، وكان قتلاً دمويًا بشعاً ، وعندما بلغت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالي قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفاً تقريباً ؛ فبيعوا ببيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميراً تاماً وسير المحراث في أنقاضها للسودة بالحريق ، وبذرت فيها البذور ليكون ذلك شاهداً على محوها رسمياً .

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة ، ولم يبق مستعماً بالحيرة من الدول والدن الساسية التي ازدهرت في العالم قبل ذلك بخمسة قرون ، إلا قطر صغير وحيد بقي تحت حكم حكام من أهله . ذلك القطر هو يهوذا (جوديا) التي حررت نفسها قبل ذلك من أيدي الساسوقيين ، وكانت تحت حكم الأمراء السكانيين الوطنيين . وكانت التوراة قد تجت في ذلك الحين أو كادت ، كما كانت تطور آنذاك على أيديهم التقاليد المميزة للعالم اليهودي على ما نعرفه اليوم . وكان من الطبيعي أن يلتمس القرطاجيون والفينيقيون وذوو قريتهم من الشعوب البثرية في أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم تمثل في السنهم الثقافية ، وفي هذا الأدب الذي يبعث فيهم الأمل ويعلمهم بالشجاعة . وكانوا لا يزالون إلى حد كبير هم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه . ذلك أن العالم السامي لم يذهب من الوجود ، بل غلب عليه عالم آخر .

واستولى الرومان على أورشليم في ٦٥ ق م التي كانت على الدوام رمزاً لليهودية لامركزها ، وبعد أن تخلت عليها تصاريص متنوعة من شبه استقلال وثورات ، حاصروها في سنة ٧٠ م ، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد ، ودمر الهيكل ، وكان دمارها النهائي بعد ثورة أخرى شبت في ١٣٣ م ، فأما أورشليم التي نعرفها اليوم فهي مدينة أعيد بناؤها برعاية الرومان . وأقيم في مكان الهيكل معبد للرب الروماني « جوثر » وخرم على اليهود سكنى المدينة .

الفصل الثالث والثلاثون

نمو الامبراطورية الرومانية

كانت هذه الدولة الجديدة التي مازالت تملو حتى تسلطت على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، شيئاً آخر يختلف من كثير من النواحي عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم للمدن حتى ذلك الوقت . لم تكن في مستهل أمرها ملكية ، كالم تكن من خلق فاع عظيم بينه . ولم تكن في الواقع أولى الإمبراطوريات الجمهورية ؟ فقد تسلط اثينا في عهد بركليس ، على مجموعة من الدول الحليفة والتابعة ، وكانت قرطاجة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما سيده لقورسيقة وسردنية ومراكش والجزائر وتونس ومعظم أسبانيا وصقلية ، يد أنها كانت أولى الإمبراطوريات الجمهورية التي نجت من الإبادة وواصلت السير في طريقها ، وهي تنشئ التطورات الجديدة .

وكان مركز هذه للنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهداً ، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصر . وبفضل هذا الموقع الغربي تمكنت روما أن تدخل إلى حظيرة الحضارة شعباً ومناطق جديدة كل الجدة .

وامتد سلطان روما إلى مراكش وأسبانيا ، وسرعان ما امتد نحو بريطانيا في الشمال الغربي مجتازاً ما يسمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا ، وتوغل شمالاً بشرق إلى المجر وجنوب روسيا ؛ ولكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبداً أن تحتفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدها عن مراكزها الادارية .

ومن ثم فقد كانت تضم جشوداً هائلة من شعوب نورديّة جديدة ناطقة بالآرية ، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريق تقريباً ، وكان اسطباغها بالصبغة الحامية والسانية أضف كثيراً من أي إمبراطورية سابقة .

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قرون دون أن تتردى في مهاوى السوابق والتقاليد الجامدة ، التي سرعان ما ابتلعت في جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية . وإنما كانت في كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء . ذلك أن حكام للديين والفرس كانوا يصطبغون تماماً بالصباغ البابلي في مدى جيل واحد تقريباً ، فكانوا يتقلدون تاج ملك اللوك ويتقبلون معابد آلهته وكهاناتها ؛ فصار الإسكندر وخلفاؤه في نفس ذلك السهل طريق الطريق النخل ؛ واتخذ ملوك السلوقيين نفس البلاط وطرائق الإدارة التي كانت لنبوخذ نصر ؛ وأصبح البطلة فراعنة وتمصروا تمصراً تاماً . فامتصهم البلاد على نحو ما امتص السومريون غزاتهم الساميين .

أما الرومان فلأنهم كانوا يحكمون في مدينتهم الخاصة ، وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التي أملتها طبيعتهم الخاصة . والشعب الوحيد الذي كان له عليهم تأثير ذهني عظيم قبل القرن الثاني أو الثالث لليلادى هو أبناء قرابنتهم الإغريق الذي يشبهونهم . لذا كانت الإمبراطورية الرومانية في جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بحتة تقريباً . كانت حتى ذلك الأوان طراز جديد لامتثل له في التاريخ كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة ، ولم ينطبق عليها الطراز القديم القائم على فاتح فرد يحكم مدينة رئيسية تمت حول مبدلرب حصاد . كان للرومان — لاجرم — آلهتهم ومعابدهم ، ولكنها كانت — كآلهة الإغريق — آلهة من أشباه البشر المحلّين أو من النبلاء الأقداس . وكان الرومان أيضاً يسفكون السماء قرباناً ، بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قرباناً إذا ألت بهم نازلة ، وهي أمور لم لهم تطفوها من أسماوتهم الإترسك السمر ؛ ولكن لم يحدث قط حتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها بزمان مديد ، أن قام الكاهن أو اللبد بأي نشاط سياسي كبير في تاريخ الرومان .

كانت الإمبراطورية الرومانية جسدانياً ، كانت جسدانياً جديداً لم ترسم لقوه خطة وتطلت الشعب الروماني وإذا هو يعمل من غيروعى منه تقريباً في تجربة إدارية هائلة ليس في الإمكان أن تمت بالتجربة الناجحة . إذ أن إمبراطوريتهم ترامت إلى الانهيار التام في النهاية . كما أنها كانت تغير شكلها وأسلوبها تقريباً هائلاً من قرن إلى قرن كان التغير الذي يحدث بها في متعام أعظم مما كان يحصل في النخل أو أرض الجزيرة أو مصر في ألف سنة . كانت دائماً التغير ، ولم تصل قط إلى الثبات على حال . فشلت التجربة بمعنى ما كما أنها لا تزال — بمعنى ما — ناقصة غير مستكفة ، ولا تزال

أوروباً وأمريكا في يومنا هذا تحمل الغالب السياسة المالية التي واجهها الشعب الروماني لأول مرة .

ومن الخير أن يتذكر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التي آلت ، لا بالأمر السياسي وحدها ، ولكن بالاجتماعية والأخلاقية التي استمرت طيلة فترة سيادة الرومان . وكثيراً ما يجنح بعض الناس إلى إظهار شيء من اللبالة حين يزعمون أن الحكم الروماني كان شيئاً متقن التكبرين وطيد الأركان ، وأنه كان حكماً حازماً وكاملاً ونيلاً وحاسماً . هذا كتاب ماكولى للسمى «أناشيد روما القديمة» *Lays of Ancient Rome* S. P. Q. R. (١) ، لو اطلعت عليه لوجدت فيه كآلو الأسن ، وأفراد أسرة سيون وبوليوس قيصر ودقلديانوس وقسطنطين الأكبر ، ومواكب النصر والحطب ومعارعات المجاندين واستشهاد المسيحيين مختلطة ببعض في صورة تمثل شيئاً سامياً وقاسياً ومهيباً .

.. ولابد لك من أن تهمل تلك الصورة وتخلص أجزاءها بعضها من بعض ، ذلك أنها قد جمعت اعتباراً من مواضع مختلفة من عملية تنير أعمق من ذلك التغير الذي يفرق بين لندن في عهد وليم الفاتح وعهدنا الراهن .

ورغبة في التيسير . قسم تاريخ روما إلى مراحل أربعة ابتدأت للرحلة الأولى منها بنهب القالة لروما في (٣٩٠ ق . م) ، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولى في (٢٤٠ ق . م) . وقد يجوز لنا أن نسمى هذه للرحلة باسم مرحلة الجمهورية للتمثلة (٢) . ولعلها كانت أروع مراحل التاريخ الروماني وأشدها تميزاً . ففي أثنائها كانت للنازعات الطويلة الأمد بين البطارقة (الأشراف) والعامية تقترب من نهايتها ، وزال خطر الإمبرسك ولم يكن هناك تفاوت عظيم في التزاد . فلاغنى قاحش ولا فقر مدقع ، وكان معظم الناس ينزعون إلى الحرص على الصلعة العامة .

كانت جمهورية ، كجمهورية البور في جنوب إفريقيا قبل ١٩٠٠ ، أو كالولايات

(١) S. P. Q. R. ستانما مجلس شيخوخة روما وشعبها .

(٢) التمثلة : التمثيل تحويل الشيء إلى مادة مماثلة كالطعام في الجسم . والجمهورية هنا كانت تمثل فيها من الشعوب والبول [للترجم]

(١١ - تاريخ العالم)

الشمالية في الاتحاد الأمريكي بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٠ ؛ هي جمهورية فلاشين أحرار . وكانت روما في مستهل هذه الرحلة دولة صغيرة لا تتكاد مساحتها تبلغ عشرين ميلاً مربعاً . وكانت تقاوم قوى قراها من الدول القوية الشكسية المحيطة بها وتحاول الالتفاف وإيادها دون تدميرها . وتدريب عليها أثناء قرون الفرقة الأهلية والشحناء على التراضي والتساهل . فإن بعض المدن للهمزة أصبحت رومانية تماماً لما نصيب من التصويت في الحكومة ، وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه مع السماح لأفرادها بالانجاء في روما ومصاهرة أهلها ؛ وكانت الحاميات للؤلؤة من مواطنين يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة تقام عند المراكز الحرة العامة ، كما أن للمستعمرات التنوع الامتيازات كانت تؤسس بين ظهراني الشعوب المحتلة حديثاً . وأنشئت الطرق العظيمة . وكان صيغ لإيطاليا السريع بالصياغ اللاتينية هو النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة ، ففي (٨٩ ق . م) أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعاً مواطنين لمدينة روما يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة . وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة بمسولة الرقة . وفي ٢١٢ منحت الحقوق الوطنية الكاملة لكل حُر في طول الإمبراطورية وعرضها ، أي الحق في أن يعطى صوته في اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولاً .

وهذا التوسع في بسط حقوق للوطنية على المدن السهلة الضبط وعلى أقاليم بأكملها كان الوسيلة المميزة للتوسع الروماني . وهو الذي قلب الطريقة القديمة رأساً على عقب طريقة الفتح وتمثل الفاتحين . وبهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الغازي هو الذي يشمل المقهور .

ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وضم صقلية ، أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التخل القديمة . ذلك أن صقلية مثلاً عوملت معاملة قرصة مقبورة . فأعلنوها « مزرعة » للشعب الروماني . واستولت أرضها الخصبة وجهود شعبها الجهد في سبيل زلزلة ثراء روما . وكان الأشراف وذوو النفوذ من العلية يحصلون على النصيب الأعظم من تلك الثروة . وجلبت الحروب أيضاً أيضاً فضا متدققاً من الأرقاء . وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يشكون في معظم حالاتهم عن مواطنين أحراراً من الفلاحين . وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذي يتنازولون به ويحبهم المشقة منهم . وكانت الديون تترك مزارعهم حين يشرطون في الخدمة العسكرية العامة ، فانتشر

في طول البلاد وعرضها نوع من الإنتاج الزراعي الكبير القائم على الرقيق؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محصولاتهم تنافسها المحصولات التي أنتجها الرقيق بصفة وبالمزارع الجديدة الضخمة بأرض الوطن. وتغيرت الأيام. وبدلت الجمهورية - بجايها. فلم يقتصر الأمر على أن عقلة أصبحت في قبضة روما، بل إن الرجل العادي أصبح في قبضة الدين الثقي وللناس الثني. بذلك دخلت روما في مرحلتها الثانية، وهي جمهورية الأغنياء للفقراء.

وظل الجند الرومان للزارعون متى يكافون من أجل الحرية والاشتراك في حكم دولتهم؛ بعد أن ظلوا مئة عام ينعمون بامتيازاتهم. ولكن الحرب البونية الأولى بددت قواهم وسلبتهم كل ما كانوا يحمونه.

وتغيرت أيضا قيمة امتيازاتهم الانتخابية. وكانت في الجمهورية الرومانية هيئتان حاكمتان. الأولى منهما والأكثر أهمية هي مجلس الشيوخ (السناتو). وكان هذا المجلس في الأصل هيئة من الأشراف، ثم غدا مكونا من الرجال البارزين من جميع الطبقات. وكان يدعوهم إلى جلساته في البداية موظفون ذوو نفوذ وسلطان، ثم القضاة والرقباء (١). وإذا هو يصبح كمجلس اللوردات البريطاني جمعية تضم كبار أصحاب الأراضي والسياسيين البارزين وكبار رجال الأعمال ومن إليهم. كان أقرب إلى مجلس اللوردة البريطاني منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكي. وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية، وهو مركز الفكر الروماني السياسي وقلته. وكانت الهيئة الثانية هي الجمعية الشعبية، التي كان مفروضا أن تضم مواطني روما جميعا. وكان ذلك ممكنا يوم كانت روما دولة مساحتها عشرون ميلا مربعا. أما وقد بسطت حقوق روما المدنية إلى ما وراء حدودها، فقد أصبحت هيئة عقبة. وأخذت اجتماعاتها التي كان يملن افتتاحها بالنفخ في الأبواق من الكايتول وأسوار المدينة، تصبح من يوم إلى آخر اجتماعا من للأجورين السياسيين ورعاة المدينة. ومن قبل كانت الجمعية الشعبية في القرن الرابع ق. م رادعا قويا يكبح مجلس الشيوخ، وكانت خير من يثقل مطالب الشعب وحقوقه، ولكنها استحالَت عند نهاية الحروب البونية إلى طلال دارس لاحول.

(١) كان لروما رقبان مبعوثا تحديدا الحقوق المدنية للأفراد ولحفاظتها على الآداب العامة.

له لرقابة شعبية محطمة . فلم يبق هناك أى رادع قانونى فعال يكبح تصرفات كبار الرجال .

ولم يحدث قط أن أدخل في الجمهورية الرومانية أى شئ من قبيل الحكومة التنفيذية النيابية . ولم يفكر أحد البتة في انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين - وهذه مسألة هامة جداً ينبغي للباحث أن يدركها . فلم يحدث قط أن بلغت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكى أو مجلس العموم البريطانى ، كانت من الناحية النظرية هيئة المواطنين مجتمعين ؛ ولكنها من الناحية العملية تسطت تماماً عن أن تكون شيئاً يستحق الاعتبار .

ومن ثم فإن المواطن العادى في الإمبراطورية الرومانية كان في حالة يرى لها بعد الحرب البونية الثانية ؛ كان الفقر قد دخل به ، إذ ضاعت مزرعته في الغالب ، وحرمه الرقيق ثمرة الإنتاج المجزى ، كما لم يبق في يديه أية سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموقف . فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبي كحشبة حرم كل صورة من صور التعبير السياسى إلا الاضطراب والعصيان . وقصة القرنين الثانى والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية ، لا تخرج عن قصة حركات ثورية غير مجددة . على أن حجم هذا الكتاب لن يسمح لنا أن نحدثك حديث كفاحات ذلك العصر المعقدة ، ولا حديث المحاولات التي بذلت لتفريق المزارع الكبرى ورد الأرض للمزارع الحر ، ولا حديث المقترحات التي قدمت لإنشاء الديون جملة أو جزئياً . وجاء التمرد ونشبت الحرب الأهلية وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا في ٧٣ ق. م ثورة عظيمة بقيادة اسبارتا كوس . وكان لثورة رقيق إيطاليا شئ من الأثر ، إذ كان فيهم كبار للقاتلين في فحلات المجادين (١) . وظل اسبارتا كوس صامدا سنتين في فوهة بركان فيزوف ، الذى كان خامدا في ذلك الزمن . ثم هزم الثائرون وأخذ العصيان بقسوة جنونية . فسلب ستة آلاف من أتباع اسبارتا كوس على جانبي الطريق الآيبانى ، وهو الطريق العظيم الذى يمتد من روما نحو الجنوب (٧١ ق م) .

(١) المجادلون (Gladiators) : الممارعون في المهادرومانى ، ولا يوافقون إلا بالاحرج ولا مثلم أو وحوشاً ضارية . وهي رياضة وحشية كانت تروق الرومان . ومكان هذه المصارعة كان يسمى بالمجند (Arena) [للتبرج]

ولم يدر بجهد الرجل العادي قط أن يقاوم القوى التي كانت تخضعه وتحط من قدره
يد أن الأغنياء الكبار الذين تطلبوا عليه . كانوا حتى بعد أن أزلوا به المزرعة يجهزون
قوة جديدة في العالم الروماني ما لبثت أن تغلبت في النهاية عليهما جميعاً : هي
قوة الجيش .

كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يتكون من جند من الزارعين الأحرار
الذين كانوا يسبغون إلى الحركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم . وكان هذا النوع
من القوات نافعا جداً في الحرب طالما كان ميدانها قريباً ولكنه ليس من نوع الجيوش
التي تذهب إلى خارج البلاد وتعمل أعباء الحملات الطويلة بصبر وجملة . وفشل عن ذلك
فقد ترتب على تكاثر الرقيق ونمو رقع الزارع الكبرى ، أن تناقص عدد اللقاة من
الفلاحين الأداة الأحرار . ثم ظهر قائد عبي هو ماريوس فكان له الفضل في إدخال
عامل جديد . وذلك أن شمال إفريقيا أسمى بعد أن ذهبت ربح الحضارة القرطاجية دولة
عبي محمية ، هي مملكة نوميديا . وحدث نزاع بين الدولة الرومانية وبين جوجرنا ملك
تلك الدولة ، فكابدوا أهوالاً كثيرة في التخلع عليه . حتى إذا ثار الشعب غضباً لكرامته
اضطر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قنصلاً للبلاد ، لينهي الحرب الشائنة . وتم له ذلك
بجمعه الجند للأجورة وتدريبهم تدريباً شديداً .

وأحضر جوجرنا إلى روما مكبلاً بالأسلحة (١٠٦ ق م) ، فأما ماريوس فإنه
تثبت بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته واستمسك به استمساكاً غير شرعي تظاهره
كتائبه للنشأة حديثاً ، ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صدّه ومقاومته .

ويظهر ماريوس ابتداء الذعر الثالث في تطور الدولة الرومانية : وهي جنونية
القواد العسكريين ، فالآن ابتدأت مرحلة كان فيها جنود الكتائب للأجورون يقانون
في سبيل السيطرة على العالم الروماني . وثار على ماريوس قائد أرسطراطي هو سلا ،
الذي كان يعمل تحت أمرته بإفريقية . وقام كل منهما بدوره بعمل السيف بشدة في
خصومه السياسيين ، فكان الرجال يهرمون من حماية القاتون ويسدمون بالآلاف ، كما
تباع مزارعهم ، وبعد المنافسة الدموية التي اضطرت بين هذين الرجلين وبيندالربع
الذي ملأ النفوس من جراء حسيان اسبارتاكوس ، جاء طور كان فيه لوكولوس
ويومي الأكبر وكراسوس وبوليوس قيصر أمراء على الجيوش ومتسلطين على مقاليد

الشئون . وقد هزم اسبارتا كوس على يد كراسوس . أما لوكولوس فإنه فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ، ثم تقاعد متمتعا بثناء عريض في حين أن كراسوس سار قدما وغزا بلاد فارس ثم هزمه البارثيون (الأشكانيون) وقتلوه . وبعد منافسة طويلة انهزم بومبي أمام يوليوس قيصر (٤٨ ق . م) ثم قتل بحمر تاركاً يوليوس قيصر وحده سيدا على العالم الروماني .

وشخصية يوليوس قيصر شخصية أثارت في الخيال الإنساني هزة أضاعت كل أسباب التناسب بينها وبين قيمتها أو أبادها الحقيقية ، فلقد أصبح رمزا ، وعندي أن أهميته تنحصر بوجه خاص في كونه النذير الذي يؤذن بالانتقال من طوز للثامرين المسكرين إلى بداية للرحلة الراجعة لتتوسع الروماني : وهي الإمبراطورية الأولى ، ذلك أن حدود الدولة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج على الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية ، وعلى الرغم من الحروب الأهلية والانحلال الاجتماعي ؛ وما زالت تلك الحدود تزحف نحو الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالي ١٠٠ ميلادية .

أجل حدث للحدود شيء من الانكماش أثناء فترات الشك والتخوف التي رافقت على البلاد في الحرب البونية كما كان هناك هبوط ظاهر في المهمة في اللدة التي سبقت إعادة تنظيم الجيش على يد ماريوس ، وكانت ثورة اسبارتا كوس أمارة أذنت بدور ثالث ، وقد شاد يوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربي في بلاد الغالة ، وهي تسمى الآن فرنسا وبلجيكا ، (كانت أم القبائل التي تسكن ذلك القطر تنتمي إلى نفس الشعب السكتي الذي كان ينتمي إليه الغالة الذين احتلوا شمال إيطاليا ودحا من الزمن ، وأدين أغاروا فيها بد على آسيا الصغرى واستقروا فيها تحت اسم الغلاطين) صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها الجرمان ، ثم ضم القطر كله إلى الإمبراطورية ، كما أنه عير مضيق دوفر إلى بريطانيا مرتين (٥٥ ق . م) ، غير أن فتحه لتلك البلاد لم يدم طويلا . وفي نفس الوقت كان بومبي الأكبر يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التي بلغت في الشرق بحر قزوين .

وفي ذلك الوقت ، أي منتصف القرن الأول ق . م ، كان مجلس الشيوخ الروماني

لا يزال هو المركز الإسمى للحكومة الرومانية ، وهو الذى يعين القناصل وغيرهم من الموظفين ، ويمنح السلطات . وما شاكل ذلك . وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون ، تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية وللاحتفاظ لها بالاحترام وهىة القوانين . بيد أن بواعث اللواطنة وروحها كانت قد ولت من إيطاليا منذ ضيع الفلاحون الأحرار وتفرقوا يدا ؛ فقد استعالت البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجال عظم الفقر بناه حرمووا نعمة الفهم والرغبة فى الحرية ، ولم يكن ثمة شئ ينصر هؤلاء الزعماء الجمهوريين بمجلس الشيوخ ، بينما كانت الكتائب تحتشد من وراء الناصرين الكبار الذين كان المجلس يخشى بأسهم ورضى إخضاعهم ، وكان كراسوس وبومبي وقيسر يتقاسمون فيها بينهم حكم الامبراطورية متخططين السناتو فى ذلك . (وم الحكومة الثلاثية الأولى) وعندما قتل الأشخانيون كراسوس بيد ذلك بمنطقة كارهاى النابية ، دب الخلاف بين بومبي وقيسر ، فانتصر بومبي للبادىء الجمهورية ، وصدرت القوانين بمحاكمة قيسر على ما ارتكب من خرق للقانون ، وعلى عدم إطاعته لمراسيم مجلس الشيوخ .

ولم يكن القانون يبيع لأى قائد أن يتجاوز بحده دائرة حدود قيادته ، وكان الحد الفاصل بين منطقة قيادة قيسر وبين إيطاليا هو نهر الرويكون [بإقليم توسكانى] . وفى ٤٩ ق ، م عبر قيسر نهر الرويكون قائلا : « الآن رميت القداح وسبق السيف العذل » ثم زحف بجيشه على بومبي وروما .

وقد جرت عادة روما فى الماضى ، أن تنتخب فى الفترات العسكرية المعصية « دكتاتورا » له سلطات غير محدودة تقريبا ليتولى الحكم فيها أثناء الأزمة . وبعد أن قضى قيسر على بومبي عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولا ثم مدى الحياة فى (٤٥ ق . م) . والواقع أنه جعل عاجلا للامبراطورية مدى الحياة ، ثم دارت الأحاديث فى شأن الملكية وللوك ، وهى كلمة بنضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلك بخمسة قرون . ورفض قيسر أن يكون ملكا ، بيد أنه أخذ العرش والصولجان .

فكان قيسر قد واصل زحفه إلى مصر بعد هزيمة بومبي ، وأخذ يطازح كليبوطرة .

الفرام ، وهى آخر البطالة ، وملكة مصر الربة ، ويروح أنها لعبت برأسه تماما ، وعاد قيصر إلى روما حاملا معه فكرة « الملك المؤله » المصرية . وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم في أحد المعابد وعليه عبارة نصها : « إلى الإله الذى لا يقهر » . ولاخر مرة اندلع من الروح الجمهورية المتفضرة بروما لحبيب احتجاج أخير ، وطعن قيصر بالحناجر حتى قضى نغبه في مجلس الشيوخ تحت أقدام تمثال منافسه المصروع بومى الكبير .

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامحة . وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من لبيدوس ومارك أنطونيو وأوكتافيوس قيصر ، وهو ابن أخى يوليوس قيصر . وأخذ أوكتافيوس كبحه الولايات القرية الأشد . قترأ والأفوى حكيمه . والى كانت تجدد منها أحسن الكتاب ، وتمكن في ٣١ ق . م من هزيمة مارك أنطونيو منافسه الخطر الوحيد في معركة أكتيوم البحرية ، وبذلك جعل من نفسه السيد الأواحد للعالم الرومانى .

على أن أوكتافيوس كان رجلا من طينة أخرى مخالفة تماما ليوليوس قيصر . فلم يخافه أى حين طامش أن يصبح إلها أو ملكا . ولم تصكن له ملكة مشوقة يريد أن يهرها بضيائه . فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما ، وأبى أن يصبح دكتاتوراً . وغلب الشكر على السنانو فأسلم إليه مقابل ذلك جوهر السلطان بدلا من صورته الشكلية . أجل لم يلقه حق بالملك ، بل أطلق عليه لقب « الأمير » ونفته بـ « أوغسطس » . ثم أصبح لقبه بعد ذلك أوغسطس قيصر أول أباطرة الرومان (٢٧ ق . م إلى ١٤ م)

وخلفه تيربوس قيصر (١٤ م - ٣٧ م) ، وأعقب هذا آخرون ، ثم كاليغولا وكلوديوس ونيرون ، وهكذا حتى جاء تراجان (٩٨ م) ، وهادريان (١١٧ م) ، وأنطونيوس يوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠ م) ، وهم جميعا أباطرة كتاب ، فالجند هم الذين نصبهم ، والجند هم الذين قضوا على بعضهم ، وأخذت سلطة مجلس الشيوخ تقلص شيئا فشيئا وتوارى من التاريخ الرومانى ، بينما جعل الإمبراطور وموظفوه الإداريون يحلون محله .

عند ذلك كانت حدود الإمبراطورية قد تراجعت نحو الخارج إلى أقصى حد لها ،

فضم الخطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية ، ثم ضمت ترانسلفانيا بوصفها مقاطعة جديدة اسميت « داكيا » وعبر تراجان نهر الفرات .

ومن عجب أن هادريان ساوره فكرة تذكرنا على الفور بما حدث في الطرف الآخر للعالم القديم . فإنه — شأن شئ هو أبلغ في شدة الأسوار ليصد برابة الشمال ؛ فبنى أحدها عبر بريطانيا من المين إلى اليسار ، ومد الحواجز الدفاعية بين نهري الرين والدانوب ، وتغلى عن بعض ما استولى عليه تراجان .

فإن توسع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه .

الفصل الرابع والثلاثون

بين روما والصين

يؤذن القرنان الثانى والأول قبل الميلاد بظهور مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية . فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحر المتوسط الشرقى مركز الاهتمام . أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدهارها بالسكان وورغنها المتوسط ، بيد أنهما لم تعودا بعد الإقليمين للتسلطين على العالم . إذ أن القوة انتقلت غربا وشرقا ، وآلت سيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين : تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة ، وإمبراطورية الصين الحديثة النهوض والبعث .

ومدت روما سلطاتها إلى نهر الفرات ، غير أنها لم تستطع البتة تجاوز ذلك الحد لفرط بعده عنها . ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين السابقة بالهند وفارس إلى يد عدد من سادة جدد .

أما الصين — التى كانت آنذاك تحت حكم أسرة « هان » التى خلفت أسرة « تسن » عند وفاة شى هواىجى — فإن سلطاتها انبسطت آنذاك إلى التركستان الغربية عبر بلاد التبت وفوق بحرات هضبة الياهير الجبلية العالية . ولكنها بلغت هناك أيضا حدها الأقصى ، أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد .

وكانت الصين فى ذلك الزمان أعظم نظام سياسى فى العالم وأحسنه تنظيمًا وأكثره تمدنًا . كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهى فى أوج مجدها . من هنا يتبين إذن أن هاتين الدولتين العظميتين قد أمكن أن تزدهرا فى عالم واحد ووقت واحد دون أن تعلم إحداهما بوجود الأخرى . ذلك أن وسائل التواصلات فى كل من البر والبحر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكافية بالاحتكاك المباشر بينهما .

على أن التفاعل تم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جدا ، وكان تأثيرهما عميقا جددا

في ميسر الأقاليم التي تقع بينهما وهي آسيا الوسطى والهند : إذ أن قدرأجينة من التجارة كان يترقب في تلك الأقاليم على ظهور الجبال بطريق القوافل عبر بلاد فارس مثلاً ، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر .

وفي ٦٦ ق- م زحفت الجنود الرومانية بقيادة يرمي بمقتبة خطى الإسكندر الأكبر على الشواطئ الشرقية لبحر قزوين . وفي ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادة بان تشاو ، وأرسلت معها ليقدموا لها التقارير عن قوة دولة الرومان . ولكن قدر أن تمر قرون أخرى كثيرة قبل أن تنبأ للمعلومات المحددة والملاقات للباشرة أن تربط العالمين العظيمين للترازين . على أوروبا وآسيا الشرقية .

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانت تسيطر البراري المهيبة للتبرية . فكانت منطقة ألمانيا الحالية إقليماً تكسو الغابات معظمه ؛ على حين كانت الغابات تنوغل قدما في صميم روسيا ليستوطنها الثور الجبار (الأوروك) ، الذي يقارب حجمه حجم الفيل . ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من الكتل الجبلية الآسيوية العظيمة شريط من الصحراوات والسهوب نجىء بعد الغابات والأراضي للتمجدة . ويقع مثل منشوريا العظيم في للتبسط الواقع شرق للرفعات الآسيوية .

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبي روسيا وتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابثة للتنازع إلى درجة خارقة . فقد تغيرت كمية الأساطير تغيراً كبيراً في مدى بضعة قرون . فهي بلاد غادرة تخون الإنسان . تمر عليها سنوات متعاقبة وهي ممتلئة بالحشائش والكلاء الذي يفتون (١) السكان ، ثم نجىء فترة انخفاض في الأساطير ودورة من دورات الجفاف والتحط للهالك .

والجزء التربي لهذه المنطقة الشمالية المهيبة للتمد من الغابات الألمانية إلى جنوب روسيا وتركستان ومن جوتلند [بالسويد] إلى جبال الأب هو الأرض الأصلية للشعوب النوردية والنان الآري . كأن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هي منبت الشعوب الهوتية أو للبولية أو التتارية أو التركية — ذلك أن كل هذه الشعوب

(١) يفتون السكان : يرذلهم ويخيلهم الفتوت ويحولهم من (هات يفتون قوتا) .

للتعدد كانت مماثلة في اللغة والمصر وطريقة الحياة . وكما أن الشعوب النوردية كانت تطنى دائماً فيما يظهر على حدودها ، وتضغط جنوباً على الحضارات النامية بأرض الجزيرة وساحل المتوسط ، فكذلك كانت القبائل الهونية ترمى فائضها على صورة جوالين ومترحلين ومضيرين وفاتحين في أقاليم الصين السهلة بالسقرين . وكانت تترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تبنى زيادة عدد من بها من سكان ؛ ولكن إذا حدث نقص في العشب أو حلت نوبة من نوبات طاعون اللاشية ، لم يكن مفر من أن يؤدي ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياح للقاتلين الأعداء نحو الجنوب .

وجاء زمان اجتمعت فيه في العالم إمبراطوريتان قويتان إلى حد ما تستطيعان صد البرابرة ، بل دفع خط السلام الإمبراطوري إلى الأمام . وظلت إمبراطورية هان تضغط من شمال الصين إلى قلب منغوليا ضغطاً قوياً لا ينقطع . وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء السور العظيم وكان الفلاح الصيني ومعه المهرات والحصان يتقدم في إثر حارس الحدود الإمبراطوري ، فيحرث نبات الكلاء ويحيط للراعى الشتوية بالسيجات . وكانت الشعوب الهونية تغير على للسقرين وتقتلهم ، بيد أن حملات الصينيين التآديبية كانت لهم بالمرصاد .

ولم يكن للرحل بد من الاختيار بين أحد أمرين ، فإما الاستقرار في حياة الزراعة ودفع الضرائب للحكومة الصينية ، وإلا فالرحيل طلباً لمراع صينية جديدة ، وسلك بعضهم الطريق الأول فابتلته بلاد الصين ، وانتقل بعضهم نحو الشمال الشرقى أو نحو الشرق من فوق للمرات الجبلية وانحدروا إلى التركستان القريبة ،

وهذا الانتقال غرباً للقبائل المنغوليين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق . م ؛ وكلما حدث ، دفعت القبائل الآرية نحو الغرب ، فيضغط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التي هم على استعداد لاختراقها بمجرد ظهور أى عارض من عوارض الضعف . وجاء الآخمينيون (البارثيون ، وهم فيما يظهر شعب أشقوى تغالطه بعض هوائى منغولية) ونزلوا أرض القرات عند القرن الأول قبل الميلاد ، فقاتلوا بومى الكبير في غارته على بلاد الشرق بهزموا كراسوس وقتلوه ، وأنزلوا ملوك السلوقيين عن عرش فارس ،

وجاءت فترة حكمت فيها بجمال الهند بأسطة عليها شيئا من النظام أسرة كوشا: بعينها أسستها قبائل « المندواشوديين » Indo-Scythians وهم جيل من الشعوب الغيرة . وتواصلت هذه الغزوات بضع قرون . ونكبت الهند دهرًا طويلا من القرن الخامس لليلاى بالإفتاليين أو المون البيض ، الذين كانوا يجيئون الجزية من الأمراء الضغار ، ويوقعون الرعب في أرجاء البلاد . وكلا أقبل الصف رجل هؤلاء الإفتاليون إلى التركستان الغربية ليرعوا غاشيتهم ، فإذا جاء الحريف عادوا بطريق المرات وقذفوا الرعب في قلوب السكان الودعيين .

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية في القرن لليلاى الثانى نكبة عظيمة ، لعلها أضمت مقاومتهما جميعا لفنط البرابرة ، فإنهما أصيبتا بوباء وبيل لا نظير له . ظل ذلك الوباء يتفشى بشدة في بلاد الصين أحد عشر عاما ، حتى أقعد النظام الاجتماعى أشد الساء ، فسقطت أسرة هان ، وأبتدأ عصر جديد من عصور الانقسام والغرض ، لم تستطع الصين أن تخيق منه تماما إلا في القرن السابع لليلاى عند ظهور أسرة تانج العظيمة .

وانتشرت العدوى خلال آسيا إلى أوروبا وأخذ الوباء ينتشر في أرجاء الإمبراطورية من ١٦٤ إلى ١٨٠ م . وواضح أنه هزكاتها إلى حد خطير جدا . فإننا نسمع بعد ذلك عن نقص السكان بالولايات الرومانية ، كما نشهد انحلالا ملحوظا في قوة الحكومة وكفاءتها . ومهما يكن الأمر فلما نعلم للفور أن التخوم لم تعد منيعة لا يمكن اختراقها ، ونجدها تتداعى في هذا المكان أولا ، وفي ذلك ثانيا .

وثمة خصب نوردي جديد هو القوط جاء أصلا من جوثلندة ببلاد السويد ، ثم هاجر عبر روسيا إلى منطقة القوقاز وشواطئ البحر الأسود حيث جنح إلى البحر وإلى أعمال القرمية . ولعلهم شرعوا عند نهاية القرن الثانى يشعرون بضيق هجوم المون غربا عليهم . وفي ٢٤٧ م قاموا بغارة برية عظيمة فقبضوا نهر الفولوة (الدانوب) وهزموا الإمبراطور ديكينوس وقتلوه في معركة دارت رحاها فيما يشق الآن بلاد الصرب . وفي ٢٣٦ م احترق الحدود عند نهر الرين الأدنى شعب جرمانى آخر هو

المنجحة ، كما انبأه الألمانى على إقليم الأزراس . وتمكنت الكتائب للمكررة ييلادالغال
من صد للخيرين عليها ؛ ولكن القوط النازلين بشبه جزيرة البلقان أعادوا الإغارة
هناك مرة بعد أخرى . فاختفت مقاطعة داكيا من التاريخ الرومانى .

لقد دبت برودة الموت فى كبرياء روما وثقها بنفسها . وفى ٢٧٠ - ٢٧٥ م حسن
الإمبراطور أوربليان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة .

الفصل الخامس والثلاثون

حياة الرجل العادي

في عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانية في مهاوى القوضى وعزقت إرباً بعد أن تكونت في القرنين السابقين للبلاد ، وازدهرت في مجبوحة السلام والطمأنينة منذ أيام أوغسطس قيصر مدة قرنين آخرين ، — يجدر بنا أيضاً أن نوجه بعض عنايتنا إلى حياة الناس العاديين أعني العامة أثناء عصر هذه الدولة العظيمة . لقد وصلنا في تأريخنا الآن إلى حوالي ألف سنة من زماننا هذا ؛ كما أن حياة الناس للتضجرين الذين كانوا يعيشون في ظل كل من « سلام » روما و « سلام » أسرة هان ، قد أخذت تقترب رويداً رويداً من حياة خلفائهم للتضجرين في يومنا هذا .

وكان استخدام النقود للسكوك شائعاً آنذاك في العالم الغربي ؛ وأصبح لكثير من الناس خارج عالم الكهانة موارد مستقرة دون أن يكونوا من مواطني الدولة ولا السكان ؛ وبات الناس يعيشون في مناكب الأرض بحرية لم تقسم لهم من قبل أبداً ، وأنشئت الطرق العامة وشيدت الفنادق لزولهم ، فلو قارنت حياتهم بما كانت عليه في الماضي أي قبل ٥٠٠ ق . م ، لوجدتها أكثر رخاءاً ويسراً . وقبل ذلك التاريخ كان التضجرون مقيدين بحاجة أو إقليم ، مقيدون بالتقاليد ، يعيشون في حدود أفق ضيق جداً ؛ ولم يكن أحد يستطيع الاتجار أو السفر إلا الشعوب الرجل .

يبدأ « السلام » الروماني ولا « السلام » الصيني لدى أسرة هان كان يعني أن الحضارة انتشرت اقتشداً منتظماً في الأقاليم الضخمة الواقعة تحت سيطرتهم . فالقوارق المحلية عظيمة جداً بين إقليم وآخر ، كما أن التناقضات وعدم المساواة في الثقافة عظيمة أيضاً بين ناحية وأخرى ، كما هو الحال اليوم في ظلال « السلام » البريطاني بالهند ، وكانت الحمايات وللتعمرات الرومانية تنتشر هنا وهناك في أرجاء تلك للساحة العظيمة ، وهي تعبد آلهة الرومان وتسلم بلنتهم ؛ فإن كانت هناك مدن أو بلدان قبل مجيء الرومان

تركت لها إدارة شئونها عندئذ وإن أخضعت ، وسمح لها فترة ما على الأقل بعبادة آلهم بطرقها الخاصة . ولم تنتشر اللغة اللاتينية البتة في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر والشرق للهن (١) عامة مذ كانت الإغريقية هي السائدة هناك ولا سبيل إلى قهرها . وكان شاؤول الطرسوسى الذى أصبح بولس الرسول يهوديا ومواطننا رومانيا ؛ غير أنه كان يتحدث بالإغريقية ويكتب بهادون العبرانية . بل لقد بلغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية في بلاط يقع خارج الدولة الرومانية تماما ، هو بلاط الاسرة الأشقائية التى خلعت السلوقيين الإغريق عن عرش فارس . وكذلك صمدت أيضا اللغة القرطاجية في بعض أقطار أسبانيا وشمال إفريقية زماناً طويلاً ، على الرغم من تدمير قرطاجنة . فإن مدينة كاشيلية ، ذلك البلد الذى أوتى الننى والرخاء قبل أن يسمح الناس باسم الرومان زمن بئيد ، ظلت تحافظ على معبودتها الرببة السامية وتعلق بأساتها السائى مدة أجيال عديدة على الرغم من وجود مستمرة من محنكة جند الرومان بإقليم إيتاليكا على بضعة أميال منها . وهناك الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (تولى العرش من ١٩٣ - ٢١١) الذى كانت القرطاجية لفته القومية . ثم تعلم اللاتينية فيها بعد كلفة أجنبية ، ويسجل التاريخ أن أخته لم تعلم اللاتينية قط ، وأنها كانت تتفاهم في دارها بروما باللغة البينيقية .

أما للناطق الذى لم تسكن بها من قبل مدن كبرى ، ولا معابد ، ولا ثقافات ، كبلاد الغالة وبريطانيا وولايات دأكيا (وهى الآن رومانيا على وجه التقريب) وبانونيا (وهى الآن بلاد المجر جنوبي الدانوب ، فإن الإمبراطورية استطاعت على كل حال أن تصبغها بالصباغ اللاتينى . وهى التى مدت هذه الأقطار لأول مرة ، وأنشأت مدنا كانت اللاتينية فيها هى اللسان الثالب منذ البداية ، وكانت آلهة الرومان تعبد فيها ، كما يتبع بها عرف الرومان وعاداتهم . وما اللغات الرومانية والإيطالية والفرنسية والأسبانية - وكلها مشتقة من اللاتينية - إلا تذكرة لنا بهذا الامتداد لسان والعرف اللاتينى ، وأصبح شمال غربى إفريقية في النهاية ناطقا باللاتينية إلى حد كبير .

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجزاء الإمبراطورية الواقعة شرقاً علم تصطبغ فط
بالصباغ اللاتيني ، بل ظلت مصرية وإغريقية روحاً وثقافة . وبلغ الأمر باليونانية أن
انتشرت بروما نفسها ، فعملها للتعلون بوصفها لغة عليا القوم ، كما أن أدب اليونان
وعلمهم كانوا يفضلان على اللاتيني في أرجح الاحتمالات .

وكان من الطبيعي في مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء
الأعمال والأشغال فيها جد غلظة أيضاً ، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس
صناعات العالم للستقر . وقد أسلفنا عليك كيف حلت للزراع الكبيرة والعمال الأرقاء
عمل للزارعين الأشداء الأحرار الذين كانوا هم العمود الفقري للجمهورية الرومانية
القديمة . أما العالم اليوناني فكانت أساليب الزراعة فيه متنوعة جداً ، منها الطريقة
الأركادية ، التي كان كل مواطن حر يكسح بعقضاها يديه ، ومنها خطة أسبرطة ، التي
كان من المهانة فيها أن يعمل للره يديه ، والتي كان العمل الزراعي فيها يقوم به طبقة
خاصة من رقيق الأرض هم الهيلوطيين (Helots) . بيد أن هذه الأمور كانت قد
أصبحت في تلك الأيام نفسها قطعة من التاريخ البتيق ، فلن طريقة للزراع الكبيرة
وغير الأرقاء كانت قد انتشرت في معظم أرجاء العالم الهليني . كما أن الأرقاء الزراعيين
كانوا أسرى يتكلمون لغات مختلفة كثيرة ، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم
بعضاً ، أو كانوا عبيداً مولودهم ؛ لم يكن بينهم تضامن لقائمة الاضطهاد ، ولا تقاليد
لحقوق يتناقلونها ولا معرفة يبدونها ، ذلك أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة
والكتابة . ومع أنهم صاروا طي مدى الأيام الأغلبية بين سكان البلاد ، فإنهم لم يقوموا
البتة بحركة ثورية ناجحة . أما ثورة اسبارتا كوس التي اندلعت في القرن الأول ق . م ،
فهي ثورة للأرقاء المحصورين الذين كانوا يدرسون لصراعات المجاهدين . وكان عمال
الزراعة بإيطاليا في أواخر أيام الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شر الإهانات
فيربطون بالسلاسل ليلا لنسهم من الحرب أو تخلق نصف رؤوسهم ليصب الفرار عليهم
ولم تكن لهم زوجات ؛ ومن حق سادتهم انتهاك حرمتهم والتشكيل بهم أو قتلهم .
وكان في إمكان السيد أن يبيع عبده ليقاقل الوحوش في المبتد . فإذا قتل عبد
سيده ، صلب القاتل وجميع من في الدار من هيب . نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق
وبخاصة أثينا ، لم يكن حظ الرقيق فيها رهيباً إلى هذه الدرجة تماماً ، بيد أنه كان مع

ذلك خطأ أيضاً إلى تقوسهم . ولذا ظنّثيرون والمهج الذين أخذوا يخترقون - لوقت - خط دفاع الكتائب ، لا يعدون في نظر مثل هؤلاء السكان أعداء بل محررين ومعتقدين .

وقد انتشر نظام الرقيق في معظم الصناعات وفي كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله . فالعمل بالناجم وصناعات للمادن والتجديف في السفن ورفض الطرق وعمليات البناء الكبرى تتم في الأغلب الأعم على يد الأرقاء . كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تخبزياً . كان هناك رجال أحرار فقراء ، ورجال عتقاء يصلون في المدن والناطق الريحية ، إما لحساب أنفسهم أو مقابل أجر يتناولونه ، ومنهم الصانع للامور والشرف على المال وما شاكل ذلك ، وهم عمال من طبقة جديدة تلتقي الأجور تقدماً وتتافس المال الأرقاء ؛ على أننا نجعل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة . ولعلها كانت تتباين تبايناً بعيداً باختلاف الأماكن والأزمان . وأدخلت على نظام الرق تعديلات حمة ، فها هنا عبد يقيد بالأغلال ليلاً ثم يدفع للسيط إلى للزراعة أو المجر نهاراً ، وهناك العبد الذي وجد سيده أن من اللصحة أن يتركه يزرع قطعة أرضه الصغيرة ، أو يعمل في صنفته ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر ، على شريطة أن يدفع لسيده جلفاً مريضاً ممناً بطرته .

كان هناك عبيد مدبرون على حمل السلاح . وقد ابتعث في روما قيسل بداية الحروب البونية في ٢٦٣ ق . م الرياضة الإرسكية ، التي كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته . وسرعان ما لقيت تلك اللعبة رواجاً كبيراً ؛ وما لبث كل عظيم من أغنياء الرومان أن احتفظ لنفسه بحاشية من المهادين ، الذين كانوا يقاتلون أحياناً في المجد ، والذين كانوا عملهم الحقيقي هو أن يكونوا حرسه الخاص من (البلطجية) .

وكان هناك أيضاً عبيد علماء . ذلك أن فتوح الجمهورية للتأخرة شملت المدن الرائية تمدن يبلاد الإغريق وشمالي إفريقيا وآسيا الصغرى ؛ فأمدتها بكثير من الأسرى الواسعي العلم والأطلاع . حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أي فتى روماني من عائلة كريمة عبداً . وإن الرجل الذي ليك العبد الإغريقي ويخذه خازناً لمكتبته ، كما يتخذ الأمراء (السكرتيرين) والعلماء من الأرقاء . وإنه ليحتفظ بشاعره مثلاً يحفظ بكابه القادر على أداء الألحان الطيبة . وفي هذا الجو من البودية تطورت تقاليد التقه

الأدبي والدراسات الأدبية البصرية مقسمة بالتدقيق والتخوف والليل إلى الشحاء .
وعبة أقوام مبالون إلى التجارة كانوا يشترون الغلام الذي ثم يملونه لكي يبيعوه عندما
يشب ، وكان المبدان يدرسون على نسخ الكتب وصياغة الجواهر وغير ذلك مما
لا حصر له من المهن التي تستدعي للمهارة .

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغييرات جوهرية أثناء السنوات الأربعة التي امتدت
بين أيام الفتح الأول في عهد جمهورية الأخيلاء وبين أيام الانحلال التي أعقبت الوباء
العظيم . وتكاثر عند أسرى الحرب في القرن الثاني ق . م ، وأصبحت الطبائع خشة
وحشية ؛ ولم يكن للرقائق أبة حقوق ، وما من امتنان أو انتهاك يجوز خلع البقاري
إلا كان يزل على رأس الأرقاء في تلك الأيام . ولكن ظهر بالفضل إبان القرن
الأول الميلادي تحسن ملحوظ في اتجاه الحضارة الرومانية إزاء الرق . ذلك أن الأمرى
قل عديم لسبب من الأسباب ، كما أن العبيد صاروا أغلى ثمناً . فبدأ أصحاب الأرقاء
يدركون أن الربح والراحة اللذين يجودنهما على يد عبيد يزدان إذا استمتع هؤلاء
بالاحترام القادى . هذا إلى أن الشعور الخلقى للمجتمع أخذ يسمو ، وأن شعوراً بالعدالة
أخذ يؤتى ثماره . فإن عقوبة الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة الرومانيين .
وضيق الخناق على القساوة ، فلم يعد يجوز قسيد أن يبيع عبده ليقا تل الوحوش ،
ومنح العبد حقوق الملكية فيما كان يسمى باسم الملك الخاص (Peculium) ، وصار
الأرقاء يتناولون أجوراً تشجيعاً لهم واستحثاً على العمل ، واعترف القانون بنوع من
الزوجية للعبيد . ومن المعلوم أن كثرة كبيرة من أنواع الزراعة لا تصلح لعمل فرق
العمال ، أولاً تحتاج إليها إلا في مواسم معينة . فكان العبد في المناطق التي من هذا القبيل
ينقلب لوقت إلى رقيق أرض Serf^(١) ، يدفع مالكة جزءاً من محصوله أو يعمل
عنده في مواسم معينة .

ومضى أيضاً أن هذه الإمبراطورية الرومانية الكبرى الناطقة بالإغريقية في القرنين
الميلاديين الأولين كانت في جوهرها دولة رقيق ، وعرفنا كم كانت الأقلية التي تسعد
في حياتها بخيء من الحرية أو الكبرياء تنقلب للعدو ، وضعنا أصابعنا على بيت الله في

(١) رقيق الأرض أو مولد الأرض : عبد تابع لقبيل ويحرق له أرض ويبيع ويعتق مع نظام
الأرض [للترجم]

أحلامها وأتباعها . فما نسميه باسم الحياة المثالية لم يكن منه لديهم إلا النذر اليسير ، أما الميضي المعتدل والفكر والدراسة الناضجة فلا مكان لها إلا في بيوت قليلة ؛ وكانت للدارس والكتابات قليلة ومتباعدة . وأتى ذلك أن تجد الإدارة الحرة والعقل الحر في أى مكان . أما الطرق العظيمة ، وخرائب البنايات الضخمة ، وتقاليده القانون والسلطان التي خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيال التالية ، فيجب ألا نخفي عن أعيننا أن كل أجهتها الظاهرة أقيمت على إرادات مسلوكة وذكاة مكبوت ورغبات كسبة ومنحرفة . وحتى الأقلية التي كانت تسودها فوق خضم الاستبداد للتلاطم ، ولجات القمع والسخره ؛ كانت أرواحها تنقلب على جمر القلق والتعاسة . وفي ذلك الجو القاتل اضطلع النفن والأدب والعلم والفلسفة ، التي هي شعار العقول الحرة السعيدة .

أجل جرى التواء الكثير من النقل والمحاكاة ، وتزايد عدد الصانع الفنيين ، وتكاثر متعلقة العيد بين صفوف رجال العلم الأذلاء ، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جماء لم تنتج في مدى أربعة قرون شيئا يمكن موازته بالنشاط العقلي الجريء للنيل ، الذي بذلته مدينة أثينا الصنيرة نمينا أثناء قرن عظمها الوحيد . ولم تصب أثينا في ظلال الصولجان الروماني إلا الأعطال والتدهور . واضطلع علم الإسكندرية بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل في تلك الأيام .

الفصل السادس والثلاثون

التطورات الدينية

في ظلال الامبراطورية الرومانية

أصبحت روح الإنسان في عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والحبوط ، قرأنت القساوة والإكراه على كل رجوعها . كان هناك ، لاجرم ، الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معها إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء محترقن تحسین ؟ بينا أولو الحظوظ غير مطمئنين ، متلهفون على إشباع الرغبات تلهف المحوم . كانت الحياة تتركز في عدد عظيم من المدن حول اتصالات المجتد للفرجة بالنماء حيث يسطرع الرجال والوحوش ويتمذبون ويذبحون . . . وللدرجات^(١) هي أبرز عناصر الخراب الرومانية . ونمضى الحياة على هذا النهج ؛ والتلقى الذى يأكل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الدينى العميق .

فإن اختزقت الحشود الآرية لأول مرة حدود للذنيات النقية ، لم يكن مفر من أن تلم التكيفات العظيمة بالأرباب والكهانات القديمة ، أو تذهب من الوجود جملة . وقبل ذلك يمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية في للذنيات السمراء تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة للتركزة حول العبد .

وكانت رعاية للرأسم ، والخوف من عقالة القواعد للثمة والتخايد والترايين والحفايا ، تطلى على أذهانهم . وتبدو آلهتهم فظيمة وغير منطقية في نظر عقولنا

(١) المدرج (Amphitheatre) : مسرح دائرى في الوسط سمى المجتد عيط به القاعد في مقوف دائرية متصاعدة يلو بعضها بعضا ، وتعرف على المجتد . [المترجم]

المصرية ، وذلك لأننا ننتمى إلى عالم يُحلب عليه الطابع الآري ، ولكن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقناع المباشر ونصاعة الإشراف التي تتجلى بها الأشياء حين ترى في حلم أخاذ . فإذا غزت دولة مدينة دولة أخرى كسومر أو مصر القديمة ، كان معنى هذا تدمير الأرباب أو الربات ، أو تدمير أسمائهم على الأقل ، ولكن شكل المبادء وروحها كانا يظلان تسليمين لم يحسبهما سوء . فالتدمير لم يكن عس هيتها العامة من بعيد أو قريب ، فكان الصور للربة في الحلم كانت تغيّر ، ولكن الرؤيا تظل مستمرة . ثم إن الفاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيق للشاشبة في روحهم للسومريين بحيث اعتنقوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التي أخضعوها ، دون أن يدخلوا على تلك الديانة أى تعديل . والواقع أنه لم يحدث أبداً أن مصر أخضعت إخضاعاً يرضىها لانتقال ديني . فظلت بمعابدها ، وهياكلها ، وكهاناتها ، مصرية صريحة في ظلال حكم البطالة والقيصرية على السواء .

وطالما كانت الفتحاح تحدث بين شعوب ذات عادات اجتماعية ودينية متماثلة ، كان في الإمكان التغلب بعملية تجميع وتمثل - على ما بين رب هذا للبد وهذا الإقليم ورب ذاك من معارض - فإذا تشابه الريان في خصائصهما جلا شيئاً واحداً . فكان الكهان والناس يقولون إنه في الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر ، وهذا للزج والمصر بين الأرباب يسمى توحيد الآلهة أو (التيوكراتيا) ؟ والواقع أن عصر الفتح العظيمة في الألف السنة السابقة للبلاد كان عصر توحيد الآلهة ، فإن الآلهة المحليين في مناطق متراصة كان يحل محلهم - أو بالحري يبتلعهم - إله عام . حتى إذا تراءى الأمر بأن أعلن الأنبياء العبرانيون في بابل على الملأ أن للعالم ربا واحداً للصالح والبر ، كانت عقول الناس مهتأة تماماً لتقبل تلك الفكرة .

ولكن كثيراً ما كانت شقة التباين بين الأرباب أشد تباعداً من أن تسمح بتمثل ذلك التمثل ، وعند ذلك كان القوم يحسبونها معاملتين لذلك أية علاقة مقبولة . ومن وسألهم في ذلك تزويجهم الربة الأثني برب ذكر ، (والعالم الإيبي قبل عجمي الإغريق كان مولداً بالربات والأمهات) ، ومنها تمثل الرب الحيوان أو الرب النجم ذيراً واتخاذ الهيئة الحيوانية أو الظاهرة الفلكية كالنجم أو النجم جلية أو رمزا . ومنها أن رب الشعب القوم يصحح خصماً شريراً يسمى لآلهة الشعب القالب . وتاريخ اللاهوت

حافل بأشكال هذه التكييفات لوضع الأرباب المهلين والتوفيقات بينها وبين غيرها والتبصيرات لها .

وقد حدث الشيء الكثير من هذا التوحيد بين الآلهة أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دول للدين إلى حالة الدولة الواحدة للوحدة . وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس ، وهو إله حصاد قرباني كان للفرعون أن فرعون هو الصورة الأرضية التي تجسده . ويمثل أوزيريس في صورة من يموت مراراً وتكراراً ثم يبعث حياً ؛ فكان أنه لم يكن وحسب البذرة والحصول ، بل كان يتحول أيضاً بتوسع طبيعي للفكرة إلى وسيلة للخلاود البشري . ومن رموزه الجبل (الجبران) للذي الأجنحة ، الذي يدفن يرضه ليشت من جديد ، ومنها أيضاً الشمس للتأقّة التي تغرب لتشرق ثانية . ثم تغمض فيما بعد شخصية أيبس العجل للقدس . الذي ترتبط به الربة إيزيس . أما إيزيس فهي أيضاً هاتور ، وهي بقرة ربة ، وهي الهلال ونجمة البحر . ويموت أوزيريس ، وتحمل إيزيس طفلاً هو حوروس ، الذي يتمثل أيضاً صقراً معبوداً ، كما أنه هو الفجر وهو الذي يكبر ليصبح أوزيريس مرة أخرى . وصور إيزيس تمثلها وهي تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع حوروس وقد وقفت في وسط الهلال . هذه العلاقات ليست بطبيعة الحال منطقية . غير أن العقل البشري استحدثها قبل تطور التفكير الجدي للنظم والتماثل بينها أشبه بتماثل أجزاء الأحلام .

ومن دون هذه المجموعة الثلاثية توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضاً ، وهي آلهة شريرة ، منها أنوبيس الذي له رأس كلب ، والليل الأسود وما مثلها ، وهـ ، أرباب قتلهم وتشرى وتماذى الإنسان والرب على السواء .

وغنى عن البيان أن كل نظام ديني كان يوفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية ، ولا شك أن الشعب المصري استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يثبت فيها عداق عبادته ويمتس فيها المزايا والتلوى . وكانت الرغبة في الخلاود قوية جداً في العقل المصري ، حتى لقد جعلوها محوراً لحياهم الدينية نظاماً للضريبة ديانة خلود بصورة لم تشأ لأية ديانة أخرى في أي عصر من العصور ، قلباً لمحض مصر للأعماح الأجنبي ، وولت عن الآلهة المصرية كل أهمية مناسية منسية ، اعتدلتها تلك الحنين إلى حياة الجزاء في الدار الآخرة .

وبعد الفتح الإغريق ، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً لحياة مصر الدينية بل أصبحت في الحق مركز الحياة الدينية للعالم المملوك كافة . فأقام بطليموس الأول معبداً عظيماً هو معبد السرايوم ، كان يصد فيه نوع ما من ثلوث من الأرباب ، مكون من سيرابيس وإيزيس وحوروس . والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس أييس . ولم يكن الناس يعدونها أرباباً منفصلة ، بل هيئات ثلاث لإله واحد ؛ ثم ذهبوا إلى أن سيرابيس هو زيوس الإغريق ، وأنه جويتر (أى للشترى) الرومان وإله الشمس الفارسي ، وانتشرت هذه العبادة حيثما بسط النفوذ المملوكي الوتة ، حتى لقد بلغ شمال الهند وغرب الصين . ولا يجب أن تسود ففكرة الخلود ، خلود الثروة والسوى ، وأن يتلقفها بشوق عالم كانت فيه حياة الناس الماديين في تمس بمعلم كل رجاء . وكان سيرابيس يسمى « علس النفوس » ، ولو تأملت ترايل ذلك الزمان لوجنتها تقول : « لن نبرح بعد الموت في ظلال عنايته الربانية » أما إيزيس فكانت تجذب إليها كثيراً من الأنفس للتبعية القاتلة . وتمايلها القامة في معابدها كانت تمثلها في صورة ربة السماء وهي تحمل بين ذراعيها طفلها حوروس . وكانت الشموع توقد أمامها ، كما كانت النذور تخدم إليها ، على حين أن الكهان الحليقين الناذرين أنفسهم المزودة كانوا يقومون على خدمة هيكلها .

أفضى قيام الإمبراطورية الرومانية إلى فتح أبواب عالم أوروبا الغربية لهذه العقيدة النابية . ومن ثم رحمت معابد سيرابيس وإيزيس ، وترايل الكهان والأمل في حياة الخلود خطى الأعلام الرومانية إلى اسكتلندة وهولندة . على أن منافى ديانة سيرابيس وإيزيس كانوا كثيرين . ومن أبرز هؤلاء المنافسين الديانة للتراثية . وهي ديانة ذات أرومة لازمية ، وتتمركز حول خفايا نسيت اليوم ، مدارها مثراً وهو يضحي بسجل مقدس عجب للخير ، وكأنى هنا أرى شيئاً بدايلاً جداً وأقدم كثيراً من معتقدات سيرابيس وإيزيس للخدمة للبطنة . فنعن هنا نذكر راجسين مباشرة إلى عهد القرايين العموية لمرحلة العصر الشمسى الجبرى من الثقافة البشرية . والسجل الرسوم على الآثار الليثائية يبرهن بآلة شوازة من عرج في جنبه ، ومن هذا الدم تنبع الحياة الجديدة . وكان من يتقطع لحيطة مثابة فيسبحم ضلالي دم السجل الضحية . فإذا حل يوم انقراضه في العهد دخل تحت نقالة يدع عليها عجل ليسيل عليه الدم ضللاً .

وكل من هاتين العقيدتين ديانة شخصية : وهو قول يصدق على كثير من العقائد المديدة للتألف التي كانت تنفذ ولاء الأرقاء والمواطنين في عهد أباطرة الرومان الأواخر . وهى شخصية لأنها تهدف إلى الخلاص الشخصى والخلود الشخصى . ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هذا النحو ، بل كانت اجتماعية . والأصل فى الطراز القديم للمعبود أن يكون ربا أو ربة للمدينة أو للدولة أولا ، ولم يكن إلهاً للفرد إلا فى الحبل الثانى . وكان تقديم القرابين وطيلة عامة لا خاصة . ذلك أنها تنصّل بالحاجات العملية للجماعة فى هذا العالم الذى نعيش فيه . ولكن الإغريق ومن ورأهم الرومان قد أبعدوا الديانة عن مجال السياسة . فالديانة قد انسحبت إلى العالم الآخر تفودها التقاليد المصرية .

واستطاعت ديانات الخلود الفردى هذه أن تسلب من الديانات القديمة التاجية للدولة كل ما تخشونه من عزم وعاطفة ، يد أنها لم تحل محلها فضلا . والمدينة الفؤذجية فى عهد أباطرة الرومان الأول هى التى كانت تجوى عدداً من المبادئ المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة . وربما وجدت بها مبعداً لجوبيتر [المنترى] الكاينولى رب روما العظيم ، وربما وجدت هناك أيضاً مبعداً آخر للقيصر المترج على العرش .

ذلك أن القياسرة تعلموا من الفرائضة أن الألوهية شىء ممكن . وكانت تقام فى مثل هذه المبادئ عبادات ذات طابع سياسى نفحة المظهر ولكن لا روح فيها ، وهناك كان الناس يذبلون ليقدموا الدبايح ، ويحرقون خبثا من البخور ليظهروا ولاءهم لقيصر . ولكن مبعداً لزيوس ملكة السماء العززة ، هو الذى تهووا إلى القلوب ، وتسمى أقدام كل فرد منهم التؤاد بالتعاب ، ينعد الصيحة وتخرج الكرب ، وربما وجدت آلهة محلية ذات طابع شائنة . فإن مدينة إغيليا طلت زمنامهداً تبعد « الزهرة » ربة القراطيين القديمة . وربما وجدت فى هذا الكهف أو المبد المقام تحت الأرض هيكلانثرا ، يقوم على خدمته الجند والأرقاء . وربما وجدت أيضاً بيعة يجتمع فيها اليهود ليقروا توراتهم وليشيدوا من اعتقادهم فى الرب غير للنظور لهذا العالم بأجمعه . وقد يحدث الخلاف أحيانا مع اليهود من جراء الجانب السياسى من عقيدة الدولة . ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ربهم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان ، ولهم لأبرون أن يشتركوا فى القرابين العامة التى تقدم

لقصير . وإنهم ليرفضون حتى أن يحيا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوى ذلك على عبادة الأوثان .

وهناك في بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبل عهد بوذا بزمن مديد ، وهم رجال ونساء انصرفوا عن معظم ملذات الحياة وينفذوا الزواج واللكمية ، والتجسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والألم والوحدة . ولعلكم تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف في الزهادة ، ولكن ذلك لم يمنع كثيراً من تلاميذه من أن يعيشوا عيش رهبة مغمم في الشظف . وثمة العقائد الإغريقية الخفية التي كانت لها أنظمة شبيهة بهذه ربما غلت إلى حد التشكيل بالنفس . وعُهر الزهد بين المجتمعات اليهودية في يهوذا والإسكندرية في القرن الأول ق . م ، أيضاً . فكانت جماعات من الناس تتخلى عن العالم وتستسلم للتقشفات والتأملات الصوفية . ومن هؤلاء طائفة الإسينيين^(١) . وانصرف القرنان الأول والثاني الميلاديان والعالم كله غارقاً أوبكاد في نزوعه إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة ، بمن في نشدائه العام « لختلاس » من عن الزمان . فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة القديمة في القسيس واللبد والقانون والعرف .

وفي هذا الجو الذي يعمه الرق والقساوة والحوف والقلق والتبديد والتظاهر بالمظاهر والتهافت على إصباح اللذات ، كان ينتشر في الناس هذا الوباء وباء الاشمئزاز الذاتي وعدم الاطمئنان العقلي ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتباس الأليم للسلام وإن نالوه مقابل التخلي عن الدنيا والسكابة الإرادية للآلام . تلك هي الحال التي طالما ملأت السرايوم بالادمين والباكين واجتلبت للؤمنين إلى ظلة الكهف ودمائه الدافقة .

(١) الإسينيون (Essenes) هيئة من الزهاد اليهود يسلمعين قبل ظهور المسيحية ، نظروا حياتهم على قواعد تماثل قواعد عيش الرهبنة التي ظهرت فيما بعد ومارسوا طريقة للفاخرة في السلم . وقد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وغيرهم . [للترجم]

الفصل السابع والثلاثون

تعاليم يسوع

ولد يسوع مسيح النصرانية في يهوذا ، إبان حكم أوغسطس قيصر أول قيصرية روما . وبإساعه نشأ دين قدر له أن يصبح الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية بأجمعها .

وعندى أنه من الأوفق بصورة إجمالية أن تباعد بين اللاهوت والتاريخ . فإن خطراً عظيماً من العالم للسيخى يتخذ أن عيسى كان الصورة الجسدية لذلك الإله رب العالم أجمع الذى كان اليهود أول من عرفه . وللزورخ لا يستطيع - إن هو شاء أن يحتفظ بصفته تلك - أن يقبل ذلك التأويل أو ينكره . كان عيسى يبدو من الناحية اللادية فى صورة إنسان ، ولذا وجب على للزورخ أن يتناولوه بوصفه إنساناً .

ظهر فى يهوذا أثناء حكم تيربوس قيصر . كان نبياً ؛ يشر على طريقة من سبقوه من أنبياء اليهود . كان عمره يناهز الثلاثين ، أما منوال حياته قبل أن بدأ التبشير برسائله فذلك أمر مجهول جهلاً تاماً .

فليس لدينا مصدر مباشر للعلم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة . وكلها تجمع على إعطائنا صورة لشخصية قوية التعديد ، لا يسع للرد منا إلا أن يقول : « لاشك أن بين أيدينا إنساناً ، وليس فى الإنسان أن يكون خبره هذا مقتلاً » .

ولكنك تكاد تحس أنه كما أن شخصية جوتاما بوذا قد عووها وأخفاها ذلك التمثال الجامد الجالس الترفء ، صنم البوذية للتأخرة للذهب ، فكذلك شخصية يسوع النجبة الدروب المبهدة قد أضربها كثيراً جو تقليدى لا يمت إلى الحقيقة بسبب ، فرضه على شخصه فى الفن السيخى الحديث توفير خاطئ . كان يسوع تعالماً بعدما ، يتجول فى أرجاء بلاد يهوذا للتربة تحت لمحات الشمس الحارقة ، ويجيق على مياتاقى

من هبات عارضة من الطعام ، ومع هذا فإن ذلك الذين يثقل على الدوام نظيفا عشط
الشعر وضاء الحيات نقي الثياب منتصب القائمة ، وحواله جو هينولى ساكن لا يتحرك كأنما
هو مؤثاق على أجنحة الأثير : وهذا الأمر وحده هو الذى جعله يدو هينئا خياليا غير
حقيقى فى عين كثير من الناس ممن لا يستطيعون أن يميزوا لباب القصة من زخرف
الإضافات الزائفة الحرفاء التى ضمنها إليها القاتلون الجبهة .

وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات المسيرة ، بقينا وجها لوجه أمام
صورة إنسان كامل الإنسانية جداً ، جاد جداً وعاطفى معرض للتغضب السريع ، وهو
يعلم الناس مبدأ جديداً بسيطاً عميقاً : - هو أبوة الرب المحبة الشاملة وظهور ملكوت
السموات . وواضح أنه كان شخصاً ذا جاذبية شخصية حادة - إن جاز لنا أن نستعمل
هذا التعبير العادى فإنه كان يجتذب إليه الأتباع ويملا قلوبهم محبة وشجاعة . وكان
وجوده يشد من عزم الضعفاء والمرضى ويشفيهم ومع ذلك فإنه كان ذا بنية ضئيلة ،
وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صلبه . إذ يروى أنه أخفى عليه عندما كلف كما
جرت بذلك العادة ، بحمل صلبه إلى مكان التنفيذ . ظل يتجول فى البلاد نحو ثلاث
سنوات وهو ينتشر مبادئه ويهبط أورشليم ، واتهم بمحاولة إقامة مملكة ضئيلة فى يهوذا
فحكى بهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان من صلب
كان قد أسلم الروح .

ولا شك أن مذهب ملكوت السموات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد
المذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى فى جميع العصور . فلامعجب إذن أن فات
عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل ، وأن يتكلم على عقبيه فزعا من أى فهم
- مهما دق - لتحدياتها الهائلة لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن مذهب
ملكوت السموات كما يلوح أن يسوع كان يظنه للناس ، لم يكن إلا طابجر ثبات لاتصالح
فيه يطالب بتغيير كامل وتطوير تام لحياة جنسنا المكافح . تطوير مطلق من الداخل
والخارج على السواء .

وعلى القارئ أن يلبأ إلى الأناجيل الخماسا لبقية الباقية من تلك الفكرة الهائلة ؛
فكل ما يهتمنا فى هذا المقام إنما هو الهزة التى أحدثها اصطدامها بالفكرات المستقرة القديمة .

كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم أجمع ، كان رب بر وصلاح ، ولكنهم كانوا يقولون أيضاً بأنه رب تاجر ، أتم في شأنهم صفقة مع أبيهم إبراهيم ، صفقة رابحة جداً لصالحهم والحق يقال ، يتخذ بها أن يرتفع بهم في النهاية إلى السيادة على الأرض ٢١١. فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع وهو يعلم أمامهم تقيس ضماناتهم . ذلك أنه راح يعلم الناس أن الله ليس صاحب صفقات ، وأن ليس هناك شعب مختار ولا قوم يتألون الخطوة في مملكة السماوات ، وأن الله هو الأب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماماً لا يستطيع أن يجبر أحد آدون غيره بخطوة ، وأن الناس جميعاً أخوة — كلهم خاطيء مذنب ، وكلهم ابن محبوب فذلك الأب الإلهي ، وأن يسوع ليصب في قصة السامري الطيب جام سخرته على ذلك الميل الطبيعي الذي نخضع له جميعاً ، وهو تمجيدنا لقومنا والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى من البر . ثم إنه في قصة العمال ينبذ ظهرياً ادعاء اليهود الشديد في أن لهم على الله حقاً معينا . وعلم الناس أن كل من أخذه الله في الملكوت ، جاء برعاية واحدة لا تفرق فيها ، فالله لا يفرق تمييزاً في معاملته لعباده ، إذ لا أحد لطيبته وفضله . وهو يتطلب من الجميع قصارام كما يتجلى ذلك في أمثلة العملة المدفونة ، وكما نرزه حادثة فلسي الارملة . وليس في ملكوت السموات امتيازات ، ولا تخفيض مالى ولا معاذير :

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنية اليهود القبلية الحادة — وم كما هو معلوم شعب ذو ولاء قبلي قوى — على حين راح يسوع يزعج كل عاطفة قبلية ضيقة تتطوى على التحديد في ذلك الفيضان العظيم : فيضان حب الله . إذ لا بد لمملكة السماء بأكلها أن تشمل عائلة أتباعه . والإنجيل يحدثنا أن « فيها هو يكلم الجوع إذ أنه وإخوته قد وقفوا خارجين طالعين أن يكلموه . فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالعين أن يكلموك . فأجاب وقال لقاتل له ، من هي أمي ومن هم إخوتي . ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي وإخوتي ، لأن من صنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي » (١)

ولم يكتف يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنية ، وإلى روابط الولاء القبل باسم أبوة الله الجامعة وأخوة البشر جميعاً ، بل كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادي من تدرج ، وعتق كل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية . ذلك أن الناس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ، وأن ممتلكاتهم جميعاً تنتمى إلى الملكوت ، وأن الحياة البرية للناس جميعاً ، الحياة البرية الوحيدة ، إنما تقوم في خدمة إرادة الله بكل ما تملك ، وبكل أقدتنا . وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ، ركض واحد وجثا له ، وسأله : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً ليس أحداً صالحاً إلا الواحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا : لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أنكرم أباك وأماك . فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثي . فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يجوز لك شيء واحد ، اذهب بيع كل مالك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز في السماء ، وتعال اتبعني حاملاً الصليب . فاعثم على الفور ومضى حزناً لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ! فتعير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم : يا بني ، ما أعسر دخول التكليين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من قعب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله ^(١) . »

وفضلاً عن ذلك ، فإن يسوع قد ضاق بما للديانة الرسمية من برقاظم على السماوات ، وذلك بسبب نبوءته المائنة بذلك الملكوت الذي يحد فيه الناس جميعاً في ذات الله . ثم إن شطراً عظيماً مما سجل من أحاديثه موجه إلى المبالغة الشديدة في الأخذ بأصول التقوى وحياة التقى . « ثم سأله التلاميذ والكتبة لماذا لا يملك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيديهم غير مفضولة ؟ . فأجاب وقال لهم حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنهم للرأيين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فيتعد عن بيده . وباطلا

يعبدونى وم يملون تعاليمى وصايا الناس : لا أنكم تركتم وصية الله وتمسكون بتقليد الناس . فسل الأتاريق والكؤوس وأمور أخر كثيرة مثل هذه تعلمون . ثم قال لهم حسناً رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم » . (١) .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة خلقية أو اجتماعية ؛ بل إن هناك عشرات الشواهد التى تدل بجلالة أن تعاليمه كانت تتطوى على لمسة سياسية من أبسط الأنواع . حقاً إنه قال إن مملكته لا تنتمى إلى هذا العالم ، وأن مكاتها فى قلوب الرجال وليس عرشاً من العروش ؛ ولكن لا يقل عن ذلك وضوحاً أنه حيناً قامت مملكته من قلوب الناس ومهما يكن مقدارها فى تلك القلوب ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويم به الانقلاب بنفس النسبة .

ومهما يكن ماقلت سامعيه من أقواله الأخرى بسبت حمايتهم أو صميمهم ، فمن الجلى أنهم لم يهتم بتصميمه على إحداث انقلاب فى العالم . فإن اتجاه المعارضة التى لقيها والظروف التى أحاطت بمعاركته وإعدامه ، تدل بأجلى بيان أن معاصره كانوا يرون فيه صورة من يقترح صراحاً ، بل يرون أنه اقترح صراحاً — تغيير الحياة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحررها .

وإذا راعينا ماقله صراحاً ، لم نجد غرابة أن يشعر كل غنى وكل موفق وغيد الحال بشعور الرعب من التعاليم الجديدة الثرية ، ويحس أن حاله يدور به بسبب هذه التعاليم . ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مدخراتهم التى جمعوها عن طريق الخدمة فى المجتمع ليصبه فى خضم حياة دينية جامعة . كان أشبه الناس بصائد خلقى رهيب يستخرج البضيرة من القبور القديمة الوادعة التى كانت تعيش فيها حتى حين ، ولم يكن يجوز أن يختوى الضياء الوهاج للمكوتة على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسبقية ولم يكن هناك فى الواقع أى حافظ ولا مشوبة إلا الهبة . أفصيب إذن أن تنبهر عيون الناس وأن تتخلف أبصارهم وأن يتصامروا به ؟ حتى لقد بلغ الأمر أن تصاحج تلاميذه أنفسهم عندما لم يقبل أن يفهم من يضر الضياء ، أهيب إذن أن يترك الكهنة أنه ليس بينهم وبين ذلك الرجل خيار ، فلما أن يهلك هو أو تهلك الكهنة ؟ أهيب إذن أن

يلجأ الجند الرومان وقد واجههم وأذهلهم ذلك الشيء الذى يخلق فى الأجواء فوق أفهامهم ويهدد جميع أنظمتهم — أقول يلجأون إلى الضحك الضارى يتوارون وراءه ، وأن يتوجوه بتاج من الأشواك وأن يلبسوه اللون الأرجوانى ويتخذوا منه قمصرا هزوا ! ذلك أن أخذه مأخذ الجسد كان معناه الدخول فى حياة غريبة مزعجة ، والتخلى عن مألوف العادة ، وضبط الفرائز والدوافع ، وتجربة ضرب من معادة لم تخطر لهم على بال .

الحصل الثامن والثلاثون

تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الأناجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعاليمه ، ولم نشر إلا على النزر اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية . على أن الرسائل ، وهى سلسلة من الكتابات سطرها أتباع عيسى للباشرون ، هى التى بسطت فيها الخطوط العريضة للعقيدة المسيحية .

وكان القديس بولس من أعظم من أنشأوا للذهب للمسيح . وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يشرح الناس . وكان اسم بولس فى الأصل شاؤول ، وكان فى بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لثة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه لخمه بولس . وآى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام والحمية لحركات زمانه الدينية . فقرأ على علم عظيم باليهودية وللإيرانية وديانة ذلك الزمان التى تمتعها الإسكندرية . فنقل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يأت إلا بالقليل فى توصيف أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعطى بها فكرة « ملصكوت السموات » ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح للوعود لحسب ، ولا زعيم اليهود للوعود فقط ، بل إن موته كان تضحية - مثل ممات الضحايا القديمة للقرية إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية - من أجل خلاص البشرية .

وعندما تزدهر المذاهب إتجهوا إلى جوار الأخرى فنزع إلى التقاط طقوس بعضها بشأاً وغيرها من الحواص الخارجية . مثال ذلك أن البوذية فى بلاد الصين تملك اليوم نفس نوع المابد والكهان والأرف التى لتناوية ، التى تتبع تعاليم لاهوتسى . ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية لبوذية والتاوية متضادة على خط مستقيم تقريباً .

وليس مما يشين المسيحية أو يبعث الشك فى تعاليمها الجوهرية أنها استعارت أشياء شكلية كالقسيبتن الحليق وتقديم الزور والمباكل والشموع والترتيل والتماثيل

التي كانت لعقائد مثراس والإسكندرية ، بل تبنت أيضاً حتى عباراتها في عقائدها وأفكارها اللاهوتية ، ذلك أن هذه الديانات كانت جميعاً تزدهر إلى جوار كثير من العقائد الأقل أهمية ، وكانت كل واحدة منها تلتهم الأنصار ، ولابد أن اللتقين لها كانوا ينتقلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى ، وربما حظيت إحداها أو الأخرى يوماً بالحظوة لدى الحكومة ، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثر من منافساتها ، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يأبون أن يعبدوا القصر الرب . من أجل ذلك اعتبرت ديناً يدعو إلى التمرد والفتنة ، وذلك فضلاً عن الروح الثورية التي تنبأها ، تعاليم يسوع نفسه .

: وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الداهية إلى أن شأن عيسى كشأن « أوزيريس » : كان زبامات ليث حياً ولينح الناس الخلود ، وسرعان ما مزقت المنازعات اللاهوتية المعقدة المجتمع المسيحي كل ممزق ، والعقيدة بدت في طور الانتشار ، فاستمرت الخلافات حول علاقة هذا الرب يسوع « بالله » أبي البشرية . فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله ، غير أنه متميز عن الآب وأدنى منه مرتبة . وعلم أتباع ساييلوس^(١) أن يسوع لم يكن إلا مجرد أفنوم من أفانيم الآب ، وأن الله هو يسوع والآب في الوقت نفسه ، مثلاً يمكن أن يكون الرجل والها وصاناً في نفس الوقت ؛ وارتأى الثالوثيون مذهباً أكثر دقة وغموضاً يقول بأن الله واحد وثلاثة في وقت معاً ، وأنه آب وابن وروح قدس .

واقضى ربح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيلغز بالنصر على منافسيه ، ثم حدثت منازعات ، وثارت مشاحنات عنيفة ، ونشبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقول لدى العالم المسيحي بأكمله . ومن ثمكن الثور على ذلك البدأ في أتم صورة في عقيدة القديس اتناسيوس .

ولن ندلي هنا بأي تحقيق على هذه الخصومات ، فهي لا تؤثر في التاريخ أو تعاليم يسوع الشخصية . إذ يلوح عموماً أن تعاليم عيسى الشخصية تؤخذ بطور جديد في حياة جنسنا الحلقية والروحية . فإن إصرارها على أبوة الله الشاملة ، وعلى قيام أخوة ضمنية

(١) أسقف أريز في منتصف القرن الثالث للميلاد [للترجم]

بين الناس جميعاً ، وإصرارها على قداثة كل شخصية إنسانية بوصفها مبعداً حياً لله .
أمور كتب أن يكون لها أعق الأثر في كل ما عقب ذلك من حياة البشرية ، من
الوحياتين السايخية والاجتماعية . فقد ظهر في العالم معنى للسعي وانتشار تعاليم
يسوع احترام جديد لشخصية الإنسان في حد ذاته . أجل ربما صح أن القديس بولس
كان يعلم السيد الطاعة ، كما كان يدفع بذلك بعض نقاد السعي للعادين ، ولكن
يعدل ذلك في صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها ، كما تحفظها لنا الأناجيل تناهض
إذلال الإنسان للإنسان . هذا إلى أن السعي عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة
الإنسانية الذي يحدث في مثل مصارعات المهادين^(١) في المجهل .

انتشرت تعاليم الحياة للسعي في كل أرجاء الامبراطورية الرومانية إبان القرنين
الذين عقبا ميلاد المسيح ، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المنتصرين لا يربح
يزداد في كل آن ، وتخلق منه مجتمعاً مرتبطاً بأواصر الفسكات والإرادة . واختلف
موقف الأباطرة منها ، فمنهم من عادها ، ومنهم من تسامح معها ، وبذلك في كل من القرنين
الأول والثاني محاولات لقضاء على هذه العقيدة ، وانتهى الأمر في ٣٠٣ وما عقبا من
أعوام أن أزل بها الامبراطور دقلديانوس اضطهاداً عظيماً ، فصدورت أملاك الكنيسة
الضخمة وجميع الكتب المقدسة والكتابات الدينية ثم دمرت ، وأهدرت دماء السعيين
على أنهم خارجون على القانون ، وأعدم كثير منهم .

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص ، فهو يبين كيف عرفت
السلطات قدرة الكلام للكتب على ربط أتباع العقيدة الجديدة معاً ، وكانت « عقائد
الكتب » هذه للسعي واليهودية ، دياناً تعلم الناس ، وكان استمرار بقائها يتمدد
إلى حد كبير على قدرة الناس على قراءة أفكارها للذهنية وتفهمها ، ولم تكن البيانات
الآدم مهبطاً ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد ، حتى إذا أقبلت عصور القوضى
البربرية التي أخذت طلباتها تنفى أوربا آنذاك ، كانت الكنيسة السعيية هي الوسيلة
الفعالة في المحافظة على التراث السلي .

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلاً تاماً في القضاء على المهنع المسحي الناس ، وكان

(١) المهادين Gladiaton : موسمارع يحترف بروما القديمة يتصارع مع الرجال أو الحيوانات
في المجهل ، وهو الجزء المخصص للمصارعات من المدرج القديم وهو مفروش بالرمال ليصطح فيه
الرجال للترجم

عديم الأثر في كثير من الولايات ، وذلك لأن كثرة السكان وكثيراً من اللوطنيين كانوا من المسيحيين . ثم صدر في ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الصريك^(١) . وفي ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الروماني ، وهو صديق للمسيحية . كما أنه اعتنقها حين عهد وهو على فراش موته . فتخلّى عن كل مدعياته في الألوهية ، ووضع شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم ...

ولم تمضِ بضعة سنوات حتى توطدت قدم للمسيحية وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية . أما الأديان المنافسة لها فقد اختفت أو اندمجت في غيرها بسرعة خارقة ، وفي ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بتدمير تمثال جوبيتر سرايسس بالإسكندرية . ولم يعد هناك كهنة ولا معابد في الإمبراطورية الرومانية إلا كهنة للمسيحية ومعابدها ، منذ بداية القرن الخامس الميلادي فصاعداً .

(١) أصرحه منه دقلديانوس في المسك في ٣٠٥ ، وجهه فيصرا على *Illyricum* والأقاليم البانونية . وانقرض بحكم الإمبراطورية الصربية في ٣٠٥ عند تنزّل دقلديانوس [للتاريخ]

الفصل التاسع والثلاثون

البرابرة يشطرون الامبراطورية

إلى شطرين: شرقي وغربي

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادي ، وهي تضمحل اجتماعياً وتتحل خلقياً . وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين ، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحت تثقل حسيباً فتتضيق ضرورات سياستهم الحربية . فتكون القيادة الإمبراطورية في ميلانو آنأ ، وأنا آخر فبا يسمى الآن ييلاد الصرب بمدينة سيرميوم أونيش ، أو تكون بيقوميديا^(١) إحدى مدن آسيا الصغرى . ذلك أن مدينة روما الواقعة في منتصف شبه الجزيرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لا تصلح أن تكون قسبة ملائمة للامبراطورية ، ولذا أخذوا الضمحلل يلب إليها .

أجل لم يبرح السلام يرفرف على معظم أجزاء الإمبراطورية ، وكان الناس يتنهلون في ربوعها دون حاجة إلى حمل سلاح . كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحده ؛ ولكن الأباطرة الذين كانوا يعتمدون على كتائبهم ما اتسكروا يزدادون استبداداً يبقية أجزاء الإمبراطورية وتزداد دولتهم في كل آن شهاً بؤلة الفرس وغيرهم من ملوك الشرق . حتى لقد بلغ الأمر بقليديانوس أن اتخذ لنفسه تاجاً ملكياً وارثدى ثياباً شرقية .

وفي إبان ذلك كان أعداء الإمبراطورية يشغنون بشدة على امتداد حدودها بأكلها ، وكانت الحدود تمتد على طول نهري الرين والدنوب بوجه التقريب . فإن

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطئ بحر مرمرة ومكانها . لم يمتد الصغرى . [للتعرج]

الفرجة وغيرهم من القبائل الجرمانية قد تقدموا حتى نهر الرين ، واحتل الوندال شمال بلاد الجبر ؛ بينما نزل القوط الغربيون فيما كان يسمى آنذاك باسم « داكيا » التي هي رومانيا الحالية . ومن وراء هؤلاء بجنوب روسيا استقر القوط الشرقيون ، بينما حل من ورأيهم الألمان (Alans) بإقليم القوقاز ، وليت الأمر اقتصر على هؤلاء ، فإن الشعوب اللغوية كانت تشق آنذاك طريقها شقاً نحو أوروبا . وكان الهون يفرضون الجزية وقتل على الألمان والقوط الشرقيين ويدفعونهما غرباً .

أما في آسيا فإن التخم الرومانية أخذت تتصدع وتراجع بضغط دولة فارسية ندية ناهضة . وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه ، التي أقام دعائها ملوك بني ساسان ، أن تصبح منافساً قوياً عجبوا بالنجاح في جملة الأمر ، وخصها لهوداً بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية .

ولو أن القارئ ألقي نظرة على خريطة أوروبا لأدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية . فإن نهر الدانوب يتحول مجراه حتى يصبح على بعد لا يتجاوز مائتي ميل من البحر الأدرياتي بالمنطقة التي يسمونها اليوم باسم إقليم الصرب والبوسنة . وهناك ينحرف شرقاً محدثاً زاوية قائمة منكمسة .

ولم يكن الرومان يهتمون بالمحافظة على مواصلاتهم البحرية وحسن نظامها ، ولذا كانت هذه السلعة الضيقة من الأرض التي لا تتجاوز المائة ميل خط مواصلاتهم الوحيد بين شطر إمبراطوريتهم الغربية الناطق باللاتينية والشرق الناطق باليونانية ، وكان ضغط البرابرة أعظم ما يكون في تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب . حتى إذا اخترقوها أصبح انقسام الإمبراطورية إلى شطرين أصحأً لا مفر منه .

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأساً لرحلت أماما واستردت مقاطعة « داكيا » ولكن تلك الإمبراطورية كانت تعوزها مثل تلك الشكبة القوة ..

ومن المحقق أن قسطنطين الأكبر كان يعاني شديداً الإخلاص والذكاء ، فقد غارة للقوط جاءت من تلك الناطق البلقانية الحيوية نفسها ، ولكنه لم يملك من القوة

السكرية مايتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب . كما أنه شديد الانشغال بضعف الإمبراطورية الداخلى وإصلاح عيوبها . فلبأ إلى ما للمسيحية من قوة تماسك وروح معنوية راجيا أن يبعث بهما روح الإمبراطورية للتداعية ، كما قرر أن ينشئ لها عاصمة جديدة دائمة مقرها يزنطة على مضيق البوسفور . وراح يبدى بناء المدينة من جديد ، ويطلق عليها اسما جديداً هو القسطنطينية تيمناً باسمه ، ولكنه قضى نحيبه قبل أن يتم عمله .

وحدثت في آخر أيام هذا العاهل صفة عجيبة ، فإن القوط منغطوا على الوندال فلبأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتمسون قبولهم بها ، فلتخوا بعض الأراضي في باثونيا ، التي هي اليوم شطر بلاد المجر الواقع غرب نهر الدانوب ، وأصبح مقاتلتهم في مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور إسميا . على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصليين ، ولذا فشلت روما في هضمهم .

مات قسطنطين وهو مكب على إعادة تنظيم مملكته ، وسرعان ما اخترق القوط النريون حدودها وتقدموا حتى أوغسكوا أن يلبثوا القسطنطينية ، فهزموا الإمبراطور فالتر عند أدره ، ثم عقدوا قسوة استقروا بها بمنطقة بلغاريا الحالية مثلاً استقر الوندال في باثونيا . وبهذه التسوية صاروا رعاء للإمبراطور بالاسم فقط ، ولكنهم في الواقع غزاة فاعهون .

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر (٣٧٩ - ٣٩٥) ، ظلت الإمبراطورية متماسكة من الناحية الشكلية . وكانت جيوش إيطاليا وپاثونيا تحت قيادة اسيليكو الوندالى ، بينما كان على رأس جيوش جزيرة البلقان ألالريك وهو من القوط . ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع ترك من ورائه ولدين . فانصرا ألالريك أحدهما وهو (أركادبوس) بالقسطنطينية ، وظاهر اسيليكو أخاه الآخر (هونوريوس) بإيطاليا ، ومعنى ذلك عبارة أخرى أن ألالريك ومنافسه اسيليكو اقتتلا على الإمبراطورية متخذين من الأميرين العلوية في أيديهما ، وفي غضون ذلك الحفكاف ، زحف ألالريك على إيطاليا ، واستولى على روما بعد حصار قصير (٤١٠ م)

شهد النصف الأول من القرن الخامس وقوع الإمبراطورية بأكملها بين براثن جيوش من اللصوص أو البرابرة . ويكاد يسر علينا تصور صورة حقة لأحوال العالم إبان تلك الفترة . فاللذن العظيمة التي ازدهرت في ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وشبه جزيرة البلقان لم تزل قائمة عند ذاك ، ولكن الفقر عضها بنابه وهجرها سكانها وعدت عليها عوادي الاضمحلال . ولا بد أن الحياة بهما قد أصبحت سطحية منحلة مفعمة بدم الاطمئنان إلى المستقبل ، كما أنه لا شك أن للوطنين المحليين ظلوا يظهرون سلطانهم ويواصلون أعمالهم كل حسب ما أوتى من ضمير ، وذلك بإسم الإمبراطور الذي أصبح عندئذ بعيداً أعظم البعد ولا سبيل إلى الوصول إليه . وواصلت الكنائس عملها ولكن على يد قساوسة معظمهم في العادة من الأميين . وقل القراء والقراءات وانتشرت الحرافات واستبدت بالناس المخاوف . ولكن الكتب والتماثيل والصور وما ماثلها من إنتاج فني لم تبرح موجودة في كل مكان ، اللهم إلا حيث دمرها الناهيون والفتدون .

دب الانحلال أيضاً في حياة الريف . فزایل الخير وحسن الشكل كل أصفاع ذلك العالم الروماني . فيض للناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى يباب مقفر . وعاث اللصوص في الطرق والغابات فساداً . وتقدم البرابرة إلى تلك للناطق وهي على ذلك الحال ، فلم يلقوا مقاومة تذكر ونصبوا رؤساءهم حكاماً عليها ، وأطلقوا عليهم في كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين ، منحوا الجبهات التي يحتلونها شروطاً معقولة ، فيمتلكون للذن ، ويختلطون بأهلها ويتزوجون منهم ويتطون اللسان اللاتيني ينطقونه بنبهة خاصة ؛ على أن الجوت والأنجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعباً زراعين ، لاجابة بهم إلى اللذن ، ويلوح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان المصطبطين بالصبغة الرومانية ، واستبدلوا بلفة أولئك السكان لهجاتهم التيوتونية التي أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر .

ومن الحال علينا أن ترسم في هذا الحال الضيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة وهي تزوج وتندو في هذه الإمبراطورية المتهلكة النظام بحثاً عن الأسلاب والتنائم والتأسأ لموطن جميل تستقر فيه . على أننا نستخذ من

الوندال مثلاً. نسوقه إليك . فأتهم ظهروا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية ، واستقروا كما أسلفنا في باثونيا . ومنها انتقلوا إلى أسبانيا حوالي ٤٢٥ م محترقين الولايات التي تقع في طريقهم . فوجدوا بأسبانيا القوط الغربيين الوافدين من جنوب روسيا ، كما وجدوا قبائل ألمانية أخرى نصبت عليها اللوك والأدواق .

وأبحر الوندال من أسبانيا إلى شمال إفريقيا (٤٢٩) بقيادة جيسريك . واستولوا على قرطاجنة (٤٤٩) ، وأنشأوا أسطولا ، ومالبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية ثم استولوا على روما وانهبوها (٤٥٥) ، ولما تنهض بعد من كيوتها تماماً بعد الفتي أصابها من عدوان ونهب على يد الأاريك قبل ذلك بنصف قرن ، ثم راح الوندال يسيطون سيادتهم على قورسقية وصقلية وسردينية ومعظم جزائر البحر المتوسط الغربي . الواقع أنهم أنشأوا دولة بحرية شديدة المائلة في سعتها ورقعتها بإمبراطورية قرطاجنة البحرية قبل ذلك بسبعائة عام على وجه التقريب . وبلغت دولتهم ذروة زفقتها حوالي ٤٧٧ . ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه . ولكن لم ينصرم القرن التالي حتى استردت القسطنطينية جمع أقطار دولتهم تخريباً إبان نهضة مؤقتة في عهد جستنيان الأول .

وليست قصة الوندال إلا مثلاً واحداً من الغامرات للمائة . ولكن هاقد أقبلت إلى العالم الأوربي جحافل أبعد ما تكون شها بهؤلاء العاشين وأبست العرب في القلوب: المحون للقولون أو التتار ، وهم حسب أصغر ملء بالنشاط والاعتدار ، بصورة لم يلتق العالم الغربي بمثله قبل ذلك أبداً .

الفصل الأربعون

المون ونهاية الامبراطورية الغربية

ربما جاز لنا أن نعد ظهور هذا الشعب للقولى في أوروبا مؤذنا يده مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . ذلك أن الصلة بين الشعوب للقولى والنوردية لم تكن وثيقة إلى ما قبل الحقبة للمسيحية بحوالى قرن من الزمان . أجل إنه حدث في الأراضي المتجمدة البعيدة الواقعة وراء مناطق الغابات ، أن اللاتين (أهل لابلند) وم شعب منولى - انتقلوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر (لابلند) ، ولكنهم لم يلعبوا أى دور في مجرى التاريخ الرئيسى . كما أنه حدث أن العالم الغربى ظل آلافا من السنين مسرحا لتفاعلات الأخاذة بين الشعوب الآرية والسامية والشعوب الأصلية الصحراء دون أى تدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب ومن العالم للقولى في أقصى الشرق ، إلا ما حدث من غزو الأتيويين لمصر .

والراجع أن حركة هؤلاء للقولى الراحل للنتيجة غربا ترجع إلى سببين رئيسيين : أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها واتساع رقعتها شمالا وتزايد عدد سكانها أثناء الرخاء الذى أطل البلاد في عهد أسرة هان . وثانيهما حدوث شيء من التغيرات في المناخ ؛ لعله قلة في الطر جففت المستنقعات وربما أزال الغابات ، أوله زيادة في الأمطار بسطت رقعة الرعى فوق سهوب الصحراء ، أو لعل هاتين العمليتين جميعاً تماورتا على أقاليم مختلفة فترتب عليهما على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا .

وثمة سبب ثالث قد يرجع إليه ذلك الأمر نفسه ، وهو الأحوال الاقتصادية المتسعة في الإمبراطورية الرومانية وما أصابها من انحلال داخلى وتناقص في عدد السكان . وذلك أن الأغنياء في الجمهورية الرومانية المتأخرة ، ومن وراءهم جباة الضرائب للأباطرة المسيكرين ، امتصوا كل ما فيها من حيوية . ولعل القارئ قد تجلّت أمامه الآن عوامل ذلك الزحف ووسيلته والفرصة التى تهيأت له . وخلاصة هذا يلحّز ، هى أن الضغط ظهر في الشرق وقد نخر الفساد في التربة وافتتحت الطريق لمن شاء أن يتقدم .

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوربية إبان القرن الأول الميلادي، ولكن ذلك الشعب الذي كانت القروسية أعظم مظاهر حياته لم يقبوا منزلة السيادة على أقاليم السهوب إلا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. فالقرن الخامس هو قرن عظمة الهون. وأول من بلغ إيطاليا من الهون جماعات من الجند المرتزة كانوا يقبضون أعطياتهم من استليكو ألوندي صاحب السيادة على هونوريوس. ولم ينقص طويل زمن حتى وقعت في قبضتهم بانونيا على الوندال الحالي.

ونشأ بين الهون في الربع الثاني من القرن الخامس زعيم حربى عظيم هو أتيلا. ومن أسف أن كل ما لدينا من علم بدولته لا يتجاوز السجلات المبهمة التي لا تفي غيلا. ومهما تمكن الحال، فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم، بل شمل أيضاً خليطاً من القبائل الجرمانية المتأخرة؛ وامتدت دولته عبر السهول المرامية من نهر الرين إلى آسيا الوسطى. وقد تبادل السفراء مع الصين. وجعل مقر قيادته ومسكره الرئيسى بسهل البحر شرقى نهر الدانوب. وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو بريسكوس، الذي يقص علينا وصف دولته نرف منه أن نظام معيشة أولئك النول كان شديد الشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتل الهون مكاثهم. فالعامة يعيشون في الأكواخ والحيام؛ على حين كان الرؤساء يعيشون في قاعات عظيمة من الخشب تحوطها السياجات. وكانوا يقيمون الولائم ويحتمسون الشراب ويستمعون لإنشاد الشعراء. فلو بحث أبطال الملاحم المومرية؛ بل حتى رعاة الإسكندر الأكبر المقدونيون أنفسهم لشعروا وهم في قاعدة أتيلا العسكرية بقدر من الإلف وعدم الكلفة يفوق في الراجع ما قد يحسونه في بلاط راق متدهور كبلات الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني ابن أركاديوس، الذي كان يحكم آنذاك في القسطنطينية.

ومرحين من الدهر زعم الناس أثناءه أن الرجل بقيادة الهون وأتيلا، سيلعبون إزاء الحضارة الإغريقية الرومانية بأقطار البحر المتوسط نفس الدور الذي لعبه الإغريق البرابرة نحو الحضارة الإيجية منذ أمد سحيق. وكأنما شرع التاريخ يبدى نفسه في نطاق أوسع. ولبيكن الهون كانوا أكثر مقلما بحياة الترحل من قدماء الإغريق، الذين يمكن عدم مربيين للماشية ميالين للهجرة أكثر منهم مترحلين. وراخ الهون فيرون ونهبون دون أن يستقروا في مكان.

وظل أتيلا بضع سنوات ينفذ على ثيودوسيوس ويمث في قلبه الرعب ما شاء له

هواه ، وذلك في نفس الوقت الذي انطلقت جيوشه فيه تعيث في البلاد فسادا وتعمل النهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ويقدر جيون عدد ما دمره من المدن في شبه جزيرة البلقان بما لا يقل عن سبعين مدينة دمرت نهائياً ، حتى اضطر ثودوسيوس أن يشتري رحيله بدفع الجزية إليه ، كما حاول أن يتخلص منه إلى الأبد بإرسال مبعوثين منبرين لاغتياله . ثم عاد أتيليا فوجه التفاته في ٤٥٦ إلى عظام نصف الإمبراطورية الناطق باللاتينية فغزا بلاد الغالة . فلم تنج مدينة واحدة تقريباً في شمال غالة من النهب والسلب . عند ذلك اجتمع عليه الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ودحروه عند ترويس Troys في معركة ضخمة مترامية الأطراف قتل فيها جمهور غير من الرجال يتراوح عدده بين مئة وخمسين ألفاً وثلاثة آلاف . ولم تلبث تلك الهزيمة أن أوقفت تقدمه بلاد الغالة ، بيد أنها لم تقل كثيراً من موارده العسكرية الهائلة . فإته دخل إيطاليا في السنة التالية عن طريق فينشيا^(١) (منطقة البندقية) وأحرق أكرويليا وبادوا واتهب ميلانو .

وسارعت جماهير غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه المدن الإيطالية الشمالية وخاصة بادوا فلاذت بجزائر بالستقعات الواقعة عند رأس البحر الأدراتي ، وهناك وضعوا أول حجر في دولة مدينة البندقية ، التي كتب لها أن تنمو من أمم الراكر التجارية في الصور الوسطى .

مات أتيليا في ٤٥٣ موت الصبابة بعد حفل عظيم أقامه إتهاجا بزواجه من حسناء صغيرة ، فتمزق بموته ذلك الاتحاد القائم على النهب . وعند ذلك اختفى المون الحقيقيون من التاريخ ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام ينطقون بالأرية ويفوقونهم عدداً . على أن هذه الغارات المهوية الضخمة أمت تقريباً على الدولة الرومانية اللاتينية . فتولى حكم روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين في مدى حشرن علماً ، أقامهم الوندال وغيرهم من مرتزقة الجند . فإن الوندال جاءوا من قرطاجنة واستولوا على روما في ٤٥٥ ، وأنهى الأمر في ٤٧٦ ، بأن قضى أودوا كبر كبير الجند البرابرة على شخص بانوني تولى مهام

(١) فينشيا : قسم إقليمي قديم بإيطاليا ينقسم إلى : (أ) فينيز (البندقية الأصلية) . (ب) وفينيزا تريديتا . (ج) وفينوجوليا . [للترجم :]

الإمبراطورية تحت اسم ميب هو رومولوس أوغسطس ، وأبلغ بلاط القسطنطينية أنه لم يعد هناك إمبراطور في الغرب . وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية على هذه الصورة للزيرة غير السريعة . ثم أصبح ثيودوريك القوطي ملكاً على روما في ٤٩٣ .

كان زعماء البرابرة يحكون عند ذلك جميع أقطار أوروبا الغربية والوسطى متخذين ألقاب للوك والدوقات ، ومستقلين في الواقع وإن اعترفوا في معظم الحالات بشيء من الولاء الرمزي للإمبراطور . كان هناك مئات بل آلاف في مثل هؤلاء الحكام للتصيين للمستقلين تقريباً . وكانت اللغة اللاتينية لا تزال منتشرة يلاذ الغالة وأسبانيا وإيطاليا وداكيا في صور ولهجات محلية مشوهة ، ولكن عمت بريطانيا والأقاليم الواقعة شرق نهر الرين بعض لغات من المجموعة الألمانية ، كما انتشرت في بوهيميا لغة سقلبية هي التشكية ، — وأصبحت اللسان الشائع بين الناس . وذلك على حين واصل كبار رجال الدين وثقة صغرية من جايأ غيرهم من التلمذيين قراءة اللاتينية وكتابتها . وقد عمت الفوضى وعدم الطمأنينة كل مكان ولم يعد للممتلكات من وافي إلا قوة الساعد . فكثر القلاخ وسادت أحوال الطرق . وقد بدأ بظهور القرن السادس عصر انحسار وفرقة ران فيه الظلام الفكري على العالم الغربي بأكمله . فلولا أن قبض الله على اللاتيني رهبان للسيعة وبشريها لقضى عليه قضاء مبرماً .

فلماذا تمت الإمبراطورية الرومانية ؟ ولماذا اضطلعت ذلك الاضمحلال التام ؟ لاجرم أنها تمت لأن فكرة اللواتية هبت في البداية بساتها وربطت بين أجزائها . إذ بقي فيها في أيام توسع الجمهورية جميعاً ، بل حتى إبان عهد الإمبراطورية الأولى ، عدد صغير من رجال أقرماء الوعي بالوادية الرومانية ، يرون في تلك اللواتية امتيازاً لهم وواجباً ولتزاماً عليهم ، ويطمحون إلى حقوقهم في ظل القانون الروماني ، ويذلون التضحيات باسم روما عن طيب خاطر وذراع صيت روما وأصبح رزاً للعدالة والعظمة والمحافظة على القانون ، حتى تجاوز حدودها كثيراً . على أن ذلك الشعور بالوادية أخذ ينحدر فيه منذ عهد يرجع إلى زمن الحروب البونية نفسها نحو الثروة والاستراقة . أجل إن اللواتية نفسها انتشرت حقاً ، ولكن لم ينتشر ما تنطوي عليه من فكرة .

ومهما يكن من شيء ، فإن الإمبراطورية الرومانية لم تسكن إلا دولة بدائية جداً ، لأنها لم تقم بتعليم الناس ، ولم تحاول أن تفسر نفسها وتصرفاتها لجماهير مواطنيها الصغيرة

للتزايد العدد ، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذ من قرارات . فلم تقيم بها تلك الشبكة الضخمة من المدارس التي تشكلت لإعداد التفانم للشرق بين أجزاء الدولة ، ولا نهض أحد فيها بنشر الأخبار للمحافظة على الجهود الحثدية ودعم النشاط الجماعي . فالنصارى الذين ظلوا يقاتلون على السلطان منذ أيام ماريوس وسولا لم يمكن لديهم أدنى فكرة عن تكوين رأى عام ودعوته ليدنى رأيه في شؤون الدولة . لقد مات روح اللواتنية جوعا ، ولم يدرك إنسان أنه مات . وغير خاف أن الإمبراطوريات والدول وتنظييات الجماعات الإنسانية إنما هي نتاج نهائى للتفانم والإرادة . وهذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها في العالم إرادة . لذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود .

ومع أن الدولة الرومانية الناطقة باللاتينية لفظت آخر أنفاسها في القرن الخامس الميلادى ، فإن شيئا آخر تمكون في أحشائها قدر له أن يبعد إلى أقصى حد من هيتها وتغاليدها : وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية . لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكي على حين ماتت الإمبراطورية لأنه كان يلبغا ويعتمد على عقول الناس وإراداتهم : ولأنه ملك الكتب كما ملك جهازا ضخما من اللعين والبشرى يربط بين أجزائه ، وهى أشياء أقوى من أى قانون أو أى جيش . وبينما الإمبراطورية تتدهور على كمر القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كانت النصرانية تتعبر في أوروبا وتعد عليها ألويتها الشامة : حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفس في عقر دارهم ، ألم يحل بطريق روما دون زحف أنيلا على للدينة عندما تسمع الناس باتواته ذلك ، وبذا فعل ما لا تستطع الجيوش فعله ، حيث رده عن غرضه بالقوة للنوية البعثة !

كان بطريق أو (بابا) روما يدعى أنه رئيس الكنيسة المسيحية بأكلها ، حتى إذا ولت الامبراطورية ، ولم يدهنك أباطرة ، شرع يدعى لنفسه ألقابا ومديعات بما كان لأولئك الأباطرة ، فانتحل لقب « الحبر الأعظم » Pontifex Maximus وهو لقب كاهن القرايين الأكبر في الدولة الرومانية إبان الوثنية ، وأقدم الألقاب التي كان الأباطرة يحملونها .

الفصل الحادي والأربعون

الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية

امتاز النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية بقدر لا بأس به من التماسك السياسي يفوق كثيراً ما بدأ في النصف الغربي . وذلك استطاعت مواجهة كوارث القرن الخامس الميلادي والتغلب عليها ، وهو القرن الذي تحطمت فيه بصورة تامة ونهائية دولة الرومان اللاتينية الأصلية . أجل أُرهب أتيل الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني وأخذ ينير على ممتلكاته ويصيث فيها نهباً وفساداً حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها ، إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم ينل منها أتيل شيئاً . وكذلك أعهد النوبيون في النيل واتهبوا مصر العليا ، ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تفيض مع ذلك في قدر لا بأس به من الرغد . وحافظت الدولة على معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين .

أما القرن السادس الذي خيمت أثناءه على القرب دياجير الظلام ، فقد شهد في دول الروم انتعاشاً جسيماً . فإن جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥) كان حاكماً على الهمة عظيم الطموح ، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا ، كانت لاتقل عنه كفاية ، وهي امرأة بدأت حياتها عثة . فاسترد جستنيان شمال إفريقيا من الوندال ، واستعاد معظم إيطاليا من القوط ، بل استرد جنوب أسبانيا ، ولم يقصر نشاطه على للشروعات العسكرية والبحرية ؛ بل أسس جامعة وهيد كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية وجمع القانون الروماني . ولكنه هاء أن يقضى على أحد النباقيين لجامعته الجديدة ، فأغلق مدارس الفلسفة بأثينا ، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون ، أعنى ما يقارب الألف سنة من الزمان .

ظلت دولة آل ساسان منافساً مستديماً للدولة البيزنطية (دولة الروم) منذ القرن الثالث الميلادي . وبسبب تلك المنافسة ساد الاضطراب والفساد الدائم آسيا الصغرى وسوريا

ومصر . وكانت تلك الأقطار لا تزال ترض في القرن الأول اليلادي في بحبوحة الحضارة
الرفيعة والثراء ووفرة السكان ، على أن استمرار ذهاب الجيوش وغدوها وكثرة اللداج
والتهب وضرائب الحرب الباهظة ، لم تزل بها حتى لم يبق منها إلا - مدن خربة مهدة
تقوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين ، ولم ينج من عملية
الانقار والقوضى المحزنة هذه إلا مصر السفلى التي ظل حكامها أقل سوءاً من بقية العالم .
كما أن الإسكندرية والقسطنطينية احتفظتا مع ذلك قسطاً متضائل من التجارة بين
الشرق والغرب .

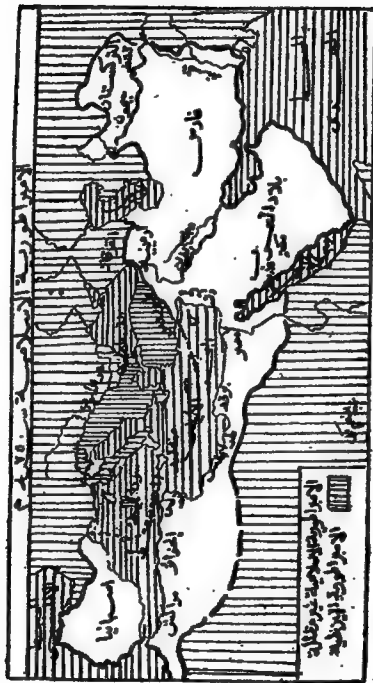
وفي غضون ذلك لاح للناس أن المسلم والفلسفة قد قضيا نهما وزيلاهما
الإمبراطوريتين للتأخرتين للضمحلتين . ومن قبل ذلك راح أو أواخر فلاسفة أثينا يعتقدون
حتى يوم قضى عليهم جستنيان بنصوص الأدب التليد للوروث عن الماضي العظيم ومخروطها
بما لا نهاية له من التوقير والاحترام مع قلة الفهم والإدراك . ولكن العالم كانت تموزه
تلك الطبقة من الرجال : من أولئك السادة للبهذين الأحرار الذين تمودوا في التفكير
عادات الجراءة والاستقلال في الرأي - ليواصلوا تقاليد التفسير الصريح والبحث الحر التي
تسبها تلك اللؤلؤات الثينة . ولا شك أن الفوضى الاجتماعية والسياسية هي السبب
الأول من اندام هذه الطبقة من الرجال . على أن هناك أيضاً سبباً آخر هو مردما انتاب
الذكاء الإنساني من العمق والانسكاس أثناء ذلك العصر . فقد ران التصبوع وعدم التسامح
على كل من فارس ويزنطة . فكانت كل منهما دولة قائمة على الدين ولكن على شاكلة
جديدة . شاكلة عاقت إلى حد كبير جميع نواحي النشاط الحر للعقل الإنساني .

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات في العالم بطبيعة الحال دولاً دينية تتمركز حو عبادة
أحد الآلهة أو للوك الآلهة . وقد اتخذ الإسكندر إلهاً ، وجعل الفياصرة أرباباً بحيث
أقيمت لهم المياكل وللمابد . وجعل تقديم البخور امتحاناً وشاهداً على الولاء لدولة
الرومان . على أن هذه البيانات النابرة كانت في جوهرها ديانة عمل وواقع . فهي لم تكن
لتغزو العقول . فإذا قدم إنسان بقربانه وإعني أمام آلهة ، لم يتلق إرشاداً من أحد ،
فهو لا يترك قط ليفكر في الله على أية شاكلة يهواها ، بل يقول ما يشاء تقريباً . أما
ذلك النوع الجديد من الأديان التي ظهر عندئذ في العالم ، وخاصة للسيحية ، فإنها تجمعه
(١٤ — تاريخ العالم)

إلى موبداه النفوس . لم تكن تلك الديانات تكتفى بالمطالبة بمسيرة الرجل لمن حوله في الإيمان بل تنشذ الاعتقاد الواسع . ومن الطبيعي أن تنشب الخصومات العنيفة بين الناس حول المعنى الدقيق لتلك المعتقدات ، ذلك أن هذه الديانات الجديدة كانت ديانات عقائد .

لقد واجه العالم الآن عهد جديد : عهد العقيدة القويمة ، كما واجه تصميم هديد على وضع جميع الأعمال بل حتى الكلام والأفكار الباطنية داخل حدود وتعاليم معلومة مفروضة . ذلك أن الأخذ برأى خاطيء ، فضلاً عن نقله إلى سائر الناس لم يعد جديرهياً ذهنياً بل خطأ خلقياً قد يجلب العنة على إحدى النفوس ويقضى عليها بالدمار السرمدى .

ومن ثم اتجه كل من أردغير الأول الذى أسس الأسرة الساسانية في القرن الثالث الميلادى ، وقسطنطين الأكبر الذى أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ، إلى الهيئات الدينية ملتصاً بعونها ، وذلك لأنهما وجدا في تلك الهيئات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والمجئنة عليها . لذا لم يكد القرن الرابع يشارف نهايته حتى كانت كل من الوثنيين تحرم حرية القول وكل ابتداع ديني . أما في فارس ، فإن أردشير وجد في عقيدة زرادشت الفارسية الشيعة بكل ما حوت من كهنة ومعابد و نار مقدسة تنقد دوماً فوق مذابحها ، أداة مهيأة لما ينشده من عقيدة للدولة . فلم تكد نهاية القرن الثالث تقرب حتى كانت الديانة الزرادشتية تضطهد النصرانية ، كما أن مافى مؤسس « الثانوية » وهى عقيدة جديدة ، صلب في ٢٧٧ وبلغ جبهة . وذلك بينما كانت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجد في مقاومة الزندقات للسجعية . ذلك أن قيصرات العقيدة الثانوية أثرت في السجعية ولم يكن بد من محاربتها بأفطع الطرق ؛ وحدث في مقابل ذلك أن تأثرت للبادئ الزرادشتية الحاملة بالفكرات للسجعية . وبهذا أصبحت جميع الأفكار متهممة مريبة . فليس عجباً إذن أن يصاب نجم العلم بالأقول التام طوال فترة التصب هذه ، واللم يستلزم قبل كل شيء غللاً حراً في عمله غير منتظرين في تمسكهم .



نقشه رقم (۹)

عاد سيرته الأول في ثنانيا تلك النهضة للبعثة التي نهضها العالم السامى . فالآن دبت الحياة في بنوتى أرسطو ومتحف الاسكندرية ، اللتين طال العهد على خنودهما وإهمال الناس لهما ، وإذا هما تبتنان من جديد وتأخذان في الإعمار . لقد تم للعرب في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعة غروب كثيره من التقدم . فنبئت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة .

ولا يغنى أن اسم « الجبر » نفسه لفظ عربى . وكذلك كلمة « كيمياء » . ثم إن أسماء نجوم كنجم الثور والدبران والمراء Bootes تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطباق السماء وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم للبحى كافة .

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عند العرب يسمون « أصحاب الصنعة » Aldhemists ، ولكهم ظلوا على جانب كبير من النزعة المحمية من حيث احتفاظهم بطرائقهم وتأجها في طى الكتمان ما وسعهم ذلك ، لأنهم أدركوا منذ البداية الأولى ما قد تعود به عليهم مستكشفاتهم من مزايا هائلة وما قد ترتب منها على الحياة البشرية عواقب بعيد الأثر . ولا شك أنهم وقفوا إلى مستنبطات في المعادن والتطبيقات التي كثيرة ولها قيمة قصوى ؛ فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتطهير والألوان والمطوور وزجاج العدسات .

ولكهم كاذبا ينشدون غرضين رئيسيين ظلوا ينشدونها عبثا ، أما أول الغرضين « فحبر الفلاسفة » الذي اجتوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بخر ، وبذلك يحصلون على الهيمنة على صنع الذهب ، أما الغرض الثاني فهو إكسبر الحياة . وهو ترياق بيد الشباب ويطيل العمر إلى ما لا نهاية ، وعن هؤلاء الكهاويين العرب انتشرت إلى العالم المسمى التجارب المقعدة المخوفة بالمشقة والصبر ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيرهم . ولم تصبح جهود هؤلاء الكهاويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويداً رويداً وبالتدرج البطيء . للغاية فأنهم شعروا بالفائدة التي تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها .

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريب على صورة من التدرج البطيء
غير المحسوس .

كان قدماء أهل الصنعة ينشدون حبر الفلاسفة الذى يراى له أن يحيل للملادن الحديثة
إلى ذهب ، كما يطلبون إكسيرا للخلود ؛ ولكنهم عثروا على مناهج العلم التجريبى الذى
يوشك فى خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطاناً لا حد له على العالم كله بل وعلى
مصائرهُ هو نفسه .

الفصل الخامس والعشرون

تطور عالم المسيحية اللاتينية

يجدر بنا أن نلاحظ أن مساحة نصيب الآريين من هذا العالم في القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة تقلصاً مفرطاً . وقبل ذلك بألف سنة ، كانت الأجناس الناطقة بالآرية هي صاحبة الغلبة على العالم المتحضر كافة إلى الغرب من بلاد الصين . أما اليوم فقد تقدم المغول حتى بلغوا بلاد المجر ، ولم يبق من آسيا شيء ، تحت حكم الآريين إلا الملكات البيزنطية بآسيا الصغرى ، كما افلنت من قبضتهم إفريقية كلها وضاعت أسبانيا كلها تقريباً . وقد انكشف العالم المظلم العظيم حتى أصبح بضع ممتلكات قليلة تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية ، ولم يبق من شيء بخلد ذكرى العالم الروماني سوى اللسان اللاتيني الذي ينطق به قساوسة المسيحية الغربية . وعلى القيسى القوى لقصة الانحطاط هذه ، كانت التقاليد السامية قد اتمشت ثانية وتغضت عنها غبار القلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية .

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستنفذها الأيام تماماً . فإنهم وإن حصرروا آتخذ في منطقة أوروبا الوسطى والشمالية الغربية وتعمروا تفرغاً ذريعاً في حماة أسكارهم الاجتماعية والسياسية ، قد شرعوا مع ذلك بينون بالتدريج وبصفة مستمرة دائمة نظاماً اجتماعياً جديداً ويسدون العدة ، بشيروى منهم ، لاستعادة سلطان أوسع كثيراً مما استمتعوا به في الماضي .

، وقد أهلكنا عليك كيف أنه حدث في بداية القرن السادس أن أوروبا الغربية لم تصدها على الإطلاق حكومة مركزية . فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحكام المحليين الذين يستقل كل منهم بشيونه بقدر طاقته . وفي ذلك مافيه من الاضطراب الذي لا يشتر بأى دوام لتلك الحالة ؛ قد أنجم بين ظهرائى تلك الفوضى ضرب من التعاون والتراجل ، هو النظام الإقطاعى الذى بقيت آثاره في الحياة الأوربية إلى وقتنا هذا . كان هذا النظام الإقطاعى ضرباً من تبلور المجتمع حول « القوة » ، فإن الرجل الفرد أحس في كل

وهندى أن في مستطاعنا ، ونحن نستعرض قصة أوروبا استعراض التاريخ العالمى
الرحيب الأفق ، أقول في مستطاعنا أن نتبين أكثر من أى مؤرخ قوى بحث ، الأثر
الآليم للموق الذى جلبه على أوروبا إحياء ذلك القلب الرومانى الإمبراطورى . إذ أن
أوروبا نكبت بكفاح حاد ضيق الأفق دار حول هذه السيادة الوحشية ولقيها مدة تزيد على
ألف سنة ، استنفدت أثمانها كل طاقتها . ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لأمكنك تعقب
خصومات حامية الوطيس فيها ؛ ولرايتها تتأجج في حقول الأوربيين تأجج الوسواس^(١)
في عقل مجبول به من الجنون . ومن هذه المواقف القوية طموح كبار الحكام ،
الذين يمثلهم شرلان (ومعناها شارل الأكبر) — إلى القلب بلقب قيصر . وكانت
مملكة شرلان تتكون من مجموعة متحدة من دول إقطاعية جرمانية تتراوح في قوة
طاجها البربرى . وقد تملت معظم هاته الشعوب الجرمانية في غرب نهر الرين أن تتطرق
بلهجات تلونت باللون اللاتينى ولم تلبث في النهاية أن اندمجت فأصبحت اللغة الفرنسية
الحديثة . أما إلى الشرق من نهر الرين فإن الشعوب الجرمانية اللاتئة في جنسها لتلك
التي في غرب الأهر لم تتقد لسانها الجرمانى . لذا لم يجد التواصل سهلا بين طائفتي هؤلاء
النزاة البرابرة ، وسرعان ماحدث الصدام بينهما . وزاد في تيسير الصدام أن عرف
الفرجة جعل من الطبيعي تقسيم إمبراطورية شرلان بين أولاده عند موته .

لذا أصبح من الظواهر للألوة في تاريخ أوروبا منذ أيام شرلان لما بعدها، أن يتحول
إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذاك ، وهم يكافون في سبيل رياسة مقلقة على من عاصروهم
في أوروبا من ملوك وأمراء وأدواق وأساقفة ومدن ، في حين أخذ المبدأ بين العناصر
الناطقة بالفرنسية والألمانية — يزداد عمقا في طوايا تلك الخصومة . وقد جرت العادة
بالعامة انتخاب شكل لسل إمبراطور يتولى العرش ، وكان أقصى ما يتبين كل منهم أن
يكافح حتى يمتلك روما العاصمة البالية ذات الوقع السيئ . وأن يحظى بالتتويج فيها .

أما العامل الثانى في الإضطراب السياسى بأوروبا فهو تصميم الكنيسة بروما ألا
تسمح لأى أمير علماني إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطورا واقصياً . وقد سبق للبابا

(١) الوسواس: (Obsession) فكرة ملحة تعاود الفرد دائما تلون حادة بلون علماني قوي ،
وغالبا ما تطوى على دافع إلى القيام بروع من التصرف ، وفى حالة عقلية مرضية وتسمى في علم النفس
باسم المحاز أو الانحياز . [للترجم]

كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظم ؛ وكانت كل الدواعى الصليبية البحتة تدعوه إلى الاحتفاظ بتلك المدينة للتداعية للتدهورة ؛ ولأن أعوزته الجيوش لقد كان هناك على الأقل مؤسسة غنية للدعاية لسانها تساوسته المنتشرون في كل أمقاع العالم اللاتينى ؛ ولأن قل نصيبه من السلطان على أجسام الرجال ، لقد ملكت يمينه فيما تصور أختلهم منافع الجنات والجحيم ، وكان له من ثم نفوذ كبير على نفوسهم . لذا فالصور التى ترسم أمامنا عن المصور الوسطى بأكملها هى أنه فى الوقت الذى كان أحد الأمراء يداور ويناور ضد زميل له طلبا للمساواة به أولا ، ثم التفوق عليه ثانيا ، ثم القاسا للهدف الأعلى للمروق أخيراً ، - كان البابا فى روما يداور هو أيضا ويناور لإخضاع الأمراء جميعاً لسلطانه بوصفه المبد الأعلى للنصرانية ، يقوم بذلك بجرأة وجسارة أحيانا ويحصل للسكر والمهاء تارة أو خسة وضف أخرى (وذلك لأن الباباوات كانوا جماعة متعاقبة من الشيوخ الذين لم يزد حكم أحدهم عن سنتين فقط) .

يبد أن هذه المحسومات الناعبة بين الأمير وبين الإمبراطور والبابا لم تكن هى وحدها بأية حال عوامل الاضطراب بأوروبا ، فقد كان بالقسطنطينية إمبراطور يتكلم الرومية ويطلب أوربا كلها بالولاء لعرشه ، وعندما حاول شرلمان أن يثبت الإمبراطورية ، لم يوفق إلى أكثر من انبثاث القسم اللاتينى منها . فكان من الطبعى إذن أن ينشأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم عمور بالنافسة . على أن تطور المنافسة بين الكنيسة للسيعة الناطقة بالرومية وبين مثلتها الحديثة الناطقة باللاتينية كان أشد وأسرع . فادعى البابا بروما أنه خليفة القديس بطرس كبير تلاميذ يسوع المسيح وأنه رئيس المجتمع المسيحى فى كل مكان . وبدى أن لا ينظر إمبراطور القسطنطينية ولا بطريرقها بمن الرضا إلى هذا الادعاء ونشب نزاع فى ١٠٥٤ حول نقطة دقيقة ، ووضع الثالث للقدس فكان نقطة الاعتجار التى تصدعت معها العلاقة بين الطرفين بعد مجموعة متتالية من الخلافات . فافترقت الكنيسة اللاتينية عن أختها اليونانية وتميزت إحداها عن الأخرى منذ ذلك الحين ، وأسفرت عما تسكنه للأخرى من عداوة . وينبئ أن تضيق هذه الخصومة الجديدة إلى غيظها من المحسومات التى ذكرناها فى تمهاداتا للنزاعات التى بددت قوى عالم النصرانية اللاتينية فى المصور الوسطى .

وعلى رأس هذا العالم المسيحى للشرق الكلمة ، انتهالت الضربات من قبضة



خريطة رقم (١٠)

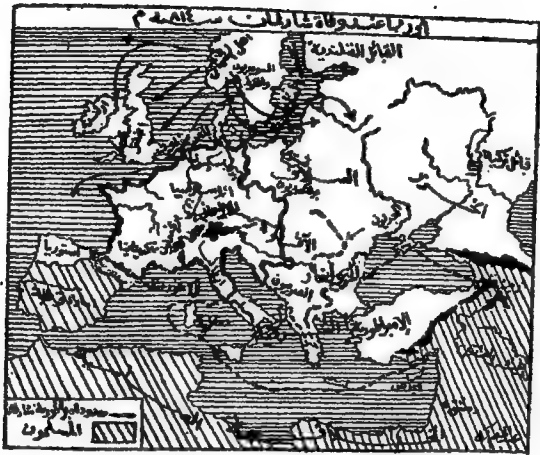
مجموعات ثلاث من الحشود . فإن منطقة بحر البلطيق والبحار الشمالية ظلت مقيمة بها مجموعة من القبائل النوردية لم تنسحب للسيحية إلا ببطء شديد وبضاية التغور والتخع ؛ وهى قبائل النورمان (أهل الشمال) جنحت تلك القبائل إلى البحار واحترفت القرصنة ، وأخذت تغير على شواطئ عالم النصرانية جميعاً حتى أسبانيا . وقد تقدموا قبل ذلك إلى المناطق العليا من الأنهار الروسية حتى بلغوا المناطق القاحلة الوسطى ، ثم نقلوا سفنهم إلى الأنهار المتجهة صوب الجنوب . وظهروا كقرصنة على سفحة بحر قزوين والبحر الأسود وأقاموا الإمارات بالروسيا ؛ وهم أول شعب سمى باسم الروس ، وأوغلحك هولاء النورمان الروسون على الاستيلاء على القسطنطينية يوماً ما . وكانت إنجلترا في مستهل القرن التاسع قطراً متعصراً يسكنه قوم من الأرومة الألمانية السفلى نعمت ملك هو إيجبرت ، وهو تنفيذ إشرافان ينضوى تحت حمايته ولكن النورمان اغتصبوا نصف الملكية من خليفه ألفريد الكبير (٨٨٦) ، ثم جعلوا من أنفسهم في عهد كانوت (١٠١٦) سادة على البلاد . وجاءت ثمة أخرى من النورمان بقيادة رودلف العداء (٩١٧) فتحت شمال فرنسا التى أصبحت تسمى منذ ذلك الحين باسم نورمانديا .

السياسي للشعوب البربرية جماع ، وهي انقسام أبناء الحاكم والرئيس على أنفسهم . ولله بما يشير اهتمامك أن تأمل النتائج التي كانت ترتب على دوام هذا الاتحاد المؤقت الذي قام على يد النورمان . والنورمان شعب أوقي بحراً مدعشة ومهنة فائدة . تقدموا بحراً كهم في البحر طويلاً حتى لقد بلغوا إسبانيا وجربلتند . وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوروبيين . وقد حدث فيما يلي ذلك من جهود التاريخ أن النورمان استردوا صقلية من يد العرب ونهبوا روما . وقديمتوى ألبانيا صور تلك الدولة البحرية الشمالية العظيمة التي كانت نواتها مملكة كانتوت ، وقد امتدت من أمريكا إلى روسيا .

وإلى الشرق من الجرمان والأوربيين المصطنعين بالصيغة اللاتينية كان ينزل خليط من القبائل السلافية (الصقلية) والشعوب التركية . ومن أبرز هؤلاء المجرين (المغاربيون) الذين ظلوا يتقدمون غرباً طيلة القرنين الثامن والتاسع . ولقد صدم شيرلان إلى حين ، ولكنهم وطدوا أقدامهم بعد موته في بلادهم الحالية ؛ وأخذوا يسيرون كلما جاء الصيف على أقطار أوروبا المستقرة على جاري عادة الهون أسلافهم المشابهين لهم . وقد اخترقوا ألمانيا كلها في ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا ، وعبروا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا ، ومنها طردوا إلى وطنهم بعد أن عاثوا في تلك البلاد سرقة وتحريراً وتدميراً .

وأما الضربة الثالثة التي نزلت بأوروبا ، فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب يقضون على بقايا الدولة الرومانية . فدوا سلطانهم على البحر إلى حد كبير ؛ ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوى البأس إلا النورمان : — نورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود ونورمان القرب .

حتى إذا أحاطت هذه الشعوب الدخاوية العارمة بشيرلان وعين خلفه من عواهل طامعين إلى العلا ، وجعلتهم يشعرون أنهم تكسبهم قوى لا يقفون لها معنى وأخطار لا يستطيعون لها تقديراً ، راحوا يضطلمون بحسرة غير ذات فناء ، هي إعادة الإمبراطورية الغربية إلى الحياة تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم نزل هذه الفكرة تخاض الحياة السياسية لأوروبا الغربية منذ عهد شيرلان مخامرة حالات التهوس ، على حين كان النصف اليوناني من الدولة الرومانية يضمحل في الشرق وينوى حتى لم يبق منه في النهاية شيء خلا مدينة تجارية فاسدة متدهورة هي القسطنطينية وحولها بضعة أسيال من الأراضي المحيطة بها . وبهذا أصبحت قارة أوروبا من الناحية السياسية تحافظة متمسكة بالتقاليد القيمة غير المثمرة مدة ألف سنة بعد أيام شيرلان .



خريطة رقم (١١)

إن اسم شرلمان يقبى عظيما ضخما على صفحات التاريخ الأوربي ، ولكن قلما رأى أحد شخصيته جلية واضحة العالم . كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن إكباره العالم كان جسيما ؛ وكان يميل إلى الاستماع إلى القراءات أثناء تناوله الطعام ، كما كان شديد الولع بالمجادلات اللاهوتية ؛ وكان كلما ذهب إلى مشتاه في إكس لا شايل أو ماينز جمع حوله طائفة من العلماء يلتقط الشيء الكثير مما يدور بينهم من حديث . فإذا خلع السيف انطلق لقتال العرب الأندلسيين مرة ، أو الصقالبة والمجريين أخرى ، أو السكسون وضيغم من قبائل الجرمان التي لم تبرح على الوثنية . فهل راودته فكرة تولى القيصرية بدمرومولوس أو غسطلوس قبل استيلائه على شمال إيطاليا ، أم ترى أوحاها إليه البابا ليو الثالث ، الذي كان يتوق إلى فصل الكنيسة اللاتينية عن القسطنطينية ؟ — ذلك ما لا سيديل إلى الوصول إلى رأى حاسم فيه .

لقد جرت في روما مناورات وداورات من المحب ما يكون . قال البابا يريد أن يظهر

على اللاد أنه هو الذى منح التاج الإمبراطورى للإمبراطور المنتظر الذى لم يكن يريد ذلك للظهر . ونجح البابا فى توزيع سيفه الفازى على غرة منه بكنيسة القديس بطرس فى يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ . ذلك أنه أبرز التاج ووضعه على رأس شرملان ونادى به قيصرًا وأوغسطس . وتعالى هتاف الناس . ولم ترض نفس شرملان بأى حال عن الطريقة التى تم بها الأمر ، الذى ظلت ذكره تعرج كرامته ، كأنها هزيمة منى بها ؛ كما أنه ترك لابنه أدق التعليقات موصيا إياه ألا يسمح للبابا بتوجيهه ؛ وأن يتناول التاج بيده ويضعه بنفسه فوق رأسه . وهكذا نرى منذ البداية الأولى لعودة الإمبراطورية ، استهلال النزاع الطويل للديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدينية . على أن لويس الورع ابن شرملان أغفل تعليقات أبيه وخضع للاستشارة .

وعزقت إمبراطورية شرملان شرمعزق بموت ولده لويس الورع ، وانسعت شقة الصدع بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية والفرنجة الناطقين بالجرمانية . وكان الإمبراطور الذى تلاه على العرش هو أوتو ، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنرى السباد ، وهو الذى انتخبته ملكا على ألمانيا جميعه من أمراء الجرمان وأساقفتهم فى ٩١٩ . وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورا فى ٩٦٢ . وانقرضت هذه الأسرة السكونية فى أوائل القرن الحادى عشر وحل عليها حكام آخرون من الجرمان ، ولم يحدث قط أن أمراء ونبلاء الإقطاع لليمين فى الغرب والناطقين بلهجات فرنسية متنوعة خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان منذ أن انقرضت الأسرة الكارلوفنجية : أعنى أحفاد شرملان ، كما لم يحدث قط أن جزاء من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية للقدسة وبذلك ظل دوق نورماندى وملك فرنسا ، وعدد من سفار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها .

وقد انتقلت مملكة فرنسا فى ٩٨٧ من يد الأسرة الكارلوفنجية إلى ديهوكابت ، الذى كان أحفاده يحكمون فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولم يكن ملك فرنسا يحكم أمام هيوكابت إلا منطقة صغيرة نسيا تحيط بمدينة باريس .

وفى ١٠٦٦ هوجت أنجلترا من جبتين فى وقت واحد قريبا ، فزاعها نورمان

الترويج بقيادة هارولد هاردرادا ، كما هاجها من الجنوب النورمان ذوو الطابع
اللاتيني بقيادة دوق نورماندى . وعند ذلك تقدم هارولد ملك إنجلترا فهزم النازى
الترويجى فى معركة جاستامبور ، ولكن دوق نورماندى هزمه عند هاستنيز .
وفتح النورمانديون إنجلترا ، وأبعدوها عن كل علاقة بالشئون الإسكندنافية النيو تونية
والروسية ، وأحكموا ما بينها وبين الفرنسيين من علاقات وزجوا بها فيما لهم من
منازعات . وظل الإنجليز مشتبكين طوال القرون الأربعة الأخيرة فى المنازعات الدائرة
بين أمراء الإقطاع الفرنسيين ، كما ظلوا تلك اللدة الضخمة يبدون قوامهم فى ميادين
القتال الفرنسية .

الفصل السادس والأربعون

الحروب الصليبية

وعصر السيادة الباباوية

لعله مما يشير اهتمامنا أن نشير إلى أن شرلان تبادل الرسائل مع الخليفة هرون الرشيد ، وهو نفس هرون الرشيد الذي تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة . ويسجل التاريخ أن هرون أرسل السفراء من بغداد - التي أصبحت آنذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق - يحملون الهدايا والألطاف التي منها خيمة فاخرة نفيسة وساعة مائية وأحد الفيلة ومفاتيح النابلس المقدس .

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خطة محكمة التدبير أراد بها تأليب كل من دولة الروم الشرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين في أورطليم ولبن منها حق حمايتهم .

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه في نفس الوقت التي كانت أوروبا تسلي فيه إبان القرن التاسع نار فوضى الحروب وما يصحبها من تدمير ونهب ، كانت تزدهر بمصر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة ، أشد حضارة من دول أوروبا جميعاً . لقد كان الأدب والعلم لا يزالان عند عتقطين بنشاطهما القوي ؛ وازدهرت الفنون لديهم ، كما أنه كان في إمكان العقل البشري أن يتغل في أبراج التفكير دون أن تتأخره مخاوف أو خزعبلات . وكذلك اعتدت قوة الحياة الفكرية في أسبانيا وشمال إفريقيا التي أخذت فيها الفوضى السياسية تدب في أوصال الممالك العربية . كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو ويتباحثون في آرائه إبان تلك العصور التي رانت فيها الظلمات على أوروبا ، لقد أقاموا من أنفسهم حراساً على بذور العلم والفلسفة التي طال إهمالها .

وكانت تنزل إلى الشمال الشرقي من دولة الخليفة مجموعة من القبائل التركية أخذت الإسلام ديناً ، واعتنقت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيراً مما لدى العرب والفرس الناطقين بلسانهم في الجنوب . لقد أخذ الترك يزدادون قوة وحيوية أثناء القرن العاشر

وذلك بينا دب ديب الانقسام والاضمحلال في دولة العرب . وتطورت العلاقات بين الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قوية الشبه بسلالة الميديين بالإمبراطورية البابلية الأخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرناً ، وحدث في القرن الحادى عشر ، أن مجموعة من القبائل التركية ، هى الأتراك الساجوقيون زحفوا على أرض الجزيرة وجعلت الخليفة حاكماً بالإسم فقط ، وأداة يسيرونها وفق هواهم وأسراقي أيديهم ، ثم غزوا أرمينية ، وأخذوا بعد ذلك ينزلون الضربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى . فهزم الجيش البيزنطى هزيمة نكراء في ١٠٧١ فى معركة ملازجرد ، وعند ذلك اجتاحت الأتراك البلاد قلما حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثر بآسيا . ثم استولوا على قلعة نيقيا المقابلة للقسطنطينية ، وأخذوا يمدون العدة للأجهاز على المدينة نفسها .

دب العرب فى قلب الإمبراطور البيزنطى ميشيل السابع ، وكان مشتبكاً فى حرب ضروس مع ثلاثة من الغاصرين النورمان استولت على مدينة دورازو ؛ ومع شعب تركى شديد العناسة هو البشناق (البشنج) ، الذين كانوا يغفرون على ضفاف الدانوب ، واضطر الإمبراطور وهو فى محنته أن يلتمس المعونة حيث استطاع أن يجدها ، وبما تجدد ملاحظته هنا أنه لم يلجأ إلى إمبراطور القرب بل القس العون من بابا روما بوصفه رئيساً للنصرانية اللاتينية ، فكتب إلى البابا جريجورى السابع ، كما كتب خلفه أليكسيوس كومنينوس مستغيثاً بإرباب الثانى .

حدث هذا ولم يقض على انفصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربح قرن ، - والحسومة بين الطرفين لم تزل ذكرها قوية الإشرافى فى عقول الناس ، ولا شك أن هذه الكارثة التى أصابت بيزنطة قد تبذرت لبن البابا فرصة ثمينة يجيد بها فرض سيادة الكنيسة اللاتينية على اليونان أهل الفرقة والخلاف . فضلاً عن ذلك فإن البابا انتهزها فرصة لمعالجة أممين أزهما عالم النصرانية اللاتينى أيما إزعاج ، وأول الأمرين هو « عادة الحرب الخاصة » التى كانت تبث التفرقة فى الحياة الاجتماعية ، وبأنهيهما هى طاقة القتال الفياضة التى ينسجم بها سكان السهول الجرمان والنورمان المتصرون ولاسيما الفرقة منهم والنورمانديون . وعندئذ شرع المبشرون ورجال الدين يشرون بحرب مقدسة ، هى حرب الصليب ، أو الحروب الصليبية ، التى يراد أن تنقذ على الترك مقتضى بيت المقدس كما يشرون بوجود قيام الهدنة وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعاً (١٠٩٥)

وقد أعلنوا أن الهدف من هذه الحرب هو استرداد القبر للقدس من يد الكفرة :
وراح رجل يدعى بطرس الناسك يحوب الآفاق ويبت دعايته في الجماهير بكل من فرنسا
وألمانيا ، وكان يتجول في البلاد في ثوب خشن حافي القدمين ويمطيا حماراً ؛ وهو
يحمل صلياً ضخماً ويمطب الناس في الشوارع والأسواق والكنايس . وكان ينس على
الترك ما يرتكبونه ضد الحجاج المسيحيين من قساوات ، ويذكر الناس بالعار الذي يعود
عليهم من بقاء النابوس للقدس في أيدي غير مسيحية ، وعند ذلك ظهرت ثمار تلك
القرون الطويلة من الدعوة المسيحية في استجابة الناس لها . فإن موجة عظيمة من
الحماسة اجتاحت العالم الغربي ، وعند ذلك اكتشفت النصرانية الترية نفسها
لأول مرة .

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التي صدرت آنذاك عن عامة الشعب تحملاً
لفكرة واحدة ، شيئاً جديداً لم يسجد له مثيل في تاريخ البشر . هي شيء ليس له من
ضرب في سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين . ومع ذلك فقد حدثت في
نطاق أضيق حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودي بعد تهروره من الأسر البابلي ، كما
حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية للشعور الحماسي مماثلة لهذه . ومن المحقق أن هذه
الحركات ارتبطت بالروح الجديدة التي ظهرت في هذا العالم مع تطور ديانات التعليم
والتبشير والملين والبشرين . فإن أنبياء العبرانيين وعيسى والحواريين وماني ومهدا ،
كانوا جميعاً معلمين ينجون نفوس الناس كأفراد . وكانوا يواجهون ضمير الشخص
بالله راساً . وقبل ذلك الأوان كان الدين أقرب إلى التفتيش والخزعبلات والعلم الزائف
منه إلى أن يكون من عشون الضمير البشري ، وكان النوع القديم من الدين يدور حول
للعبد ، والكاهن للتدرج في أسرار الحقيدة والقرايين الرمزية ، كما كان يحكم الرجل
العادي بالخوف حتى لسكانه العبد الرقيق . أما ذلك النوع الجديد من الدين فإنه
اتخذ منه إنساناً .

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثارت مشاعر العامة في التاريخ
الأوروبي ، وربما كان من اللبائنة القول بأنها تؤذن بجمود الديمقراطية الحديثة ، وإن
لم نحالنا شك في أن الديمقراطية الحديثة تحركت فعلاً في ذلك الزمان ، وسنجدها

تتحرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل ، وتسال أسئلة اجتماعية ودينية تبحث على الانزعاج الشديد .

وليس من شك أن هذه الحركة الأولى الديمقراطية انتهت بنهاية اليمين الفاجعة . فإن حشود ضخمة من العامة ، هي في الواقع جماهير محتشدة أكثر منها جيوش ، انطلقت نحو الشرق من فرنسا ومنطقة الرين وأوروبا الوسطى ، دون أن تنتظر الحصول على قائد يقودها أو معدات تزود بها ، وهي تريد إيقاظ القبر للقدس . وتلك هي الحملة الصليبية الشعبية . وقد مثل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجر خطأ ، وزعما أن أهل المجر - الذين دخلوا عندئذ في السبيحة وشيكا - كانوا من الوثنيين ، فارتكبوا بعض الفظائع وهب المجرّون فأعملوا فيهم الدبح جميعاً ، وجاء جمهور عظيم ثالث اختلطت عليه الأمور هو أيضاً ، وتبلبل فكره كسابقيه ، فزحف شرقاً بعد أن أعمل الدبح بشدة في يهود منطقة الرين ، حتى إذا وصل بلاد المجر قضى عليه هناك ، ثم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسه بلغا القسطنطينية وهبرا البوسفور ، حيث هزما الأتراك السلجوقيون ، بل ذبحهما ذبحاً ، وبذا ابتدأت وانتهت أول حركة للشعوب الأوروبية ، بوصفها حركة شعبية .

وفي السنة التالية (عام ١٠٩٧) عبرت البوسفور القوات للقائفة الحقة ، وكانت بطبيعة الحال نورمانية في الروح والقيادة ففتحوا نيقية عنوة ، وساروا إلى أنطاكية سالكين تقريباً نفس الطريق الذي سلكه الإسكندر قبل ذلك بأربعة عشر قرناً . وقد هطلم حصار أنطاكية سنة ، انطلقوا بعدها لمحاورة بيت للقدس في يولية ١٠٩٩ ، وسقطت بيت للقدس بعد شهر من الحصار ، وكانت اللذبة التي دارت بهارعية فظيمة فإن الراكب على جواده كان يسميه رخايش الدم الذي سال في الشوارع أنهاراً ، ومأرغى ليل الخامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سيلهم قتالاً إلى كنيسة القبر للقدس وتطلّبو على كل مقاومة في المدينة ؛ وهناك جنوا الصلاة ملطخين بالدماء ، متعجين مكدودين سيكون من فرط السرور .

وسرعان ما اشعلت من جديد نار العداوة بين اللاتين والروم ، ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية ، ولما وجد بطريق القدس الرومي (الأرثوذكسي) نفسه وهو في ظل اللاتين المتصرين في موقف أسوأ من موقفه في ظل الأتراك ،

واكتشف الصليبيون أنهم وقعا بين البيزنطيين من ناحية والأمراك من ناحية أخرى وأنهم يقاومون الطرفين جميعا . واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطرا عظيما من ممتلكاتها بآسيا الصغرى ، كما أن الأمراء اللاتين وجدوا إماراتهم حاجزة (١) بين الأمراك والروم ، ولم يجدوا في أيديهم سوى بيت للقدس وإمارات صغيرة قليلة ، في سوريا كانت إمارة الرها من أكبرها .

على أن قبضتهم حتى على هذه الإمارات نفسها كانت قلقة ضعيفة ، ولم تلبث الرها أن سقطت في أيدي المسلمين في ١١٤٤ ، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية فشلت في استخلاص الرها من أيدي العرب ولكنها أخذت أنطاكية من الوقوع في نفس المصير .

وفي عام ١١٩٩ تجمعت جموع الإسلام حول راية مغامر كردى اسمه صلاح الدين جبل من نفسه حاكما على مصر . فدعا إلى حرب دينية ضد النصارى ، واسترد بيت المقدس في ١١٨٧ ، وبذا استفز أوروبا لقيام بالحرب الصليبية الثالثة . ولكنها أخفقت في استرداد بيت المقدس . حتى إذا جردت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) أظهرت الكنيسة اللاتينية عداها الصريح لدولة الروم الشرقية ، ونسى القوم الأمراك تماما ولم يجدوا عليهم حساما ولو من باب التظاهر بالقتال . تحركت تلك الحملة من البندقية واجتاحت القسطنطينية عنوة في ١٢٠٤ . وكانت زعجة هذه للفاحمة هي مدينة البندقية التي تجارى الناهض العظيم ، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن ألحق بمدينة البندقية . ونصب في القسطنطينية إمبراطور لاتيني هو بالدوين الفلاندرى ، الذى أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد . ودام حكم أباطرة اللاتين بالقسطنطينية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ ، يوم امتنص المائذ البيزناني وتخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه .

ومن ثم يكون القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر عصر مظلمة البابوية ، مثلا كان الحادى عشر عصر تنوق الأمراك السلبوقيين ، والعاشر عصر النورمان . وفي هذا

(١) الدولة الحاجزة (Buffer State): دولة عابدة تحمى دولتين متنازعتين ويؤدى وجودها إلى التقليل من خطر الحرب بينهما [المترجم]

المصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد في عالم المسيحية تحت حكم البابا وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه في أى وقت قبل ذلك العصر أو بعده .

وفي إبان تلك القرون ، كان وجود العقيدة المسيحية البسيطة الواضحة من الأمور المقررة الواقعة الواسعة الانتشار في مناطق كبيرة من أوروبا . أجل إن روما تساهمت عليها أدوار حالكة مشينة غير كريمة ؛ قلما جرؤ كاتب على التوضيح لتبرير مسلك البابا يوحنا الحادى عشر والبابا يوحنا الثانى عشر أثناء القرن العاشر — فلإنهما كانا من الكائنات الكريهة البشعة ؛ ولكن المسيحية اللاتينية ظلت وقورة بسيطة جادة في روحها ومعناها ؛ وفي ظلها قضت الأغلبية العظمى من التساوسة ، والرهبان والراهبات عمرها في حياة مثالية رالدها الإخلاص والأمانة . وقامت قوة الكنيسة على كنوز من الثقة التي أوجدتها هذه الشخصيات . ومن أعظم باباوات الماضى — جريجورى الأكبر ، وهو جريجورى الأول (٥٩٠ — ٦٠٤ م) وليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦ م) ، الذي دعا شرلمان ليكون قيصرا وتوجه على الرغم منه . ونشأ قرب نهاية القرن الحادى عشر ، رجل دين عظيم ذو سياسة وتدير هو « هديراند » ، الذي تسمى فيما بعد باسم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) ، وهو البابا الذي أثار الحرب الصليبية الأولى . وإلى هذين الزجلين يرجع الفضل في قيام هذه الفترة التي عظم فيها شأن الباباوية والتي تسلط فيها الباباوات على الأباطرة . فكانت لبابا الكلمة العليا من بشاريا شرقا إلى إرلنده غربا ومن الترويج شمالا إلى صقلية وبيت القدس جنوبا . وجريجورى السابع هو الذي أرغم الإمبراطور هنرى الرابع على الشخصوس إليه تابيا متنبيا بكانوسا وانتظار الفو منه ثلاثة أيام بليالها واقفا في ساحة القلعة ، في ثوب من الخيش وهو حافي القدمين على الثلج . وفي ١١٧٦ ربح الإمبراطور فردريك الثانى الملقب بفردريك ببروسا على ركبته بين يدى البابا إسكندر الثالث بالبندقية وأقسم بعين الولاة .

لأجدال أن المصدر الأول لقوة الكبرى التي استتمت بها الكنيسة في القرن الحادى عشر هو إرادة الناس وضماؤهم . على أنها أخفقت في الاحتفاظ بالمسكة الأدبية التي قامت عليها قوتها وتقودها . حتى إذا استهل القرن الرابع عشر تلت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . لما الذي قضى على قوة البوام الساذجة في عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعودوا يستحيون لأى دعاء منها ولا يخدمون أهدافها ؟

إن أول مصدر لتأليب الكنيسة هو على التحقيق تكديسها للثروة وامتلاكها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية ، وأنه كثيرا ما جنح من لأعقب لهم من الناس إلى محبس ممتلكاتهم على الكنيسة ، كما أن للذين التائبين كانوا يصحون بفعل ذلك . لذا أصبح ما يقارب ربع الأراضي من ممتلكات الكنيسة في كثير من أقطار أوروبا . ومن البديهيات التي لا جدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال ، وتسامح الناس وتناقلوا في كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن المساواة لم يكونوا من الأخير الطيبين ، وأن دأبهم الأول هو اصطيداد المال والناس التركات .

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد الباباوية الأجنبية ، فإن أراضيهم التي كان ينبغي أن تحول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكري للملك أو الأمير ، كانت تحول الأديرة والربان والراهبات . وزاد الطين بلة أن تلك الأراضي كانت في الواقع التي لاشك فيه تحت سلطان الأجانب ، وقد نشب الكفاح بين الأمراء والباباوية حول مسألة « التمينات » أعني من هو صاحب الحق في تعيين الأساقفة ، وذلك قبل زمن البابا جريجوري السابع نفسه ، فإن ظلت سلطة التمين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لضمائر رعاياه بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته ، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدعون بأن لهم الحق في الإعفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لزوما ، ولت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً الحق في جمع مكس قيمته العشر على ممتلكات الرجل العلفاني فوق الضرائب التي كان يدفعها لأمره .

ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كهذه إبان القرن الحادى عشر ، وأعني بذلك حالة الكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التمينات ، كما أنه يتحدث عن انتصار البابا في ذلك الكفاح بوجه عام ، وذلك أن البابا ادعى القدرة على « حرم » الأمير ، وعلى جعل رعاياه في حل من واجب الولاء والطاعة ، وعلى الاعتراف بشخص آخر بخلقه ، وادعى كذلك أن من حقه حرم شعب بأكمله ، فتسطل بذلك كل وظائف الكنيسة . وقساوستها ، وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والقرية ؛ وعند ذلك لم يكن المساواة يعطون القيام بالصلوات العادية ولأداء مراسم الزواج ولا دفن الموتى . وهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثاني عشر من كبح

(١٦ - تاريخ العالم)

جماح أقوى الأمراء معارضة وأشدّهم مراساً ، ومن بث الرعب في أشد الشعوب جموحاً ، وكان هذان السلاحان قوة هائلة ، والقوة الهائلة لا يجوز استعمالها إلا في الظروف الاستثنائية البحتة . ولكن الباباوات راحوا يستعملونها في النهاية بكثرة فلت مضاءهما وأزالت تأثيرهما . ففي الثلاثين السنة الأخيرة من القرن الثاني عشر ، تحرّم اسكتلنده وفرنسا وانجلترا على التوالى . كما أن الباباوات لم يستطيعوا مقاومة شيطان الدعوة إلى القيام بحرب صليبية على الأمراء الذين يخطئون — حتى تناهى الأمر إلى أن سجدت روح كل شيء صليبي .

ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الأمراء وعينت بالمحافظة على قبضتها على عقول العامة ، لكان من المحتمل أن تهرز سلطناً دائماً على عالم النصرانية بأكمله ، ولكن مدعيات البابا الكبرى انعكست عند رجال الدين في صورة صلف وكبرياء ، وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادى عشر ؛ وكانت تقوم بينهم وبين من يعيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة ؛ بل كانوا والحق يقال شرطامن الشعب ، ولكن جرمجورى الساج حتم عليهم المزوبة ؛ وبذلك قطع الرابطة القوية التي كانت تضلّل بين القساوسة والعلمانيين فاصداً من وراء ذلك ربطهم أوثق ارتباط بسبعة روما ، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وعامة الناس أخودا عميقاً .

وكان للكنيسة عها كها الخاصة . فهي تحتفظ لنفسها بالحق في نظر القضايا التي يكون القساوسة طرفاً فيها بل والرهبان أيضاً والطلبة والصليبيون والأرامل والأيتام وكل من لامعين له ، كما تحتفظ لها كها بجميع المسائل المتعلقة بالوصايا والانكحة والأيامانات وجميع قضايا السحر والزندقة والتجديف ، وكان على الملأ أن يلجأ إلى الحاكم الكنسية إن حدث بينه وبين أحد رجال الدين نزاع ، وذلك كله في حين أن التزامات الضلم وأشباه الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس . فليس عجباً إذ أن تنمو في النفوس السداوة والحسد لرجال الدين في كل أرجاء عالم النصرانية .

ولم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنها تدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضمائر الناس ، فسكانت تحارب الحماسة الدينية التي كان يجب أن تتخذ منها حليفاً تعتمد عليه ، وكانت تفرض بالقوة صحة المعتقد على صاحب الشك البرى وعلى المارق صاحبة الأهراف في الرأي دون تفريق بينهما ، وعندما كانت الكنيسة تتدخل في الشؤون الحنسية ،

كانت تُجد الرجل العادى فى صفها ، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل فى الشئون الذهبية ، وعندما أخذ والهويش فى جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع فى بساطة العقيدة والحياة ، دعا إنوسنت الثالث إلى حملة صليبية ضد من اتبعوه ، وأذن لجندة بقمهم بالنار والليف وهتك الأمراض وبأعد أنواع القساوى بشاعة . ولما دعا القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ — ١٢٢٦) إلى محاكاة المسيح وإلى حياة التقشف والفقر والعبادة ، اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان وجهلوا وسجنوا وهتتوا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرصليا وم أحياء فى ١٣١٨ ، وذلك فى حين أن جماعة الرهبان الدومينيكيين التى أسسها القديس دومينيك (١١٧٠ — ١٢٢١) والشهرة بتمسكها المنيق بصحة الاعتقاد للذهبي كانت موضع التعذيب القوي من إنوسنت الثالث ، الذى استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشئ هيئة ، هى محاكم التفتيش ، بقصد تصيد الزنادقة وإزالة سوط العذاب بكل فكر حر .

وهكذا دمرت الكنيسة بمذيعاتها للسرفة ، وامتيازاتها الأثيمة ، وبعدم تسامحها الخالى من كل حكمة وعقل ، — تلك العقيدة الحرة التى للرجل العادى ، والتى هى فى النهاية مصدر سلطاتها كله ، ولو اطلعت على قصة تمهورها لم تحدثك بظهور أى عدو كفء لها فاصبا العداء من الخارج ، بل من الانهلال القوي يخرقها من الداخل .

الفصل السابع والأربعون

الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب الباباوات من أعظم قطب الضعف في الكنيسة الكاثوليكية أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحي بأكمله .

فلئن أريد للبابوية أن تفوز حقاً بأطماعها الظاهرة وأن تؤسس حكماً واحداً وسلاماً واحداً في كل أرجاء العالم المسيحي ، لكان من الواجب الضروري أن تكون قيادتها في أيد قوة حازمة . وكان من ألزم الضرورات إبان تلك الأيام العظيمة التي منحت فيها فرصتها ، ألا يتولى منصب البابوية إلا رجل كفء قادر في عنوان شبابه ، وأن يمين كل منهم خليفته ، حتى يستطيع أن يتناقص وإياه في سياسة الكنيسة ، وأن يكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بينه ، محددة غير قابلة للتغيير ولا معرضة لطعن . ولكن شيئاً من هذه الأمور لم يحدث لسوء الحظ ، بل لم يكن الناس يعرفون بوضوح من له الحق في التصويت في انتخاب البابا ، ولا ما إذا كان للإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صوت في الأمر ، وقد نقل هـ. براند ذلك السياسي المضحك (وهو البابا جريجوري السابع ١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، جهداً كبيراً في تنظيم الانتخاب .

فقرر الأصوات على الكرادلة الكاثوليك ، كاقصر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منحته إيهاها الكنيسة ، بيد أنه لم يتخذ أي عدة لتحسين خلف بالتخصيص ، كما أنه جعل من الممكن أن تؤدي منازعات الكرادلة إلى ترك كرسى البابوية شاغراً ، الأمر الذي حدث في بعض الحالات حين ترك شاغراً سنة أو أكثر .

هذه الحاجة إلى التعديد الجازم الدقيق لكل شيء تجعل في تاريخ البابوية بأكمله حتى القرن السادس عشر . فإن النزاع كان يلبد جو الانتخابات منذ أزمنة صحيحة جداً ، وكثيراً ما أعلن رجلان أو أكثر أن كلا منهم هو البابا الشرعي ، وهناك تعرض الكنيسة لمهانة الاحتكام إلى الإمبراطور أو أي حكم خارجي ليقضى بزيائه في النزاع ، وكانت حياة كل بابا عظيم تنتهي بغامة شير التساؤل . وقد تركت الكنيسة بعد موته بغير

وفيس ، وتصبح عاجزة غديغة الأثر كأنها جسد بلا رأس . وربما حل محلهم منافس عجوز كل همه أن يقضى على جبهوده وينتقصها . وقد يخلفه شيخ ضعيف يرتفع على حافة القبر .

لم يكن مفر من أن يذهب هذا الضعف الخاص في نظام البابوية إلى تدخل الأمراء الألمان وبمك فرنسا وللوك النورمانديين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترا ، كما لم يكن بد من أن يحاولوا جميعاً التأثير في الانتخابات ، وأن يكون لهم في قصر اللاتيران بروما بابايتهم بمصالحهم ویرعاهما ، وكما زاد البابا قوة وعلا شأنه في الشؤون الأوربية ، زادت الضرورة إلى تلك التغيرات ، فليس عجيباً في مثل تلك الظروف ، أن يكون كثير من الباباوات ضعافاً لاغناء فيهم ، على أن وجه العجب حقاً ، أن كثيراً منهم كانوا رجالاً شجعاناً أكفاء .

ومن أئد باباوات هذه الحقبة العظيمة قوة واستثارة لاهتمامنا ، البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) ، الذي كان من حسن حظله أن أصبح بابا قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثين . وكان هو وخلفاؤه يناصبون العداء شخصية تكاد تميز إستعاضاً وأهمية ، هي شخصية الإمبراطور فردريك الثاني ؛ الذي كان ينعت « أدهوغة العالم » ، وكفاح هذا المعامل ضد روما يد نقطة تحول في التاريخ ، أجل انتهى الأمر بأن هزمت روما وقضت على أسرتها ؛ بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابا وهيتهما جرحهما جراحاً بلغ من خطورتها أن تترت (١) في النهاية وأدت إلى انحلالها .

كان فردريك ابناً للإمبراطور هنري السادس ، وكانت أمه بنت روجر الأول ، ملك صقلية النورمانى . ورث هذه الملكة في ١١٩٨ عندما كان طفلاً في الرابعة . وقد عين إنوسنت الثالث وصياً عليه ، وكانت صقلية في ذلك الحين حديثة العهد بالنزوح النورمانى ؛ وكان بلاط الملك شرقياً أو يكاد حافلاً بطء العرب الواسى الاطلاع ؛ وقد أسهم بنف هؤلاء في تسليم الملك الصغير ، ولا شك أنهم لقوا بعض الضاء في توضيح آرائهم له فكفون في للسبغة رأياً إسلامياً ، كما كوفن في الإسلام وجهة نظر مسيحية ، ومن هذه التزية للزوجة ، خرج الملك بنتيجة تمة تمد شيئاً شاذاً في عصر الإيمان فذاك هي أن جميع البيانات دجل ، وطللاً تكلم بعله حرية في ذلك للوضع ؛ ويسجل لنا التاريخ كفره (هرطقاته) وتجديفاته .

ولما أن شب الفتي التي نفسه في نزاع مع وصيه ، ذلك أن إنوسنت الثالث كان ينادي
فيا يطلبه من الفتي القاصر ، فلما أن لفردريك تولى عرش الإمبراطورية ، تدخل البابا
مشرطاً بعض الشروط ، فأصر على أن يدفردريك بالتضام بقوة على ما بالمانيا من كفر
وزندقة ، وذلك فضلاً عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وإلا قوى سلطانه
ولم يقدر البابا على كبجه ، وعدا ذلك طالب البابا بإعفاء رجال الدين الألمان من الضرائب ،
ووافق فردريك على الشروط دون أن يضر البر بوعده بأي حال . وفي تلك الأثناء حمل
البابا الماهل الفرنسي على عن الحربي على رعاياه بفرنسا ، وهي الحملة الصليبية القاسية الدامية
التي شنت على أتباع والدو ؛ وقد أراد أن يفعل فردريك نفس الفعلة في ألمانيا ، ولكن
لما كان فردريك أشد كفراً وزندقة من أي « ورعي »^(١) بسيط من أولئك الذين
جلبوا على أنفسهم عداوة البابا ، فمن البديهي أنه كان يوزنه التحمس لأمثال هذه
الحملات الصليبية ، وعندما حرصه إنوسنت على القيام بحملة صليبية على المسلمين
واسترداد بيت المقدس ، لم يتردد في المبادرة بالوعد ، كما لم يتردد بالمثل في التباطؤ
في التنفيذ .

حتى إذا تم لفردريك الثاني الحصول على التاج الإمبراطوري أقام بصقلية ، التي كان
يؤثر الإقضية فيها على المقام في ألمانيا ، ولم يفعل شيئاً للبر بأي وعد من وعوده لإنوسنت
الثالث ، الذي مات في ١١١٦ بعد أن أعياه أمره .

ولم يستطع هونوريوس الثالث الذي خلف إنوسنت ، أن يكون أحسن حظاً من
فردريك من سلفه ، ثم تولى جريجوري التاسع عرش الباباوية (١٢٢٧) وقد صمم
تصميماً واضحاً على تسوية الحساب مع ذلك الفتي مهما يكن الفتن . فأصدر قراراً بجرمانه .
وحيل بين فردريك الثاني وبين كل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل المراء والساموى .
ومن السبب أن هذا الإجراء لم يضائق البلاط الصقلي نصف العربي إلا أقل المضايقة .
ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطور أيضاً خطاباً مفتوحاً يسرد ذلاله « التي لا يستطيع
إنسان إنكارها » ، وزندقته وسوء سيرته يوجه عام . فلما كان من فردريك إلا أن

(١) الوريون : (Pistists) هم أتباع والدو كما هو ظاهر من السياق ، وهم يأخذون أغشيهم
بالروح الجديد في أبسط صور المسيحية الأولى . [الترجم]

أجاب على تلك الرسالة بوثيقة تم عن مقدرة شيطانية . وجهت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوروبا كما أنها أول بيان واضح عن النزاع بين البابا والأمراء . وفيها ألقى بالعلم القاتل على مطامع البابا الواضحة : أن يكون الحاكم للطلق لأوروبا كلها ، واقترح قيام اتحاد بين الأمراء ضد ذلك الاعتصاب . ووجه أنظار الأمراء بنوع خاص إلى ما تستحق به الكنيسة من ثراء .

حتى إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة ، صمم على البرعودة الذي تأخر إنجازها اثنتي عشرة سنة بالخروج في حملة صليبية . وتلك هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) . كانت كحملة صليبية تعد مهزلة . فإن فردريك الثاني ذهب إلى مصر وتنازل مع سلطاتها وتباحث وإياه في الأمور ، راح هذان السيدان وكلاهما بمن انطوت نفسه على التشكك - يتبادلان آراء متجاسة ، وأبراما مهادنة تجارية تعود عليهما بالنفع المشترك ، وانفقا على أن يحتفل بيت للقدس إلى يد فردريك . ولا شك أن ذلك كان ضرباً جديداً من الحرب الصليبية ، فهو حملة صليبية بلا سلاحها للعاهدات والوائقي . وهنا لم يهرق دم ولا تطاير له على القاع رشاش ، ولا حدث ف بكاء من فرط السرور . ولما كان ذلك الصليبي للدهش رجلاً مهروماً بأمر الكنيسة . فإنه اضطر أن يفتح بتوقيع عسائي عرض كذلك لبيت للقدس ، متاولا التاج من اللذيع بيده — وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يحتنبوه . ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك ، وما زال بالجيوش البابوية التي غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية ، وأرغم البابا أن يرفع عنه قرار الحرمان . تلك هي الشاكلة التي استطاع أحد الأمراء أن يعامل بها البابا ، في القرن الثالث عشر ، دون أن تتسبب آنذاك عاصفة من الغضب الشعبي للانتقام له ، فإن تلك الأيام قد ولت ١١ .

ثم عاد جريجوري التاسع فاستأنف في ١٢٣٩ كفاحه مع فردريك ، وحرمه للمرة الثانية وجدد حملة السباب العنفي ، التي سبق للبابوية أن لاقت منها شرّاً مستطيراً ، على أن الخصومة تجددت بعد وفاة جريجوري التاسع ، عندما تولى كرسي البابوية إنوسنت الرابع ؛ ومرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطاباً مدغراً عن ذلك النوع الذي يضطر الناس إلى تذكره ، وفيه سب كبرياء رجال الدين وقلة تدينهم ، ونسب كل مفساد

الزمان لكبريائهم وثرائهم . واقترح على زملائه الأمراء مصادر أملك الكنيسة بصورة عامة — لمصلحة الكنيسة نفسها ، وهو اقتراح لم يصادر ذاكرة الأمراء الأوربيين بعد ذلك أبداً .

وسنكشف عن الاسترسال في تتبع أخباره في أخريات أيامه ، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوها العام . ومن الممكن أن نجتمع لك شذرات عن حياة بلاطه في مقالية . كان يعيش عيشة الترف ، كما كان مفرماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بأنه رجل إباحي . ولكن من الواضح أنه كان رجلاً أوثق درجة عظيمة من حب الاستطلاع النفاذ والرغبة في البحث النافع . وقد جمع في بلاطه الفلاسفة من اليهود والعرب والسيحيين ، وبذل جهوداً كبيرة لغمر العقل الإيطالي وإرواله بالتأثرات العربية ، وبفضله نقلت الأرقام العربية والجبر العربي إلى الطلاب المسيحيين ، ومن الفلاسفة الكثيرين للقيمين ببلاطه ميخائيل اسكوت ، الذي ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو والتعليقات التي دونها عليها الفيلسوف العربي العظيم ابن رشد القرطبي . وفي ١٢٢٤ أسس فردريك جامعة نابولي ، كما وسع المدرسة الطبية الكبيرة بجامعة سالرنو وأغلق عليها لئلا . ثم إنه أسس كذلك حديقة للحيوان . وترك كتاباً في الصيد بواسطة الصقور ، يكشف عن قوة ملاحظه لطباع الطيور ، وهو من أوائل من كتب الشعر بالإيطالية من الإيطاليين . بل الحق إن الشعر الإيطالي ولد في بلاطه . وقد بدأ أطلق عليه أحد كبار الكتاب ، اسم « أول الصريين » ، والعبارة تعبر في كفاية تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تحيز أو تعصب .

ومع بادرة أخرى أكثر استرهاً للاضطرار تدل على تناؤل حيوية البابوية وانهايار الأركان الداعمة لها . ظهرت تلك البادرة عندما احتبك الباباوات فور ذلك في نزاع مع ملك فرنسا وقهرته النامية . فإن ألمانيا تردت في مهاوى التفرق أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثاني ، كما شرع لل ملك الفرنسي في أن يلعب دور حامى البابا وظهيره ومناقبه وهو الدور الذي كان حتى آنذاك من نصيب أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . وقد راحت جماعة متتالية من الباباوات تنتهج سياسة مناصرة ملوك فرنسا . وكانت نتيجة ذلك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش مملكتي صقلية ونابولي ، بمساعدة روما وموافقتها ،

كما أن الملوك الفرنسيين أدركوا أن في الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلان وتولى الحكم فيها . على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهت فترة خلو العرش الألماني التي أعقبت وفاة فردريك الثاني ، آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرجي أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، ابتدأت سياسة روما في التذبذب بين فرنسا وألمانيا ، وأصبحت تتنقل مع عواطف كل بابا جديد . فأما في الشرق فإن الروم استردوا القسطنطينية في (١٢٦١) من قبضة الأباطرة اللاتين ، وسرعان ما عمد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس ، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن ، إلى الانفصال عن المجتمع الكنسي الكاثوليكي تماماً ، بعد إبداء محاولات غير حقيقية للصلح مع البابا ، وبذلك الانفصال ، ويسقط البابا اللاتينية في آسيا ، انتهت عظمة البابا في ربيع الشرق .

وفي ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش الباباوية . وكان إيطاليا معادياً للفرنسيين ، قوى الشعور بعظيم تقاليد روما ورسالتها . قتل زمانا يدير الأمور بيد مستأجرة . وقد أقام حفلات البويل في ١٣٠٠ ، وتقاطرت على روما جماهير غفيرة من الحجاج . « وبلغ من عظم ميل الذهب إلى خزانة الباباوية ، أن عين مساعداً اثنان بالجواريف لجمع الهدايا التي وضعت على قبر القديس بطرس »^(١) . يد أن هذا الاحتفال كان نصراً خداعاً . إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا في ١٣٠٢ ، وفي ١٣٠٣ أعد البابا المدة لتنطق بقرار حرمان ذلك الملك ، ولكن ظيوم دى نوجاريه فاجأه واعتقله في قصر أسلافه تنسج يلهة أناجيني . دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصر عذبة ، وتقدم إلى حجرة نوم البابا للذعور — إذ أنه وجده راقداً في فراشه ويده السليب — واتهام عليه بالتهديد والإهانة . وهب أهل المدينة لإنقاذ البابا بيد يوم أو يومين ، فهاك إلى روما ؛ ولكن قبضت عليه هناك أسرة أورسني وأخذته من جديد أسيراً ، ولم تنقذ بضعة أسابيع حتى مات ذلك الشيخ مصدوماً وقد زالت عن عينه غشاوة الأمل الكاذب .

لقد غضب سكان أناجيني للاعتداء الأول . وهبوا لتخليص بونيفاس من قبضة نوجاريه ، ولكن أناجيني كانت بهد البابا ومسقط رأسه . وأمام ما يستلفت النظر هنا ،

هو أن الملك الفرنسي ، كان في هذه المألة الحشة لرأس السليحية يعمل مستمناً بكامل استحسان شعبه ؛ فإنه كان قد دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث وهم (النبلاء والكنيسة والمألة) وخصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات للتطرفة . ولم يتحرك أحد في إيطاليا ولا ألمانيا ولا إنجلترا ، ولم يند من الناس أى مظهر عام لاستهجان هذا التصرف الجريء . الحادش لكرامة رأس السليحية للتريع آنذاك على عرش الحبر الأعظم . ذلك أن الفكرة القاتلة بقيام « عالم النصرانية ودولتها » انضححت حتى اندثر كل سلطان لها على أذهان الناس .

انقضى القرن الرابع عشر دون أن تقبل البابابوية شيئاً لاسترداد سلطانها الأدنى . وكان البابا الذى انتخب بعد ذلك ، وهو كليمنت الخامس فرنسياً ، اختاره فيليب ملك فرنسا ، فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون ، التى لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا ، بل للكرسى البابوى ، وإن وقعت في الأراضى الفرنسية ، وهناك ظل خلفاؤه حتى ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الفاتيكان في روما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم تنتقل معه باقائه إلى روما قلوب الكنيسة جماعاً ، وذلك لأن كثيراً من الكرادلة كانوا من أصل فرنسى ، وقد تأصلت في أفينيون عاداتهم وعلاقتهم بالناس . حتى إذا مات جريجورى الحادى عشر في ١٣٧٨ ، وانتخب بدله إيطالى هو إربان السادس ، أعلن هؤلاء الكرادلة للنشوق عدم صحة الانتخاب وانتخبوا المنصب البابوية شخصاً آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع . ويسمى هذا الانقسام بالصدع الأعظم . على أن الباباوات الأصلاء ظلوا في روما ، كما ظلت جميع الدول للضادة للفرنسيس موالية لهم ، كالإمبراطور وملك إنجلترا وبلاد المجر وبولندة وشمال أوروبا . أما الباباوات المعارضون ، فقد ظلوا في أفينيون يظهرون ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وأسيانها والبرتغال وأمراء الممان مختلفين . وكان كل بابا يحرم أنصار منافسه ويلطمهم (١٣٧٨ - ١٤١٧) .

أعيبب إذن أن شرع كل إنسان في كل أرجاء أوروبا بفكر في هتون دينه بنفسه ؟

لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسكانيين ولا الدومينيكيين إلا عاملين من بين العوامل الكبيرة الجديدة التى شرعت تنشأ في السليحية ، إما لتأييد الكنيسة أو تمزيقها . — وهما

أمران يرجع إليهما لتقدير الكنيسة . وقد تبنت هاتين الجمعيتين فعلاً واستنادت بحدماتهما ، وإن استخدمت في البداية شيئاً من العنف مع الجماعة الأولى . بيد أن هناك عوامل وقوى أخرى كانت أصرح في إظهار العصيان والانتقاد . فقد ظهر وبكيليف (١٣٢٠ — ١٣٨٤) بعد ذلك بقرن ونصف . كان أستاذاً عظيم الاطلاع بأكسفورد . فشرع بوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت به السن طائفة صريحة من الانتقادات للماسد رجال الدين وبقه حكمتهم . ونظم من أتباعه جماعة من فقراء القسوس ، هم الويكليفيون ، لنفص آرائه في كافة أرجاء انجلترا ؛ ولكي يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب للقدس إلى الإنجليزية . كان أوسع علماً وأكثر اقتداراً من كل من القديسين فرنسيس ودومينيك . وقد كثر بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية مؤيدوه ، كما عظم عدد أتباعه بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت ثائرتها سخطاً عليه ، وأمرت بحبسه ، فإنه مات حراً طليقاً لم تعس حرته بسوء . بيد أن الروح القديمة الشريرة التي كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوى الدمار ، لم تطلق ترك عظامه هادئة في قبورها . إذ مهدر عن مجمع كونستانس ١٤١٥ ، مرسوم يقضى بنش عظامه وحرقها ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج في ١٤٢٨ بأمر من البابا مارتن الخامس . وجدير بالذكور أن هذا التدنيس للحرمت لم يكن من عمل متعصب مفرد ؛ بل كان عملاً رسمياً صدر عن الكنيسة .

الفصل الثامن في الازبعون

فتوح المغول

ولكن في أثناء القرن الثالث عشر وبينما كان هذا السكاج العجيب غير الثمر في سبيل توحيد المسيحية تحت حكم البابا تتواصل أحداثه في أوروبا ، كانت أحداث أخرى أعظم خطراً قائمة على ساق في مسرح آسيا الأوسع مجالا . فإن شعباً تترياً من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين قسم لجأ غارب السيادة في العشون العالمية ، وأحرر طائفة متعاقبة من الفتوح ليس لها في التلرخ مثل ، وهذا الشعب هو للتول . كانوا عند مستهل القرن الثالث عشر ، قبية من الفرسان الرحل ، يعيشون على طريقة أسلافهم المون تترياً ، فيخذون بوجه خاص باللحم ولبن الأفراس ، يعيشون في خيام من الباد . ولقد تغصوا هن أنفسهم نير السيادة الصينية ، وأدخلوا عدداً من القبائل التركية الأخرى في اتحاد عسكري معهم . كان معسكرهم للركزي على نهر الأونون بـسيريا .

وكانت الصين في ذلك الأوان في حالة انقسام . فإن سلطان أسرة تانج العظيمة قد انمحل في القرن العاشر لليلادي ، ثم هوت الصين في هوة الانقسام وتحولت إلى ولايات متطاحنة ، حتى استقرت بها في النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية : هي إمبراطورية كن (Kin) في الشمال وعاصمتها يكيين . وإمبراطورية منج في الجنوب وعاصمتها نانكين ، وإمبراطورية هسيا (Hsia) في الوسط . وفي ١٢١٤ شن چانگكيزخان قائد اتحاد للتول ، غارة على إمبراطورية كن واستولى على ييكيين (١٢١٤) . ثم تحول بعد ذلك غرباً وفتح التركستان الغربية وفارس وأرمينية وتوغل في الهند حتى لاهور ، وفي جنوب الروميا حتى بلاد المجر وسيليزيا . ومات چانگكيزخان وقد صار سيذا على إمبراطورية هالة تمتد من المحيط الهادي إلى نهر الدنيير .

وأسس خلفه أوجيداي خان عاصمة دائمة له في قره قورم بمغوليا وواصل سيرة ذلك الفتح للدهشة . وقد بلغت جيوشه درجة عالية جداً من السكافية والنظام ؛ وكان معهم اختراع صيني جديد هو البارود ، كانوا يستخدمونه في مدافع ميدان صغيرة .



خريطة رقم (١٢)

آم أوجداى فتح إمبراطورية كن ، ثم دفع بجيوشه قدما عبر آسيا إلى الروسيا (١٢٣٥)، وهو زحف عظيم يمت على أعظم المسافة . فدمرت كيف في ١٢٤٠ ، وأصبحت الروسيا كلها تقريباً تابعة للنفول . وعات للنفول في بولنده نها وتدميراً ، ثم ألدوا جيشاً عظيماً من البولنديين والألمان في معركة لينيز بمنطقة سيليزيا الدنيا ١٢٤١ . والظاهر أن الإمبراطور فردريك الثانى لم ينفذ أى جهد لإيقاف تقدم ذلك السيل ، للنفول للتهمر .

يقول يورى في ملحوظاته على كتاب جيون السمي اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها : « إن المؤرخين الأوربيين لم يبدأوا إلا فى الآونة الأخيرة فى إدراك أن الانتصارات التى أحرزها الجيش للنفول باجتياحه بولنده واحتلاله بلاد المجر فى ربيع ١٢٤١ ، إنما اكتسبت بالأعمال الحربية للتقنة ، ولا ترجع إلى مجرد التفوق العددي الجارف . بيد أن هذه الحقيقة لم تصبح بعد أمراً معلوماً للجميع ، إذ لا يزال منتشرًا بين الناس الرأى الشائع الذى يمثل التار فى صورة الجيش الوحش الذى يهترف كل شيء أمامه بقسوة السكرة العددية وحدها ، والذى يرمح بغيوله فى أرجاء أوربا الشرقية دون أية خطة حربية ، متدفعا على ما يترنمه من عقبات ومتحلبا عليها بمجرد الوزن السدي .

« وكم كان من اللعش تنفيذ الخطط في وقتها المحد بالضبط وبكفاية فعالة متقنة ، في عمليات حرية تمتد من الستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . ولقد كانت مثل تلك الحملة تتجاوز تماماً طاقة أى جيش أوربي في ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق ما يحلم به خيال أى قائد أوربي . لم يكن في أوروبا قائد واحد ، - وفي مقدمتهم فردريك الثاني - لا بعد ضمراً (١) قليل القدرة في الخطط الحربية بالقياس إلى سوبوتاي . وبما هو جدير بالملاحظة أيضاً ، أن القبول أقدموا على تلك للنامرة وهم على تمام المعرفة بمركز المجر السياسى وبالأحوال الدائرة في بولندة - ذلك أنهم حرصوا مقدماً أن يجمعوا المعلومات الكافية بواسطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن المجرين والدول السليجية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال ، لا يكادون يعرفون شيئاً عن أعدائهم » .

على أن القبول وإن أحرزوا النصر في لجنتر إلا أنهم يواصلوا تقدمهم غرباً . ذلك أنهم أخذوا يدخلون في أراض تكسوها الغابات والتلال ، ولا تتناسب وطريقتهم في القتال ، لذلك انحرفوا جنوباً واستمدوا للاستقرار ببلاد المجر ، وأخذوا يعملون الدخ في دوى قربابم من المجرين أو يتبنونهم ، على نحو ما فعله هؤلاء من قبل في الإسكيزيين والآكار والمون الذين اختلطت دعاؤهم هناك . ولعلهم كانوا يبنون أن يقوموا من وادى المجر بالإغارة غرباً وجنوباً مثلما فعل المجريون في القرن التاسع والآفاز في السابع والثامن والهن في الخامس ، ولكن أوجدائ خان مات فجأة وترب على وفاته نزاع على وراثة العرش في ١٢٤٢ ، وعند ذلك أخذت جيوش القبول غير للتهزئة تتراجع نحو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا .

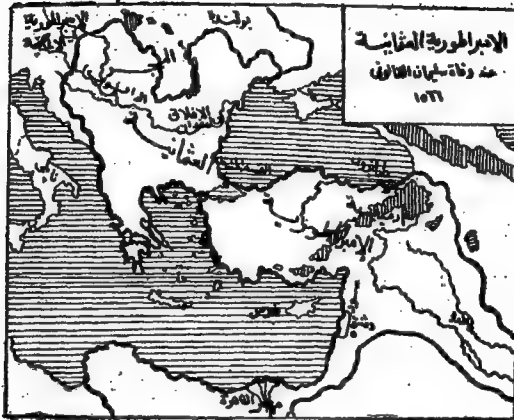
ومن بعدها ركز القبول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية . فلم يخل منتصف القرن الثالث عشر حتى فتحو إمبراطورية منج . وقد خلفه مانجوخان في منصب الخان الأكبر في ١٢٥١ ، وعين أخاه قوبلاي خان حاكماً على الصين . وأصبح قوبلاي خان إمبراطور الصين المعروف به في ١٢٨٠ ، وبذلك أسس أسرة يوان التي دامت حتى ١٣٦٧ . وفي نفس الوقت التي كانت أسرة منج تلتفت فيه آخر أقاليمها في بلاد الصين ، كان أنج آخر لمانجو هو هولاًكو ، يفتح فارس وسوريا . وأظهر القبول في ذلك الزمان

عداوة مريرة للإسلام ، ولم يكتفوا بتذيع مكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة بل شرعوا في تدمير نظام الرى السحيق القدم الذى ظل على الدوام يحمل من أرض الجزيرة بلادا رغيدة أهلة بالسكان منذ أيام سومر القديمة . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التسة يابا من الخراب والأطلال ، لا تتسع إلا لعدد القليل من السكان . ولم يدخل القول أرض مصر قط ، فإن سلطان مصر هزم جيشا لهولاكو هزيمة تامة بفلسطين ١٢٦٠ .

وأخسر سيل النصر للقولى بعد تلك الكارثة . وانقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول للفرقة الشمل . فأصبح القول الشرقيون بوذين كالصينيين ؛ وأصبح الغربيون منهم مسلمين . ثم نفى الصينيون عن كواهم حكم أسرة يوان فى ١٢٦٨ ، وأقاموا أسرة منج القومية التى ازدهرت من ١٢٦٨ إلى ١٦٤٤ . طلى أن الروس ظلوا تابعين للجموع القولية فى السهوب الجنوبية الشرقية حتى ١٤٨٠ . عندما نذ غراندوق موسكو ولاده ووضع أساس روسيا الحديثة .

وقد انتعشت قوة القول أمدا وجيزا فى الرابع عشر فى عهد تيمورلنك ، وهو من سلالة جنكيزخان . فوطد ملكه بالتركستان الغربية ، وانخذلقب الخان الأعظم فى ١٣٦٩ ، وقسح البلاد الواقعة بين سوريا ودلهى . ولكن الإمبراطورية التى أسسها انتهت بموته . ومها يكن من شيء ، فإن حفيدا لذلك الفاع تيمور وهو مغامر اسمه بابر استطاع فى ١٥٠٥ أن يجمع جيشا مزودا بالمدافع هبط به على سهول الهند . وماليت حفيده أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) أن أتم فتوحه ، وانخذت هذا الاسرة القولية دلهى قسبة لها ، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر .

ومن هواقب الاكتساح القولى الكبير الأول فى القرن الثالث عشر خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلك باسم الأتراك السمانيين من موطنها بالتركستان إلى آسيا الصغرى . بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانهم بآسيا الصغرى ، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبلاد الصرب وبلغاريا . وانتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية ، قائمه وحدها كأنها جزيرة فى بحر من السمانيين . وفى ١٤٥٣ استولى السلطان السمانى محمد الفاع على القسطنطينية ، بعد إذ هاجمها من الجانب الأوروبى بمدد كبير من المدافع . وأحدثت تلك الحادثة هياجا عظيما فى أوروبا ، وتحدث الناس بحرب صليبية ، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ول .



خريطة رقم (١٣)

ولم يتغص القرن السادس عشر حتى تم لسلطين آل عثمان فتح بغداد وبلاد المجر
ومصر ومسلم إفريقيا الشمالية ، كما أن أسطولهم جعلهم سادة البحر المتوسط . وكادوا
أن يستولوا على فيينا ، كما أنهم فرضوا الجزية على الإمبراطور . ولم يكن هناك في القرن
الخامس عشر الاشيئان عوضا المسيحية عما أصابها من نقص في الممتلكات . وأول
هذين الشيئين ، هو استرجاع موسكو لاستقلالها (١٤٨٠) ؟ وثانيهما استرداد
المسيحيين أسبانيا وريوداً وريوداً من يد العرب . ففي ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر
دولة إسلامية في شبه الجزيرة في يد فرديناند ملك أرجونة وزوجته إزابيلا
ملكة قشتالة .

ولكن كبرياء الترك لم تكسر شوكته إلا في ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو البحرية
التي أعادت مياه البحر المتوسط إلى أيدي المسيحيين .

الفصل التاسع والأربعون

النهضة الفكرية للأوربيين

ظهرت إبان القرن الثاني عشر شواهد كثيرة تشهد بأن الفداء الأوربي أخذ يسترد شجاعته وينتهر فرصته للواعة ، ويستمد ليقنول من جديد قصب للتألمات الذهنية الذي حمه أول من بحثوا في العلم من الإغريق ، وصولجان النظر التأمل الذي تجلى لدى أمثال لوكريشيوس الإيطالي ، ويرجع ذلك الانتعاش لأسباب عديدة معقدة . ولا شك أن من بين الظروف الضرورية للمهدة لذلك الأمر ، القضاء على الحرب الخاصة ، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية ، والاستثارة التي أحدثتها تلك الحملات في عقول الناس بما جلبته إليهم من خيرات . أخذت التجارة تنتشع ؛ وبدأت المدن تسترد اليسر والأمن ، هذا إلى أن مستوى التعليم شرع يرتفع بين رجال الكنيسة وينتشر بين المسلمين . وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن نامية ومستقرة أو شبه مستقرة ، تذكر منها على سبيل المثال ، البندقية وفلورنسة وجنوة ولشبونة وباريس وبروج ولندن وأنكرس وممبورج ونورمبرج ونوفغورود وويسبي وبرجن . وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون ، ويدهي أنه حينما أبحر الناس وسافروا تحدثوا وفكروا . وكانت المجادلات الدائرة بين البابا والأمراء ، وما تجلى في اضطهاد من يهتمون بالكبر من وحشية وشر ظاهرين ، تدفع بالناس إلى الشك في سلطان الكنيسة وإلى التساؤل وللناقشة في المسائل الجوهرية .

وقد رأينا كيف كان العرب هم الأصل في إزجاج أرسطو إلى أوروبا ، وكيف أن أمير مثل فردريك الثاني كان كالمجاز الذي استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن تعمل عملها في العقل الأوربي الناهض . على أن اليهود كانوا أعظم أثراً في تنشيط أفكار الناس . وكان وجود اليهود في حد ذاته مثار استفسار حول مدعيات الكنيسة ؛ ولا تنفي أخيراً أبحاث قدامى الكيلاويين السرية الفاتحة ؛ وكيف أخذت تنتشر في كل مكان وتدفع بالرجال إلى معاودة جهودهم في العلم التجريبي ، بصورة مثبته وخفية إلا أنها مشيرة أيضاً .

والحركة التي دبت في عقول الناس لم تكن قاصرة عند ذاك بأي حال على الأثر وللحليين . فإن عقل الرجل العادي يتقبط في هذا العالم ، على شاكلة ليس لها مثيل في كل ما سلف من ألام الإنسانية . ويلوح أن للسيجة كانت تحمل إلى الناس الخمار الفكرة حينما انتشرت تعاليمها ، وذلك على الرغم من غباء القسيس وظلم الاضطهاد . فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد وبين رب البر والصلاح ، حتى لقد أصبحت لديه آنذاك - إذا لزم الأمر الشجاعة التي تعيض له إصدار حكمه الخاص على الأمير أو الأسقف أو العقيدة .

واخذت رحي للنقاشات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد في أوروبا منذ زمن بعيد . يرجع إلى القرن الحادى عشر ، كأن جامعات عظيمة فاهضة أنشئت في باريس وأوكسفورد وبولونيا وغيرها من المراكز العلمية . وهناك شرع علماء القرون الوسطى يشيرون من جديد طائفة من المسائل تصل بقيمة الكلمات ومعناها ويقتلون بها بحثاً ، وكان هذا تعميماً لا بد منه للتفكير السابق أثناء عصر العلوم الذي جاء في أعقاب ذلك . وهناك عالم يعد وحيد عصره لما هو عليه من نبوغ ممتاز ، هو روجربا كون (من قرابة ١٢١٠ إلى قرابة ١٢٩٣) ، وهو راهب فرنسكانى من أوكسفورد ، يمكن أن يسمى أبا العلم التجريبي العصري . ولا شك أن اسمه جدير بأن يمجّد ويخطف كتابناهذا تعميماً لا يسيقه فيه إلا أرسطو وحده .

وكتاباتنا إنما هي حملة واحدة قوية على الجهل . فقد أخبر أهل عصره صراحة بأنهم جهة وهو شيء ينطوى على جرأة لا يصدقها عقل وربما استطاع إنسان في هذه الأيام أن يخبر طاله أنه سخي فقدم ما هو جاد وقور ، وأن جميع أساليه لا تزال مسمكة عبيبة ببت الأطفال ، وأن كل مذاهبه الاعتقادية فروض طفولية ، دون أن يتعرض لأى أذى جبانى كبير ؛ بيد أن أناس القرون الوسطى كانوا - حين يغلو وقهم من اللذائج أو من أن تعمل فيهم يد الحياة أو الأوبة فتسكا وإبادة - موقنين يقيناً عنيماً بحكمة معتقداتهم وكتابتها وأنها خاتم للعقائد جميعاً ، تراعين إلى الضرب للرب من وجعها موضع البحث والتأمل ، وكانت كتابات روجربا كون أشبه ما تكون بضياء ساطع يخطف الأبصار في ظلمة ليل حالكة . وقد مزج هجوماته على جهالة عصره بطائفة ثبينة من المقرحات المادفة إلى زيادة اللوعة . وإنك لتشهد روح أرسطو تبحث حية من جديد حين ترى تهممه وإصراره على الحاجة إلى التجريب وجمع المعارف . فالنزمة التي لم يفتأ

روجر باصكون يزددها ، والنبذة التي رفضها على كواله ، هي : « التجربة ، والتجريب » .

يبد أن روجربا كون شنع على أرسطو . ولم يسلك ذلك السلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا ، بدلا من أن يواجهوا الحقائق بشجاعة ، يقعون في نيوتهم مكيفين علو، الترجمات اللاتينية الرديئة التي كانت آنذاك كل ما يستطيع الحصول عليه من مؤلفات الفيلسوف . كتب في لهجته للتطرفة يقول : « لو تركت لي الحرية لأحرق كتب أرسطو جميعاً ، وذلك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى ضياع الوقت وإلى الخطأ وزيادة الجهل . » وهو شعور ربما رده أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه بل تعبد عبادة - مع أنها مدونة في تلك الترجمات البغيضة كما أوضح ذلك روجربا كون .

وكان روجربا كون يهيب بالبشرية بملء فيه في كل صفحات كتبه في شيء من الثقة دعت إليه ضرورة اصطناع التوفيق بين كتاباته والعقيدة الصحيحة السليمة خشيبة السجن أو ما هو أسوأ من السجن . « كفوا عن أن تحككم للذهاب الاعتقادية والسلطات المتسكة ، وانظروا إلى عالمكم ! » ولطالما شهرا كون بمصادر أربعة للجهل هي احترام ذوي السلطان ، والعرف ، وإحساس الجمهور بجهله ، وميولنا غير القابلة للحمل مع انصافها بالفرور والكبرياء . « فلو لم تتغلبوا إلا على هذه وحسب ، لا فتحت أمامكم أبواب عالم من القوة : -

« في الإمكان وجود آلات تختر البحر دون مجذاف يحررهما . ومن ثم فإن السفن الكبيرة اللائقة لنهر أو المحيط ، والتي يقودها رجل واحد ، ربما سارت بسرعة أكثر مما لو كانت مليئة بالرجال . وكذلك . يمكن منع العربات بحيث يمكن تحريكها دون الاحتياج إلى دواب الجر Cum impelo Inoe Stimabile ، وهي الصورة التي تصورها العربات ذات التناجل التي كان القدماء يهاجرون فوقها . ثم إذ في الإمكان وجود آلات طائرة ، يستطيع الرجل أن يجلس في وسطها ويدبر شيئاً تخفق به أجنحة صناعية في الهواء على منوال أجنحة الطير . »

هكذا كان روجربا كون يكتب ، ولكن كان لا بد أن تتقضى ثلاثة قرون أخرى

قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته للنظمية في ايجاد خبيثات القوى المجرورة المختزنة ،
أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذى يحجب الفنون البشرية .

على أن العالم العربى لم يمنح للسيجة حافزاً يحفز قلاسلها ويكايها فقط ؛ بل أعطاه
الورق أيضاً . ولا إخالنا نبأخ إذا قلنا إن الورق هو الذى جعل فى الإمكان امتلاء
أوروبا فكرياً .

نشأ الورق أصلاً فى الصين ، حيث يرجع استخدامه فى الراجع إلى القرن
الثانى ق . م . وقد حدث أن هاجم الصينيون العرب المسلمين فى سمرقند ع
٧٥١ م ؛ فردوم على أعقابهم ، وأسروا منهم أسرى كان من بينهم بعض مهرة جناب
الورق ، ومنهم تعلم للمرب تلك الصنعة . ولا تزال عندنا إلى اليوم مخطوطات مسطرة
ورق عربى مصنوع فى القرن التاسع لما بعده . ثم دخلت تلك الصناعة البلاد للسيجة ؛
بطريق بلاد اليونان أو بالاستيلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس أثناء استرداد المسيحيين
لأسبانيا . على أن الإنتاج تدهور فى ظل الأسباب للسيجين تدهوراً حزيناً . ولم يقيم
صنع الورق الجيد فى أوروبا للسيجة إلا فى نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت
إيطاليا رائدة العالم فى هذا المضمار . ولم تبلغ تلك الصناعة ألمانيا إلا فى القرن الرابع
عشر ، على أنها لم تكبر ويخص سر الورق رخصاً يجعل طبع الكتب أمراً ممكناً إلا
عند نهاية ذلك القرن . وعند ذلك جاءت الطباعة كنتيجة طبيعية لابد منها ، ذلك أن
الطباعة من أبسط الاختراعات وأشدّها ظهوراً للعيان ، وعند ذلك دخلت حياة العالم
العقلية فى طور جديد أقوى كثيراً من كل ما سبقه . وكفى عن أن تكون راحة
مثيلاً يتسلل من عقل إلى عقل ؛ وأصبحت أيضاً عامراً ، اشتركت فيه آلاف من العقول
تضاعفت للفور فصدت عشرات آلاف بل مئات الآلاف .

وعمّة نتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة - هى ظهور عدد وفير من نسخ الكتاب
للنفس فى العالم وتداولها بين الناس . وأخرى هى رخص سعر الكتب المدرسية .
وكان انتشار المعرفة بالقراءة سريعاً فلم يزد عدد الكتب فى العالم زيادة عظيمة
وحسب ، بل إن الكتب التى كانت تصنع آنذاك كانت أوضح بصيرة القارىء ، ففى
ذلك أسهل عليه فهمها . وبدلاً من الإكباب فوق متن كتابية معترية ، ثم محاولة فهم دلوها
أصبح القراء يستطيعون آنذاك أن يفكروا أثناء القراءة دون أن يتعطل تفكيرهم عائق .
وبفضل هذه الزيادة فى سهولة القراءة ، تزايد عدد القراء . وكفى الكتاب من أن

يكون العوبة مرفقة بعديدة الخزقة ، أو طلبها ينطوى على سر أحد العلماء ، وشرع الناس في كتابة الكتب ليقراها عامة الناس ويستمعوا بمنظرها على السواء ، وأخذوا يكتبون باللغة العادية وليس باللاتينية . فإذا أقبل القرن الرابع عشر ، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوربي .

ظلمنا حتى الآن نعالج نصيب العرب في النهضة الأوربية . فلتتجه الآن إلى تأثير الفتوح للغولية ، فإنها أثارت الخيال الجغرافي لدى الأوربيين إثارة هائلة إذ ظلت آسيا كلها وأوروبا الغربية تتحان رسماً من الزمان في ظل الحان الأعظم باتصال حر مطلق ؛ فانفتحت كل الطرق إلى حين بين تلك البلاد جميعاً ، وحضر بمثل الشعوب جميعاً إلى بلاط الحان في قره قورم . وأزيلت إلى عدما جميع الحواجز التي فصلت بين أوروبا وآسيا ، بسبب الخلاف بين المسيحية والإسلام . وعلقت الباباوية آمالاً كباراً على إدخال النول في المسيحية . وذلك لأن ديانتهم الوحيدة حتى ذلك الحين هي الشامانية (١) ، وهي ضرب بدائي من الوثنية . فاجتمع في بلاط النول مبعوثو البابا ، وكهان بوديون من الهند وفارس . وما أكثر ما محدثنا التاريخ عن حملات النول ومذابحهم ، دون أن نسمع القدر الكافي من الحديث عن حجم الاستطلاع ورغبتهم في العلم .

وقد كان فضل النول جسيماً وأثراً في تاريخ العالم عظيم . لا بوصفهم شعباً ذا أسالة واستعدادات ، بل كمنفعة للمعرفة والأساليب . وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصيات چانكيز أو قوبلاي (الرومانية) البهية ، يرجع إلى تقوية الرأي القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكاً لا يتلون في الفهم والابتكار عن أي من الإسكندر الأكبر ذلك الإنسان الزاهي الوهاج والأثافي أيضاً . أو شلمان ذلك اللاهوتي الأثافي الناشط الذي ابتعث أشباح الماضي السياسية .

ومن أمتع هؤلاء الزوار لبلاط النول رجل من الهندية اسمه ماركو پولو ، دون قصته فيما بعد في كتاب . ذهب إلى الصين حوالي ١٢٧٢ مع أبيه وعمه ، وكانا قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك ، وكان تأثير هذين الرجلين في عسى الحان الأعظم عظيماً ،

(١) الغامانية : ديانة شمال آسيا وجنوب يوجيا خلبس على الشعر والمعركة . [الترجم]

وبما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية ؛ فأعادها إلى بلادها الخمسا للبحث وطلب للعلمين والعلماء الذين يستطيعون تفسير المسيحية له ، ومن أجل مسائل أوربية متنوعة أثارته حبه للاستطلاع . فكان زيارتهما بصحبة ماركو هي الثانية .

بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، كما حدث في رحلتهم السابقة ، وكانوا يحملون لوحة من الذهب وأمارات أخرى من الخان الأعظم لبدء أنها سهلت عليهم السفر تسهلاً عظيماً ، وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئاً من زيت القنديل الذي يوجد في بيت القدس عند النافوس للقدس ؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولاً ، ثم ساروا بطريق كليكية إلى أرمينية . إذا اضطروا إلى التوغل شمالاً على تلك الشاكلة ، إشارة سلطان مصر في ذلك الوقت على ممتلكات النول . ثم اتجهوا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسي ، كما أن يجمعون الرحلة بطريق البحر . والتفوا في هرمز ببعض تجار الهند . على أنهم لسبب ما لم يلقوا بالسفن ، بل عرجوا بذلك شمالاً عبرتين الصحاري الفارسية ، ثم ساروا بطريق يبلغ فوق هضبة الياي إلى قشغر ، وبتريق خوتان وبحيرة لب نور إلى وادي نهر هوانج هو ومنه إلى بكين . وهناك في بكين استقبلهم الخان الأعظم بمفاوة بالغة .

وسر قوبلاي بوجه خاص من ماركو ، الذي كان صغيراً ذكي الفؤاد ، ومن الجلي أنه كان يتقن اللغة التتارية تماماً . فحين في أحد للناسب الحكومية وأرسل في مهام كثيرة وبخاصة في جنوب الصين الغربي . والقصة التي يرويها عن وجود مقسمات مقرامية من الأراضى البسامة الرغبة ، يقول فيها : « توجد دور الضيافة للمتازة للعدة للمسافرين على طول الطريق » ، ثم يقول « وعرائش كروم بديعة وحدائق وحقول » . ويتحدث عن « الأديرة الكثيرة » والرهبان البوذيين ، وصناع الأقمشة من الحرير والذهب وأبواب كثيرة من نفائس التفاه المتاز ، وسلسلة متصلة الحلقات من المدن والبلاد ، إلى غير ذلك مما أثار في البداية عاصفة من التشكك في أوربا ، ثم عاد فأغلب خيال أوربا بأجمعها . وتحدث عن بورما وعن حيوشها الكبيرة بما حوت من مئات الأقاليم ، وكيف هنم ناشبة^(١) للنول تلك الحيوانات ، كما ذكر فتح للنول ليجو (Pegu) . وتحدث عن اليابان ، وبالغ كثيراً في مقدار ما في تلك البلاد من الذهب . وظل

(١) الناشب : صاحب الشاب أى السهام والرماي بها والمجج ناشبة : [للترجيم]

ماركو ثلاث سنوات حاكماً على مدينة يانج تشو ، ولله - كأجنبي - لم يلفت أنظار الأهالي الصينيين أكثر من أى قترى آخر : ولله أرسل كذلك فى بثة إلى الهند . والسجلات الصينية تذكر عنصراً اسمه بولو الحق بالجلس الإمبراطورى فى ١٢٧٧ وهو تأكيد عيّن جداً لما تنطوى عليه رواية بولو من مسحة عامة من الصدق :

وأن نشر رحلات ماركو بولو تأثيراً عميقاً فى الخيال الأوروبى ، فإن الأدب الأوروبى فى القرن الخامس عشر وبخاصة (الرومانس) الأوروبى يتردد فيه صدى الأسماء المذكورة فى قصة ماركو بولو مثل كانلى (شمال الصين) وكامبولاك (بكين) وما شابههما .

وبعد ذلك بقرنين اطلع على « رحلات ماركو بولو » بحار معين من جنوة هو كريستوفر كولمبس ، الذى تصور خياله الأسمى فكرة الإبحار غرباً إلى بلاد الصين حول العالم . وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أحيوية نسخة من « رحلات بولو » على هوامشها بعض ملحوظات بخط كولمبس . وهناك أسباب متعددة دعت الجنوى إلى اتخاذ تلك الوجهة . ذلك أن القسطنطينية ظلت ، حتى سقوطها بيد الأتراك فى ١٤٥٣ ، سوقاً عابداً لتجارة بين العالم العربى وبلاد الشرق ، وكان الجنويون يتاجرون فيها بحرية تامة . ولكن البنادقة اللاتينيين منافس جئنة الأعداء ، كانوا حلفاء الأتراك وأعوانهم على اليونانيين (الروم) ، فلما احتل الترك المدينة لم يعد لتجارة الجنوية مجال بها . وفى تلك الآونة كان الاكتشاف القديم الذى نسيه الناس من زمن بعيد ، والقائل بكروية الأرض قد أخذ يعود بالتدريج إلى مكائنه الأولى من عقول الناس . لذا كانت فكرة الذهاب إلى الصين بطريق الغرب فكرة واضحة للبيان إلى حد ما ؛ وكان يشجع على القيام بها أميران : أولهما ظهور البوصلة البحرية التى اخترعت فى تلك الأثناء ، وبفضلها لم يعد الناس تحت رحمة ليل صافى السماء بادية النجوم لتحديد الاتجاه الذى يحرون إليه ؛ وثانيهما أن النورمان والقطلوينيين والجنوبيين والبرتغاليين انطلقوا من قبل ذلك فى عرض المحيط الأطلسى ، حتى بلغوا جزائر الكنارى وجزائر ماديرا والأزورس .

ومع ذلك فقد اضطر كولمبس أن يتغلب على مصاب كثيرة قبل أن تيسر له الحصول على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته أو اختبارها فأخذ يشغل من بلاط ملكى فى أوربا إلى آخر ، حتى استطاع فى النهاية أن يحصل بمدينة غرناطة للفرقة حديثاً . من يد العرب ،

على مناصرة فردينايد وإزايلا ، ورعايتهما لمشروعه ، وأن يغترق مجاهل المحيط الخضم بثلاث سفن صغيرة ، وسارت السفن شهرين وتسعة أيام طويلة مبررة ، ثم بلغت أرضاً زعم كوليس أنها بلاد الهند ، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا قارة جديدة ، لم يقدر العالم القديم وجودها قبل ذلك أبداً .

ثم عاد كوليس إلى أسبانيا يحمل الذهب والقطن والحيوانات الثمينة وأثني من الهنود النقوشى البشرة قد بدت عليهما الضراوة ، ما لبث أن عمدهما مسيحين . وقد أطلق عليهما كوليس الهنديين لاعتقاده حتى يوم وفاته ، أن الأرض التي استكشفها هي بلاد الهند . ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن القبي ضم إلى موارد العالم القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأجمعها .

وكان للنجاح الذي لقيه كوليس فضل إثارة روح للتأامرة البحرية إلى حد هائل . فدار البرتغاليون في ١٤٩٧ حول قارة إفريقية إلى بلاد الهند ، ولم تحمل سنة ١٥١٥ حتى كانت للبرتغاليين سفن عند جزيره جاوة .

وفي ١٥١٩ أقطع ماجلان ، وهو بحار برتغالي يعمل في خدمة الأسبان ، من مدينة أشيلية بخمس سفن اتجه بها غرباً ، لم يد منها إلا واحدة هي فيكتوريا ، التي دخلت النهر حتى بلغت أشيلية في ١٥٢٢ ، وهي أول سفينة دارت حول العالم : وكان عليها واحد وثلاثون بحاراً ، هم البقية الباقية من مئتين وعمانين بدأت بهم الرحلة . أما ماجلان فإنه قتل بجزائر الفلبين .

لقد انبجست على العقل الأوروبي أشياء كثيرة ضخمة منها الكتاب الورق الطيوع ، وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم للستدير إنما هو شيء في متناول اليد تماماً ، وانبجست أيضاً صورة جديدة لأقاليم غريبة وحيوانات ونباتات غريبة وعادات عجيبة ومستكشفات تمت وراء البحار وفي أطباق السماء وفي أساليب الحياة وموادها ، فأقبلت العقول بسرعة على دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية وطبعها بعد أن طال العهد بدفنها ونسيان الناس لها ، فأخذت تداعب أفكار الناس بأحلام أفلاطون وبخاليد عصر تلياً ظلال الحرية والكرامة في أكتاف الحكيم الجمهوري .

وقديماً أدخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى زنجوع أوروبا الغربية .

كما أن الكنيسة اللاتينية كانت صاحبة الفضل في نشر لوائهما من جديد بها ؛ على أن حب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلق كانا يضمنان لتنظيم مجدهما وبقاها في عهد روما الوثنية وللسيحية سواء بسواء . لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتيني يقترب عندئذ من نهايته . ذلك أن الأوربيين الآريين أخذوا يفصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينية بفضل أثر الساميين وللقول المنبه للمقول وبفضل العثور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية ؛ انفصلوا عن تلك التقاليد وأخذوا يرقون الطريق ثانية إلى ممرلة الصدارة الفكرية والمادية بين البشر جميعاً .

الفصل الخامس إصلاح الكنيسة اللاتينية

تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثراً هائلاً بهذا البحث العقلي . لقد برزت منها أجزاء ولم ينبج الجزء الذي بق منها من يد التجديد الشامل .

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تولى الزعامة الاستبدادية للنصرانية بأكلها إبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وكيف اضمحل بعد ذلك سلطانها على عقول الناس وعشونهم . ووصفنا كيف أدى كبرياؤها واضطهادها للناس ونظامها المركزى إلى تحامل النفوس عليها وانصراف حماسة الشعوب الدينية عنها ، وهى الحماسة التى كانت فى سلف من الزمان عدتها ودعاتها ، وذكرنا كيف أعمر مكر فردريك الثانى وتشككه ثمارها على صورة ما تجلى من الأسراء من عصيان لم يبرح يزداد وينمو .

انتشرت تعاليم ويكيليف الإنجليزية فى كل أرجاء أوروبا . وحدث فى ١٣٩٨ أن عالماً تشيكياً هو جون هس ، الذى بمجامة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكيليف . وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتى تجاوزت الطبقة المتعلمة ، وأثارت حماسة شعبية عظيمة . وتصادف أن انعقد بمدينة ككونستانس بين ١٤١٤ ، ١٤١٨ مجلس للكنيسة بكامل هيئتها ليفصل فى الصدى الأعظم . ودعى هس للمثول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعداً من الإمبراطور بالأمان فى الذهاب والعودة ، ولكن قبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد وأحرق حياً (١٤١٥) . وبدلاً من أن يؤدى ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمى إذا به يقضى إلى تمرد أتباع هس بتلك البلاد ، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة من الحروب الدينية كانت فاعمة تمزق عالم النصرانية اللاتينية . وعند ذلك دعا البابا مارتن الخامس إلى حرب صليبية لقمع ذلك العصيان ، وذلك البابا هو الذى انتخب خاصة بمجلس كونستانس ليكون رئيساً للمسيحية يوم أعيد توحيدها . .

سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صليبية عدتها خمس ، فبادت جميعاً بالفشل . لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا فى القرن الخامس عشر كل متشردى أوروبا

وزعانقها للمتعطلين ، مثلما سير الزعائف بالضبط في القرن الثالث عشر على أنباع والدو .
يبد أن أهالي يوهيميا التشيك كانوا على التقيض من أنباع والدو يؤمنون بالقاومة
السلحة . ولم تسكد الحملة الصليبية للسيرة على يوهيميا تسمع قعقة عجلات أنباع هس
واناغيد جنودهم من بيد ، حق ببحرت وتسلقت من ميدان القتال ؛ وبلغ من أمرها
أنها لم تنتظر قط حق تقاتل (معركة دومازليس ١٤٣١) . وانعد بمدينة بالفي ١٤٣٦
مجلس جديد للكنيسة عقد صلحاً كيها اتفق مع أنباع هس ، أزيلت بمقتضاه كثير
من الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها .

وحدث في القرن الخامس عشر وباء عظيم توفد عنه انهيار النظام الاجتماعي إلى
درجة كبيرة في كل أرجاء أوربا ، ولقي العامة من هذا الوباء عتا وعمامة عديدة وانتشر
بينهم مفرط السخط والتمرد ، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلترا
وفرنسا . وزادت خطورة ثورات الفلاحين هذه في ألمانيا بعد الحرب مع أنباع هس
وتقمت بتناع ديني . وجاءت الطباعة فكانت مؤثراً قويا زاد في ذلك التطور . إذ أنه
لما انتصف القرن الخامس عشر كان شمال الطباعة في هولندا ومنطقة الرين يستخدمون
حروفا قابلة للحركة والفك . ثم انتشر فن الطباعة إلى إيطاليا وإنجلترا ، حيث كان
كاكتون يعمل في طبع الكتب بوستمنستر في ١٤٧٧ .

وكانت النتيجة للباشرة لانتشار الطباعة تضاعف عدد نسخ الكتاب المقدس وانتشاره
بين الناس بدرجة عظيمة ، وتيسير سبل ذبوع الجدل بين أفراد الشعب . لقد أصبح
العالم الأوربي غالم قراء ، إلى حد ليس لأي مجتمع في الماضي عهد بمثه : ومن سوء
حظ الكنيسة أن إرواء عقول الناس عامة على هذه الصورة للفاضة ، بالأفكار
الأكثر وضوحا وللمعلومات الأقرب منالا ، حدث في وقت غشها فيه الارتباك
والفرقة ، وأصبحت في موقف لا يستطيع فيه أن تبذل دفاعا فعال الأثر ، وفي يوم
كان كثير من الأمراء يبحثون فيه عن وسيلة يسلمون بها قبضتها على الثروة الهائلة التي
كانت تدعى امتلاكها في بلادهم .

أما في ألمانيا فإن الحملة على الكنيسة تجمعت حول شخصية راهب سابق يدعى
مارتن لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) ، ظهر بمدينة ويتنبرج عام ١٥١٧ ، مثيراً بعض
اعتراضات على أنواع حتى مما عارسه الكنيسة من عرف ومذاهب تقليدية سلفية ، فراح

في بدء الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان . ثم أقبل على السلاح الجديد سلاح الكلام للطبوع ، فاستعمله ونشر بذلك آراءه في كل مكان باللغة الألمانية مخاطباً عامة الناس . وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قصت قبلا على هس . ولكن للطبوعة غيرت أحوال الدنيا ، كما أن لو تركنا له بين أمراء الألمان عدد كبير من الأصدقاء ما بين مظهر لصدقاته وكنام لها ، خالوا بينه وبين ورود ذلك للصبر .

ومما يجعل ذكره عن ذلك العصر الذي تكاثرت فيه الأفكار وضعت فيه العقائد ، أن كثيراً من حكامه كانوا يرون مصلحتهم في فهم عرى الروابط الدينية التي تربط شعوبهم بروما . فحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم شخصياً رؤساء لعقيدة ذات طابع قومي أقوى . فأخذت كل من إنجلترا واسكتلندة والسويد والنرويج والدينمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجتمع الديني الكاثوليكي الواحدة بعد الأخرى . ومنذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرة .

وبدئى أن أحداً من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يعنى أدنى عناية بحرية رعاياه من الناحية الخلقية أو الذهنية ، وكل ما في الأمر أنهم استخدموا الشكوك الدينية وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما ، على أنهم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية التماساً لكبحها ، بمجرد أن تم لهم ذلك الاتصال عن روما ، وأن أنشئت كنيسة قومية تحت هيئة التاج . ولكن تعاليم يسوع تنطوى دائماً على حيوية هجية ، فهي دعوة مباشرة للبر والصلاح ، وتقديم احترام الذات على كل ولاء وكل خضوع . علانياً كان ذلك أودينا . فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن انفصل معها أيضاً عدد من الطوائف الفرعية التي لا تعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه . قد ظهرت في إنجلترا واسكتلندة مثلاً عدة طوائف استمسكت بالكتاب للقدس بشدة ، متخذة منه هادياً الوحيد في الحياة والعقيدة ؛ ورفضت كل تنظييات كنيسة الدولة . وقد سمي هؤلاء المخالفون في إنجلترا باسم للنشقين (Non-Conformists) . وقد لعبوا دوراً كبيراً جداً في سياسة تلك البلاد أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر . وبلغ من قوة اعتراضهم في إنجلترا على أن يصحكون رئيس الكنيسة أميراً ، أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول (١٦٤٩) . ثم أقاموا بها حكومة جمهورية من للنشقين دامت لإحدى عشر عاماً حاكمة بالرخاء والرغد .

وانتقال هذا الشطر الكبير من أوروبا الشمالية من عالم المسيحية اللاتينية هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم « الإصلاح الديني » . على أن وقع هذه الحماض الجسيمة ذاتها وشدة قوتها أحدثت في الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لا تقل في حمقتها عنها في أي مكان آخر . فأعيد تنظيم الكنيسة من جديد وتفضل روح جديد في حياتها . وكان من أبرز العاملين على هذا البعث الجديد جندي أسباني شاب يدعى أينيجو لوردي ريكالدي ، وهو الذي يعرف في العالم باسم القديس إغناطيوس دي لولا . أصبح ذلك الفتى قسيساً في (١٥٣٨) جدان بدأ أمره بدءاً (رومانسياً) إلى حتما ، ثم سمح له بأن يؤسس جمعية يسوع ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التي ظهرت في العالم . وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا . وكان لها الفضل الأكبر في إيقاف الانحلال السريع الذي انتاب الكنيسة الكاثوليكية . كما أنها رفعت المستوى العلمي في كل أرجاء العالم الكاثوليكي ؛ وبفضل منافستها نشطت أوروبا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة في التعليم مجارة لها . فإذ الكنيسة الكاثوليكية القوة الشديدة المراس في العهد الحاضر ما هي إلا ثمرة الياضة لهذا الانتعاش الجيولوجي .

الفصل الحادى والخمسون

الإمبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة الشأن في عهد الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان من أعجب من شهدتهم أوروبا من الملوك . وقد ظل ردها من الزمان يبدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شارلمان .

على أن عظمته لم تكن من صنع يديه . بل هى إلى حصد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسميليان (١٤٦٩ - ١٥١٩) ولا يخفى أن بعض الأسر الملكية تبلغ حظها من السلطان العالى عن طريق القتال ، وأن بعضها الآخر يكتسبها بالوامة والتدبير . أما آل هابسبرج فالتصوا العظمة العالمة عن طريق الصاهرة والزواج .

وقد ابتدأ مكسميليان حياته طاهلاً لأمسا وإستريا ولجزء من الأتراس ومناطق أخرى ، وهى ميراثه الأصلى عن آل هابسبرج ؛ فزوج ملكة الأراضى المنخفضة وبرغنديا (ولا يكاد اسم زوجته يتينا هنا فى قليل ولا كثير) .

على أن معظم برغنديا ما لبث أن أفلت من يده بوفاة زوجته الأولى ، ولكن بقيت له الأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يزوج أميرة برتاني بفرنسا فلم يوفق وتولى عرش الإمبراطورية جد أبيه فريدرىك الثالث عام ١٤٩٣ ، ثم تزوج دوقه ميلانو أوغل تزوج دوقها . وأخيراً زوج ابنه من ابنة فرديناند وإيزابيل الضعيفة العقل وهما نصيرا كولبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد أسبانيا الحديثة التوحيد وسردينيا والصقليتين^(١) ، بل وحكما أيضاً أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل . وهكذا تم لشركان^(٢) حفيد ميراث معظم القارة الأمريكية وقد يتراوح بين ثلث ونصف ما لم يقع من أوروبا بأيدي البرك . وانتقل إليه ملك الأراضى المنخفضة فى ١٥٠٦ . فلما توفى جده فرديناند

(١) ويقصد بهما جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا .

(٢) شركان : هو شارل الخامس نفسه .

[للترجم]

[للترجم]

في ١٥١٦ أصبح بالفعل ملكاً على الدولة الأسبانية للترامية نظراً لبلاهة أمه وضغف عقلها ، حتى إذا مات جده مكسميليان في ١٥١٩ ، انتخب عام ١٥٢٠ إمبراطوراً وهو لا يزال في العشرين من نومة الأظفار نسبياً .

كان شاباً أشقر لا تبدو على وجهه مخال النجابة ، فشقته العليا خليقة وذقنه طوية قبيحة . ونظر حوله فإذا عالمه حافل بالشخصيات الفنية القوية . فإن عصره كان عصر ملوك شبان أذكاء ، منهم فرنسيس الأول الذي تولى عرش فرنسا في ١٥١٥ وعمره إحدى وعشرون سنة ، ومنهم هنري الثامن الذي ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ في سن الثامنة عشرة . وهو عصر بابر يبلاد الهند (١٥٢٦ - ١٥٣٠) ، وسليمان القانوني بتركيا (١٥٢٠) ، وكلاهما ملك عظيم مقتدر ، هذا إلى أن البابا ليون العاشر (١٥١٣) كان كذلك رجلاً ممتازاً جداً . وحاول البابا بمعاونة فرنسيس الأول أن يحول دون انتخاب شرلكان لعرش الإمبراطورية لما خشيته من تركه ذلك القدر الهائل من السلطان في يد رجل واحد . ثم تقدم كل من فرنسيس الأول وهنري الثامن بمرضان تقسبها على ناخب الإمبراطور . ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبورج كان قد أصبح آنذاك تقليداً مديد الأجل وطيد الأركان (منذ ١٢٧٣) ، ونشلت الرغوة حتى كفلت لشرلكان النجاح في الانتخاب .

ابتدأ الملك الشاب حكمه العربة فاخرة رقيقة في أيدي وزرائه . ثم شرع بعد ذلك يبرز شخصيته على مهل ويمسك بقيادة الأمور . ومالبث أن بدأ يدرك ما يحيط بمركزه السامي من معقدات حافلة بالأخطار . وأحس أنه إن يكن مركزاً فائزاً فإنه ضئيف مضطرب كذلك .

وأول ما واجه منذ ساعة توليه الحكم الموقف الذي أوجده الاضطرابات الناشئة عن دعوة لوثر بألمانيا . وكانت معارضة البابا في انتخابه إمبراطوراً من الأسباب التي دعت إلى الانهيار إلى دعاة الإصلاح الديني . ولكنه نشأ في أسبانيا بلاد الكاثوليكية للتعبئة ومن ثم قرر أن يتناسب لوثر الطداء . ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأمراء البروتستنت وخاصة منتخب سكسونيا . وعند ذلك وجد نفسه يواجه صديداً قد أخذ يتسع ويتمدد بتزويق الوحدة البالية للمسيحية إلى معسكرين متناحرين . فبذل في سيل راب ذلك الصعد جهوداً مضيئة شريفة لم يكتب لها التوفيق . وقام الفلاحون في ألمانيا بثورة متسعة

الأطراف ، اختلطت بالفن والاضطرابات الدينية والسياسية العامة . ومما زاد الأمر تعقيداً اجتماع هذه الفن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداء على إمبراطوريته من الشرق والغرب جميعاً . وكان جارش لكان في ناحية الغرب هو فرنسيس الأول مناقمه الجريء الطموح . وتنازع من الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بلا انقطاع ، والذين استولوا عند ذلك على بلاد المجر ، وتحالفوا مع فرنسيس وأخذوا يطالبون بما لهم على دولة النمسا ويملكها من متأخرات الجزية ، أجل إن أموال أسبانيا وجب عليها كانت رهن إشارة من شارل ، ولكن الحصول على أية مساعدة مالية فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمور . وزادت الأزمات المالية متاعبه الاجتماعية والسياسية تعقيداً . فاضطرته ضاقته إلى الاستدانة التي جلبت عليه الخراب والإفلاس .

على أن شارل وفق على العموم بتحالفه مع هنري الثامن إلى التخلب على فرنسيس الأول وحلفائه الأتراك . وكان ميدان القتال الرئيسي بينهما هو شمال إيطاليا ؛ أجل إن قيادة الطرفين كانت تقسم بالبلادة والغباء ؛ كما أن حركات التقدم والتأخر التي كانا يقومان بها اعتمدت قبل كل شيء على وصول الإمدادات . ثم غزا الجيش الألماني فرنسا وأخفق دون الاحتلال على مرسيليا ، ثم تراجع إلى إيطاليا ، حيث ضاعت ميلان من يده ، وحوصر مدينة بافيا . وقد ألقى فرنسيس الأول حول بافيا حصاراً طويلاً بالقتل ، ثم حاصره قوات ألمانية جديدة وهزمت جيوشه وجرحته وأخذته أسيراً . وعند ذلك انقلب البابا وهنري الثامن على شرلكان لما كان يساورهما دائماً من خوف من زيادة قوته إلى حد مفرط . وماعنت القوات الألمانية للقائفة في ميلانو بقيادة كونستابل بوربون وقد تأخرت إعطائها ، أن أرغمت قائدها على الزحف بها على روما وهناك فتحوا المدينة عنوة واتهبوها في (١٥٢٧) .

ولما البابا إلى قلعة القديس أنجيلو ، على حين واصل الميرون التهب والقتل في المدينة ، ثم استطاع في النهاية أن يشتري رحيل القوات الألمانية بأن دفع لها أربعمائة ألف بندق (١) ، واستمرت هذه الحروب المضطربة عشرين سنة قيت منها أوروبا الفقر والإفلاس . حتى رأى الأمر في النهاية أن يوجد الإمبراطور نفسه مظفراً في إيطاليا ، وما نشب البابا أن توجه في ١٩٣٠ بمدينة بولونيا ، فكان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو

وفي نفس ذلك الوقت كان الأتراك يحتاحون بلاد المجر اجتياحاً . بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه في ١٥٢٦ ، ثم استولى على بودابست وأوشكت فيينا أن تقع في قبضة سليمان القانوني في ١٥٢٩ . واقسم الإمبراطور غما عظيمًا لهذا التقدم ، وبذل كل ما في استطاعه لرد الأتراك عن بلاده ، ولكنه لقي أعظم الضر في جمع كلمة أمراء الألمان ورغم وجود ذلك المدد القوي العاقى على أيديهم جميعاً . وظل فرنسيس الأول عاجزاً عن القتال ردحاً من الزمان ، ثم نهض للحرب مرة ثانية ؛ على أن شارل ما لبث أن تمكن من إمالة منافسة إليه (١٥٢٨) وحمله على التزام جانب للوثة لإزائه . بعد أن اعمل في جنوب فرنسا يد التهب والتخريب . وعندئذ عقد فرنسيس مع شربل كان محالفة ضد الترك .

ولكن الأمراء البروسنتت وهم أمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الاتصال من روما ، كانوا قد كونا وقتئذ ضد الإمبراطور خلفاء ، هو حلف الشمال *Sehwalkaldie* فاضطر شارل أن يوجه همه إلى الكفاح الداخلي الذي أخذت عناصره تتجمع في ألمانيا ، بدلا من أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر من قبضة المسلمين وضمها إلى حظيرة المسيحية . ولكنه لم يمر طويلا فلم يشهد تلك من هذا الكفاح إلا أول حرب نشأت فيه . وقد اتصف ذلك الكفاح بأنه مناوشات دامية خلت من كل سكة وعقل ، اقتل فيها الأمراء على السيادة . وكانت تتدلج نيرانها أحيانا فتصبح حربا عنيفة تنأى على الحرف والنسل وتجري وراءها الحراب ، أو تهبط فلذا هي مؤامرات ومؤامرات ديبلوماسية ، لقد كانت ألمانيا كجرباب ملء بالأفامى من الأمراء ، الذين ظلت سياساتهم تتلوى في ذلك الجرباب وتفتح إلى ما لا نهاية حتى تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر ، وما زالت هذه الديبلوماسيات تعمل في أوروبا الوسطى تدميراً وتخريباً مرة في إثر أخرى .

ويلاحظ أن الإمبراطور لم يدرك قط العوامل الحقيقية التي كانت تعمل عملها في تلك الناعب التي أخذت تتجمع على رأسه . لقد كان بالنسبة لصره ومركزه وجلا فاضلا إلى أقصى حد ، والظاهر أنه توهم أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوروبا إلى أشلاء متناحرة إنما هي اختلافات دينية حقة فأكثر من عقد مجالس الديانة^(١) والمجاميع الكنسية يحاول بذلك التوفيق والصلح دون جدوى وكمن مرة أعيد البحث في قانون الإيمان الكنسي

(١) الديت : مجلس أو مؤتمر يجتمع فيه أمراء وكبراء الدولة الرومانية (الألمانية) للدين . [للتبريم]

وفي ميداة الاعتراف . ودارس التاريخ الألماني مضطراً رغمًا عنه أن يكسح التماساً لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الديني . والتسوية التي أقرها دايت راتسبون و صلح أوجزبرج وما إليها . وهي أمور لا بد ذكرها إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور الباذخ المتخذه الزاخرة بالحموم . والواقع الذي لا شك فيه أن واحداً من هذه الكتلة العديدة من الأمراء والحكام الأوربيين لا يدعوا عليه أنه كان يعمل بإخلاص . وما كان الاضطراب الديني الذي عم أرجاء العالم كافة ولا رغبة العامة في الحق والصدق والبر الاجتماعي ، ولا انتشار المعرفة في ذلك الزمان ، ما كانت هذه الأشياء جميعاً إلا مجرد ذرائع للخلاف والمعاكسة اتخذتها أخوة الأمراء وديابولاسياتهم . مثال ذلك أن هنري الثامن ملك إنجلترا الذي بدأ حياته العملية بتأليف كتاب ينشد فيه بالكفر والزندقه ، والذي كافأه البابا بالإنيام عليه بلقب « حامى العقيدة » قد انضم إلى زمرة الأمراء البروتستانت في ١٥٣٠ ، لرغبته في الطلاق من زوجته الأولى لإثارة منه لفتاة صغيرة تسمى آن بولين ، ولأنه شاء أيضاً أن ينتهز ثروة الكنيسة الإنجليزية الهائلة ومن قبله كانت السويد والدانمرك والترويج قد انضوت تحت لواء البروتستنتية .

بدأت الحروب الدينية بألمانيا في ١٥٤٦ بعد وفاة مارتن لوتر بضعة أشهر ، ولنا في حاجة إلى الاهتمام بتفاصيل القتال . وبحسبك أن تعلم أن الجيش السكوتي البروتستنتي لقي هزيمة منكرة عند لوشاو ، وأن فيليب ، أمير هيس ، آخر وأكبر خصم للإمبراطور قبض عليه وأخذ أسيراً بطريقه لدناي فقص السعد ، واشترى رحيل الترك لقاء وعد بدفع جزية سنوية . ثم إن فرنسيس مات في ١٥٤٧ فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . فلما حصل شارل في ١٥٤٧ على ضرب من التسوية لأموره ، وأخذ يذلل قصارى جهده لإقرار سلم في عالم اسلام فيه . فلما وافت سنة ١٥٥٢ حتى اندلع الحبيب الحرب في كل أرجاء ألمانيا ولم ينج الإمبراطور من الأسر في لينزبروك إلا بمبادرته بالفرار السريع منها ، ثم جاءت معاهدة ساسو فأحدثت في سنة ١٥٥٢ هدوءاً آخر غير ثابت الأركان .

تلك هي المعالم الموجزة لسياسة الإمبراطورية في مئتي اثنين وثلاثين عاماً . ولا يغوتا أن نذكر أن عقل الأوربيين كان مركزاً تماماً حول فكرة السكلاف من أجل إخراج قصب السيادة في أوروبا . ذلك أن أحداً ممن عاشوا في ذلك الزمان — لا الترك منهم ولا الفرنسيون ولا الإنجليز ولا الألمان ، لم يحس حق ذلك الحين بأى اهتمام مئتينى بتيارة أمريكا العظيمة ، ولا أدرك أى معنى للطرق البحرية الجديدة المؤدية إلى آسيا . ومع ذلك

فلان أمريكا كانت عند ذلك مسرحاً لأحداث عظيمة ؛ فلان كورتيز انطلق بحملة من الزبال وفتح باسم أسبانيا إمبراطورية البكسيك النبوليتية (١) العظيمة ، كما أن بيزارو عبر مضيق بنا (١٥٣٠) ، وأخضع قطعاً آخر من أقطار السياب هو بيرو . ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى في أوروبا إلا تدفق النضة إلى الحضارة الأسبانية تدفقاً عاد عليها بالنفع الكبير ونبه الأذهان إليها .

ولم يبدأ شارل في إظهار أصالته القهنية الميزة إلا بعد عقد معاهدة بساو . إذ اعتراه عند ذلك السأم من عظمته كإمبراطور وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها . كما ألم به شعور قوى بأن كل هذه المنافسات الأوربية عبث لا يطاق . ولم تكن نيته سليمة جداً في أي يوم من أيام حياته إذ كان يغطرته ميالاً للخمول والكسل ، كما يقاسى من التقرص أخذ الآلام . فتنازل عن عرشه ؛ ونقل كل سلطاته الملكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند ، كما عهد بشؤون أسبانيا والأراضي المنخفضة لابنه فيليب . ثم انسحب يظله جو من الجلال والامتياز إلى دير بمدينة يوست ، تحيط به أحراش البلوط والقسطل في التلال الواقعة شمال وادي التاجة . وهناك قضى نحبه في ١٥٥٨ .

ولقد أكثر الكتاب من الحديث عن تقاعده هذا بلهجة عاطفية ، وعدوه تخلياً عن العالم من ذلك الجبار للكدود الجليل الذي برم بهذه الدنيا والتمس السلام في أكناف الله عن طريق العزلة الصارمة . ولكن انسحابه من الدنيا لم يتميز بعزلة ولا صرامة ، ذلك أنه صحب معه حوالي مئة وخمسين تابعاً ، وكان مقره يحوى كل ما للبلاط من غمامة ملقات مع انتفاء متاعب البلاط ومشاغله ، كما أن فيليب الثاني كان من البر بواله بحيث كانت كل نصيحة منه إليه أمراً واجب النفاذ .

ولئن فقد شارل لكان كل اهتمام حق بإدارة شؤون أوروبا ، فلقد كان مرد ذلك دوافع أخرى مباشرة أكثر . يقول بريسكوت :

« لا تكاذ رسالة من الرسائل اليومية للتبادلة بين كريكساندا أو جازتلوم ، وبين الوزير للمقيم بمدينته بلد الوليد ، إلا تدور بدرجة ما حول طعام الإمبراطور أو مرضه .

إذ يلوح الواحد منهما كأنما يقبب الآخر بصورة طبيعية كأنه خلق مستنير عليه . ومن النادر أن تكون مثل هذه الموضوعات مدار للرسائل مع مصلحة من مصالح الحكومة . ولا بد أن الوزير كان يجد عسراً كبيراً في الاحتفاظ بوقاره أثناء غلاته لرسائل تختلط فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط السليب . وتلقى لرسول القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أمراً بأن ينحرف عن طريقه السوى ليعر على جازانديلا ، ويحضر للمائدة الملكية ما يلزمها من أغذية . وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتفديعه في يوم الصيام الذي يليه . فإن شارل كان يرى أن سمك النقط للوجود بالمنطقة التي يعيش بها صغير جداً ، لذا وجب أن يرسل إليه من بلد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجماً . وكانت الأسماك بجميع أنواعها تذهب وتعيه ، وكل شيء يذاب السمك في طبيعته أو عادته . فثمايين للاء والضادع وأم الحفلون تفضل مكاناً عليها في قاعة الأطنمة الملكية . كما أن الأسماك المحفوظة ولا سيما الأنشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة ؛ وكم أسف الساحل لأنه لم يحضر من تلك الأنشوجة قدرأ كبير من الأراضي للخفضة . وإنه لمولع بوجه خاص بخيطرة ثمان للاء (١)

وقد حصل شارل في ١٥٥٤ على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يبيح له التمتع من الصوم ويبيح له الإفطار في الصباح الباكر وإن كان على نية تناول الأسرار للخدمة .

أكل وتطبيب . . . ١١ إن ذلك رجوع إلى الإغناء البدائية الأولى . لم يتعود ذلك الملك قط القراءة ، ولكنه كان يصنى إلى من يقرأ عليه أثناء تناوله الطعام جرياً على عادة شرلمان ، ثم يطلق على ما يسمع « بتطبيقات حلوة صمارة » — كما عبر عن ذلك أحد الرواة .

وكثيراً ما كان يسلى نفسه باللعب الميكانيكية ، أو بالإمضاء إلى للموسيقى أو المظلات الدينية ، أو النظر في شئون الإمبراطورية التي لم تتأ تأتطاطر عليه . وكانت وفاة الإمبراطورة ، التي اشتد بها تعلقه ، سبباً في تحول عقله نحو الدين ، الذي أخذ عنده صورة التدقيق الشديد والاهتمام بالطقوس ؛ وقد دأب في كل يوم سجمة من

أيام الصوم الكبير على جلد نفسه هو وبقيّة الرهبان عن طيب خاطر جلدًا كان يبلغ من الشدة أن يحدى له جلودهم .

وقد بلغت هذه الرياضات هي وانقرض بشر لكان إلى حال من التصب كانت اعتبارات السياسة تكسبها حتى تلك الساعة . فأنار حقه ظهور العالم البروتستانتية بمدينة بلد الوليد القرية . وكتب يقول : « أبلغ حتى القاضي الأعظم لهكمة التفتيش أن يكون يعقر عمله هو ورجال مجله ، وأن يستأصلوا شأفة الشر قبل أن يستحل »

ولأنه ليدى الشك فبا إذا لم يكن من الأنسب في حالة مثل هذا الأمر الكره الاستثناء عن نظام القضاء العادى ، وعدم أخذ المجرمين بأذى شفقة « خفية أن يعطى المجرمون ، إذا عفى عنهم فرصة العود إلى جرمهم » ثم يطرى الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التى اتبعها بالأراضى للنخضة ، « حيث أحرق حياكل من أصر على عناده ، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة » .

ويكاد انشغاله بالجنائزات يكون رمزاً المركزه في التاريخ . وكان ضرباً من الإلهام أوحى إليه أن شيئاً عظيماً بأوربا قد قضى نحبه ، وأنه بحاجة ملحة إلى من يدقّه ، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة « انتهى » ، قد أزيلت وزيدة . فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقعية تقام في بوسنت ، بل كان يقيم صلاة الجنائز على القوي الثائمين ، وأقام جنازة لزوجته يوم ذكرائها السنوية ، ثم أقام في النهاية جنازته هو : « جلّت جدران الكنيسة بالسواد لما لم يكن نور مثاب الشموع التى أوقدت كافياً لتبديد سدف الظلام التى رانت على للكان وتجمع الرهبان في ثياب الدير ومعهم حشية الإمبراطور جميعاً وقد ارتدت ثياب الجداد القاعة ، حول تمثى منخ قد جلال هو أيضاً بالسواد ورفع في وسط الكنيسة وعند ذلك أدبت صلاة دفن القوي ، وتساعدت الصلوات للروح الراحل بين عويل الرهبان الحزن . داعية لها بأن تلقى في الآخرة منازل الأبرار . وذابت نفوس الأتباع المحزونة دموعاً وأسى ، إذ تصورت لحواطم صورة وفاة مولام ، أو لعلمهم مستهم الرحمة لهذا المظهر الحزن من مظاهر الضعف . وتثنى هارل برداء أسود وحمل في يده شمعاً موقدة ، وسار بها بين رجال حاشيته ، ليشهد بنفسه جنازته ، واتى الحفل الأسيف بوضعه الشمعة يد القسيس رمزاً لتسليمه روحه للقوي القاهر » .

توفي الإمبراطور بعد هذا الحفل الساهر بأربعة أشهر . وانتطوت بموته العظمة الصغيرة الأجل التي حظيت بها الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فإن دولته تقسمت قبل موته بين أخيه وابنه . حقا إن الإمبراطورية الرومانية القديمة لم تفرح تكافح الأقدار إلى أيام نابليون الأول ، ولكنها كانت أحبه بليل يعاني سكرات الموت . ولا تزال تقاليدنا البالية الرميم تسم الجو السياسي إلى يومنا هذا .

الفصل الثاني والخمسون

عصر تجارب سياسية

وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا

تهدمت الكنيسة اللاتينية ، وهوت الدولة الرومانية القديمة في دركات الانحلال للفرط ؛ وأصبح تاريخ أوروبا منذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شعوب تنلس في داسم الظلام طريقها بحثاً وراء نوع جديد من أنواع الحكومة ، يطابق الظروف الجديدة التي أخذت تنشأ . وقد ظلت التغيرات في الصور الخيالية وفي آراء طوية من الزمان نفس الأسر المالكة ، بل حتى الجنس الحاكم واللغة الغالبة دون غيرها ولكن شكل الحكومة القائم على ذلك والبدل واضح الثبات ، كما أن طريقة العيش العادية ظلت أثبت وأوسع قدماً . على أن تغيرات الأسر المالكة في أوروبا الحديثة هذه ، أي منذ القرن السادس عشر لم تعد منهم أحداً في قليل ولا كثير . وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصباً على تلك الأنواع الكثيرة المتزايدة العدد من التجارب التي تجري في حقول التنظيم السياسي والاجتماعي .

والتاريخ السياسي لعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهداً لادخولاً إلى حد كبير ، أنفقته الإنسانية رغبة منها في تكيف أساليبها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة نشأت في العالم منذ ذلك الحين ، وكانت تخالط جهود التكيف حقيقة لا شك فيها ، هي أن الظروف نفسها كانت تغير بسرعة مطردة الازدياد ، كما أن التكيف ظل يزداد في كل آن وتوانيا وتغلباً عن الظروف للتخيرة ، خاصة وأنه كان في الغالب يتكيف لاشعورياً يحدث في جميع الأحوال تقريباً عن غير رغبة من الناس (ذلك أن الإنسان في جملة يكره التغير الإرادي) . ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس عشر إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير صالحة لما خلقت له مشيرة للطلق والبكدر ، كما يصبح قصة إدراك الناس على صكره للحاجة إلى تعديل أوضاع المجتمعات البشرية تعديداً واعياً عملياً لمواجهة الحاجات والإمكانات التي لا عهد بلحج الخبرات السابقة للحياة بها .

فأهذه التغيرات التي اعترت ظروف الحياة البشرية ، والتي أفستت ذلك الأثران الذي كان يحيم على الإمبراطورية والكناهن والفلاح والتاجر ، مع إقطاعها بين الفينة والمنة بسبب غزوات البرابرة ؛ التي عرضت أحوال الناس في العالم القديم لنوع من اللوجات للتابعة التي دامت أكثر من مئة قرن ؟

لا شك أن هذه التغيرات متنوعة كثيرة الجوانب ، وما ذلك ؛ إلا لأن الشئون الإنسانية مقعدة إلى أقصى حد ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حول سبب واحد ، هو نمو وامتداد المعرفة بطيئة الأشياء ، تلك المعرفة التي بدأت أولا وقبل كل شيء بين جماعات صغيرة من الأذكفاء - وانتشرت ببطء في البداية ، ثم بسرعة عظيمة جدا في القرون الخمسة الأخيرة - بين جماعات متكاثرة ونسب متزايدة من مجموع السكان عامة .

على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيرا عظيما يرجع إلى تغير حدث في روح الحياة الإنسانية . وسار هذا التغير جنبا إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها ، كما أنه متصل بها اتصالا خفيا دقيقا . وزاد جنوح الناس إلى النظر بين النور وعدم الرضا إلى إقامة حياة الفرد على الرغبات والشهوات الأولية وعلى إشباع تلك الرغبات ، كما زاد ميلهم إلى التماس إقامة العلاقات مع حياة أشمل هي حياة الناس كافة وتقديم الخدمات لها ومشاركتها في كل شئونها . تلك هي الحصصة العامة التي تشترك فيها الديانات العظمى جميعا التي انتشرت في كافة أرجاء العالم أثناء النيف والعشرين قرنا الأخيرة من حياة البشرية سواء في ذلك البوذية والسيحية والإسلام ، فإنها جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تنبها الديانات القديمة . فهي قوى تختلف تماما في طبيعتها ومفعولها عن ديانات القران الدسوى النعشية القديمة بكنهها ومبدها ، التي عدتها من ناحية ، وحلت محلها من ناحية أخرى . فأثارت في الفرد بالتدريج الشعور باحترامه لنفسه وعمره بالمشاركة والمسئولية في كل الشئون البشرية العامة مما لم يسبق له مثل بين أناس الحضارات الحالية .

وكان أول تغير جسيم ألم بأحوال الحياة السليبية والاجتماعية تبسيط الكتابة في الحضارات القديمة واتساع مدى استخدامها ؛ وهو أمر جل قيم إمبراطوريات أكبر حجما ونشوء نظام سياسي أوسع مجالا ، شيئا ميسورا بل أمرا لا يد منه . وجاءت حركة

التقدم الثانية حين استخدم الحصان ، ومن بعده الجمل كوسيلة للمواصلات ، وحين استعملت للركبة ذات العجلات ، وحين مدت الطرق وزادت الكفاية العسكرية كنتيجة لاستكشاف الحديد الأرضي . ثم حلت في أعقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود للسكوك ، وعن تشرطية الديون ولللكية والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليد النافع والصارما ، فزادت الإمبراطوريات سعة ومجالا ، ونمت أفكار الناس بالمثل نموا يواجه هذه الأشياء الجديدة . ثم آن أوان اختفاء الآلهة الحلية ، وجاء بعده عهد إدماج الآلهة (التيو كرازيا) فسهل تعاليم الميانات العالمية الكبرى . وأقبلت أيضاً تباشير التاريخ والجغرافيا للعقولة للدونة ، وإدراك الإنسان جهله للطبق لأول مرة ، وأول بحث منظم في سبيل المعرفة .

لقد انقطع إلى حين من الدهر جبل الطريقة العلمية الذي بدأ ييلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الرائعة . ذلك أن النظام السياسي والاجتماعي لقي أعظم الضرر والعت من جراء غارات البرابرة التيوتون ، وزحف الشعوب للتولية نحو القرب وأدوار الإصلاحات الدينية النيفة والأوبئة الجائحة . حتى إذا قضت الحضارة هنا ثانية غبار تلك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب ، إذا بالرق لم يعد أساسا للعبارة الاقتصادية ، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ من اللطومات وسيلة جديدة للاحاطة الجماعية وللتعاون الجماعي . ولم يلبث البحث عن المعرفة : العملية والعلمية للنظمة ، أن عاد سيرته الأولى بالتدرج وعند الانسابات .

ثم ظهرت ابتداء من القرن السادس عشر فصاعدا مجموعة متزايدة العدد من المستحدثات والمخترعات أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل وكانت نتاجا ثانويا للتفكير المنظم لا مفر منه . وكانت كل هذه المستحدثات تنزع إلى توسيع مجال العمل والنشاط وزيادة النافع أو الأضرار المتبادلة ، وإلى المزيد من التعاون . كما أن سرعة مجيها لم تزل في ازدياد يوما في إثر يوم . ولم تكن عقول الناس مهيأة لشيء من ذلك القيل ، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يومنا هذا السكارة الكبرى في أوائل القرن العشرين وتنشيطها للأذهان - إلا أقل القليل يحدثك به عن أية محاولات مصممة بحكمة لمواجهة الظروف الجديدة التي كان يغلقها ذلك التدفق الجديد للمخترعات . وكأنني بتاريخ الإنسانية أثناء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شيء بقصة نالم حبيس يتحرك في قفل ومعمل بيننا تبدلج النيران في السجن الذي يؤزوه ويغيد حرته ، دون أن يستيقظ ، بل

تدخل قطعة من دماغه في أفتات أحلام حقيقه لا تقامب والمقام . - أخيه يهد كاه منه بحال رجل في يقظة شعورية يحس بالخطر الهدق والفرقة الدنية القطوف .

والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لا حياة الافراد . فإلم يكن بد من أن تكون معظم المجتمعات التي تظهر في صفحات السجل التاريخي مستعذات لها أثر فيها بين الناس من مواسلات . وأم ما ينبغي علينا أن نلاحظ ظهوره من أشياء جديدة أثناء القرن السادر عشر ظهور الورق المطبوع والسليمة الشراعية القوية القادرة على عبور المحيط والتي تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصة البحرية . أما الاختراع الأول فإنه نشر التعليم وجعله رخيصا بل أحدث فيه انقلابا تاما ، كما عاد بنفس الفوائد على إذاعة الأخبار وعلى النقاشات ، وعلى عمليات النشاط السياسى الجوهرية . وأما الاختراع الثانى فإنه حول الكرة الأرضية إلى قطعة واحدة متماسكة ولا يقل عن هذين الأمرين في الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التي نقلها القبول إلى الترب لأول مرة في القرن الثالث عشر وإدخال التحسينات عليها . وبفضل المدافع والبارود تخطمت الحصانة والمنة التي حظى بها البارونات داخل قلاعهم ومدنهم المنورة وقضت المدافع على نظام الإقطاع جملة . ولا ننسى أن المدافع هي التي أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك وكذلك تداعت دولتا المكسيك وبيرو حبال ما أصابهما من رعب من مدافع الأسبان .

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المنظم للطبوعات العلمية ، وهو تجديد أقل هأنا من سابقة . وإن عاد في النهاية بفوائد أعظم . ومن أبرز رواد هذه الخطوة التقدمية الطبعة السير فرنسيس باكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، وهو الذى نسمى فيما بعد باسم لورد فيريولام ، وزير ماله إنجلترا . كان تلميذاً العالم الإنجليزي آخر بل لعله هو اللسان المبر عن ذلك الإنجليزي الذى هو الدكتور جلبرت فيلوف كولستر التجريبي (١٥٤٠ - ١٦٠٣) . وكان باكون الثانى هذا يدعو الناس كسميه الأول إلى الملاحظة والتجريب ، كما أنه اتخذ طريقة القصص اليوتوبى الملهمة المنتشرة في كتاب له أسماء « الأطلانطس الجديد » وسيلة يجز بها عما يعلم به من قيامه عظمة من العلماء بالأبحاث العلمية .

وسرعان ما نشأت الجمعية الملكية بلندن والجمعية الفلورنسية ، كما نشأت فيها . هيئات قوية أخرى لتشجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وبيادها ، لم تصبح هذه

الجمعيات العلمية الأوروبية يتابع فقط تنضج بمالايق تحت حصر من الاختراعات ، بل صارت أيضاً منبعاً لتفقد الهدام الذي قضى في النهاية على ذلك التاريخ اللاهوتي العالمي للضحك الذي تسلط على الفكر البشري وعاقه عن العمل عدة قرون .

ولم يقدر لقرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشهدا اختراعات بلغت من الأثر العميق في حياة الناس مبلغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط ، وإن تجملت أثناءها المعرفة والطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤثر ثمارها كاملة في القرن التاسع عشر ، وتواصلت الاستكشافات ووضع الخرائط الجغرافية لأصقاع العالم . فظهرت أشكال تسلياً وإسترايا وزيلندة الجديدة في الصور الجغرافية . وشرع الناس في بريطانيا العظمى يستخدمون كوك النجم الجبري في صناعة اللادن ، فأدى ذلك إلى رخص من الحديد وإلى إمكان صبه واستخدامه على صورة قطع أكبر حجماً مما كان يستطيع إنتاجه قبل ذلك ، حين كان النجم النيابي هو المستخدم في صهره . وبذلك بزغ فجر الآلات العصرية الحديثة .

والعلم كأعجارجنة الفردوس ، يحمل الأكمام والأزهار والثمار في نفس الوقت وبلا انقطاع . وأبتدأ العلم يؤثر ثماره الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولعله لن يكف بعد ذلك عن الإثمار . فكان البخار والصلب أول قطرات النبت ، وتلتها السكة الحديدية والباخرة الحديدية والكبارى الضخمة واللباني الكبيرة وللاكينات التي لاحد لقوتها تقريباً ، ولاح أن في الإمكان سد كل حاجة مادية للإنسان بوفرة وغزارة لم يسبق لها مثيل ، ثم انفتحت أمام الناس أبواب الكنوز المستورة للعلم الكهربى .

سبق أن شهِنا الحياة السياسية والاقتصادية للإنسان منذ القرن السادس عشر فصاعداً بحالة سجين نائم يرقد غارقاً في أحلامه والسجن يحترق من حوله . وكان العقل الأوربي في القرن السادس عشر لا يزال مستغرقاً في أحلامه بالإمبراطورية اللاتينية العابرة ، أى حيله بإمبراطورية رومانية مقدسة تجدد كلها بزعماء الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الذي حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا التي لاسلطان لأحد عليها لا تزال تدأب في بعض الأحياء على إدخال أهد أنواع الأفكار شخفاً وتعميراً في مجرى أحلامنا . فكذلك أهد في هذا الحلم الوجه النائم للإمبراطور شارل الخامس ومعدته للهاقة على الطغامة على عبق كان حرق الثامن ولوتر يمزقان وحدة العالم الكاثوليكي إرباً .

وتحول الحلم في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى ملكية شخصية مستبدة . فلا يكاد تاريخ أوروبا خلال تلك الفترة يهوى إلا قصة تروى بصور مختلفة ، محاولة لتوحيد ملكية من الملكيات ، وجعل سلطان عاهلها استبدادياً مطلقاً ، وبسط كنفها على الضعفاء من جيرانها ، أو تنص على مسامحة حديث المقاومة الدائمة التي يظهرها أصحاب الأراضي ، كما تحدثنا عندما تزايد التجارة الخارجية والصناعة في الداخل عن مقاومة طبقة التجار والمالين التي تزداد عند ذلك عدداً ، - تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لكل تدخل للتاج في شئونهم أو فرض يفرضه عليهم . ولم يحرز أى من الطرفين نصراً شاملاً أو حاسماً ؛ فقد يفوز للآل هنا بالكلمة العليا ، بينما يتغلب صاحب الأملاك في مكان آخر على العاهل للآل . وثم مكان يكون فيه للآل منار عاله القوي وقطب رجاء ، على حين نجد وراء حدوده الناحية تماماً طبقة تجارية قوية الشكبة تقيم صرح جمهورية وطيدة . ووجود مثل هذا البون البعيد من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أى حد كانت الحكومات للتنوع تلك الفترة تجريبية مئة ، أو عارضة ألتجتها الصدفة المحلية .

وهناك شخصية شهيرة جداً في هذه السرحيات القومية ، هي - وزير الآل - الذى كثيراً ما يكون فى الدول للتمسكة بالعقيدة الكاثوليكية أسقما يقف من وراء الآل ، ويخدمه ويتسلط عليه بما يؤديه له من خدمات لأستثنى عنها .

ولا تنسح للعام لتتبع هذه السرحيات القومية بالتفصيل . وحسبك أن تعلم أن شعب هولندا التجارى تحول إلى الذهب البروتستانى والجمهورى معاً ، وأزاح عن كاهله حكم فيليب الثانى ملك أسبانيا ، وابن الإمبراطور شارلكان . فأما إنجلترا فلأن هنرى الثامن ووزيره ولزى والملكة إليزابيث ووزيرها بوري ، وضوا أسس نظام استبدادى حطمته حماقة جيمس الأول . وكانت نتيجة ذلك أن قطعت برأس الملك شارل الأول جزاء له على خيائه لشعبه (١٦٤٩) ، وفى ذلك تحول جديد لجرى اللصكر السياسى بأوروبا . واتخذت بد ذلك اثنتا عشرة سنة كانت فيها إنجلترا جمهورية (حتى ١٦٦٠) ؛ ثم غدا التاج مززعج القوى تنطبه كثيراً كلة البرلمان ، حتى يذل الملك جورج الثالث (١٧٦٠ - ١٨٢٠) جهداً عظيماً وفق فيه إلى جد ما إلى استعادة مملطاته . على أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوروبا بوقفاً ونجاشاً فى البهوض بالملكىة إلى حد الكمال . تقدرزقه الله وزيرين عظيمين مارشالو (١٥٨٥ - ١٦٤٢) ومازاران (١٦٠٢ - ١٦٦١) غاندا له تلك البلاد قوة التاج ، وزاد من قوة تأثيرهما

طول عهد الملك لويس الرابع عشر (للقب بالعاقل الأعظم ١٦٤٣ - ١٧١٥)
وصفاته الاستثنائية الخارقة .

والحق إن لويس الرابع عشر كان الملك الثانی الذى تخطبه أوروبا كلها . وكان
على ما به من معایب - ملكا ذا اقتدار استثنائى ، كما أن مطالعته كانت أقوى من
شهبانته الدنيا ، لذا اقتاد بلاده إلى الإفلاس بتورطه فى سياسة خارجية مفرطة النشاط ،
مع هبة وكرامة عظيمة لا تزال تنتزع منا الإلهاب انتراما . وكانت الرغبة للبشارة التى
رأى عليه هى توحيد بلاده وبسط نفوذها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وانتماض
الأراضى المنخفضة الأسبانية ، أما فكرته البعيدة التى هدف إليها فهو أن يصبح ملوك
فرنسا خلفاء لشارلمان فى دولة رومانية مقدسة يمد بناؤها . فجعل الرشوة وسيلة لصلته
تتمدد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب . فكان شارل الثانى ملك إنجلترا يتلقى منه
الأموال ، وكذلك معظم بلاد بولندة الذين منصفهم لك من فورنا . لذا يمكن القول أن
نفوذه أو بالحرى نفوذ الطبقات الدافعة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان . على أن
غفله المشاغل كان الأبهة والفخامة . فإذن قصره العظيم بفرساي بما حوى من صالونات
ودهايز وحرمايا وشرفات ضخمة ونافورات وجنات غناء ومجالات ترح فيها الأنظار -
كان مثار حسد العالم وإعجاب العظيم .

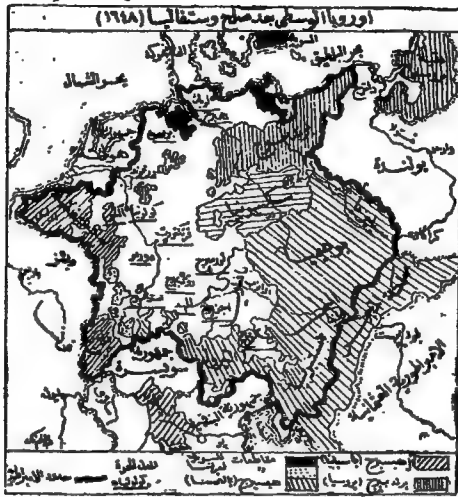
وتبارى من حوله للقلدون . وهب كل ملك أو أمير صغير بأوروبا يشيد قصره على
نمط قصر فرساي متجاوزاً بذلك موارده . ولكن على قدر مايسمح له رعاياه ودانوه .
وهب كل النبلاء فى كل مكان يبدون بناء قلاعهم وقصورهم أو يوسعون فيها على مثال
الطراز الجديد . وحدثت نهضة عظيمة فى صناعة المنسوجات والأثاث الجلدية . وازدهرت
فنون الكاليات ونحف الترف فى كل مكان ، فانتعشت صناعات نحت الرمرم والقاشاني
وأعمال الخشب المذهب وصياغة اللعائن والجلد المنفوط بالرسوم الفنية ، وتكاثر
الإنتاج للموسيقى والتصوير الناقص والطباعة الجلدية والتجليد الأنيق وألبح الحرف وأهبط
الخمر . وبين هذه للرايا الصقية والرياش الفاخرة ، كان جنس هيب من السادة يتدو
وبروخ على رأسه حور مستعارة مرتفعة ذرت عليها الساحيق ويرتدى الحرا وأرواحهمات
(الدتلا) ويتزخ فوق أحذية ذات كموب عالية حمراء حافظاً توازنه بعض موقفة
مدهشة ، ومع هؤلاء سيدات أعجب منهن شأنا فوق رؤسهن أبراج من الشمور للنظارة

بالمساحيق وعلى أجسامهم مقادير ضخمة متفوشة من الحروب والساتان تحملها الأسلاك .
ومن بين هؤلاء جميعاً ، وقعت شخصية لويس العظيم ، فمضى عالمه للنيرة ، غيز شاعر
بالوجوه المزيمة المتجهمة الحاققة التي ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليه
أشعة شمس .

ظل الشعب الألماني متضايقاً من سياسة طوال تلك الفترة التي سادت فيها للسلطات
وعمل التجارب في أنواع الحكومات ، وراح عدد جنسهم من بلاطات الدوقات والأمراء
يحاكمي كالقردة أجهة فرساي كل حسب درجته . وكانت حرب الثلاثين سنة
(١٦١٨ - ١٦٤٨) وبلا على الألمان ، إذ أنها ظلت جرحاً دائماً ينزف منه نشاطهم
ومهمتهم لمدة مئة عام بعد ذلك ، وهي نزاع غريب نشب بين الألمان والسويديين
والبروسيين على مناهم سياسية متقلبة غير ثابتة . ولابد للقارىء من خريطة يشهد فيها
هذا الترتيب الجنوني الذي انتهى به ذلك الصراع ، وهي الخريطة التي تصور لك أوروبا
بعد صلح وستفاليا الذي عقد في ١٦٤٨ وفيها تجد عدداً كبيراً من الإمارات والدوقيات
والدول الحرة وما إلى ذلك ، ومنها ما هو من ناحية جزء من الإمبراطورية كما هو
خارج عنها من ناحية أخرى وسيلحظ القارىء أن فروع السويد توغلت كثيراً في
أرض ألمانيا ، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الرين رغم امتلاكها لقطع
متباعدة من الأرض تقوم كالجزر أروسط بملكيات الإمبراطور . وأخذت مملكة بروسيا
(التي أصبحت مملكة منذ ١٧٠١) توصل النهوض إلى مرتبة الصدارة وتشن سلسلة
متصلة الحلفاء من الحروب الظافرة للوقفة . وأقام فريدريك الأكبر (١٧٤٠-١٧٨٦)
قصره القرمالي الطراز عند بوتسدام وكانت الفرنسية لغة بلاطه . فهو يتحدث بها ويقرأ
الأدب الفرنسي ويتنافس لللك الفرنسي في ثقافته .

وفي ١٧١٤ أصبح منتخب هانوفر ملكاً على إنجلترا ، فزاد فرد آخر في قائمة
اللوكة الداخليين في الإمبراطورية من ناحية والمستقلين عنها من ناحية أخرى .

احتفظ الفرع النمساوي من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطوري ، كما احتفظ
الفرع الأسباني بأشبانيا . ولكن ظهر الآن للمرة الثانية إمبراطور لشرقي ، ذلك أن



خريطة رقم (١٤)

غراندوق موسكو ، إيفان الأعظم (١٤٦٢ - ١٥٠٥) ، ادعى بعد سقوط
 التسطنطينية (١٤٥٣) أنه الوارث للعرش البيزنطي ووضع علامة النسر البيزنطي ذي
 الرأسين على دروعه وأسلحته . واتخذ عتيده إيفان الرابع (إيفان الرهيب)
 (١٥٣٣ - ١٥٨٤) القبة الإمبراطورية : قيصر . على أن الروسية كانت تبدو
 دائماً أعين الأوربيين قطراً بعيداً آسيوياً حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر .
 فإن القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) أدخل الروسية في معترك الشؤون
 الغربية . فقاد لإمبراطوريته عاصمة جديدة على نهر النيفا ، هي بطرسبرج ، كانت بمثابة
 نافذة تطل منها الروسية على أوروبا . كما أنه أقام قصره للمائل لتعصر فرساي قرب
 يترهوف التي تبعد عن العاصمة ثمانية عشر ميلاً ، مستخدماً في ذلك مهندساً معارباً

فرنسياً ، شادله شرفة عظيمة وثافورات ومساقط مالية (خلالات) ومعرضاً لصور
وجنة غناء إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى . وصارت الفرنسية لثة البلاد
في روسيا مثلاً صارت من قبل لثته في بروسيا .

ومن سوء حظ المملكة البولندية أنها كانت تقع ذلك الموقع النص بين روسيا
وبروسيا والنمسا .

وكانت بولنده دولة سيئة التنظيم من ملاك كبار يحرم كل منهم على عظمته الفردية
حرصاً شديداً حتى لا يطبق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية للملك الذي كانوا يستنحبونه
وكان مصيرها هو التقسيم بين هؤلاء الجيران الثلاثة ، على الرغم مما بذلته فرنسا من
الجهد للاحتفاظ بها خليفاً مستقلاً .

وكانت سويسرا في ذلك الأوان مكونة من مجموعة من « الكانتونات الجمهورية » ؛
ثم إن البندقية كانت هي الأخرى جمهورية ؛ على حين أن إيطاليا كعظم ألمانيا تقسمها
دوقات وأمراء متصار . أما البابا فكان يقيم في دولته البابوية حكماً يحكم الأمراء ، وقد
أصبح الآن من شدة الخوف من فقدان طاعة وولاء من بقي موالياً له من الأمراء
الكاثوليك بحيث لم يد جرؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم أو على تذكر العالم بدولة
النصرانية الشاملة .

والحق إنه لم يعد هناك بأوروبا مطلقاً أية فكرة سياسية مشتركة ؛ إذ إنها وقعت تمام
بين برائن الفرقة واستسلمت كلية للحلاف .

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريات يدبر الحطط الرامية إلى التوسع
على حساب غيره . وكان لكل منهم سياسة خارجية تنطوي على العدوان على جيرانه
وعلى التحالف العدواني . ونحن الأوروبيين لا تزال نعيش في أيامنا هذه في آخر مرحلة
من مراحل الدول المتعددة ذات السيادة ، كما أننا لا تزال نكابذ الآلام من تلك الكراهِيات
والعداوات والشكوك التي تولدت عن تلك المرحلة . ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن
يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفاء وخوضاً في الأعراض تحب أذن الناقد الصريح
الألمى . فهو يحدثنا تارة كيف أن خليفة هذا الملك أجبت تلك الحروب ، وكيف
تولدت هذه الحرب الأخرى من غيرة وزير من آخر . وتثور رجع القليل ويقال فتركم
أحب المدارس الذي بأخبار الرعوت والناسات وتعلأ نفسه المتعززا . على أن حقائقه

مائلة ولها دلالتها التي لا تنقطع ، هي أن القراءة والفكر لم تكف عن ذلك عن الانتشار والاتساع ، وأن الاختراعات لم تكف عن التكاثر رغم تلك العثرات من الحدود والتخوم التي فصل بين الدول . وظهر في القرن الثامن عشر أدب عميق في تشكيكه تقاذ في هذه البلاطات ذلك العصر وسياساته . ولو أنك قرأت كتابا كقصة فولتير المساة « قنديد » لتهدت فيها بوضوح تمييزا صريحا عن حالة لاحد لها من التبرم بوقوع أوروبا في لجة الارتباك دون توفر أحد على رسم خطة لإنقاذها .

الفصل الثالث والخمسون

إمبراطوريات الأوربيين الجديدة

في آسيا وما وراء البحار

وفي نفس الوقت التي ظلت فيه أوروبا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذي رأيت ، راح سكان غرب أوروبا ، خاصة الهولنديين والإسكندناويين والأسبان والبرتغاليين والبريطانيين بمدون منطقة كفاحهم وراء البحار العالم أجمع . ومن قبل ذلك كانت المطبعة قد دفعت بالأنفكار السياسية والأوربية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين في بدايته ، على أن الاختراع العظيم الثاني : السفينة الشراعية التي تخترق المحيطات ، كان يمتد نطاق خبرة الأوربيين بلا هوادة إلى آخر حدود المياه للعبة .

ولاحك أن أول ما أقيم وراء البحار من مستقرات الهولنديين النازلين حول الأطلنطي الشمالي من الأوربيين لم يكن يهدف إلى الاستعمار ، بل التجارة والتدخين . وكان الأسبان أول من اقترح للبدان ؛ فادعوا السيادة على كل هذا العالم الجديد للسمي أمريكا . ومع ذلك فسرعان ما طالب البرتغاليون بنصيبهم في الفريضة . وعندئذ تولى البابا تقسيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السابقين إلى الارتداد والفتح ، فأعطى البرازيل للبرتغال ، كما أعطاهما كل شيء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسخا غرب جزائر رأس فردى ، كما منح ما بقي بعد ذلك لأسبانيا (١٤٩٤) ، (وكان ذلك من أواخر الأعمال التي قامت بهاروما كسيده للعالم .) وفي ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يدفعون بمترك المغامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق . فلم تحمل ١٤٩٧ حتى كان فاسكودى جاما قد أبحر من لشبونة حول رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ثم انطلق إلى قاليقوت ببلاد الهند . وإذا بالسفن البرتغالية تمخرق في ١٥١٥ عباب بحار جاوة وملقا ، وإذا بالبرتغاليين ينشئون المحطات التجارية ويحصنونها على سواحل المحيط الهندي . ولا تزال البرتغال تملك إلى اليوم موزمبيق وجوا ويملككتين صغيرتين أخريين بالهند وماكاو بالصين وجزءا من جزيرة تيمور .

على أن الشعوب التي استبعدت من أمريكا بحكم التسوية الباباوية لم تترك قول أمبانيا والبرتغال أدنى اهتمام وسرعان ماشرع الإنجليز والدنمركيون والسويديون من توراتهم المولنديون يدعون الدعاوى في امتلاك أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية ، كما أن صاحب الجلالة ملك فرنسا الكاثوليكي الورع لم ير تلك التسوية الباباوية من الإهتمام إلا بقدر ما أعارها أى أمير بروتستانتي خارج على البابا . وعندئذ امتدت حروب أوروبا إلى مناطق هذه الدعيات والممتلكات .

وكان الإنجليز في النهاية أنجح من دخل حلبة هذا السباق على للممتلكات وراء البحار . مذ كان أهل الدانمرك والسويد متورطين إلى أقصى حد في شئون ألمانيا المضطربة للعقدة بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال الحملات الفعالة إلى الخارج . ثم انتهى الأمر بأن تبددت قوة السويد في ميدان القتال على يد ملك فاني جذاب هو جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتي . وما لبث المولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا ، كما أن المولنديين بدورهم كانوا شديدي القرب من فرنسا وعدواتها بحيث لم يتمكنوا من الصمود في وجه البريطانيين . وكان أم للتنافسين في بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات هم البريطانيون والمولنديون والفرنسيون ، كما أن أهمهم بأمريكا هم البريطانيون والفرنسيون والأسبان . ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوروبا ميزة عظيمة عليهم منها ، وهي بحر اللانث تلك التخوم اللائية للسماء « الشعاع الفضي Silver Streak » . لذا كانوا أقل الناس اعتباكا في شئون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدها .

وقد دأبت فرنسا دائما على اللبانة في الإهتمام بالشئون الأوربية . فظلت القرن الثامن عشر بأجمعه تضع ما يسبح أمامها من فرص التوسع في الشرق والغرب على السواء ، رغبة منها في التسلط على أسبانيا وإيطاليا وعلى تلك الفوضى المزعجة للسماء ألمانيا . ثم إن الخلافات الدينية والسياسية بين أسبانيا وإبان القرن السابع عشر كانت قد دفقت كثيرا بين الإنجليز إلى الجحش من وطن دائم لهم بأمريكا . لذا توالت بها أقدامهم وتزايد عددهم وتكاثر قسملهم ، الأمر الذي عاد على الإنجليز بميزة كبرى من التفوق العددي أثناء السكناح على أمريكا . ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا في ١٧٦٠ ، ١٧٦٣ كندا التي سقطت بيد البريطانيين ورجالهم مستعبرى أمريكا . وإتقضت بضع سنوات أخرى ، وإذا بالشركة التجارية البريطانية تجد نفسها مهيمنة تماما على جميع من ينزل بأرض

شبه الجزيرة الهندية من فرنسيين وهولنديين وبرتغاليين ، ذلك أن الإمبراطورية للنولو العظيمة التي شاهدها بابر وأكبر وخلفاؤهما ، قد تخر فيها الآن سوس الانحلال الشديد كما أن قصة استيلاء شركة لندنية للتجارة عليها (هي شركة الهند البريطانية الشرقية من أعجب ما حوى تاريخ الفتح كله من حوادث .

ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها في عهد الملكة إليزابيث إلا شركة من مغامري البحار . واضطرتهم الأحوال خطوة خطوة إلى إنشاء الجيوش وتسليح السفن ، وعلى حين فجأة وجدت هذه الشركة التجارية بمالها من تقاليد أسامة الربح وللأسباب أنها لاتعامل فقط في التوابل والأصباغ والشاي والجواهر ، بل وإيرادات الأمراء وممتلكاتهم بل حتى في مصائر الهند ومقدراتها ، جاءت لتشتري وتبيع وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة . ولم يكن ثمة أحد يستطيع تحدى إجراءاتها . أفصحيه إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها ، بل حتى كتبها وعامة جنودها ، كانوا يعودو إلى انجلترا محملين بالأسلاب .

ومن البديهي أن الرجال الذين يعيشون في مثل تلك الظروف ويجدون نعمة رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالمند ، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله وماذا لا يستطيعون وما يجوز وما لا يجوز ، فالمند في نظرم أرض محمية ذات شمس محمية كما أن سكانها النحاسيين كانوا يدون شعبا مختلفا عنهم يخرج تماما عن مجال عطفهم هذا إلى أن معابدها الفاضلة تدعو إلى معايير للسلوك غريبة وخيالية . وتثيرت عقود الإنجليز في بلادهم كلما عاد إليهم هؤلاء القادة أو الموظفون ليرأوا حقوا بالثمن القدر الشنيعة بين إرباز للأموال وقساوات تقشعر لها الأبدان . وأصدر البرلمان ١٧٧٤ كلاف قرارا بالوم ، وما لبث أن اتسحر في ١٧٧٤ ، ثم حوكم وارن هاستنجز ١٧٨٨ ، وهو مدير عظيم ثاب لبلاد الهند ، ثم أخلى سبيله في ١٧٩٢ . حقا إنه لموقف غريب ليس له من سابقة في تاريخ العالم . ذلك أن البرلمان الإنجليزي ألقي نفسه بحكم من وراء شركة تجارية ، وكانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثي . وأكثر سكانا من ممتلكات التاج البريطاني جميعا . وكانت الكثرة العظمى من الشعب الإنجليزي تمد الهند بلدا قويا لا يمت إلى الحقيقة بسبب ، ولا يكاد إنسا يستطيع بلوغه ، ينطلق إليه الشبان للغامرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات حمة كهمز واسى الزاء ذوى أخلاق خسكة عنيفة . وعثر على الإنجليز أمث يتصوروا طريقة

عيش هؤلاء الملايين التي لا حصر لها من العمر الساجدين في ضياء شمس بلاد الشرق .
ذلك أن أخلائهم أبنت عليهم إقامة تلك الصورة . وظلت الهند بناء على ذلك قطرا
« رومانسيا » لا تمت إلى الواقع بأذى سبب ، لذا صار من المستحيل على الإنجليز أن
يقوموا بأي إشراف فعال أو هيمنة مثمرة على تصرفات الشركة .

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا الغربية تتقاتل على هذه الإمبراطوريات
الخيالية وراء البحار مشتبكة بعضها مع بعض على صفحة كل محيط في هذا العالم ،
حدثت بآسيا غزواتان برتان عظيمتان . فإن الصين ألقت عن كواهلها نير الغول
في ١٣٦٠ ، وازدهرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى ١٦٤٤ ، ثم
عاد شعب المانشو ، وهو شعب مغولي آخر ، وظل سيذا على بلاد الصين حتى ١٩١٢ .
وفي نفس الحين كانت روسيا تتقدم شرقا وتزداد عظمة بين دول العالم . ولا شك أن
نهوض تلك القوة العظيمة للركزية في العالم القديم ، التي لا هي إلى الشرق تماما ولا هي
إلى الغرب تماما له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية . ويعود الفضل في توسعها ذلك
إلى حد كبير إلى ظهور شعب مسيحي يحطه السهوب بها ، هو شعب القوزاق ، الذي أقام
من نفسه حاجزا بين الإقطاعيين الزراعيين ببولندا والمجر في الغرب وبين التتار شرقا ،
فالقوزاق هم الشعب الضاري القاطن شرق أوروبا ، وهم يشبهون من وجوه كثيرة غرب
الولايات المتحدة الضاري في منتصف القرن التاسع عشر ، فكل من أحق عليه روسيا
حتى صارت به ذرعا ، سواء أكان من المجرمين أم من الأبرياء المضطهدين : وفيهم للوالى
التأثرون والطوائف الدينية واللصوص المنتشرون والقتلة ، كانوا يلتمسون سهوب
الجنوب ملجأ ، وهناك يبدأون حياتهم بدءا جديدا . ويقامون من أجل الحياة والحرية
كلا من البولنديين والروسيين والتتار على السواء . ولا يخالفنا أدنى شك أن خليط
القوزاق كان يسام فيه لاجئون من التتار شرقا .

ثم أخذ هذا الشعب النازل على التخوم يدخل زويدا - زويدا في خدمة القيصر
الروسي العسكرية . على نفس الشاكلة التي تم بها للحكومة البريطانية تحويل عشائر
مرتعات اسكتلندة إلى جند وفرق ، وعند ذلك منحهم الحكومة أرضا جديدة بآسيا
حيث أصبحوا سلاحا حاداً لها ضد قوة للتوول الرحل الداوية للتناقص ، فخلوا أولا يبلاد
التركتان ثم توخلوا عبر سيرا حتى نهر هامور .

ومن العسير تفسير الانحلال الذى طرأ على قوة للفول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلم تنقضى على أيام چانگيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة حتى انحدرت آسيا الوسطى من عصرها الذهبى الذى شادت فيه العالم إلى الانحلال والوهن السياسى البالغ . ولعل عوامل من أمثال تغيرات المناخ أو الأوبئة التى لم يسجلها التاريخ أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس ، قد اجتمعت كلها فأفضت إلى ذلك التدهور الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى . والذى يحتمل أن يكون مؤقتا ليس إلا ، إذا قيس بمقياس التاريخ العالمى العام . ويعتقد بعض النقاد أن انتقال التعاليم البوذية إليهم فى بلاد الصين كان بدوره عاملا مهدداً لنفوسهم . ومهما تكن الحال ، فإن التناثر للتوولين والشعوب التركية لم يجد لهم فى القرن السادس عشر أى اتجاه إلى الضغط نحو الخارج ، بل كانوا على الضد من ذلك يمزقون فى بلادهم ويأبسون بالخضوع أو يدعون إلى الوراثة من جانب كل من الروسيا المسيحية فى الغرب والصين فى الشرق .

وانتهى القرن السادس عشر بأكله والقوزاق ينتشرون شرقاً من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما وجدوا ما يناسبهم من ظروف زراعية . وكانت حلقات من القلاع والمواقع الحصينة تصل هؤلاء للمستقرين عن جيرانهم كأنها التلخوم وتحرك دائماً إلى الأمام وتحمي هذه المستقرات فى الجنوب ، حيث لم يبرح التركان أقوياء ناشطين ؛ على أن الروسيا لم يكن لها مع ذلك أى حدود إلى الشمال الشرقى أبداً حتى بلغت المحيط الهادى نفسه .

الفصل الرابع والخمسون

حرب استقلال أمريكا

هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوروبا للنقمة على نفسها وهي في حالة عجية من الاضطراب وعدم الاستقرار ، كما شهدتها محرومة من كل فكرة سياسية أو دينية جامعة تدعو إلى الوحدة والتآلف ، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصورة مختلة يسودها النزاع والخلاف ، على التسلط على جميع شواطئ بلاد العالم بفضل الاستثارة الهائلة التي أحدثتها في أخيلة الناس ظهور الكتاب للطبوع والخرطة للطبوعة ، والفرس التي خلقتها المدينة القادرة على عبور المحيط . لقد أصاب أوروبا ضرب من حمى العنصرة المكسكة التي ليس لها خطة مرسومة ، مغامرة ترجع إلى مزايا مؤقتة وعارضة ، أو تسكاد ، هبطت عليهم دون سائر البشر . وبفضل هذه المزايا التي اكتسبوها ، فإن قارة أمريكا الجديدة هذه والحالية إلى حد كبير من السكان امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوروبا . كما حيزت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندا لتتكون وطناً معداً لسكان من الأوربيين .

ولم يكن ما بعث كولمبس إلى أمريكا أو فاسكودي جاما إلى الهند إلا الدافع الأول الدائم للبحارة جميعاً منذ بدء الخليقة ألا وهو التجارة . ولكن على حين حدث في الشرق الأهل أننا بالسكان والحافل بالمنتجات ، أن الباعث التجاري ظل غالباً متسلطاً ، وظلت مستقرات الأوربيين به تجارية بحتة ، وكان سكانها (الأوربيون) يرجون دائماً أن يعودوا إلى أوطانهم لإتقان أموالهم ، فإن الأوربيين في أمريكا ، ألغوا أنفسهم أمام باعث جديد همهم على التثبيت بتلك البلاد بحثاً عن الذهب والفضة ، وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجي أخفض كثيراً جداً . ولقد ذهب الأوربيون إلى أمريكا لا بوصفهم تجاراً مسلحين ، بل كباحثين عن المادن النفيسة ومعدنين ومتبعين عن المنتجات الطبيعية ، ثم عادوا فتمولوا بعد ذلك إلى الزراعة . وكانوا في المناطق الشمالية يجمعون الفراء ، ثم استأنزت الناجم والمزارع قيام المستقرات (المستوطنات) . فكانت ههنا اضطراً هؤلاء الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم وراء البحار .

ثم رأى الأمر أن أصبح الأوروبيون يهبون البحار بهدف قاطع صريح هو أن يجدوا لأنفسهم أوطانا جديدة يسكنونها إلى الأبد ، كما حدث في بعض الحالات عندما هاجرت طائفة البيوريتان الإنجليز إلى نيو إنجلند بأمريكا في أوائل القرن السابع عشر فراراً من الاضطهاد الديني ، وكما حدث في القرن الثامن عشر عندما أرسل أوجليثورب أقواما استخلصهم من سجون المدينين بأنجلترا إلى ولاية جورجيا ، وكما حدث في نهاية الثامن عشر عندما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح . وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة البخارية ، فارتفع سيل النازحين الأوربيين إلى أراضى أمريكا وأستراليا الجديدة الحافية ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كأنما هو حجرة عظيمة .

وهكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوربيين ، وانتقلت الثقافة الأوربية إلى مناطق أوسع كثيراً من تلك التي نشأت وتطورت بها . إن هذه المجتمعات الجديدة التي أحضرت معها مدنية مهيأة من قبل إلى تلك البلاد الجديدة ، تضخمت في الواقع دون أن يدبر خطة تخضعها إنسان أو حتى يدرك وجودها ؛ ولم تنقبأ السياسة الأوربية بظهورها لما لم تعد أية خطة لمواجهة أو فكرة لمعاملتها . فظل ساسة أوروبا ووزراؤها يعدونها مؤسسات عسكرية في جوهر أمورها ، وموارد إيراد للدولة أو « ممتلكات » — أو « بلادا تبين بالتبعية » ، وذلك بعد أن تأصل في سكانها بزمان طويل إحساسهم الحاد بان اتصال حياتهم الاجتماعية عن كل ما عداها . ثم إنهم ظلوا يعاملونهم كشعب ذليل عاجز خاضع للدولة الأم بعد أن انتشر السكان بزمان مديد في داخل البلاد وأصبوا ببيدين عن طائفة أي عمليات تأديبية فعالة توجه إليهم من البحر .

ذلك أنه يجب أن لا يفرب عن الناس ، أن السفينة الشراعية الماخرة للمحيط كانت همزة الوصل بين أجزاء هذه الإمبراطوريات الممتدة وراء البحار إلى أن تقدم الزمن تماما بالقرن التاسع عشر . أما على البر فإن أسرع وسيلة للمواصلات لم تبحر هي الحصان ، كما لم يزل تماسك النظم السياسية ووحدها في البر محدودا بما تفرضه عليه مواصلات الحصان من قيود .

وبما أن انتهى الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلاثين الشالين من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطاني . وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا . وفيما هذا

البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال ، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين ومنطقة ما أو منطقتين في أيدي الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين . فإن منطقة فلوريدا ولوزيانا وكاليفورنيا وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب كان تابعا لأسبانيا . وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر اللين وبحيرة أوتاريو أول من أظهر عدم كفاية السفينة الشراعية لربط مجتمعات وراء البحار بعضها مع بعض في نظام سياسي واحد .

كانت هذه المستعمرات البريطانية متباينة في منشأها وصفاتها . فقد قامت بها المستعمرات الفرنسية والسويدية والهولندية فضلا عن البريطانية ، وكان سكان منطقة ماري لاند من الكاثوليك وسكان نيوجانلد من متطرفة البروتستانت ، وبينما راح أهل نيوجانلد يزرعون أراضيهم ويعيرون امتلاك الرقيق ، فإن البريطانيين من سكان فرجينيا وماوراءها جنوبا كانوا زراعا يستخدمون عددا متضخما من العبيد الزنوج المحليين من الخارج . فمثل تلك الولايات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة . وربما كان معنى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقات رحلة غالية لا تكاد متاعها تقل عن مشاق عبور الأطلسي

غير أن الاتحاد الذي أنكرته على تلك الولايات أصولها للتباينة وظروفها الطبيعية وحالت دون قيامه بين هؤلاء الأمريكيين البريطانيين لم يلبث أن فرضه عليهم قرص أنانية الحكومة البريطانية بلندن وغباؤها . ذلك أنهم كانت تفرض عليهم الضرائب دون أن يكون لهم أى صوت ولا رأى في إنفاق تلك الضرائب ، وكانت تجارتهم يخضع بها من أجل المصالح البريطانية ، وواصلت الحكومة البريطانية القيام بتجارة الرقيق لأنها تدر الأرباح الوفيرة ، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يفرقهم تيار الشعب البري الأسود الذي لا يفتأ يزايد عدده ، وإن رغب هؤلاء الفرجينيون في الوقت ذاته رغبة أكيدة في امتلاك الرقيق واستخدامهم .

وفي ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نوع جديد من الحكم للسياسة يتصف بالقوة والشدّة ، وأفضى عناد الملك جورج الثالث (١٧٦٥ - ١٨٢٠) إلى دفع للمستعمرات دفعا إلى القتال مع الحكومة البريطانية .

وبمنا عجل باندلاع الحبيب الصراع ذلك التشريع الذي أمر بالتفضيل لمصالح شركة الهند الشرقية بلندن على حساب أرباب السفن الأمريكيين . لذا هاجمت ثلة من الرجال

تسكرت في زى المنود الحر في ١٧٧٣ ثلاث سفن بميناء بوسطن وألفت في الساء بما كانت تعمل من الشاى الذى استورد في ظل القانون الجديد . ولم يبدأ القتال إلا ١٧٧٥ عندما حاولت الحكومة البريطانية أن تمتل اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لكسنبتون قرب بوسطن . وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لكسنبتون وتلاحم الجلمان في أول قتال بينهما قرب كونكورد .

هكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية . وإن ظل المستعمرون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقف الإحجام البالغ عن القتال وعدم الرغبة في قطع علاقاتهم ببلادهم الأصلية . فلم يصدر مجلس كنجرس Congress ونواب الولايات الثائرة وثيقة « إعلان الاستقلال » إلا بعد منتصف عام ١٧٧٦ وعين جورج واشنطن قائداً عاماً للجيوش الأمريكية ، وكان قد تعلم فنون الحرب أثناء الكفاح الذى نشب مع الفرنسيين شأنه في ذلك شأن كثير من كبار للمستوطنين الأمريكيين في ذلك الزمان . وفي ١٧٧٧ هزم عند مزرعة فريمان قائداً بريطانيا ، هو الجنرال بورجون واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا أثناء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك . وفي نفس تلك السنة أعلن الفرنسيون والأسبان الحرب على بريطانيا العظمى . فأدى ذلك إلى تعطيل مواصالاتها البحرية تعطيلاً بالغا . ثم طوق جيش بريطاني آخر تحت إمرة الجنرال كورنواليس بشبه جزيرة يوركتاون بفرجينيا واضطر بدوره إلى التسليم دون شرط ١٧٨١ . ثم عقد الصلح يادرس في ١٧٨٣ وبمقتضاه أصبحت للمستعمرات الثلاث عشرة للتمتدة من اللين إلى فرجينيا اتحاداً مكوناً من ولايات مستقلة ذات سيادة . وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية في عالم الوجود . وظلت كندا موالية للراية البريطانية .

ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لها إلا حكومة عامة ضئيلة السلطان تتولى الشئون بمقتضى بعض مواد دستور ينص على قيام اتحاد مفكك بينها ، ولاح أثناء تلك المدة أنه لا مقر لها من الاقسام إلى مجتمعات مستقلة متفصلة بعضها عن بعض . ولكن أمرين أدبا إلى إرجاء ذلك الاتصال وهما عدااء البريطانيين لهم وإظهار الفرنسيين نحيباً من الرغبة في الاعتداء عليهم مما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب للترتب على الاقسام والفرقة وقبته القوم فوضروا في ١٧٨٨ دستوراً اعتمدوه للفور ، فقامت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة لها رئيس يتمتع بسلطات ضخمة جداً ، ومالبت حزب ثانية شبت مع البريطانيين في ١٨١٢ ، أن قضت على كل ضعف في الشعور بالوحدة القومية ومع ذلك

فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع ، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضارب بحيث أنها لو استمرت تعتمد على وسيلة التواصل الوحيدة للوجود آنذاك [وهي الحصان] ، فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدول الأوروبية وفي مثل اتساعها كان أمرا لا مفر منه بمعنى الأيام إذ لم يكن لحضور الجلسات بواغظ من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطيرة لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقيم بالمناطق القاسية ، فضلا عن أن العوائق التي كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد كانت مما لا يكاد يستطاع تذليله . ومع ذلك فقد أخذت تنشأ آنذاك في العالم قوى قدر لها أن توقف عملية التفرق وقفا تاما ، إذ سرعان ما ظهر الزورق البخارى النهري ثم السكة الحديدية والتلغراف ، فأخذت الولايات المتحدة من التفرق ، وضمت أهلها للشنتين في نسيج واحد هو أول الأمم العصرية العظيمة .

وماهى إلا اثنتان وعشرون سنة حتى حذت المستعمرات الأسبانية بأمرىكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة وقطعت كل علاقة بينها وبين أوروبا . على أنها لم تستطع أن تضم شملها في اتحاد يجمعها نظرا لشدة توزعها في أرجاء القارة ، ولانفصالها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة ومجاري وغابات وإمبراطورية البرازيل البرتغالية . لذا أصبحت تلك للمستعمرات مجموعة من الولايات الجمهورية ، وصارت شديدة الميل في البداية لإشغال نار الحروب فيما بينها والثورات في داخلها .

أما البرازيل فإنها سلكت طريقا آخر إلى ذلك الانفصال الذي لم يكن منه مفر . إذ حدث في ١٨٠٧ أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية ، ففرت الأسرة المالكة إلى البرازيل ، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن افترق البلدان ، أمست البرتغال هي التابعة تقريبا لبرازيل وليس العكس . ثم أعلنت البرازيل استقلالها في ١٨٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بيدرو الأول ، أحد أبناء ملك البرتغال . ولكن العالم الجديد لم يرمق للسكية مطلقا بعين الرضا . لذا أرسل إمبراطور البرازيل يهدوء إلى أوروبا على ظهر إحدى السفن في ١٨٨٩ ، وتساوت الولايات للتحدة البرازيلية بسائر أمريكا الجمهورية .

الفصل الخامس والعشرون

الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا

لم تسكد بريطانيا تفقد للمستعمرات الثلاثة عشرة بأمريكا حتى قبض الله لحركة ثورية عنيفة سياسية واجتماعية قامت في قلب الملكية العظمى نفسها ، - أن تذكر أوروبا بصورة أجلى وأوضح كثيرا ، بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية شيء وفق تماما لادوام له .

سبق أن ذكرنا أن للملكية الفرنسية كانت أنجح الملكيات المستبدة بأوروبا ، وذكرنا أنها كانت مثار حسد عدد جم من البلاطات المتنافسة أو العنصرية ، كما كانت مثالها المحتذى . ولكنها لم تزده إلا على أساس من الظلم والطغيان أقضى إلى ما أصابها من انهيار مسرحى هائل . أجل إنها اتصفت بالذكاء والشجاعة والدوان . ولكنها فرطت في حياة من بها من العامة وكيانهم . وكان رجال الدين والنبلاء يأمرون من الضرائب بسبب القوانين التي تعفيهم والتي تلقى على عواطف الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكانت الضرائب تسحق الفلاحين سحقا ؛ وكان النبلاء يتسلطون على الطبقات الوسطى ويستذلونها .

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألقت نفسها مفلسة خاوية الوفاض في ١٧٨٧ ، وأن اضطرت إلى استدعاء ممثلي الطبقات المختلفة بالملكية لتشاوهم في أمر مشكلات نقص الإيرادات وشدّة زيادة الصروفات ، واجتمع مجلس طبقات الأمة بفرساي في ١٧٨٩ ، وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة يماثل إلى حد ما الصورة الأولى للبرلمان الإنجليزي . ولم يقد ذلك المجلس منذ ١٦٩٠ ، وهي فترة من الزمن كانت تحكم فرنسا أثناءها ملكية مطلقة . فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تهمهم القوي المديد الأجل . وسرعان ما نشبت الخلافات بين الطبقات الثلاث ، بسبب إصرار الثالثة وهي العامة على الهيمنة على المجلس . وكانت للعامة الغلبة في هذه المنازعات فتحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واضحة المزم على إلزام التاج بالنظام مثلما ألزم

البرلمان البريطني التاج البريطني حدود النظام . ونهياً لللك لويس السادس عشر الكفاح
واستعصر الجند من الأتيم . فارت عند ذلك باريس وفرنسا .

كان انهيار الملكية للستبة سريعاً جداً . فهدم سكان باريس سبعين الباسقيل الجهم
التييح الصورة ، وسرعان ما انتشرت الفن بكل أرجاء فرنسا . وامتدت أيدي الفلاحين
في الشرق والشمال الغربي إلى كثير من قصور النبلاء فأحرقوها ، ومزقت براءات القابهم
بكل عناية ، كما قتل أصحابها وطردها شر طردة ، فلم ينقض شهر واحد حتى انهار
نظام الأرستقراطية القديم الناصر . واضطر إلى الفرار إلى خارج البلاد كثير من كبار
الأمراء ومن رجال البلاط من حزب لللك . وأقيمت ياريس ومعظم للدن السكيرية
الأخرى حكومة مؤقتة للمدينة . وأنشأت حكومات البلديات هذه قوة مسلحة جديدة هي
الحرس الوطني ، وهي قوة مسلحة أنشئت أولاً وقبل كل شيء لمقاومة قوات التاج .
ونظرت الجمعية الوطنية حولها ، وإذا هي تستدعي لإيجاد نظام سياسي واجتماعي جديد
لعهد جديد .

كان القيام بهذا الأمر مهمة شاقة أرهقت قوة تلك الجمعية . وهكذا غلصت فرنسا من أم
ما كان يهبطها من مظالم الحكم المطلق للستيد ، فألغت الإعفاء من الضرائب والرق
(موالى الأرض) وألغى الأرستقراطية وامتيازاتها ، وحاولت أن تقيم في باريس
صريح ملكية دستورية ، ففادى لللك فرساي وأبتهها ؛ وعاش عيشة متواضعة بقر
التوباري ياريس .

ومرت سنتان زعم الناس خلالها أن الجمعية الوطنية مستعمر في كفاحها حتى تنشئ
حكومة قوية ذات طابع عصري . فأنجبت أشياء كثيرة صالبة دامت إلى يومنا هذا وإن
كان كثير من إنتاجها تجارياً لم يكن يد من نقض . على أن كثيراً مما أنتجت لم يكن له
أي أثر . فراجت الجمعية تصفي قانون المقويات وتنقيع من الشوائب ، وألغت التعذيب
والحبس التعسفي والاضطهاد بسبب الزندقة . وحلت ثمانون مديرية محل ولايات فرنسا
القديمة كنورماندي وبرغندي وأمثالها . وفتح باب الترقية إلى أعلى رتب الجيش لكل
طبقات الأمة . وأشياء نظام المحاكم ممتاز وبسيط ، وإن أقصد قيمته كثيراً جعل تصنيف
القاضي فيها بالانتخاب العام إلى مدة قصيرة من الزمن . فكان الجمهور قد أصبح بذلك
ضرباً من محكمة استئناف نهائية عليا . كما صار القضاء كاعضاء الجمعية الوطنية مضطرين

أن يتملقوا الجمهور ويسعوا إلى مرضاته . واستولت الدولة على ممتلكات الكنيسة الضخمة
دتولت إدارتها بنفسها ، وحلت جميع المؤسسات الدينية التي تعمل في غير التعليم أو البر
والإحسان ، وأصبح الشعب هو الذي يتحمل مرتبات رجال الدين . ولم يكن في ذلك
مضرة بالطبقة الدنيا من رجال الدين الفرنسيين ، الذين كثيرا ما صغرت مرتباتهم بصورة
فاضحة بالنسبة لكبار رجال الدين الاثرياء . وزيادة على ذلك أصبح تعيين القساوسة والأساقفة
بالانتخاب ، وكان ذلك ضربة عنيفة أصابت في الصميم فكرة الكنيسة الكاثوليكية
التي تنجس فيها السلطات للرئاسة في يد البابا والكرادلة من أعلى إلى أسفل . والواقع الذي
لا شك فيه أن الجمعية الوطنية شاءت أن تحول بضربة واحدة الكنيسة الفرنسية إلى طريق
البروتستانتية من حيث التنظيم إن لم يكن من حيث للذهب . ونشبت المنازعات في كل
مكان بين قساوسة الدولة الذين أنشأتهم الجمعية الوطنية وبين رجال الدين الخارجين
عليها (الذين أبوا أن يسموا بمين الولاء) والذين ظلوا على ولائهم لروما .

وفي ١٧٩١ انتهت على حين بفته تجربة الملكية الدستورية بفرنسا بما فعله الملك
والمسكة حين تأمرهم أمضاتهما الأرستقراطيين والملكيين في الخارج . وتجمعت الجيوش
الأجنبية على الحدود الشرقية ، وانسل الملك والمسكة وأطفالهما في إحدى ليالي شهر
يونيه من قصر التويلري فارين للانضمام إلى الأجانب والثنين الأرستقراطيين . قبض
عليهم في فارن وأعيدوا إلى باريس ؛ وعندئذ اشتعلت فرنسا كلها بلهب النزعة القومية
الجمهورية . وأعلنت الجمهورية على الفور واندلع لهب الحرب بين الفرنسيين والنمسا
وبروسيا ، وحكم الملك وقطعت رأسه (يناير ١٧٩٣) بتهمة خيانة شعبه ؛ على نفس
النسق الذي استنته إنجلتره من قبل .

هنا بدأ طور غريب في التاريخ الفرنسي . إذ تأجج لهب عظيم من الحماسة لفرنسا
والجمهورية . وأحس الناس أن لا بد لهم من القضاء على كل تسامح في الداخل وكل صلح
مع الأعداء في الخارج ؛ فكان لا بد في الداخل من استئصال خلافة الملكييين وكل كل من
أشكال عدم الولاء ؛ وكان لا بد لفرنسا من أن تعمي في الخارج كل حركة ثورية وتقدم لها اللون ،
ورأت فرنسا أن لا بد لأوروبا بأكملها (بل العالم كله) أن تحتق النظام الجمهوري . ومدفق
شباب فرنسا إلى جيوش الجمهورية ، وانتشر في طول البلاد وعرضها نشيد جديد عجيب
هو المارسليز لايزال يلهم المعاني العروا كما تلهمها نحميا السكاس . انتشرت الجيوش الأجنبية

ورجعت القهقري أمام ذلك النشيد الجاسي والخواير الفرنسية الوثابة من حملة السونكي ومدافعهم التي تدبرها حماسهم للتوقفة : فلم تكبد ١٧٩٢ تقارب نهايتها حتى صارت الجنود الفرنسية جواضع أبعد كثيراً من كل ما بلغت فتوح لويس الرابع عشر إذ كانوا يقفون في كل مكان على أرض أجنبية غير فرنسية : فهم يحتلون مدينة بروكسل ، وهم يحتلون مملكة ساكسوني ، وهم يتقدمون فيشنون الفارة على ماينانس Mayence ، وهم قد استولوا على إقليم نهر الشلت من هولندية . وعند ذلك ارتكبت الحكومة الفرنسية حماقة لا تنتقر إذ أحرقها طرد ممثلها من إنجلترا عند قتل لويس ، فأعلنت الحرب على إنجلترا . وتلك حماقة لم يكن لها من ضرورة ، وذلك لأن الثورة التي منحت فرنسا جيشاً من الشاة شديد التمسك ومدفعية نابهة مبرأة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من الظروف الموقفة للتقدم ، — قد دمرت نظام البحرية الفرنسية ، وكان للانجليز التفوق المطلق في البحر . وإزاء ذلك التحدي والاستفزاز أخذت كلمة إنجلترا بأكلها ضد فرنسا بعد أن ظهرت بريطانيا حركة ضخمة جتهدت تدفع إلى التسامح مع الثورة والمضطرب عليها .

ولا يتسع المقام لذكر تفاصيل القتال الذي نشب بين فرنسا في السنوات القليلة التالية . وبين محالبت تكون ضدها من الدول الأوروبية . ومحسناً أنها طردت النمسيين إلى الأبد من بلجيكا ، وأنها حولت هولندية إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندي وقد تجهز من حوله الماء في نهر تكسيل Texel ، ليلفنة من الحيلة الفرنسيين دون أن يطلق قذيفة واحدة من مدافعه . ووصلت هجمات الفرنسيين على إيطاليا ردها من الزمان ، فلم ينهياً لها تقدم إلا في ١٧٩٦ عندما عين قائد جديد هو الجنرال نابليون بونارت لقيادة الجيوش الجمهورية الجامعة للإلهة الثياب إلى ميادين النصر بإيطاليا ، فاخترق ريديمونت إلى ماتتوا وفيرونا . يقول س . ف . أمتكنسون (١) :

« إن أخذنا ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعة حركاتهم . وذلك أن الواقع أن هذه الجيوش للرجلة الرجال لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يفوق تقدمها . إذ لم يكن لديها خيام لقلة ما لدى الجمهورية من نفود ، ولو وجدت لما كان من الممكن

(١) في مقالته التي نشرها بملزمة الماريف للبريطانية تحت عنوان French Revolutionary Wars

قلها لاحتياجها عندئذ إلى عدد هائل من العربات ، التي ربما لزمتم كما كانت في الوقت نفسه غير ضرورية ، وذلك لأن للتابع التي كانت تدعو إلى فرار الجند بالجملة من الجندية في الجيوش القديمة المحترفة كان يتحملها بالسرور التام رجال فرنسا في عام ١٧٩٣ - ١٧٩٤ . ولم يكن معقولا أن يستطاع نقل مؤن الجيوش لم يسمع الناس بمثل حجمها حتى ذلك الحين ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حساب البلاد التي يملكون بها . وهكذا شهدت ١٧٩٣ مولى طريقة الحرب المصرية : سرعة الحركة وتطور كامل للقوة القومية وعسكرة الجنود بلا خيام في المراء ، وعيشهم على حساب الأهالي واعتمادهم على القوة بدلا من الداورات الحنرة والجيوش الصغيرة المحترفة والخيام والأطعمة والجرايات الكاملة والتلاعب والحداع . فالجيوش الأولى تمثل الروح التي تستلزم جسم الأمر فوراً ، والجيوش الثانية تمثل روح المخاطرة بالقليل في سبيل القليل . . . »

وبينا كانت هذه الجيوش الرثة الثياب من للتحسين تنشدها لارسييليز وتقاتل في سبيل فرنسا La France دون أن يتضح لأذهانها تماماً ما إذا كانت تنهب البلاد التي تدققت فيها أو تحررها - كانت الحاسة الجمهورية يباريس تتلشى بصورة مزرية بمجدها وكرامتها . ذلك أن الثورة قد أصبحت آنذاك تحت سلطان زعيم هديد الشعب ، هو روبسبير . ومن السير علينا أن نقضى في هذا الرجل برأى ؟ فإنه كان رجلاً ضعيف البنية جباناً ببطرته مقترأ مزهوا بنفسه . ولكنه أوتى الزم الصفات بلوغ القوة ، وهي الإيمان . فراح يعمل على إنقاذ الجمهورية على الصورة التي خيلها إليه تصويره ، كما أنه كان يتوهم أنه لا منقذ لها إلا غرضه هو . ومن ثم أصبحت عقيدته الراسخة أن بقاءه في الحكم هو السبيل لإنقاذ الجمهورية . وخيل إليه أن الروح الحى للجمهورية قد نشأ عن تذييع للكئين وإعدام الملك ، وتصادف أن قامت بالبلاد بعض اللقن ؟ حيث إحداهما في الغرب بمنطقة لافنديه La Vendée ، حيث ثار الأهالي بزعماء بعض النبلاء ورجال الدين احتجاجاً على أخذهم جنوداً في الجيش ، وعلى حرمان رجال الدين للتمسكين بمقيدة السلف الصالح من أملاكهم ، وهبت ثورة أخرى في الجنوب حيث تمردت ليون ومرسيليا وسمح أنصار الملكية في طولون لحماية إنجليزية وأسيانية بالزول برا . فلم يسكن لدى روبسبير فيما يبدو من رد فعال على ذلك إلا مواصلة إعدام أنصار الملكية .

وابتدأت عسكرة الثورة عملها ، وابتدأ بذلك سيل منهم من الدرع والتقتيل وجاء اختراع القصة (الجيواتين) في أنسب الأوقات لهذه النزعة الدموية . فأعدمت الملكية

بالفصلة ، وكذلك أعدم معظم خصوم روبسيير . بالفصلة ، وأعدم بالفصلة أيضاً كل كافر أنكر وجود السكان الأمل « الذي أخذه روبسيير رباً » ؛ واقضت الأيام يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع ، وهذه الآلة الجهنمية الجديدة تهرز الروس فالروس بعد الروس وتقول هل من مزيد . ولا إخال إلا أن حكم روبسيير كان يعنى على الدم ؛ ولا يزال يطلب المزيد منه فالزيد كدمت الأفيون حين يطلب منه المزيد فالزيد .

وأخيراً جاء دور روبسيير نفسه فمزق وأعدم بالفصلة نفسه في صيف ١٧٩٤ ، وخلفته حكومة إدارة مكونة من خمس رجال واصلت الحرب الدفاعية في الخارج وجمعت كلمة فرنسا في الداخل مدة خمس سنوات . وكان حكمهم أشبه الأشياء بغاصل عجيب وسط أحداث هذا التاريخ الحافل بالتغيرات الضخمة . فقتالوا الأمور كما وجدوها ، وفي عهدهم دفعت حمية الدفاع لثورة الجيوش الفرنسية إلى هولنده وبلجيكا وسويسرا وجنوب ألمانيا وشمال إيطاليا . فكان للوك يطردون في كل مكان ويقام في مكانهم الجمهوريات . ولصكن حمية الدفاع التي كانت تشعلها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب حكوز الشعوب المحررة ، ابتغاء تخفيف الضائقة المالية التي نزلت بالحكومة الفرنسية . ومالبث حروهم أن انحطت رويدا رويدا عن مرتبة الحرب للقدسة من أجل الحرية وشابهت أكثر فأكثر الحروب العدوانية للمروقة من اليهود القديمة . وكانت تقاليد السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا تريد التخلص منه من مظاهر الملكية العظوى . فأنت ترى تلك التقاليد في أيام حكومة الإدارة قوة ثانية كأنما لم تسكن هناك أية ثورة .

ومن سوء حظ فرنسا والعالم كله ظهور رجل تركزت فيه إلى أقصى حد أنانية الفرنسيين القومية هذه . فلم يكن منه إلا أن وهب تلك الدولة عشر سنوات من الهدى ثم ختمها بمذلة الهزيمة النهائية . ولم يكن ذلك الرجل سوى نابليون بوناپرت عينة الذي قاد جيوش حكومة الإدارة إلى ساحات النصر بإيطاليا .

ظل هذا الرجل طيلة السنوات الخمس لحكومة الإدارة يعمل لحسابه الخاص ويدبر الحطط لرفع شأن نفسه . وأخذ يرق بالتدرج إلى منزلة الصدارة والقوة العليا . كان فهمه محدودا إلى درجة كبيرة ولكنه كان صاحب همة عظيمة ، قصودا إلى هدفه بصورة مباشرة لا تساهل فيها ولا هوانة . بدأ حياته ضيرا متطرفا لدمرة روبسيير ؛ فهمد بين بترقباته الأولى إلى انحيازها إليها . ولكن أنى له أن يدرك حقاً تلك القوى الجديدة التي كانت تعمل عملها في أوزما ، فإن قصارى تصوراته في السياسة لم ترتفع به إلا إلى

القيام بمحاولة بالية زائلة لاسترجاع الإمبراطورية الرومانية الغربية فحاول أن يدمر البقية الباقية من الإمبراطورية الرومانية للقدسة ، فاصداً أن يستبدلها أخرى مركزها باريس واضطر الإمبراطور في فيينا أن يتخل عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية للقدسة مكتفياً بلقبه الأصلي كإمبراطور للنمسا فقط . وطلق نابليون زوجته الفرنسية ليتزوج من أميرة نمسوية .

أصبح بالفلع عاهلاً لفرنسا حين عين قنصلاً في ١٧٩٩ ، كما جعل نفسه إمبراطوراً لفرنسا في ١٨٠٤ مما كاد منه لشرلمان مباشرة . وتوجه البابا ياريس ، حيث تناول منه التاج ووضعه بنفسه على رأسه كما أوصى شرلمان . وتوج ابنه ملكاً على روما .

وانقضت بضع سنين كان نابليون ينتقل أثناءها من نصر إلى نصر . ففتح معظم إيطاليا وأسبانيا ، ودحر بروسيا والنمسا ، وتسلط على كل أوروبا غربي روسيا . ولكنه لم يقف قط بانتزاع منصب السيادة على البحر من يد البريطانيين ، ولقيت أساطيله هزيمة نهائية فاصلة على يد الأدميرال نلسن البريطاني في موقعة الطرف الأغر (١٨٠٥) . وثارت أسبانيا عليه في ١٨٠٨ ، وراح جيش بريطاني بقيادة ولنجبتن يدفع الجيوش الفرنسية يبطء نحو الشمال حتى طردها من شبه جزيرة أيبيريا . وفي ١٨١١ دب ديب الخلاف بين نابليون وبين القيصر إسكندر الأول ، ثم غزا روسيا في ١٨١٢ بجيش عظيم عطل عدته ٦٠٠٠٠ سبابة ألف رجل ، وهي حملة هزمتها الروس بمعاونة شتاء بلادهم القارس ودمروها إلى حد كبير . وعندئذ شقت ألمانيا عصا الطاعة عليه ، وانقلبت السويد عليه . فارتدت الجيوش الفرنسية منهزمة كمنزلة البتاج . واضطر نابليون إلى التنازل عن العرش في فورتينبلو (١٨١٤) . فنتى إلى جزيرة إلبا ، ثم عاد إلى فرنسا لبذل آخر سهم في جبهته في ١٨١٥ ، ولكنه هزم في واترلو على يد جيوش الحلفاء من بريطانيين وبروسيين وبلجيكيين .

لقد تبددت القوى التي أطلقتها الثورة الفرنسية من عقابها وذهبت أذراج الرياح ، والتأم مدينة فيينا بوجع عظيم للحلفاء للظافرين يستهدف أن يمدحهم بالاستطاع الظروف التي مزقتها الزوامة العظيمة كل ممزق . وأسفي للوئيم عن احتفاظ أوروبا بجمعة تتأرب الأربعين عاماً بنوع من السلام التاجم عن تبيد القوى وتشقت الجود .

الفصل الثامن من مخزون

النسب الأوربي المقلقل بعد سقوط نابليون

حال سنيان رئيسيان دون استقبات السلام الاجتماعي والدولي خلال هذه الفترة، ومهدا السبيل لدورة الحروب التي نشبت بين عامي ١٨٥٤، ١٨٧١. وأول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية صاحبة الشأن إلى إعادة الامتيازات المحقة بالشعوب وإلى التدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم. وثانيهما هو تلك الحدود المقيمة المستحيلة التي رسمها سامسة فيينا.

وقد تجل في أسبانيا أولا وبأوضح صورة جلية ميل الملكية للتأصل إلى العودة إلى الأحوال والأوضاع القديمة البائدة. وإذا هي تعيدها جميعاً حتى محاكم التفتيش نفسها. ومن قبل ذلك فيما وراء الأطلنطي كانت للمستعمرات الأسبانية قد حذت حذو الولايات المتحدة، وثارَت على نظام الدول العظمى الأوربي، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف على عرش أسبانيا في (١٨٠٨). وكان الجنرال بوليفار منقاد أمريكا الجنوبية من نير الأوربيين بشأن جورج واشنطن في الشمال ولم تستطع أسبانيا أن تقف على هذه الثورة، فطال أمدها بغير ثمرة مثلما طال أمد حرب استقلال الولايات المتحدة من قبل، حتى اقترحت النمسا في النهاية تمسكاً منها مع روح «المخالفة للقدسة» وجوب مساعدة ملوك أوربا لأسبانيا في ذلك الكفاح. فلقى ذلك الاقتراح معارضة من بريطانيا، ولكن الذي قضى نهائياً على اقتراح إرجاع سلطان الملكية ذلك، هو التصرف السريع الذي اتخذته مونرو رئيس الولايات المتحدة في ١٨٢٣ حين حذرها من قبل الاسترداد. فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد كل تدخل من جانب الدول الأوربية في نصف الكرة الغربي عملاً عدائياً. وهكذا نشأ مذهب مونرو، القاضي بأن لا توجد بأمريكا دولة تابعة لأخرى خارج أمريكا، وهو الذي أجد نظام الدول العظمى عن أمريكا مدة ثوب على دثة سنة، وأتاح لدول أمريكا الأسبانية الجديدة أن تصوغ مصائرهما على الطريقة التي تريدها لفسها.

ولكن، لقد كانت الأسبانية مستعمراتها. لقد كانت تستطيع على الأقل أن

تفعل ما تشاء في أوروبا تحت حماية التضامن الأوروبي لذا تولى جيش فرنسي سحق حركة عصيان عممية شبت بأسبانيا في ١٨٢٣ . إذ سحقها بتفويض من مؤتمر أوري ، وراحت النمسا في نفس الوقت تقمع ثورة اندلعت في نابلي .

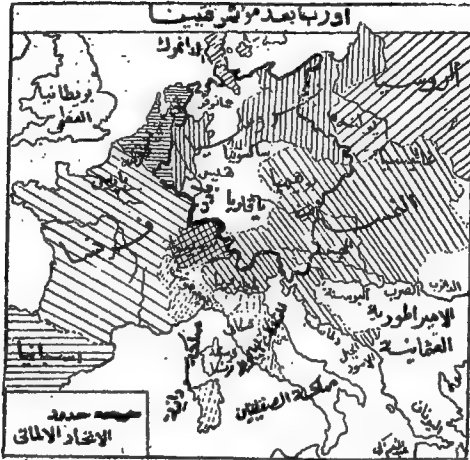
وقد توفي لويس الثامن عشر في ١٨٢٤ وخلفه شارل العاشر : وكرس هارل كل جهوده للقضاء على حرية الصحافة والجماعات ، وإعادة الحكم المطلق إلى نصابه ؛ فأقرت الجمعية اعتماد مبلغ بليون من الفرنكات تموضاً للنبله عما حل بهم في ١٧٨٩ من حرق قصورهم ومصادرة أموالهم . وما لبثت باريس أن ثارت في ١٨٣٠ على ذلك الملك الذي تمثلت فيه كل مظاهر العهد البائد ، وأحلت محله على العرش لويس فيليب ابن فيليب دوق أورليان ، أحد النبلاء الذين أعدموا في عهد الإرهاب ولم تستطع الملكيات الأخرى بالمقارنة الأوربية التدخل في هذه الحالة لما شهدته من استعصان بريطانيا الصريح لتلك الثورة ، ولما أنصته من وجود حركة تحرر وتسامح بألمانيا والنمسا . هذا إلى أن فرنسا كانت لا تزال — قبل كل شيء — محتفظة بنظامها الملكي . وقد بقي هذا الرجل لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٧٤٨) ثمانية عشر عاما ملكا دستوريا لفرنسا .

تلك هي التقلبات القلقة التي كانت تبعث بقرارات مؤتمر فيينا ، والتي أثارته من مكنها تصرفات الملكيين الرجعية . فظلت التوترات التي تمخضت عنها التحوم غير اللدروسة عليا التي وضعها الديبلوماسيون في فيينا يشهد عودها من آن لأن ولكن خطرها على سلام الإنسانية كافة كان أعظم كثيراً . ذلك أن من أشد الأمور جلا للمتاب على رؤوس الحكومات أن تتولى أمور شعوب تتكلم لغات مختلفة وتقرأ بالتبعية آدابا لغوية متباينة وتمتلك أفكارا عامة متفاوتة ، خاصة إذا زادت المنازعات الدينية من شر هذه الفوارق . وليس هناك إلا شيء واحد يستطيع تبرير ربط شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها برباط وثيقا هو قيام مصلحة مشتركة متبادلة بينهم كحاجات الدفاع المشترك عند السويسريين الجبلين ؛ بل إن سويسرا نفسها يقوم فيها الاستقلال الذاتي المحلي إلى أبعد حد . على أن نظام السكاتونات يكون أكرم وأوجب إذا كانت البلاد قطرا كقندونيا يخطط السكان فيه في رقع صغيرة من القرى والأحياء الثابتة الأجناس . ولو أن القاريء نظر إلى قارة أوروبا كما رسمها مؤتمر فيينا ، لشهد بعين رأسه أن ذلك المؤتمر كان كمن لا يهدف إلا إلى استئارة أشد أنواع الاستياء المحلي في كل ناحية مستها يده .

دمر ذلك المؤتمر جمهورية هولنده بدون معبر . وكليس في كنة واحدة كلا من

المولنديين البروتستانت مع الكاثوليك الناطقين بالفرنسية ، والساكسين بالأراضي المنخفضة الأسبانية القديمة (والنمسية أيضاً) ، وأقام منها مملكة الأراضي المنخفضة . ولم يقتصر على أن يعلم للنمسيين الناطقين بالألمانية ، جمهورية البندقية المريفة ، بل وشمال إيطاليا كله حتى مدينة ميلانو . ثم جمع مقاطعة سافوى الفرنسية التي مع أجزاء من إيطاليا وأحيا من جديد مملكة سردينيا البائدة . فأما دولة النمسا والمجر وها من قديم الزمان خليط متفجر من القوميات المتناحرة من الألمان والمجر والتشيكيوسلافك واليوغوسلاف والرومانيين فضلا عن الإيطاليين الذين ضموا إليهم آنذاك ، - فقد أصبح الموقف فيها . أصعب وأعسر حين أقر المؤتمر ضم الممتلكات التي استقطعتها النمسا من بولندة في ١٧٧٢ ، وأقر المؤتمر أيضاً تسليم الشطر الأعظم من الشعب البولندي الحر الكاثوليكي العقيدة الجمهوري الزعة إلى الحكم الأقل حضارة حكم قيصر روسيا صاحب العقيدة الأرثوذكسية اليونانية ، غير أن بروسيا البروتستنتية استولت بدورها على لواح هامة من ذلك القطر النصي . وأقر المؤتمر أيضاً استيلاء القيصر على بلاد الفنلنديين الأجانب عنه تماماً . وربط شعبي السويد والنرويج المختلفين تمام الاختلاف ، بعضهما إلى بعض من ظل عرش واحد . وسيلفظ القاري أن ألمانيا تركت في حالة من الفوضى والارتباك لها خطورتها التامة . فإن كلامن بروسيا والنمسا كانت داخله جزئياً في اتحاد ألماني وخارجة جزئياً عنه ، وهو يضم العدد الجهم من الولايات الصغرى وأصبح ملك الدنمرك عضواً في الاتحاد الألماني بسبب بضع ممتلكات ناطقة بالألمانية في هولشتين وقعت في حوزته . وألحقت لوكسمبرج بالاتحاد الألماني وإن كان حاكمها ملكاً للأراضي المنخفضة أيضاً ، ومع أن كثيراً من شعوبها كانوا يتكلمون الفرنسية .

وهنا أغفل للمؤرخون إغفالاً تاماً حقيقة واضحة للعيان : هي أن الأقوام الذين ينطقون بالألمانية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الألمانية ، وأن القوم الذين يتحدثون بالإيطالية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الإيطالية والقوم الذي يتحدثون بالبولندية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة البولندية ، سيكونون دون أدنى ريب أسعد حالاً وأشد عوناً لباقي البشرية وأقل ضرراً بها إذا هم أداروا شئونهم الخاصة على الطريقة التي يرتضون وفي حدود لنتهم القومية ، فلا غرابة إذن أن تعلن أغنية من أحد مازداع في ألمانيا من الأغاني الشعبية في ملك الأيام أنه « حينما نطق اللسان الألماني ، فتلك أرض الأجداد الألمانية » .



خريطة رقم (١٧)

اقتدت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية بالثورة التي اندلعت بفرنسا ١٨٣٠، حيث أعلنت الثورة على ربطها قسراً بالهولنديين في ملكة الأراضي المنخفضة وذعرت الدول من احتمال قيام جمهورية بتلك البلاد أو إلحاقها بفرنسا، فسارعت بالتدخل لتهدة ذلك الموقف ، وأعطت بلاد البلجيك ملكا هولنديا الأول أمير ساكس كوريج أجونا وحدثت في نفس تلك السنة ١٨٣٠ أيضاً ثورات بإيطاليا وألمانيا لم يكتب لها التوفيق ؛ كما حدثت ثورة أخرى أشد خطراً بكثير بالمنطقة الروسية من بولندة : وقامت بمدينة وارسو حكومة جمهورية بولندية صمدت هناك سنة كاملة أمام قوات القيصر نيقولا الأول (الذي خلف اسكندر في ١٨٢٥) ، ثم أخذت إخمادا مجلى فيه عظيم العنف والقساوة وحرّم النطق باللغة البولندية وجعلت الديانة الأرثوذكسية اليونانية ديناً رسمياً للدولة بلده الكاثوليكية .

وقد حدث في ١٨٢١ أن شق اليونان عصا الطاعة على الترك ، وظلوا يقاتلونهم
حرب الحياة أو الموت ، والحكومات الأوربية واقفة موقف التفرج . واحتج
الأحرار على الجلود التي يتبدى في أوروبا ؛ واتتال المتطوعون أفواجا من كل بلد أوربي
للانضمام إلى الصفا ، وأخيرا أخذت بريطانيا وفرنسا والروسيا خطوة مشتركة فعالة
فدبر الإنجليز والفرنسيون ، الأسطول التركي للمصرى بمركة نوارين (١٨٢٧) ،
واجتاح القيصر حدود تركيا . وعلنت معاهدة أدرنة (١٨٢٩) حرية بلاد اليونان
واستقلالها ، ولكن لم يسمح لها بأن تستعيد من جديد تقاليدها الجمهورية العتيقة والنفس
اليونان ملك الماني هو الأمير أوتو البافاري ، كما عين لولايات الدانوب (وهي
بلاد رومانيا الحالية) حاكم مسيحي ، ونصب آخر على بلاد الصرب (وهي جزء من
المنطقة اليوغسلافية) . ومع ذلك لم يكن بد من إراقة الشء الكثير من الدماء
قبل طرد الأتراك نهائيا من تلك الأمقاع .

الفصل السابع والخمسون

نمو العرفان المادى

فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وبينما منازعات الدول والأمراء هذه يهدر هديرها وتزلزل زلازلها فى أوروبا ، وبينما الخريطة للرقعة التى أنشأتها معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ تتحول بصورة عجيبة كنتقلبات رمل الصحراء إلى خريطة معاهدة فيينا (١٨١٥) للرقعة هى أيضاً ، وبينما السفينة السرعة تبسط النفوذ الأوروبى على أرجاء العالم قاطبة ، كان يدارج ذلك فى العالم الأوروبى وما اصطبح بصباغه من بلاد ، نمو مطرد فى المعرفة وتنقية عامة لأفكار الناس وآراءهم للتصلة ، بهذا العالم الذى فيه يعيشون .

تواصل هذا النمو وتلك التنقية بمعدل تام عن الحياة السياسية وإن لم ينتجا فى تلك الحياة طلبة القرنين السابع عشر والثامن عشر أية ثمرة أخاذة مباشرة . ثم إنهما لم يؤثرا فى الفكر الشعبى أثراً عميقاً أثناء تلك الفترة . ذلك أن تلك النتائج لم تظهر إلا فيما بعد ، بل لم تظهر إلا وهى على أتم قوتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . إن الذى حدث إنما هو عملية جرت بصفة رئيسية بين جدران عالم صغير من رجال موسرين ذوى أرواح حرة مستقلة . ولولا وجود تلك الشخصية التى يسميها الإنجليز « بالسيد » الجتسلان ، لما بدأت العملية العملية بيلاد الإغريق قط ، وما أمكن تجديد تلك العملية بأوروبا أبداً . ولعبت الجامعات دوراً فى هذا الشأن ، ولكنها لم تقم بالدور الأول الرئيسى ، فى الفكر الفلسفى والعلمى لتلك اللدة . وللتعلم الذى يتلقى الهبات اللالية يمنح إلى الجبن والحفاظة على القديم وتموزه روح الابتكار والمبادأة ويقاوم كل تجسيد . عالم يحفظه الاحتكاك بالعقول الحرة للستلة .

وقد ذكرنا من قبل أن الجمعية للكية تكوفت ١٦٦٢ ، ولحظنا ما أنجزته فى سبيل تحقيق أحلام باكون فى كتابه الأطلانطس الجديد . وتواصل إبان القرن الثامن عشر الشيء الكثير من تنقية الأفكار العامة عن : - المادة والحركة ، كما تم الشيء

الكثير من التقدم الرياضى ، ونمو منتظم فى استخدام العدسات فى كل من الجهر والرقب (للميكروسكوب والتلسكوب) وتجديد المهمة للنبوالة فى تصنيف التاريخ الطبيعى وتبويه ، واثماش عظيم فى علم التشريح ، وفى تلك الحقبة أيضاً بدأ علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) الذى تسكن به أرسطو وتوقعه ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، يبدل جهوده الكبيرة فى تأويل سجل الصخور .

وظهر أثر استخدام طرائق علم الطبيعة فى علم المعادن . وعاد تقدم علم المعادن بالفضل المعجم على المخترعات العملية ، حيث يسر معالجة قطع من المعادن وغيرها من المواد أكبر وزناً وأصغرها حجماً . وظهرت ما كينات ذات معيار جديد وبكثرة لم يسبق لها مثيل ؛ فأحدثت فى الصناعة انقلاباً هائلاً .

واستطاع تريفيثيك فى ١٨٠٤ أن يكيف آلة جيمس واط البخارية لمستازمات النقل والحركة ، وبذلك صنع أول قاطرة بخارية . ولم يلبث أول خط حديدى أن افتتح فى ١٨٢٦ بين ستوكتن ودارلنبثن ، وأن بلغت سرعة القاطرة « روكت » التى صنعها جورج ستيفنسن أربعة وأربعين ميلاً فى الساعة ، وهى تجر وراءها قطاراً من العربات زنته ثلاثة عشر طناً . وتكاثرت السكك الحديدية منذ ١٨٣٠ . فلم ينتصف القرن حتى كانت شبكة من السكك الحديدية قد انتشرت بكل أرجاء أوروبا . (١)

وهنا حدث تغير جافى فى ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابتة مستقرة ؛ هى أقصى سرعة يستطيع النقل على الأرض بلوغها . وقد سار نابليون من فلنا إلى باريس بعد هزيمته فى روسيا فى مدة ٣١٢ ساعة . قطع فيها مايدانى ١٤٠٠ ميل . وكانت تحت خدمته كل ما يستطيع تقديمه لملك من ميزات ، فلم تزد سرعته فى المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال فى الساعة . وما كان الراكب العادى ليستطيع أن يقوم بتلك الرحلة فى ضعف تلك المدة منها تعجلاً . وكانت تلك هى بالتقريب السرعة القصوى نفسها فى السفر بين روما وبلاد الغالة فى القرن الأول لليلادى . ثم ظهر التغير الحائل على حين بئته . وبفضل السكة الحديدية خفضت مدة هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما دون ثمانية وأربعين ساعة ، ومعنى ذلك أنها خفضت المسافات بأوروبا إلى نحو عشر ما كانت

(١) أنشأت مصر فى خط للسكك الحديدية فى العالم بين القاهرة والإسكندرية ١٨٥٧ [الترجم]

عليه . ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشئون الحكم في مباحات أكبر عشر مرات من التي كان في الإمكان إدارتها في الماضي على يد إدارة مركزية واحدة . ولم يدرك الناس حتى الآن للقرى النام تلك الإمكانية ، ذلك أن أوروبا تقطع أوصالها حدود ونجوم رسمت في عصر الحصان والطريق ، على أن الشبكة الحديدية كان لها بأمريكا أثر مباشر فعال . فقد كان معناها بالولايات المتحدة التي تزحف في بطء غربا ، إمكان الاتصال الدائم بواشنطن ، مما يجد موضع النجوم الجديدة التي تتقدم في كل آن بأرض القارة ، بل كان معناها هو الوحدة ، التي تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبدا لولا القطار .

وكان الزورق البخاري على كل حال سابقا قليلا على القاطرة البخارية في مراحلها الأولى فإن زورقا بخاريا هو «شارلوت دنداس» كان بحرقة خليج السكلايد Firth of Clyde في ١٨٠٢ ، وكان لأمر يكي اسمه فالتون باخرة أصمها كليرمونت بها آلات من صنع بريطانيا ، وتعمل في أعالي نهر المندسون وراء نيويورك ، وكانت أول باخرة أزيلت إلى البحر أمريكية أيضا هي الفينكس ، التي كانت تنقل بين نيويورك (هوبوكن) وفيلادلفيا وكانت أول سفينة شراعية زودت بالبخار (إذ كان بها قلع أيضا) عبرت المحيط الأطلسي (١٨١٩) واسمها السافانا - أمريكية هي الأخرى وكل هذه السفن لا تخرج عن زوارق تستخدم العجلة الرافعة (١) ، وليست سفن الرافعات بقادرة على شق عباب البحار الهائجة الأمواج . فإن عجائب العجلة تتعظم بغاية السهولة ، وعندئذ يصبح الركب ضعيفا عاجزا عن كل حركة ، ثم جاء دور السفينة البخارية ذات الدافعة اللولبية على شيء من البطء . إذ لم يكن بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن تصبح الدافعة اللولبية وسيلة عملية مثمرة . ولم تستطع حمولة السفينة البخارية البحرية التنوق على حمولة السفينة الشراعية إلا وقد انتصف القرن . ومن بعدها سار التطور في الملاحة البحرية يغطي سرعة ، ولأول مرة في التاريخ أخذ الناس يجرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التأكد من موعد وصولهم ، فإن عبور الأطلسي الذي كان إلى حين قريب مضامرة غير مأمونة العواقب ، تمتد إلى أسابيع عديدة (ربما وصلت إلى شهور) لم تزل تنقص مدته بفضل زيادة السرعة حتى وصلت في ١٩١٠ ، في حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول تقريبا .

(١) العجلة الرافعة أو الدولاب البدالي : عجلة ضخمة تدفع سفينة بواسطة ألواح مثبتة عموديا على عجلتها والألواح تدفع الماء عنتمسا تدفع السفينة للأمام [ترجم]

وفي الوقت الذي تطور فيه النقل البخاري برا وبحرا ، نشأت وسيلة أخرى جديدة أخاذة أضيفت إلى عوامل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث قولتا وجالفاني وفاراداي في مختلف أنواع الظواهر الكهربائية . فظهر التلغراف الكهربائي على مسرح الوجود في ١٨٣٥ . ومد أول سلك بحري « كابل » برقي تحت البحر في ١٨٥١ بين فرنسا وإنجلترا ، وماهى إلا بضع سنين حتى عم نظام البرق العالم للمدن بأكمله ، وحتى أمست الأخبار التي كانت إلى حين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البطء والتلكؤ . تعرف في كل أرجاء الأرض في وقت واحد تقريباً .

ولا مرأى أن هذه الاختراعات : القاطرة البخارية والبرق الكهربائي ، تبدت لأخيلة الناس في منتصف القرن التاسع عشر عتبرات رائدة بل معجزات خارقة ، على أنهما لم تكونا إلا باكتورتين بارزتين قيعتتين في بستان ضئيل تم فيه عملية أعظم وأوسع كثيراً . فإن المعارف والمهارة الفنية التطبيقية (Technical) أخذت تنمو وتنهض بسرعة خارقة ، وإلى درجة خارقة أيضاً بالقياس إلى ماتم قبل ذلك في كل عصر مضى . وثمة شيء كان يبدو في البداية أقل بروزاً بكثير في حياة الإنسان العادية ، ولكنه كان في النهاية أهم كثيراً من أي شيء آخر ، وهو امتداد يد الإنسان وسلطانه على مواد أساسية متنوعة ومكونة لمواد أخرى . مثال ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد بواسطة الفحم المصنوع من الخشب ، وتتخذ منه القطع الصغيرة ثم يطرُق ويعطى الشكل المطلوب . فعند ذلك كان الحديد مادة لا يستخدمها إلا صانع فني وعندئذ كانت جودة الصنعة وطريقة المعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد . ولم تكن أعظم كتلة من الحديد يتمكن من معالجتها في مثل تلك الظروف ليزيد في أقصى الحالات حجماً (في القرن السادس عشر) على طنين أو ثلاثة . (فن الطبيعي) إذن أن يكون لحجم الدافع خد أقصى لا يتعداه (وجاء قود الصهر الموائى في القرن الثامن عشر وزادت قوته باستعمال السكوك . على أنك لا تجد ألواح الحديد المنحوبة بين الاسطوانات الضاغطة [الدرافيل] إلا في القرن الثامن عشر (١٧٢٨) ، كما لا توجد أسياعته وقضبانها المنحوبة ، يوف تلك الاسطوانات نفسها إلا في (١٧٨٣) . كما أن مطرقة تازميت البخارية لم تخرج إلا أخيراً في ١٨٣٨ .

وقد حزم العالم القديم نعمة استخدام البخار لاخطاطه في كل ما يصل باستخراج المعادن وصناعتها . فلم يكن من المستطاع النهوض بالآلة البخارية ، بل حتى بالمشقة البدائية .

إلا بعد ظهور ألواح الحديد . ولو شهدت العين المصرية تلك الآلات الأولى
 رأيت فيها قطعا من الحرمة قبيحة الصورة مستوجبة للراء ، ولكنها كانت أقصى
 ما بلغه علم المادان آنذاك من تقدم ، ثم جاءت طريقة بسمز متأخرة في ١٨٥٦ ،
 وما لبثت أن تلتها على الفور (١٨٦٤) طريقة الفرن المفتوح الذي كان في إمكانه
 صهر الصلب وكل أنواع الحديد ، وتفتيتها وصبا على شاكلة ونطاق لم يسمع الناس
 بمثله أبدا ، ولو نظرت اليوم إلى الفرن الكهربائي لرأيت أطنانا من الفولاذ المتوهج
 الأبيض من شدة الحرارة وهي تنطى وتهدر غليان اللهب في إنائه ، وليس في الإمكان أن
 تقاس ثمار شيء مما أحرز الإنسان في الماضي من تقدم ، بما ترى من تحكمه المطلق في كتل
 ضخمة من الفولاذ والحديد بل وعلى قوامها وتكوينها وفي الحق إن السكك الحديدية
 والآلات القديمة بمختلف أنواعها ، لم تكن إلا الابتصارات الأولى للطرائق الحديثة
 في معالجة المادان . وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب ، كما
 ظهرت العسكاري الفولاذية الضخمة ، فضلا عن طريقة جديدة للبناء بالصلب على
 نطاق هائل جدا ، وأدرك الناس في وقت متأخر جدا أنهم أنشأوا مكيكهم الحديدية
 على قضبان تتجلى في المسافة بينها الخشية والتخوف ، وأنه كان في إمكانهم أن يمشوا
 أسفارهم أثبت وأقل رجرجة وتعبا وأحفل بالراحة والسرور لو أنهم زادوا كثيرا
 في المعايير .

وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالمعالم سفن تزيد حمولتها كثيرا على ألفي طن ،
 أما اليوم فليس هناك أي عيب في باخرة حمولتها خمسون ألفا ، ومن الناس من يسخر بهذا
 النوع من التقدم ويرمونه بأنه تقدم في الحجم ليس غير ، ولكن تلك السخرية تسمم
 بقصور العقل ، ذلك أن السفينة الكبيرة أو البناء الضخم ذا الإطار الفولاذي ليس كما
 يتوهمون صورة مضخمة من سفينة الماضي الصغيرة أو بنائه الصغير ؛ وإنما هي تختلف عن
 سابقة في النوع ، كما أنه أخف حملا وأقوى بناء ومواده التي يصنع منها أمثل وأبقى ؛
 هاشيء لا يقوم على السوايق الموروثة ولا الطرق العملية البعثة غير العملية ، بل على
 الحساب الدقيق المعقد . كانت المادة في المنزل القديم أو السفينة القديمة هي المتسلطة ،
 إذ لم يكن بد من تحري مستلزمات المادة ونوعها ونحس معها تمشيا أعمى ؛ أما في
 الموقف الجديد فقد قبض الإنسان على المادة وأخضعها لإرادته ، وبدل في تكوينها
 ما شاء له علمه . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل ، التي استخرجت من المهاجر والمناجم

كيف تمتد إليها يد الإنسان وعلمه بالاستخراج والتشغيل والصهر والصب ، وإذا هم
برج رشيقي من الفولاذ والبور ، ويعلم المدينة الزدحة بأكثر من سبعة قدم .

ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان في دراسة الفولاذ وما ترتب عليها إلا على
سبيل التمثيل والإيضاح ولوعثنا لتقصصنا عليك قصة عمالة لهذه عن تسلط العلم عن
معدني النحاس والقصدير ، بل على طائفة جمعة من المعادن ، لم تعرف قبل بزوغ فجر
القرن التاسع عشر ، ولانذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والألومنيوم ، وهكذا
لم يحظ الانقلاب الميكانيكي بما بلغه حتى الآن من انتصارات ضخمة ، إلا بفضل هيمنة
الإنسان العظيمة الزائدة على المادة ، على مختلف أنواع الزجاج ، وعلى الصخور
والجبس واللبصير وما إليها ، وعلى ألوان المواد وتصكوبها ، ومع ذلك فما زلنا في
هذه الليالي عند مرحلة الثبات الأولى والتباير لم تتجاوزها . أجل إن القوة أصبحت
ملك يميننا ، ولكن بقي علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا تلك ، ثم إن الضوء
العكس من استخدامنا الأول لهبات العلم السخية هذه كان في البداية سوقيا ، ينطوي
على الدوق القبيح أو البناء أو الفظاعة ، ولم يكد الفنان والمهندس المنفذ يتجاوزان
بعد مرحلة الابتداء الأولى في الاستفادة بذلك الأنواع التي لاحصر لها ولا نهاية من
الواد التي أصبحت اليوم تحت تصرفهما .

واطردهم نمو علم الكهرباء إلى جوار هذا الاتساع الكبير في الإمكانيات الميكانيكية .
ولم يشرع هذا الحقل من حقول الأبحاث أن يؤتي ثمارا كان لها في حقول الناس أثر
عميق إلا في ثمانينات^(١) القرن التاسع عشر ، وإذا بالعالم يفاجأ بالنور الكهربائي ،
والجر الكهربائي ، كما بدأ يقسرب للأذهان كافة أن في الإمكان نقل القوة ، أي إرسال
قوة يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة ، عن طريق سلك
من النحاس ، كما ينقل الماء في الأنابيب .

كان البريطانيون والفرنسيون في بادئ الأمر هما الشبان اللذان سبقا خيريها في
مخبر تسكاثر المعرفة ذلك ؛ ولكن ما نشب الألمان الذين تلقوا درسا في القلة على
يد نابليون أن أبدا من الحية والمثارة في الأبحاث العلمية ماجلهم يدركون هؤلاء
الزواد ويسبقونهم ، وكان العلم في بريطانيا إلى حد كبير من ابتكار رجال من الإنجليز
والامكتنديين الذين يعملون خارج نطاق اللودعية والإحاطة المألوف .

(١) ثمانينات القرن : هي عقده التاسع من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٩

وكانت جامعات بريطانيا في ذلك الحين في حالة تدهور تروى ، وقد حُرقت جل
 منها في إظهار الخذلقة ، والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة ،
 وكذلك شأن التعليم في فرنسا إذ كانت تسوده تقاليد الآداب القديمة على يد مدارس
 الآباء اليسوعيين (الجزويت) ، لذا لم يصعب على الألمان أن ينشئوا هيئة من الباحثين ، ربما
 كانت صغيرة بالقياس إلى ما في الأسم من إمكانات ، ولكنها متفخمة بالنسبة إلى تلك الفئة
 الصغيرة من المخترعين والمجربين ببريطانيا وفرنسا وأصحاب البحث التجريبي فيها . ومع أن
 هذه الأبحاث والتجارب قد جعلت بريطانيا وفرنسا أقوى دول العالم وأغناها ، فإنها لم تعد
 على رجال العلم والاختراع بثروة ولا قوة .

فإن رجل العلم الخالص لعمله يعيش بالضرورة في جو من الزهد في الدنيا ؛ فهو من
 الانشغال بأبحاثه العلمية بحيث لا يجد مجالاً للتدبير الخططي والمروعات لجمع المال عن طريقها .
 ولذا فسرعان ما يقع استئثار اختراعاته الاقتصادية بنفاهة السهولة وبطريقة طبيعة جداً في
 قبضة طراز من الناس أميل إلى اكتناز المال ؛ لذا نرى في تاريخ بلادنا أن كل طبقة
 جديدة من الأغنياء أبرزها بريطانيا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي
 والفني كانت تمنع تماماً بأن تترك الأوزة التي تبيض لها بيضة الذهب تضوي من الجوع
 وإن لم تبد منها تماماً نفس تلك الرغبة الجامحة التي أبدأها علماء الدراسات الكلامية (١)
 ورجال الدين ببريطانيا نحو إهانة تلك الأوزة القومية وقتلها . فلقد زعموا أن المكتشفين
 والمخترعين يظهرن بالطبيعة ليستفيد من ورائهم من يفوقهم ذكاء .

وكان الألمان من هذه الناحية أكثر تحكماً بالعقل . فإن علماء الألمان النظريين لم يظهروا
 نحو العلم الجديد مثل تلك البغضاء الشديدة ، لذا سحوا له بأن ينمو ويتطور . ثم إن رجل
 الأعمال وصاحب المصنع لم يستشعر نحو رجل العلم الحديث نفس الاحتقار الذي خاضع منافعها
 البريطاني . وأدرك هؤلاء الألمان أن المعرفة ربما كانت يمحصولاً يزور ويستجيب
 للمخبرات . لذا نزلوا فعلاً لرجل العلم عن قدر معين من فرصة الثراء ؛ وكانت ميزانية
 مصروفاتهم العامة على البحث العلمي أعظم نسبياً كما أن جميع ما أنفقوه كان يعود عليهم
 بموقوف الجزاء . وإذا برجل العلم في ألمانيا يحفل لقبه الألائية في النصف الثاني من القرن

(١) يقصد بالدراسات الكلامية دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية واللاتينية وتسمى أحياناً
 بالفلسفة المدرسنة .

التاسع عشر لفة ضرورية لا يستغنى عنها كل دارس للعلوم . يريد أن يظل ملماً . بأخربا
أنتجته العقول في ناحية تخصصه . وثمة فروع بينها وبخاصة الكيمياء ، أحرزت فيها
ألمانيا تفوقاً عظيماً جداً على جاراتها الغربيات . ولم تظهر آثار الجهود الألمانية إلا في
سنتين وسبعينيات القرن^(١) ، بل بعد الثمانينات ، وظل الألمان من ثم يتفوقون بأطراد
على بريطانيا وفرنسا في ميادين التقدم الفني والصناعي .

وجاءت بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلم والاختراع عندما ظهر في ثمانينات القرن
طراز جديد من الآلات ؛ وهي آلات حلت فيها قوة تمدد خليط متعبر ، محل قوة تمدد
البخار . وأدخلت الآلات الخفيفة العظيمة الكفاية التي أمكن صنعها بفضل هذا
الاختراع إلى السيارات ، وما زال العلم يتطور بها حتى بلغت في النهاية بذرة من جفة
الوزن والكفاية جعلت الطيران - الذي عرف الناس من قديم الزمان أنه شيء
يمكن - من الأمور الواقعية المحققة . فإن لأنجلي الأستاذ بمحمد صميح بن بواشنطن صنع
في ١٨٩٧ ، آلة تطير بنجاح ، وإن لم يقنع حجمها لحل جسم كائن بشري . ثم أصبحت
الطائرة صالحة لحمل الإنسان في ١٩٠٩ . ظهرت الطائرة بعد أن لاحظت في الأفق فترة
توقفت فيها سرعة البشر عن الزيادة بعد إتقان السكك الحديدية والنقل بالسيارات على
الطريق العام ، ولكن الطائرة جاءت بتخفيض جديد ملحوظ في المسافة بين نقطة ما
على سطح الأرض ونقطة أخرى ، وفي القرن الثامن عشر كانت المسافة بين لندن وإدنبرة
تستغرق ثمانية أيام ، ولكن الذي حدث في ١٩١٨ أن لجنة النقل الجوي كتبت تقريراً
قالت فيه : « إن المسافة من لندن إلى ملبورن ، وهي تعادل نصف محيط الأرض ، ربما
أمكن أن تقطع في مدى بضع سنوات في نفس تلك الأيام الثمانية » .

ولكن ينبغي علينا أن لا نبالغ كثيراً في تأكيد هذه التخفيضات الباهرة في المسافات
الزمنية الفاصلة بين مكان وآخر . لها هي إلا ناحية واحدة من نواحي توسيع الإمكانات
البشرية توسيماً أبعد غوراً وأعظم شأناً . مثال ذلك أن علمي الزراعة والكيمياء
الزراعية أحرزا تقدمات عملاقة لهذه عما أثناء القرن التاسع عشر . وبلغ من سعة علم الناس
بتخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أو خمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها
من نفس المساحة من الأرض في القرن السابع عشر . وحدث تقدم في علم الطب أشد

(١) وما يقعدان السابع والثامن من القرن .

من هذا خرقاً لكل معتاد مألوف ؛ فزاد متوسط عمر الإنسان ، وزادت كفايته اليومية ، وتناقص ضياع الأرواح بسبب سوء الصحة .

من هذا كله يرى القارىء أن بين أيدينا تغييراً كلياً في الحياة البشرية بلغ من عمقه وشموه أن خلق مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني . ثم هذا الانقلاب الميكانيكي في مدة لا تزيد كثيراً عن قرن . وفي تلك المدة خطا الإنسان في ناحية أحوال حياته المادية خطوة أوسع من تلك التي خطاها أثناء كل الفترة الطويلة الممتدة بين العصر الحجري القديم وعصر الزراعة ، أو بين أيام بيني ملك مصر وجورج الثالث . لقد ظهر إلى عالم الوجود إطار مادي هائل أحاط بشئون الإنسان . ولا يخفى أنه يتطلب منا القدر العظيم من إعادة تكييف مناهجنا وأساليبنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بيد أن عمليات إعادة التكييف تلك قد تولدت بالضرورة عن تطور الانقلاب الميكانيكي ، كما أنها لم تتجاوز بعد مراحلها الاستهلاكية الأولى .

الفصل الثامن من مخزون

الانقلاب الصناعي

نجد كثير من كتب التاريخ إلى الحلق بين ما أحيناه « الانقلاب الميكانيكي » الذي هو شيء جديد تماماً في الخبرة البشرية تولد عن تطور العلم المنظم وعمه ، وهو من ثم خطوة جديدة كاختراع الزراعة أو استكشاف للمعادن سواء يسوء ، وبين شيء آخر تختلف مصادره وأصوله تمام الاختلاف . شيء له من قبل سابقة تاريخية قديمة : هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمونه « الانقلاب الصناعي » . سارت كلتا الصليتين جنباً إلى جنب ، بل لقد كانتا تتفاعلان إحداهما مع الأخرى ، ولكنهما كانتا مختلفتين أصلاً وجوهرأ . لم يكن بد أن يظهر انقلاب صناعي من نوع ما ، ولو لم يعرف الناس الفحم أو البخار أو الماكينات ؛ ولكن لعله كان في تلك الحالة يلزم بدقة أكثر نفس الطريق الذي سلكته التطورات الاجتماعية والمالية التي حدثت في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يكرر على مسامنا من جديد قصة الزراع الأحرار المجردين من أملاكهم وعصابات العمال والزراع الضخمة والثروات المالية الطائلة والنظام المالي للأدنى للنظام الاجتماعي . وخلق طريقة للصانع نفسها ظهرت في الوجود قبل استحداث القوة واختراع الماكينات . فالصانع ليست ثمرة الآلة بل ثمرة تقسيم العمل . فكان العمال المدربون الرهقون بالكسح والعمل يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وعلب الكرتون والأثاث ، ويلبثون الحرائط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل حق الدواليب المائية في خدمة الصناعة ، وكان بروما في أيام أوغسطس كثير من الصانع . مثال ذلك : أن الكتب الجديدة كانت تمل على جلود مصقوفة من النساخين في مصانع باعة الكتب . وسيرى كل دارس مدقق يقرأ بإيمان ما كتبه دانيال ديغو وما تحتويه نشرات فيلديج السياسية ، أن فكرة حشد الفقراء ليهملوا مجتمعين في مؤسسات للحصول على أرزاقهم كانت شيئاً مألوفاً ببرطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . بل إن هناك إشارات تشير إلى وجودها في نفس زمن السير توماس مور وكتابه اليوتوبيا ١٥١٦ . لا جرم أنه كان تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً .

والواقع أن تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعى والاقتصادى ظل حتى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسم من جديد حتى الدولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة للميلاد .

غير أن تفكك أوروبا سياسياً ، وموراثتها السياسية العنيفة على الملوك ، ومعاودة العامة مضالاً إليها على الأرجح قابلية الذكاء الأوروبى الغربى للأفكار والمخترعات الميكانيكية وجهت الموقف وجهات أخرى جديدة تماماً .

ولا شك أن المفكرات الداعية إلى تكافل الناس وتماسكهم كانت بفضل المسيحية أوسع انتشاراً فى العالم الأوروبى الجديد ، ولم يكن النفوذ السياسى على مثل هذه الدرجة من التركيز ، ومن ثم أقلع كل رجل نشيط حريص على الإثراء عن فصحمة الرقيق وعصابات العمال وتحول بفكره مختاراً لقوة الآلة و « الماكينة » .

وغنى عن البيان أن الانقلاب الميكانيكى : عملية الاختراع والاكتشاف الميكانيكية ، كانت شيئاً جديداً فى خبرة الإنسانية بهذه الدنيا ، كما أنها واصلت تطورها غير عابثة بما قد تحدثه من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية وصناعية ، وذلك فى حين أن الانقلاب الصناعى كان ولا يزال كسكل الشئون الإنسانية - عرضة لتغيرات ترداد فى كل آن وعمقا وانحرافا بسبب ما يحدثه الانقلاب الميكانيكى فى ظروف الإنسان وأحواله من التغيرات المتواصلة . والواقع أن الفرق الجوهرى بين تكديس الثروات وإفادة لحقق صغار الزراع وأرباب الأعمال ، وبين مرحلة للمالين الكبار أثناء القرون لأخيرة من الجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة المائلة لذلك من ركيز رأس المال فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، الواقع أن ذلك الفرق الجوهرى يتحصر فى الفرق العميق بين نوعى العمل والمال الذى ولد عن الانقلاب الميكانيكى .

لقد كان الإنسان مصدر القوة المحركة فى العالم القديم . فكان كل شيء يعتمد اعتماداً تاماً على القوة الدافعة والحركة الصادرة عن سواعد البشر وعضلاتهم : عضلات الجهاد والأذى من الناس ، ولسناً تشكز أن قد غاركتهم فى ذلك إلى حد قليل عضلات بعض الحيوانات التى جاءت فى صورة الثيران وما تجره وأخيل وما عمله ، إلى غير ذلك . فحينما وجب رفع هقل من الأثقال كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وحينما استلزم الأمر استخراج صخرة من حجير ، لقد

كان الرجال هم الذين يقطعونها ؛ وحيثما لزم حرث أحد الحقول حرثه الرجال بمساعدة الثيران ، وكان للركب البخارية نظير لدى الرومان هو السفينة القديمة بما تحمل على جوانبها من صفوف مجدفين يرهقون إلى أقصى حد ، لقد كانت نسبة ضخمة من البشر تسخر في عهد الحضارات الأولى في أعمال الكدح الضيف الآلى البحت ، على أن الآلات للدفوعة بالقوة لم تبشر في البداية بأى أمل في خلاص للكودوين من ذلك الكدح الآلى الذى لا ذكاء فيه ، فكانت فرق ضخمة من الرجال تستخدم في تطهير الترع ، وفي شق أنفاق السكك الحديدية وعمل الجسور على ضفاف الأنهار وما أشبه ذلك . وتزايد عدد عمال الناجم زيادة هائلة . ولكن امتناع مدي الوسائل للبصرة وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك كثيراً ، وكلما تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ النطقى الواضح للموقف الجديد يفرض نفسه بصورة أصرح . فلم يعد البشر يطلبون كمصدر للقوة البحتة دون تمييز . ذلك أن ما يستطيع الكائن البشرى عمله بصورة آلية كان حيثما تستطيع الآلة أن تعمله بدرجة أسرع وأحسن . فلم يعد الأمر يحتاج للكائن البشرى الآن إلا حيث يجب استخدام العقل والذكاء والاختيار . فقد صارت الكائنات البشرية تطلب الآن ككائنات بشرية ، أما ذلك الكادح المسخر الذى اعتمدت عليه الحضارات السابجة جميعاً ، فلك الخاقوق الذى عليه الطاعة العمياء ، والذى كان عقله أداة كاسدة لا لزوم لها ، فقد صار غير ضرورى لصالح البشرية .

وقد انطبق هذا الحال على الصناعات القديمة كالزراعة والتعدين انطباقه على أحدث العمليات المدنية إذ ظهرت في ميادين الحرث والبذر والحصاد آلات سريعة لتقوم بعمل عشرات الرجال . كانت المدينة الرومانية مؤسسة على كراهل كائنات إنسانية زهيدة الأجر ذليلة النفس ؛ أما الحضارة المصرية فيعاد بناؤها على عاتق قوة ميكانيكية . رخيصة . وانقضت مائة سنة كانت القوة تزداداً أثناءها في كل يوم رخصاً والعامل غلاء . فلئن اضطرت الماشكينات أن تنتظر داخل المناجم جيلين أو ثلاثة حتى يحين دورها ، فما ذلك إلا لسبب بسيط ، هو أن اليد العاملة ظلت رديها من الزمان أرخص من الماشكينات .

بذلك حدث في حياة الناس إنقلاب ذو أهمية قصوى . لقد كان أكبرهم يقض مضجع التنى أو الحاكم في الدينيات القديمة هو طريقة الحصول باستمرار على ما يكفيه

من الكادحين الأذلاء : فإذا تقدم أثر من القرن التاسع عشر اضمع للأذهكيات أنه لا مفر للرجل العادي من أن يملو عن منزلة السكاح الدليل : إذ لم يكن يحض من أن يتعلم - لكي يحصل على الكفاية الصناعية على الأقل - ولم يكن مندوحة من أن ينهم ما يرام منه . لقد ظل التعليم الشعبي يسرى بأوروبا سريعاً ولبداً بطيئاً منذ أيام الدعاية للسليحة الأولى ، على غرار ما كان باكياً حيناً وطئت قدم الإسلام ، وذلك لضرورة تفهم المؤمن شيئاً قليلاً من العقيدة التي ستخلصه في الآخرة ، وعيئته من قراءة الشيء القليل من كتبه للقدسة التي تنقل إليه عقيدته تلك . وأفضت المبادلات بين للسليحين بما انطوت عليه من تسابق لكسب الأنصار ، إلى تهيئة الجو لجنى ثمار التعليم الشعبي العام . مثال ذلك : أن منازعات الطوائف الدينية باجتهترا وحاجتها لكسب الأنصار إبان ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر أفضت إلى ظهور مجموعة من منظمات التعليم للتراحمة على الأطفال ، منها للدارس القومية التابعة للكنيسة ، وللدارس البريطانية التابعة للتجارحين عليها ، بل حتى للدارس الكاثوليكية الأولية . وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي في كل أرجاء العالم للنطبع بالطابع الغربي ولم يسار هذا التقدم تقدم آخر مماثل له في تعليم الطبقة العليا - أجل حدث شيء من التقدم لاجرم ولكنه لا يتساوى مع الأول بناتاً - وهكذا لم تلبث المهوة العظيمة التي كانت تقسم العالم حتى الآن إلى قلة قارئة وجمهرة غير قارئة ، أن باتت لا تزيد عن فارق في المستوى التربوي لا يكاد يدرك . ومن وراء هذه العملية كلها يكن الانقلاب الليكانيكي ، غير عابئ في الظاهر بالأحوال الاجتماعية ، ولكنه يلح بإصرار في الواقع ودون هواده على أن يقضى تماماً في كل أرجاء الأرض على وجود طبقة مطلقة الأمية .

ولم يفهم أحد من عامة الناس يوماً أبداً معنى الانقلاب الاقتصادي ولا أدرك كنهه ، فالرومان العادي لم يحس قط بالتغيرات التي يعيش في كنفها بنفس الوضوح والشمول الذين نشهدهما نحن جميعاً - أما الانقلاب الصناعي فكان وهو يدلف في طريقه قرب نهاية القرن التاسع عشر عملية متكاملة يزايد وضوح تكاملها كشيء واحد للعامة الذين وقروا تحت تأثيرها ، وذلك لأنهم أصبحوا يستطيعون آنذاك القراءة والناقشة والتراسل ، ولأنهم كانوا يتنقلون في البلاد ، ويشهدون الدنيا كما لم يشهدوا أمثالهم من قبل

الفصل التاسع والخمسون

تطور الآراء

السياسية والاجتماعية المعاصرة

نمت نظم الحضارات القديمة وعرفها وآراؤها السياسية ، و تزعزعت يطاء عصرآ بعد عصر دون أن يرسم إنسان لها خطة أو يتنبأ إنسان لها بشيء ، ولم يحدث إلا في القرن السادس ق م ، قرن للراحة العظيم للبشرية ، أن فكر الناس بجلاء في علاقاتهم بعضهم ببعض ، وأن ناقشوا لأول مرة واقترحوا لأول مرة تغيير التعقيدات للسهولة والقوانين السائدة وأساليب الحكومة البشرية القائمة وإعادة تنظيمها .

وقد سبقت الإشارة إلى التجرب الفكرى المجد الذى لاحت تباشيره بأرض يونان ومدينة الإسكندرية ، وكيف تقوضت المذنيات المالكه للرقيق وتلبدت مماؤها بشيوم التعتصب الدينى واستبداد الحكومات المطلق ، مما عاجل ذلك الفجر فأسدل على ما تفرق فيه من الآمال ظلمة حالكة . ولم يبدأ نور التفكير الجريء ينفذ من جديد بصورة فعالة خلال ذلك الليل الدامس الذى ران على أوروبا إلا حين أقبل القرنان الخامس عشر والسادس عشر . وقد حاولنا أن نعرض عليك شيئاً يبين فضل تلك الرياح العظيمة التى أثارها حب استطلاع العرب وتفتح القول فى تبديد بعض ماغشى السماء العقلية لأوروبا من التبريم ، وأول من حظى بالزيادة هو المرقرة المادية بوجه خاص . فكانت أول الثمار التى عادت على الإنسان من استرداد إنسانيته مقام مادية أحرزها وقوة مادية حصل عليها . ذلك أن علم السياسة البشرية ، وعلم النفس الفردى والاجتماعى ، وعلوم التربية والاقتصاد ليست دقيقة ومعقدة فى حد ذاتها وحب ، بل هى ترتبط ارتباطاً وثيقاً لا انقسام له بالشئ الكثير من النواحي العاطفية . وقد سار التقدم فيها بخطى أبطأ ، كما أنه لقي معارضة عظيمة . والناس يستمعون بهدوء تام إلى أشد الآراء ثباتاً حول النجوم

أو القدرات ، ولكن الآراء المتصلة بطرائق العيش عندنا تمس كل فرد حولنا ، وتنعكس عليه .

وكما حدث ببلاد اليونان تماماً حيث سبقت تأملات أفلاطون الجريئة بحث أرسطو الرصين عن الحقيقة ، حدث في أوربا أيضاً أن صبت أول الأبحاث السياسية في المرحلة الجديدة في قوالب قصص « اليوتوبيا »^(١) ، التي نقلت مباشرة عن « جمهورية » أفلاطون و « قوانينه » . و « اليوتوبيا » التي ألفها السير توماس مور عاكسة عجيبة لأفلاطون كانت ثمرتها صدور قانون جديد خاص بالفقراء بالإنجلترا . على أن اليوتوبيا « النابوية » للفيلسوف كامبانلا للسعادة « مدينة الشمس » كانت أبعد في آفاق الخيال وأقل عمراً واقعية .

وعند قرب نهاية القرن السابع عشر نلاحظ ظهور قدر ضخم ومتزايد من المؤلفات في العلوم السياسية والاجتماعية . ومن أوائل الأساطين في حلبة هذه الأبحاث جون لوك ، وهو ابن أحد الجمهوريين الإنجليز ، وعالم من علماء أوكسفورد ، وجه عنايته في البداية إلى الكيمياء والطب . على أن مقالاته التي كتبها في موضوعات الحكومة والتسامح والحرية تكشف عن عقل شديد الوعي والإدراك لإمكانات إعادة البناء الاجتماعي وظهر في فرنسا شخص يماثل لوك بإنجلترا ، وإن تأخر عنه قليلاً ، هو منتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٤٥) ، الذي وضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت عدسة التحليل الدقيق . لقد بلغ من قوة تأثير آرائه في فرنسا أنه خلغ ثوب الهيبة السحرية الذي كان يحلج للسلطة ، وهو يشارك لوك في فضل إماطة كثير من الأفكار الزائفة التي ظلت حتى آنذاك تحول دون بذل المحاولات للتعلم الواعية لإعادة بناء المجتمع الإنساني .

وكان الجيل الذي نجا بعده في الحلقات الوسطى وللتأخرة من القرن الثامن عشر جريئاً في تأملاته الفكرية في موضوعات التنقية الخلقية والبصيرية التي أقام

(١) اليوتوبيا ويسمىها العرب « الطوبى » والفارابي « المدينة الفاضلة » : دولة مثالية تصف نظمها السياسية والدينية والقضائية والاقتصادية بالسكالم المطلق . [للترجم]

صروحها . وراحت طالعة من أذكىء الكتاب ، هي « اللوسوعيون » وكلهم رجل
تأثر الروح حر النفس متخرج من مدارس الآباء اللوسوعيين (الجزويت) ، راحت
تضع الخطة لعالم جديد (١٧٦٦) . وإلى جوار اللوسوعيين نهض الاقتصاديون
أو الليزبوقراطيون ، الذين راحوا يجرون أبحاثا جرئة وجدة في إنتاج الأطعمة
والسلع وتوزيعها وطلق مودلى مؤلف « قانون الطبيعة Code de la Nature » يشير
بنظام الملكية الخاصة ، ويقترح تنظيم المجتمع على أسس شيوعية ، فهو البشير الآذن
بتلك للدرسة الضخمة المختلفة الفرق وللذاهب من للمكرين الحشدين (الجماعيين
Collectivists) في القرن التاسع عشر ، الذين نطلق عليهم جميعاً ودون تمييز اسم
الاشتراكيين (Socialists) .

ما هي تلك الاشتراكية ؟ إن للاشتراكية مئة تعريف وتعريف ، كما أن
للاعتراكيين ألف فرقة وطائفة . والاشتراكية لا تخرج في جوهرها عن قد لفكرة
للملكية تحت ضوء المصلحة العامة . وسنستعرض الآن بإيجاز شديد تاريخ تلك الفكرة
على مر العصور ، فإنها هي وفكرة الدولية أو الشعبية (Internationalism ^(١)) هما
الفكرتان الرئيسيتان اللتان يدور حولهما الشطر الأعظم من حياتنا السياسية .

وترجع فكرة للملكية إلى ما ركب في الجنس البشري من غريزة القاتلة ، فقبل
أن يكون الإنسان إنساناً حقاً بزمان مديد ، كان جده القرد الأعلى ^(٢) يملك للملكيات ،
والامتلاك البدائي يقوم في الشيء الذي يقاتل من أجله أحد الحيوانات . فتمتلك الكلب
والعظمة ، والفرة ووجارها والظبي النافروسر به ؛ وهي أمثلة للملكية الصارخة ، ولسنا
نصور أن علم الاجتماع به عبارة آمنه ولا أسخف من قولهم « الشيوعية البدائية » .
ذلك أن الرجل المعجوز في قبيلة المائلة في أبكر العصور الحجرية القديمة كان يصر
على امتلاكه لزوجاته وبناته وآلاته وعاله للرئى المحيط به . فإذا جاس أى رجل آخر
خلال عاله للرئى قاتله ، بل ذبحه إن استطاع .

(١) الدولية مذهب سياسى يدعى أنه قائم على مبدأ الأخوة العاملة بين الناس ، وتقاينز إلى التقليل من
أثر فوارق المصالح والأخلاق والثلل (أو تجاهلها) التي تقوم بين الأجناس والأمم . [للترجم]
(٢) المؤلف هنا يشير إلى نظرية أصل الانسان لدارون التي سبق أن أشار إليها في الفصول الأولى
من الكتاب . [للترجم]

ونمت القبيلة على كثر الصور كما أجاد التعبير عن ذلك أتكنسن في كتابه « Primal Law » ، بفضل تسامح الرجل العجوز بالتدريج إزاء وجود الشبان الذين يصغرونه سنا ، وإزاء امتلاكهم للزوجات اللواتي يقتصنهن من خارج القبيلة وإزاء الآلات والحلى التي يصنعون والصيد الذي تصيدون . فكان المجتمع الإنساني قد نما بسبب التساهل للتبادل حول ممتلكات هذا وممتلكات ذاك . وهو تساهل اقتضته الضرورة التي تدعو الرجال إلى التكافل لطرد قبيلة أخرى إلى خارج طابع للرقى المحيط بهم ، فكل من تمكن التلال والنايات والأنهار أرضى أو أرضك ، فما ذلك إلا لأنه قد وجب أن تكون أرضنا ، ولا شك أن كلانا كان يميل لو كانت الأرض أرضه هو ، ولكن ذلك شيء لا يمكن أن يكون . ففي تلك الحالة يدمرنا الآخرون . ولذا فإن الجماعة الإنسانية كانت منذ البداية قائمة على تحديف حدة للملكية . والامتلاك عند الوحش للتوحش وعند البدائي شيء أشد حدة مما هو في العالم التمدن اليوم ، فهو أقوى تأصلا في غرائزنا منه في عقولنا .

وليس لدائرة الامتلاك لدى التوحش الطبيعي أو الرجل غير المتعلم في عصرنا هذا أي حدود تحددها . فكل ما استطعت أن تقاوم من أجله أمكنك أن تملكه ؛ سواء أكان ذلك امرأة أو أسيرا بقي على حياته أو بهيمة تقبض عليها أو طريقا في غابة أو عجبرا أو أي شيء آخر . فلما اتسع أفق المجتمع ظهر ضرب ما من القانون لكي يحول دون القتال الفتاك ، فأنتج الإنسان ضلع وسائل خبيجة مرتجلة لتقوية مشكلات الامتلاك . وبمقتضاها أصبح الرجل يستطيع أن يمتلك أي شيء كان هو أول من صنعه أو أمسكه أو ادعاه لنفسه . وبات يبدو وطبيعيا أن كل مدين لا يستطيع سداده ينفق أن يصبح ملكا لذاته . ويصادف هذا في بساطته وميته الطبيعية زعمهم بأن الرجل ينفق له . بعد أن يدعى امتلاك قطعة من الأرض أن يفرض على كل من شاء استعمالها شيئا من المال أو العين .

ولم يشرع الإنسان أن يحس أن تلك الملكية غير المحدودة لأي شيء كان مثار للازعاج والمضايقة إلا بغاية البطء والتدرج ، وحين أعرفت عليه تباهير إمكانيات الحياة المنظمة . فوجد الناس أنهم يولدون في عالم يملكه كله الغير أو يدعى ملكيته . ولبت الأمر اقتصر على ذلك وحده . . . فإنهم كانوا يجدون أنفسهم ذاتها مملوكة للغير أو يدعى ملكيتها .

ومن الصير علينا الآن أن نتعقب السكفاحات الاجتماعية التي اندلعت في الحضارة الباكورة ، على أن التاريخ الذي روينا عن الجمهورية الرومانية يظهر لنا فيها مجتمعا يستقيظ على دوى الديون ، ويتنبه إلى أنها قد تصبح ماثرا للإزطاج والضائقة للأمة كافة ، ولذا فقد وجب إلناؤها ونبذها ، وأن ملكية الأرض بصورة غير محدودة كانت هي الأخرى تنطوى على الضائقة والإزعاج . ثم إننا نجد أن بابل حددت بشدة في أيامها للتأخرة امتلاك الرقيق ، وأخيرا نجد في تعاليم ذلك الثورى العظيم يسوع الناصرى من المجهوم والطعن على الملكية ما لم يحدث من قبل . أليس هو القائل « لأن يبلج الجن في سم الخياط أسير من أن يدخل الأغنياء ملكوت السموات . » ويلوح أن أجواء العالم في الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنا الماضية امتلأت بالقدر الدائم التواصل للذى الذى يمكن أن يسمح بامتلاكه من الممتلكات . وبعد يسوع الناصرى بتسعة عشر قرنا نجد أجزاء العالم التى صلتها تعاليم النصرانية من جيد أو قريب مقتنعة بأنه لا يجوز للإنسان امتلاك أخيه الإنسان . وثم فكرة أخرى زلزلت أركانها كثيرا فيها يتعلق بأنواع أخرى من الممتلكات . وهى فكرة أن الإنسان حر يستطيع أن يفعل ما يشاء فيها يملك .

ولكن ذلك العالم الذى نتحدث عنه قرب نهاية القرن الثامن عشر كان لا يزال من حيث تلك المسائل فى مرحلة الشك والتساؤل والاستفهام . لم يكن قد حصل على شيء بلغ القدر السكافى من الوضوح ، فضلا عن أن يبلغ القدر السكافى من الثبات والاستقرار ، لىكى يطعن إليه ويبنى على أساسه . فقد كان من بين ما داخله من البواعث الأولى وقاية الملكية من شرارة الملوك وتبديدهم واستغلال النبلاء المتأمرين . لذا كان اندلاع الثورة الفرنسية لغرض رئيسى إلى حد كبير ، هو وقاية الملكية الخاصة من الضرائب . ولكن مبدأ المساواة الذى اعتنقته تلك الثورة جرفها فى تياره لجهد تنفذ الملكية التى نهضت لحمايتها ، فكيف يمكن أن يكون الناس متساوين بينا حشود عظيمة منهم لا يملكون أرضا يعيشون منها ، ولا طعاما يأكلونه ، كما أن انلاك يأبون باليداعة - أن يطعموم أو يؤووم ما لم يعملوا ويكدحوا !! واشتدت بذلك شكوى الفقراء .

ولم يكن لدى إحدى الجماعات السياسية الهامة من جواب لهذا اللغز إلا الشروع فى التفسير ، لقد عاؤا أن يباثروا فى الملكية ويعروها ، ولكن كانت هناك أيضا

جماعة الاشتراكيين البدائيين أو الشيوعيين إن شئت تعبيراً أدق - الذين كانوا يريدون الوصول إلى نفس الهدف عن طريق آخر ، والذين أرادوا إنشاء الملكية الخاصة إن شاء تأما . فارتأوا أن الدولة (ومفهوم أنها دولة ديمقراطية طبعاً) تمتلك جميع الممتلكات .

لذا فمن المفارقات الصعبة أن رجلاً متنوعين يهدفون إلى الهدف نفسه ، من الحرية والسعادة يقترحون من ناحية جعل الملكية مطلقة إلى أقصى حد مستطاع ، ويقترحون من ناحية أخرى القضاء عليها قضاء مبرماً ، ولكن ذلك هو ما حدث فعلاً . ومفتاح هذا التناقض الصعب يكمن في أن الامتلاك والملكية ليسا شيئاً واحداً بل مجموعة كبيرة من أشياء مختلفة .

وبتقدم القرن التاسع عشر شرع الناس لأول مرة يدركون أن الملكية ليست شيئاً واحداً ولا بسيطاً ، ولكنها شيء معقد كبير من ملكيات ذات قيم مختلفة وآثار مختلفة وأن أشياء كثيرة (منها على سبيل المثال جسم الإنسان وأدوات الفنان والنياب وفرقة الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية إلى أقصى حد وبصورة لا سبيل إلى حلها أو علاجها ، وأن هناك مجالاً عظيماً من الأشياء منها مثلاً السكك الحديدية وأنواع مختلفة من الماكينات والبيوت والحدائق المزروعة وقوارب الزهرة ، وكل منها تحتاج إلى دراسة خاصة جداً لتحديد المدى والقيود التي تدرج بمقتضاها تحت صنف الملكية الخاصة . وإلى أي حد تقع في الملكية العامة ، ومن ثم يجب أن تديرها الدولة وتؤجرها للناس من أجل مصلحة الجماعة . ومن شأن هذه المسائل أن تتحول حين تطبق عملياً إلى ميدان السياسة ، وإلى مجال مشكلة إنشاء النظام الإداري للقنطرة للدولة ، وصيانتها والحفاظة عليه . وهي تفتح أبواب مسائل تدخل في صميم علم النفس الاجتماعي ، كما أنها تتفاعل مع أبحاث علم التربية . ولذا فإن هدف الملكية لا يزال عملية اختارها لثة معقدة أكثر منه عملاً له أصول ثابتة . فكان هناك من جهة دعاة مذهب الفردية (Individualists) الذين يطالبون بوقاية بل توسيع حرياتنا الزاهنة في التصرف فيما نملك ، وهناك من جهة أخرى أولئك الاشتراكيون الذين يطالبون بتجميع ملكياتنا في كثير من النواحي ، وبالحد من تصرفاتنا في ممتلكاتنا . ولو نظرنا بعين الفاحص إلى الواقع السلي لوجدت

آلا من درجات الفوارق التي تفصل بين متطرفة الفرديين ، الذين لا يكادون يطبقون فرض ضريبة من أى نوع لقبول حكومة من الحكومات ، وبين الشيوعيين الذين ينكرون الملكية إنكاراً باتاً . والاشتراكي العادى في هذه الأيام يمكن أن يطلق عليه اسم الجماي ؛ وهو يرضى بقيام قدر جسيم من الملكية الخاصة ، ولكنه يرى أن يوضع أمثال التعليم والنقل والناسج وامتلاك الأرض ومعظم الإنتاج الكبير للمواد الأساسية وما إلى ذلك من شئون في يد دولة على مستوى رفيع من التنظيم ، والظاهر لنا فعلا في هذه الأيام أن كثيراً من الرجال للعقول قد أخذوا يتجهون بالتدريج نحو الأخذ باعتراكية معتدلة تقوم على الدراسة العلمية والخطة المدروسة علمياً . ذلك أن الناس أخذوا يزدادون إدراكاً أن الرجل غير المتعلم لا يتعاون بسهولة ولا بنجاح في الشئون العظيمة ، وأن كل خطوة تخطى في سبيل إقامة دولة أكثر تعقيداً وكل « وظيفة » تسحبها الدولة من ذوى الجهود الخاصة (Private Enterprise) لتتولاها بنفسها ، تقتضى بالضرورة قيام ما يواجهها من التقدم الترقوى ، كما تقتضى تنظيم نوع صحيح من النقد والضبط والمهينة ، وذلك في حين أن كلا من الصحافة للوجود الآن ومن الوسائل السياسية التي تتبعها الدولة للعاصرة لنا حالياً هما من اللعاجة والسذاجة بمنزلة صغيرة جداً لاتسمع بأى توسيع كبير للنشاط الحشدية .

على أنه جاء حين من الدهر أدت فيه الأزمت التي نشبت بين صاحب العمل والعمال ، ولا سيما ما كان منها بين صاحب العمل الأثانى والعامل للتبرم العنيد ، إلى انتشار نوع الشيوعية الأولى الشديد العنيف بكل أرجاء العالم ، وهو النوع الذى يرتبط باسم ماركس . وقد أسس ماركس نظرياته على اعتقاده أن عقول الرجال محدودة تحددها احتياجاتهم ولوازمهم الاقتصادية ، وأن هناك تطاحنا في المصالح يقوم في حضارتنا الراعنة بين طبقات الناس الثنية صاحبة العمل وبين الكتلة العاملة ، ومن البديهي أن تقدم التعليم الذى استأثره الانقلاب الليكائيكى لابد أن يجعل هذه الغالبية الكبيرة العاملة ذات « وعى طبقى » بل يجعلها تزداد كل يوم صلابة وهنفا في خصوصيتها للأقلية الحاكمة ذات « الوعى الطبقي » هي أيضا . تنبأ ماركس بأن العمال ذوى الوعى الطبقي سيتولون على السلطة بطريقة ما . ويفتحون بذلك حالة لاجتماعية جديدة : ولا شك أن الخصومة والتمرد واحتمال الثورة أمور

مفهومة إلى حد كافٍ، ولكن ذلك لا يستتبع قيام حالة اجتماعية جديدة أو أي شيء آخر إلا أن يكون ذلك الشيء حدوث عملية تدمير المجتمع، وقد أظهرت للاركية عندما وضعت موضع الاختيار بالروميا أنها مذهب غير خلاق إلى درجة فريدة هيبية .

حاول ماركس أن يجعل الخصومات الطبقة تحمل عمل الخصومات القومية ؛ وأنشأ أنصار مذهب على التعاقب ثلاث منظمات هي الدولية الأولى والثانية والثالثة . ولكن في الإمكان الوصول أيضاً إلى أهداف تلك « الدولية » وآرائها عن طريق نقطة البداية التي تبدأ عندها . آراء مذهب الفردية المصري . ولقد زاد إدراك الناس كل يوم قوة منذ أيام آدم حيث الكاتب الاقتصادي الإنجليزي العظيم ، كما زاد اقتناعهم أنه لا بد للحصول على أسباب الرخاء في العالم من قيام التجارة حرة لا يعوقها عائق بأي جزء من أجزائه . وأنصار للذهب الفردى بما يظهرون من عداوة للدولة إنما يصادون أيضاً التعريفات الجبركية والحدود السياسية وكل ما يحد حرية التصرف والجركة من قيود قد تبررها التخوم القومية . ولله بما يشوقنا أن نشهد مذهبيين من مذاهب السكر يتقاعدان في روحهما ذلك التباعد الشديد ، ويختلفان في المادة والجوهر ، وأعني بهما مذهب اشتراكية حرب الطبقات للنسب لأنصار ماركس ، والفلسفة الفردية الداعية إلى حرية التجارة للنسبة إلى رجال الأعمال البريطانيين في عهد الملكة فكتوريا . أقول نشهدا يتجهان في النهاية ، على الرغم من هذه الفوارق الابتدائية نحو نفس الدعوة إلى معالجة الشؤون الإنسانية معالجة عالمية شاملة تتجاوز تخوم كل دولة قائمة حالياً وقيودها . ولا شك أن منطق الحقيقة الواقعة ينتصر دائماً على منطق الآراء النظرية ، ذلك أننا ندرك أن نظرية الفرديين ونظرية الاشتراكيين ، ولو أن لهما نقط ابتداء متباعدة تباعداً عظيماً فهما جزء من بحث عام : بحث عن أفكار وتأويلات جديدة اجتماعية وسياسية أوسع مدى ، يستطيع الناس أن يحاولوا العمل مما على أساسها ، بحث ابتداء ثانية بأوروبا واعتد ساعده في نفس الوقت الذي اضمحلت فيه ثقة الناس في فكرتي الدولة الرومانية للقدسة والسبيحية ، وفي نفس الوقت الذي وسع فيه عصر الاستكشافات آفاقهم فتجاوز بها عالم البحر للتوسط إلى الدنيا بما رحبت .

على أن مواصلة الحديث في موضوع تفصيل وتطور فكرتنا الاجتماعية والاقتصادية

والسياسة حتى نصل به إلى ما يدور في أيماننا هذه من أبحاث ومناقشات ، يكون معناه إدخال مشاكل جدلية بالغة تخرج تماماً عن مجال هذا الكتاب وأهدافه ، ولكننا حين نشهد هذه الأشياء كما نشهدها الآن من وجهة نظر دارس التاريخ العالمى العلم النفسية الآفاق ، نشعر بأننا مضطرون أن نترف أن الذى نرى من إعادة صوغ هذه المفكرات التوجيهية فى العقل البشرى لا يزال شيئاً ناقصاً - حتى لنفكاد لا نستطيع أن نقدر مدى بعد ذلك الشيء عن الكمال . إذ يلوح أن هناك معتقدات معينة قد أخذت تتبلور فعلاً ، كما أنها قوية الأثر اليوم فى الأحداث السياسية والتصرفات العامة ؛ ولكنها يموزها حتى الآن شيء من الوضوح وشيء من قوة الإقناع حتى نستطيع أن تضطر الناس بصورة مديدة ومنظمة إلى إدراكها . ذلك أن تصرفات الناس تتردد كثيراً بين الإبقاء على التقاليد والإقدام على الجديد ، كما أنهم ينصرفون على الجملة إلى الشيء التقليدى ، على أنها لوقورت بأفكار الناس قبل زماننا هذا بما لا يتجاوز الجيل الواحد على قصر أمده ، لبانت لنا بالفعل تباهير معالم نظام جديد لشئون البشر فى طور التشكل . ولا شك أنها معالم متقطعة تخفى فى هذه النقطة وتلك ، وتصورها التقلبات فى تفاسيلها ومضايفها ، ومع ذلك فهى لا تبرح تزداد وضوحاً ، كما أن خطوطها الرئيسية لا تفتأ يقل فيها التغير ويبدأ رويداً .

ذلك أن الناس أخذوا يستبينون على كثر الأيام بشكل أوضح وأوسع ، أن البشرية أخذت تصبح مجتمعا واحداً من نواح عدة ، وفى مجال رحب ومتزايد من الأمور ، وأن من ألزم الضرورات أن تقوم فى مثل تلك الشئون هيئة وضبط يشملان العالم طراً . مثال ذلك ، أن الناس يزدادون كل يوم إدراكاً بأن هذا الكوكب كله هو الآن مجتمع اقتصادى واحد ، وأن الاستغلال الصحيح لموارده الطبيعية يتطلب توجيهها واحداً شاملاً ، وأن القوة الكبرى والمجال الأكبر للذين خولعها الاختراع والمخترعات للعهد البشرى يميلان الإدارة الجزئية للنسكية بالنزاعات والشاحنات فى مثل تلك الشئون أحفل بالأخطار وأشدّ تبديداً وإتلافاً لتلك الموارد ، ثم إن وسائل الإصلاح المالية والفنية تصبح هى أيضاً موضع اهتمام عالمى عام ولا يمكن معالجتها بنجاح إلا على أسس عالمية عامة . وقد انضج للناس كافة أن الأمراض العديدة وزيادة عدد السكان وهجرتهم من الشئون المالية أيضاً . أما الحرب فإن تزايد قوة النشاط البشرية ومجالها قد جعلت منها (الحرب) وسيلة لا تتناسب فوائدها مع التدمير

والفساد اللذين يترتبان عليها ، بل لقد ، أصبحت عديمة الأثر وإن استعملت كوسيلة
محببة قييحة لتسوية للمشاكل الناشئة بين حكومة وأخرى وشعب وآخر هذه الأمور
جميعا تجرّ مطالبة بإقامة وسائل ضبط وسيطرة ذات سلطات أوسع مجالا وأعظم شمولا
بما بلغت أي حكومة قامت إلى اليوم .

ولكن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن السبيل إلى حل هذه المشكلات هو إنشاء حكومة
عليها يشكل ما للعالم كله تقوم على الفتح والقوة أو الائتلاف بين الحكومات للوجود .
وقياسا على النظم للوجود وتمثلا بها ، ففكر الناس في إنشاء « برلمان البشرية » وفي
(كونجرس) للعالم ، وفي تعيين رئيس أو إمبراطور للأرض . وبديهي أن يكون رد
الفعل الطبيعي الأول للفكرة متجها إلى مثل تلك النتائج ، ولكن مناقشة وتجربة
الأراء والمحاولات في مدى خمسين عاما قد أوهنت على الحجة الاعتقاد في الفكرة الأولى
الواضحة ، فإن ما اعترض سبيل تلك الواحدة العالمية من مقاومات كان عظيما جداً . ويبدو
أن العكس كرتجحه الآن صوب إنشاء عدد من اللجان الخاصة أو المنظمات المؤهلة سلطة
عالية شاملة من جانب الحكومات القائمة لمعالجة هذه المجموعة أو تلك من الشؤون
أو القيام بها ، وهي هيئات تهتم بدراسة تهديد الثروة الطبيعية أو تنميتها ، وبإيجاد
التوازن بين ظروف العمال وأحوالهم ، وبالسلام العالمي وبمسا كل العملة والسكان والصحة
وما إلى ذلك .

وعندئذ قد يكتشف العالم أن جميع مصالحه العامة تعالج كسكل واحد ، على حين
ينفوت في نفس الوقت أن يدرك أن العالم تقوم فيه حكومة عالمية . ولكن قبل أن يبالغ
الناس مثل تلك الدرجة من الوحدة البشرية ، وقبل أن توضع مثل تلك التنظيمات
الدولية فوق الشبهات والغيرات الوطنية الضيقة ، لابد أن يفتح عقل البشر عامة بفكرة
تلك الوحدة الإنسانية . وأن تكون الفكرة المتعلقة بالبشرية كعائلة واحدة ، ففكرة
تعلم وتفهم للناس كافة في كل أرجاء العالم بأسره .

وقد عاش روح البيانات العامة العظيمة عشرة قرون أو تزيد مكافئا مناضلا في سبيل
صيانة ونشر فكرة تلك الأخوة العالمية العامة . ولكن الحقد والغضب والتشاك التي
تولدت في الماضي عن الناحزعا القبلية والقومية والعنصرية لا تزال - تعد السبيل إلى
اليوم - بل تعد السبيل تماما وبمناجح تام - دون انتشار الآراء الزوذية والبواحد

السمحة التي تجعل من الرجل منا خادماً للبشرية كلها . إن فكرة الأخوة البشرية تكافح الآن للاستيلاء على أرواح البشر ، كما كلفت بالاضيق فبكرة المسيحية للاستيلاء على روح أوروبا أثناء فترة الارتباك والقوضى التي خشيها في القرنين السادس والسابع الهجيرة المسيحية . ولا بد من أن يتم انتشار مثل تلك الفكرات ونصرها على يد جمهرة ضخمة من البشرين المخلصين للتواضعين ، وليس في مقدور أى كاتب معاصر أن يدعى العلم بالمدى الذي بلغه اليوم مثل ذلك العمل ولا نوع المحصول الذي يهتبه لنا الآن .

والظاهر أن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تختلط بالمشاكل الدولية اختلاطاً لا سبيلاً إلى فصله كما أن حل كل مشكلة منها ينحصر في التماس نفس روح الخدمة الإيثارية التي يستطيع أن يدخل القلب الإنساني وعيلاً . وإنا أرياب الشعوب وعنادها وأنانيتها لتعكس آثارها بل تعكس هي نفسها عن ارتباط الفرد من الملاك أو المال أو عناده أو أنانيته إزاء الصالح العام ، وغلو الأفراد في روح الملكية يعامل ، بل هو جزء لا يتجزأ من الشراة الجشعة التي تبديها الشعوب والأباطرة . وذلك أنها تمار للبول الفرزية نفسها ، وتناج نفس الجبهالات والتقاليد . والشوعية الدولية إنما هي اهترأكية الأمم . وما يستطيع إنسان بحث هذه المشاكل أن يشعر أن علم النفس بلغ الآن القدر الكافي من العمق والقوة أو أن الطرائق والتنظيمات التربوية أخذت حظها الكامل من قوة التخطيط بحيث تكفل لإيجاد حل حقيق ونهاى لهذه الأنغاز المعقدة باختلاط البشر وتعاونهم . فمن اليوم من عدم القدرة على إنشاء منظمة عالية للسلام فماله الأثر حقاً كسكان العالم في ١٨٢٠ من حيث عجزهم عن إنشاء السلك الحديدية الكهرية . ولكن تلك الفكرة ليست - رغم كل مالدنا من مقدمات - بعيدة التحقيق ، وما يدورنا قلماً قرب قرب الأخرى .

وما يستطيع إنسان أن يتجاوز حدود معرفته ، وما يستطيع فكر أن يتجاوز حدود الفكر المعاصر ، كما أن من المحال علينا أن نحس أو نتنبأ كم من أجيال البشرية سيضطر إلى خوض أهوال الحروب ومزاولة تبديد الأموال والأفئس ومكابدة الخوف وعدم الطمأنينة والشقاء قبل أن يبرغ فجر السلام العظيم الذي يدورن التاريخ بأكله يتجه صوبه ومشير إليه بالبنان ، سلام يعمر القلب وسلام يحم الدنيا . - أقول يبرغ ذلك الفجر فيضع حداً لحياتنا للبددة للقوى والافئس والحالية من كل هدف ترمى إليه . وبديهي أن ما تقترحه لهذه الأمور من حلول لا تزال غامضة فجبة يعوزها التفعج .

(٢٢ - قترح العالم)

ذلك أن الأهواء تكتسبها والشهات تشورها . أجل إن جهدا عظيما يبذل الآن في ناحية الإنشاء والبناء الفكري ، ولكنه لا يزال ناقصا . كما أن تصوراتنا المعنى العام لذلك الأمر تزداد في كل يوم وضوحا وضبطا . فهل يحدث ذلك بسرعة أم يبطئ ؟ ذلك ما لا يستطيع الإجابة عنه . ولكنها كلما زادت جلاء زاد مبلغ تأثيرها في عقول الناس وأخيلتهم ، ولعل السبب في قلة تأثيرها الراهنة إنما يرجع إلى حاجتها إلى التأكيد افتقارها إلى الصحة الحقة . ويساء فهمها لأنها تعرض على صور متباينة محيرة . على أن ذلك الحلم الجديد للعالم سيفوز بالقوة الجارفة عندما يحظى بالدقة واليقين . وربما فازت تلك القوة فوزاً سريعا . وعندئذ لا بد وأن يؤدي ذلك الفهم الجلى إلى عمل عظيم من إعادة البناء التربوى .

الفصل الستون

امتداد رقعة الولايات المتحدة

كانت أمريكا الشمالية أول إقليم في العالم تجلت فيه أروع وأسرع ثمار الحضارات الحديثة في وسائل النقل . والولايات المتحدة هي الدولة التي تجسدت فيها من الناحية السياسية الأفكار الحرة لأواسط القرن الثامن عشر ، كما تبلورت تلك الأفكار نفسها في دستورها . فإنها استغنت عن كنيسة الدولة وتاجها ، وأبت أن تسمح بوجود الألقاب فيها ، وأظهرت غيرة هدية في حماية الملكية بوصفها ضربا من الحرية ، كما أنها قد منعت لكل بالغ ذكر الحق في التصويت وإن اختلفت في البداية الوسائل الدقيقة لتنفيذ ذلك باختلاف الولايات . وكانت طرائق التصويت عديم لقيمة بصورة بربرية لا مثيل لها ، ولذا فإن حياتها السياسية سرعان ما وقعت في قبضة جماعات حزبية شديدة التنظيم ، ولكن ذلك لم يمنع الشعب الحديث التحرر من إظهار همه ونشاط في الجهد واهتمام بالمسائل العامة تفوق ما بذله أى شعب معاصره .

ثم جاءت الزيادة في سرعة النقل التي أسلفنا الإشارة إليها . ومن العجيب حقا أن أمريكا التي تدعى أكثر من جميع الدول بفضل هذه الزيادة في سرعة النقل كانت أقل الدول إحساسا بها ، ذلك أن الولايات المتحدة تناولت السكك الحديدية والزورق النهري البخارى والتلغراف وما إلى ذلك من مستحدثات كأمسا هي جزء طبيعي من نموها ، والواقع أنها لم تكن كذلك . وكل ما حدث ، هو أن هذه الأشياء وصلت في أنسب الأوقات فأقتذت وحده أمريكا . وكان الزورق النهري البخارى أول واضح لعجز الأساس للولايات المتحدة ، وكانت السكك الحديدية هي الدعامات الثانية لها . فلولا هذين الاختراعين ، لاستحال قيام الولايات المتحدة تلك الأمة الضخمة التي تعمر قارة بأكملها . ولولاها لصار انسياح السكان غربا أبطلأ كثيرا ، ولعل انسياحهم هذا لم يكن بمستطيع قط لولاها تجاوز السهول الوسطى العظيمة . فقد استغرق وصول الاستقرار الدائم من الساحل الشرقى إلى نهر المسورى جوالى مئتي سنة ، مع أنها مسافة تقل كثيرا عن نصف الطريق بين المحيطين . وأول ولاية أسست وراء النهر هي ولاية المسورى

للعتمدة على الزورق البخارى التى قامت فى ١٨٢١ . على أن بقية للسافة إلى المحيط
الهادى تمت فى بضع عشرات من السنين .

ولو كان فى متناول أيدينا استخدام السبيل لأمتناك بعرض خريطة لأمريكا الشمالية
عاما بعد عام منذ ١٩٠٠ فما بعدها ، مع وضع نقط صغيرة لتمثيل مئات الناس
الذين كانوا بها ، على أن تمثل كل نقطة مئة ، ووضع نجوم لتمثيل المدن التى يبلغ عدد
سكانها مئة ألف فأكثر .

وعند ذلك يرى القارىء أن التقيط سيقطل متى عام يزحف يبطء على امتداد
للساحل الساحلية واللباء والأنهار الصالحة للملاحة ، وأنه ينتشر بتدرج أبداً كثيراً فى
ولايتى إنديانا وكتاكي وغيرها . ثم يحدث فى زمن ما يقارب ١٨١٠ تغيير مفاجئ ،
إذ تزداد الأمور كثيراً فى مجارى الأنهار . وعند ذلك تكثر النقط وتنتشر . وما ذلك
إلا لظهور الزورق البخارى . وعندئذ تظهر النقط الأمامية وهى تتقدم سريعاً فوق
أراضى كنساس ونبراسكا مبتدئة من عدد من نقط الارحام على امتداد الأنهار العظيمة .

ثم تظهر منذ ١٨٣٠ الخطوط السوداء المثلثة فى الخرائط للسكك الحديدية ، ومنذ
ذلك الحين لا تكتفى النقط الصغيرة السوداء بالزحف البسيط بل تتطرق مهرولة . فإنها
تظهر عندئذ على الخريطة بسرعة عظيمة جداً حتى لتكاد تقول إن ضرباً من الرشاقة
هو الذى يقذفها على الخريطة ، وعلى حين حفاة تظهر هنا وهناك أول النجوم التى تشير
إلى أول المدن العظيمة الحاوية لثمة ألف من السكان ، وإذا هى فى البداية مدينة أو
اثنان لا تلبث أن تصبح عدداً غفيراً من المدن — وكل منها كمفدة فى الشبكة النامية
للسكة الحديدية .

وقد كان نحو الولايات المتحدة تطوراً لا عهد للناس بمثله فى تاريخ هذا العالم ؛ فإنها
حدث من نوع جديد . وما كان من الممكن قبل ذلك نشوء مثل هذا المجتمع ، ولو أنه
ظهر دون سكك حديدية فلا شك أنه لم يستطع عيش من أن يتمزق بدداً قسلاً عصرنا .
هذا زمن طويل . فلو لم يوجد التلغراف أو السكة الحديدية لاصبحت إدارة كاليفورنيا
من مدينة يسكن أسهل كثيراً منها من واشنطن ، على أن هذا البلد الجمال من سكان
الولايات المتحدة الإمبريكية لم يتضخم على نحو رهيب خارق وحسب بل ظل متسجماً
متناسقاً ، بل الواقع الذى لا شك فيه أنهم زادوا انسجاماً واتساقاً . فالرياح القوية يسكن

سان فرانسيسكو أقرب الزوم إلى رجل فيوزولا من ساكن فرجينيا إلى ساكن نيو انجلند قبل يومنا بقرن من الزمان . كما أن عملية التجهل ماضية في طريقها لا يوقها عائق . فكيف ان الولايات المتحدة تنسجه وتحيك أطرافه السكك الحديدية والتلغراف ، فتجعل منه على التدريج مجتمعا هائلا موحداً ، يتحدث ويفكر ويتصرف في انسجام تام مع نفسه . وإن بعض زمن حتى يؤدى الطيران واجبه من المشاركة في هذه العملية .

إن هذا المجتمع العظيم للولايات المتحدة شيء جديد حقاً لا نظيره في التاريخ . أجل سبقتها في الوجود إمبراطوريات عظيمة بلغ سكانها مئة مليون نسمة ، ولكنها كانت جماعات من شعوب متباينة ، ولم يحدث قط أن ظهر على هذا المعيار قبلها شعب واحد بمفرده ، لذا فالتاريخ بحاجة إلى مصطلح جديد يعبر عن هذا الشيء الجديد . ذلك أننا نسمى الولايات المتحدة قطراً ، ولكن هتان بين الشيتين ؟ فالفرق بينهما كالفرق بين السيارة والعربة التي يجرها حصان ، لقد أنشأتها عهود متباينة وظروف متباينة ، وهما تقبلان على أعمال الحياة بسرعة مختلفة وتتناولتا بطريقة مختلفة تماماً . فالولايات المتحدة بما ركبت عليه من مدى هائل وإمكانات ، تقف في منتصف الطريق بين دولة أوربية من الطراز القديم وبين ولايات المتحدة تشمل العالم أجمع .

على أن الشعب الأمريكي مراهو طريقه إلى هذه المنظمة والطمأنينة في مرحلة من مراحل النضال العنيف القاسى . ذلك أن الزورق التهرى البخارى وسكة الحديد والتلغراف وما إليها من وسائل النقل الرخيصة ، لم تظهر بالسرعة الكافية لتجنيب البلاد ويلات صراع على المصالح والأفكار نشب بين ولايات الاتحاد الجنوبية والشالية ، فكانت الولايات الأولى تحكم الرقيق ، وكانت الثانية ولايات كل من فيهما من الناس حر طليق ، ولم تشر السكك الحديدية والزورق البخارى في البداية إلا ثمرة واحدة هي زيادة حدة الصراع بين الآراء المختلفة آتتا إلى أن كانا يتقهما خطرا للولايات المتحدة فإذا تزايدت وحدة الشقين نتيجة لوسائل اللواصلات الجديدة اشتد بروز هذه المشكلة وإلحاحها : فهل ينبغي أن تسود فكترة الجنوب أو تتغلب روح الشمال ؟ . وكان احتمال تقام الطرفين ضعيفاً . ذلك أن الروح الشالية كانت حرة تدعو إلى تركية الفردية ؛ أما الجنوبية فتتجه نحو المزارع الضخمة وتحو تسلط سادة ذوى وعى طبق على جماهير سوداء ذليلة .

وكانت كل منطقة جديدة تنظم أمورها وتصبح ولاية مع تقدم سيل السكان غرباً ، أى كل جزء يضاف إلى النظام الأمريكي الهائل المتواصل النجاء ، يتحول إلى مسرح للصراع بين الفكرتين : فهل ينبغي أن تكون الولاية الجديدة ولاية مواطنين أحرار أم سيسودها نظام المزرعة الكبيرة والعبد المفلوك ؟ لذا فإن جمعية إلغاء الرق الأمريكية راحت منذ ١٨٣٣ لاتقاوم فقط بسط فكرة الرق ونظامه بل تثير الرأي العام في البلاد كلها لإلغائه إلغاءً تاماً ، ولم تلبث المسألة أن تحولت إلى صراع صريح حول موضوع إدخال ولاية تكساس في الاتحاد . كانت ولاية تكساس في الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن معظم سكانها كانوا متوطنين أمريكيين نزحوا إليها من الولايات التي تبيع الرق ، فلما انفصلت عن المكسيك وأعلنت استقلالها في ١٨٣٥ ، ألحقت بالولايات المتحدة في ١٨٤٤ ، وكان الرق محظوراً بتكساس بمقتضى القانون المكسيكي ، ولكن الجنوب أخذ بطالب آتخذ بإباحة الرق بها وضما إليه ، وفعلوا له ما أراد .

وفي ذلك الحين نفسه أخذ نحو الملاحة في المحيط وتطورها يجلب من أوروبا حشوداً متزايدة من المهاجرين زادت كثيراً في سكان الولايات الشمالية الزاحفين بمستقراتهم غرباً مما ترتب عليه تحويل مناطق أبوا ، وويسكنسن ومينيسوتا وأوريغون - وكلها مناطق زراعية شمالية - إلى ولايات ، فأدى ذلك إلى منح الشمال المناوئ للرق فرصة التفوق في كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، واثارت ثائرة الجنوب الزارع للقطن ، فتوقفة أضرار حركة إلغاء الرقيق وتهديد مصالحه ، وخشى مغية هذا التفوق في الكونجرس ، فشرع يتحدث مطالباً بالانفصال عن الاتحاد . بل لقد شرع الجنوبيون يحملون بضم المكسيك إليهم في الجنوب هي جزائر الهند الغربية ، وإنشاء دولة عظيمة تبيع الرق وتنفصل عن الشمال وتعدها حدودها حتى بنا .

على أن انتخاب أبراهام لنكولن رئيساً للدولة ١٨٦٠ - وهويدين بمنزلة عدم مد حدودها جنوباً - دعا الجنوب إلى الإقدام على الانسلاخ عن الاتحاد ، وأسدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوماً بالانفصال ، وأعقبته لحوض غمار الحرب . وانضمت إليها بعد ذلك ولايات المسيسي وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولوريزانا وتكساس ، واجتمع بمدينة متجعمرى بولاية ألاباما مؤتمر انتخب جفرسون دافيز رئيساً لولايات الجنوب المؤتلفة ، واعتمد دستوراً يناصر بوجه خاص نظام الرقيق الزنجي .

وتصادف أن كان أبراهام لنكولن رجلاً يمثل تعالماً طراز الشعب الجديد الذي ترسخت أقدامه بعد حرب الاستقلال . قضى أيامه الأولى يعيش في غمرة تيار السكان العام للنتيجة غرباً . ولد بولاية كنتوكي في ١٨٠٩ ، ثم انتقل إلى إنديانا وهو غلام ، وإلى إلينوا فيما بعد . وكانت الحياة في مجاهل غابات إنديانا أثناء تلك الأيام خستقبلية بشطف الميئس ؛ ولم يكن للزل الذي عاش فيه إلا كشكا من الكتل الخشبية يقوم في البرية . كما أنه لم يصب من التحليم إلا قسطاً ضئيلاً ومتقطعاً . ولكن أمه علمته القراءة منذ حداثة ومن ثم أصبح قارئاً منموماً . واسع الاطلاع . ولما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضمن اللجنة يهوى للصارعة والعدو . وعمل ردها من الزمن كاتباً بأحد للتاجر ، ثم فتح متجره مع شريك مكير . وقوع في ربة ديون لم يتيسر له سداها إلا في مدى خمسة عشر عاماً . وما لبث أن انتخب في ١٨٣٤ عضواً في مجلس النواب عن ولاية إلينوا وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره . وكانت مسألة الرق يتأجج لديها بولاية إلينوا بوجه خاص وذلك لأن السناتور دوجلاس الزعيم الكبير لحزب نشر الرق في الكونغرس القوي ، كان عضواً مجلس الشيوخ عن تلك للقاطمة . وقد أوق دوجلاس مقدرة عظيمة ومكانة رفيعة ، وظل لنكولن يضع سنين يحاربه بالخطب والنشرات ، وهو يرقى على الدوام إلى نفس مكانة خصمه القوي للكين الظافر . وبلغ كفاحهما ذروته في حمة الرئاسة الانتخابية في ١٨٦٠ ، حيث انتخب لنكولن رئيساً في ٤ مارس ١٨٦١ ، وقد تم انفصال الولايات الجنوبية عن حكم الحكومة الاتحادية بواشنطن ، وبدأت العمليات الحربية .

قاتلت في هذه الحرب الأهلية الأمريكية جيوش جندت ارتجالادون سابق تدريب ، وأخذت تنمو على الدوام بضع عشرات من الألوف إلى مئات الألوف ، حتى تنامي الأمر إلى أن أربت قوات الاتحاد على مليون رجل ؛ ودارت رحى تلك الحرب فوق منطقة مترامية من الأرض تمتد بين ولاية نيومكسيكو والمحيط الأطلنطي شرقاً ، وكانت مدينتا واشنطن وريتشموند الهدف الأكبر للطرفين ، ولا يتسع المقام هنا للحديث عن تضاعف المهمل أثناء ذلك الكفاح الرائع الذي كان يتدرج ذهاباً وجئة عبر التلال والنايات بولايي تنسي وفرجينيا ويتحدر مع نهر الميسسي . كان كفاحاً بدت فيه القوى والثروات وأزهقت فيه الأرواح على نحو رهيب جامع ، فإذا تم هجوم أعقبه على الفور هجوم مضاد ، وإذا دخل نور الأمل إلى القلوب يوماً أعقبته دجاس اليأس ، ثم عاد

الرجاء فأثار ثم خيم اليأس مرة ثانية ؛ فيوما تلوح واشتغلن كأعماهى فى قبضة ولايات الجنوب للؤتلفة أو تكاد ؛ ويومات يكون جيوش الاتحاد متجهة بخطى حثيثة إلى ريتشموند وكان جند ولايات الجنوب للؤتلفة يقاتلون تحت إمرة قائد معتد عظيم هو الجنرال لى وإن قاطمهم التباليون فى العدد والوارد . ولكن قيادة الاتحاد الشمالى كانت أدنى كفاية بكثير ، لهذا كان القواد هناك يعزلون ويعين مكانهم آخرون جدد ؛ حتى تم النصر فى النهاية تحت قيادة شيرمان وجرانت على جيوش الجنوب للمهلمة الثياب المستنزفة الموارد والدماء . فى أكتوبر سنة ١٨٦٤ استطاع جيش الشمال بقيادة الجنرال شيرمان اختراق ميسرة الجنوب وتقدم من تنسى إلى الساحل مخترقا جورجيا ، ومارا عبر بلاد الجنوب وفى صميم أقاليمه . ثم انحرف شمالا خلال ولايتى كارولينا الشمالية والجنوبية ، وأطبق على مؤخرة جيوش الجنوب . وفى الوقت ذاته كان جرانت يشل جيش لى أمام ريتشموند عن كل حركة حتى أبطقت عليه جيوش شيرمان . ولم يلبث لى أن سلم بجيشه فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٥ . قرب أبوماتكس كورت هاوس ، ولم ينقض شهر واحد حتى ألقت جميع جيوش الانفصاليين الباقية أسلحتها . وانتهت دولة الجنوب .

أجهد هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات ذهب الولايات المتحدة لإجهاد ما ديا ومنهوا وخلقيا هائلا . ذلك أن مبدأ استقلال الولاية كان عزيزا محيا لدى أنفس كثيرة ، وأن الشمال كان يبدو كأنما يرغم الجنوب فى الواقع على إلغاء الرق إرغاما . ولقد بلغ الأمر بالناس فى الولايات القائمة على الحدود بين الطرفين ، أن كان الإخوة وأبناء العمومة ؛ بل الآباء وأبناءؤم ، يناحزون إلى شيع متضادة ويجدون أنفسهم يقاتلون فى جيوش متعادلة ، وكان الشمال يحس أن قضيته تقوم على الحق والعدل ، ولكن جماهير غفيرة من الناس لم تكن ترى أن ما يدعو إليه من حق وعدل كان متصفا بالكمال مبرا من العيب أو فوق التجريح والتحدى ، ولكن لن يكون لم يساوره أى شك . فإنه ظل محتفظا بصفاء ذهنه رغم تلك البلية الشديدة ، وكان يؤمن بالاتحاد ويقتف مدافعا دونه . وكان يناصر السلام الشامل لأمريكا . وكان عدوا للرق . وإن عد الرق مسألة ثانوية ؛ أما هدفه الأول فهو ألا تتمزق وحدة الولايات المتحدة إلى شقين متباينين ومتناحرين .

فلا شزع الكونجرس وقواد الاتحاد يفكرون أثناء المراحل الأولى للحرب فى التسرع فى فك رقاب الرقيق اعترض عليهم التكونلن وخفف من غلواء حماسهم . ذلك

أنه كان يرى أن يكون تحرير العبيد على مراحل ومع دفع التعويض اللازم فلم يتبلور الوقت بحيث يسمح للكونغرس أن يقترح إلغاء الرق إلى الأبد بقانون دستوري لتعويضات إلا في يناير سنة ١٨٦٥ ، كما أن الولايات لم تعتمد ذلك القانون إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بمدة كافية .

وبينا الحرب تجر ساقها متاثقة في ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، حدثت ثورة الاغمالات الأولى والحاسات الأولى ، وأخذت أمريكا تتعلم كل دروس التبرم بالحرب والاضمحلال منها . ونظر الرئيس فلم يجد حوله إلا خونة ودعاة هزيمة وقوادا معزولين وسياسيين حزبيين ملتوثين ، كما لم يجد خلفه إلا شعبا متشككا متعبا ، ولا أمامه إلا قوادا أغبياء وجنودا مبتئين ، وأستأثرتك أن عزاءه الوحيد في تلك اللغة كان شعوره بأن دافعه في ريتشموند لا يمكن أن يكون أسعد منه حالا . وخرجت الحكومة البريطانية عن السلوك الكريم وصمحت لوكلاء الجنوب باغتلاتره أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن سريعة للقرصنة في المحيط وأن يزودوها بالرجال - وأشهرها هي الألباما - فكانت تنقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها في البحار . وذلك على حين راح الجيش الفرنسي بالمكسيك يمرغ في الوحل مذهب مونرو . وتواردت على الرئيس مقترحات قاتلة بإيقاف الحرب ، وترك نتائجها لمناقشات تجري فيها بعد ، والاقتضاض بالولايات المتحدة كلها شمالها وجنوبها على الفرنسيين بالمكسيك ولكنه أبى أن يصنى إلى مثل تلك المقترحات مالم تصبح كلمة الاتحاد وسلطته هي العليا . فقد يجوز أن يقوم الأمريكيون ، مثل هذه الأعمال كشعب واحد لا كشميين منفصلين .

لقد ظل لنسكولن يربط الولايات المتحدة بعضها إلى بعض شهور طويلة ، ضنية حفلات بالهزائم والجهد القديم الجدوى وفي مراحل قاعة من الفرقة والاقسام وخور العزيمة وليس بين أيدينا أية حادثة تدل على أنه تردد يوما عن هدفه - ومرت عليه قرأت لم يكن يجد أثناءها شيئا يعمل به ، قرأت كان يجلس أثناءها في البيت الأبيض صامتا لا يتحرك ، كأنه تمثال صارم متجه للزراعة والتصميم ؛ وجاءت عليه أوقات كان يخفف فيها الأعباء عن عقله بالمزاح والفكاهة للكشفوة .

ولقد فاز لنسكولن بما أشتى ، فإن فضال الاتحاد قد تكمل بالظفر . ودخل الرئيس مدينة ريتشموند بعد تسليمها يوم واحد ، وسمح بتسليم الجنرال لي . ثم عاد إلى

واشنطن ، والتي آخر خطبة عامة له يوم ١١ أبريل . وكان مذهبه الذي يدين به هو الصلح وإعادة تكوين الحكومات للولاية في الولايات المتحدة . وذهب في مساء ١٤ أبريل إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو يجلس ناظرا إلى المسرح ، أطلق الرصاص على مؤخر رأسه بمثل اسمه بوث وجرحه جرحا قاتلا ، وكان يحقد عليه لسبب ما ، فنسلك إلى اللوج دون أن يراه أحد . ولكن لسكولن كان قد أدى ما عليه ؛ وتم انفاذ الاتحاد .

وعند بداية الحرب الأهلية ، لم يكن هناك خط حديدي يمتد إلى ساحل المحيط الهادى؛ ولكن السكك الحديدية ما لبثت أن انتشرت بعدها بسرعة كأنها نبات سريع النمو وإذا هى حتى اليوم تقبض على أراضى الولايات المتحدة الشاسعة للترامية وتضمها بعضها إلى بعض وتنسجها وحدة عقلية ومادية لا صليل إلى حلها . هى أعظم مجتمع حقيقى فى العالم ، حتى يحىء الوقت الذى يتسلم فيه عامة الصين للقراءة .

الفصل الحادى والعشرون

ألمانيا تصبح دولة عظمى

ذكرنا من قبل كيف حدث بعد الهزات العنيفة التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية ومغامرات نابليون ، أن استسلمت أوروبا من جديد لفترة سلام يسود القلق والاضطراب وأن شملتها الظروف السياسية التى كانت بها قبل ذلك بخمسين عاما ؛ ولكن فى صورة جديدة إلى درجة ما . ولم تظهر حتى منتصف القرن ، أية نتائج سياسية ملحوظة للوسائل الجديدة فى معالجة الصلب ولا للسكة الحديدية أو البخارية . على أن التوتر الاجتماعى الناجم عن نمو الصناعة فى المدن سار أشواطا . وظلت فرنسا قطرا بادية القلق . إذ جاءت بعد ثورة ١٨٣٠ ثورة أخرى فى ١٨٤٨ . ثم تبوأ نابليون الثالث ، وهو ابن أخ لنابليون الأول رئاسة الجمهورية أول ، وأعلن نفسه إمبراطورا ١٨٥٢ .

فصرع من فوره فى إعادة تشييد باريس ، وحولها من مدينة جميلة غير صعبة من مدن القرن السابع عشر ، إلى المدينة الواسعة الأطراف اللاتينية الطابع الرخامية البانى التى نشدها اليوم . وصرع من فوره فى إعادة بناء فرنسا ، وحولها إلى إمبراطورية استعمارية ظاهرها الطابع العصرى للشرق . وأبدى شيئا من الليل إلى بشروح المنافسة بين الدول الكبرى ، التى ظلت تشغل أوروبا تماما بحروب غير عجيبة أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . واتخذ نقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٦) نفس النزعات العدوانية وأخذ يضغط جنوبا على الإمبراطورية التركية وقد شخص بهمه إلى مدينة القسطنطينية .

حتى إذا انتصف القرن ابتدأت فى أوروبا دورة جديدة من الحروب . وكلها فى الغالب حروب غاشية الرقة وتوازن القوى فهاجمت إنجلترا وفرنسا وملكة سربينا دولة الروس فى بلاد القرم دلفها عن تركيا ؛ وتقاتلت على زعامة ألمانيا كل من روسيا (ومعها إيطاليا كحليفة) والنمسا ، وحررت فرنسا شمال إيطاليا من رقة النمسا وقبضت مقاطعة سافوى ثمنا لذلك التحرير ، ومن ثم أخذت إيطاليا توحد نفسها بالتدرج فى نطاق مملكة واحدة . وعندئذ هجم نصحاء السوء لنابليون الثالث أن يقدم على فتح

ووقع الصلح بمدينة فرنكفورت ، وبه نزلت فرنسا عن مقاطعتي الألزاس واللورين للألمان . كما توحدت ألمانيا كلها عدا النمسا في إمبراطورية ، وأصبح ملك بروسيا ، إمبراطورا لألمانيا فزاد عدد القياصرة في أوروبا قيصرًا جديدًا .

ظلت ألمانيا بعد ذلك ثلاثة وأربعين سنة أقوى دولة في قارة أوروبا . ونشبت حرب بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) ، ولكن الحدود الأوربية ظلت تاجئة بصورة قلقة طوال الثلاثين سنة التالية ، لم يداخلها أثناءها إلا تعديلات بسيطة بمنطقة البلقان .

الفصل الثاني ويستون

الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار

بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية

انتهت خاتمة القرن الثامن عشر بتمزق إمبراطوريات وتعمم أحلام لدعاة التوسع . ذلك أن الرحلة الطويلة المضية من بريطانيا وألمانيا إلى مستعمراتهما بأمريكا تحول دون الرواح والنفوذ الحريين الوطن الأم وبناته للمستعمرات ، وهكذا انفصلت المستعمرات عن الدولة وأصبحت مجتمعات جديد منفصلة متميزة ، لها أفكارها للتميزة ومصلحتها بل حتى طرائقها الخاصة في النطق والتعبير . وكانت كلما تمت مزقت أكثر فأكثر رابطتها الواهنة غير الثابتة من السفن التي كانت همزة الوصل بينهما . أجل إن من الجائز أن تتعلق محطات تجارية ضعيفة تقوم في مجاهل البرية (كأن كانت لفرنسا بكندا) أو مؤسسات تجارية بين ظهرائي مجتمعات غربية كبيرة (كأن كانت لبريطانيا في لادالهند) تتعلق في سبيل البقاء البحث بالأمة التي أمعتها بالعمون ومنحتها مبرر وجودها . ذلك وحده ولا شيء غيره كان فيما يغفل لكثير من مفكرى أوائل القرن التاسع عشر الحد الأقصى للحكم وراء البحار . وما وافق ١٨٢٠ حتى تقلصت إلى أدنى حد الإمبراطوريات الأوربية الكبيرة غير للتنظمة الحدود ، التي كانت تبدو بارزة انضغامة في خرائط منتصف القرن الثامن عشر . ولم ينبج من هذا الصير إلا الإمبراطورية الروسية التي ظلت تزحف عبر آسيا محتقة دائماً بضخامتها وأكثرت .

وكانت الإمبراطورية البريطانية تتكون في ١٨١٥ من مناطق كندا الساحلية القليلة السكان ونواحيها المحيطة بالأنهار والبحيرات ، وأقاليم داخلية ضخمة من البراري كان كل ما فيها من المستقرات لا يتجاوز حتى ذلك التاريخ محطات تجارية الفراء التابعة لشركة خليج هدسون ، فضلا عن ثلث شبه جزيرة الهند ، الذي تحكمه شركة الهند الشرقية ، والناطق الساحلية عند رأس الرجاء الصالح التي كان يسكنها السود وبعض المستقرين الهولنديين ذوي الفوس للتردة ؛ ثم وضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية ،

ثم صخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا ، وممتلكات قليلة صغيرة تقوم على العمال الأرقاء ، بجزائر الهند الغربية ، وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية ، كما كان لها عدا ذلك مستودعان للبحرين يقومان في آخر أطراف العالم عند خليج بوتاني بأستراليا وجزيرة تسمانيا . أما أسبانيا فاحتفظت بجزيرة كوبا ووضعت مستعمرات بجزائر الفلبين ، على حين تبقى البرتغال بقايا ضئيلة مما كانت تدعى ملكيته قديما .

أما هولندا فكانت لها جزائر وممتلكات متنوعة بجزائر الهند الشرقية ، وبقيت لفرنسا جزيرة أو اثنتان بالهند الغربية وغيانا الفرنسية ، وكأما كان ذلك هو القدر الذي تحتاج إليه الدول الأوروبية : أو الذي يهتمل أن تحصل عليه من بقية أجزاء هذا العالم . ولم يكن ثم أحد يبدى روح التوسع إلا شركة الهند الشرقية .

وبينا كانت أوروبا مشتبكة في حروب نابليون ، كانت شركة الهند الشرقية تلعب في الهند برياسة جمهرة متعاقبة من اللذين الدور ذاته الذي لعبه تلك البلاد من قبل التركان ومن شابههم من غزاة شماليين . وواصلت الشركة أعمالها بعد معاهدة فينا ، من جباية الضرائب وشن الحروب وإرسال السفراء إلى الدول الآسيوية ، كأما هي دولة شبه مستقلة . ولكنها دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروات إلى بلاد الغرب .

ولا يتسع المقام هنا لتفاصيل الطريقة التي استطاعت بها الشركة البريطانية أن تنسق طريقها نحو السيادة بأن تكون نارة حليفا لهذه الدولة وتارة أخرى حليفا لتلك ، حتى غدت في النهاية قاهرة الجميع . امتد سلطانها حتى شمل أسام وإقليم السند وأوهد . بمعنى أن خريطة الهند شرعت تتخذ الصورة الإجمالية للألوفه لتلاميذ المدارس عندنا اليوم . فهي خريطة مكونة من رقعة صغيرة من الإمارات الوطنية التي يحيط بها ويضمها بعضها إلى بعض الولايات الكبرى الواقعة تحت الحكم البريطاني المباشر .

وقد ألحقت هذه الإمبراطورية التابعة لشركة الهند الشرقية بالتاج البريطاني في سنة ١٨٥٩ ، بعد تمرد خطير قام به الجند الوطنيون بالهند . وبمقتضى قانون صدر بعنوان « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح اللدبر العام نائبا للملك يمثل الماهل صاحب التاج ، وحل محل الشركة وزير للهند ، مسئول أمام البرلمان البريطاني ، ورغبة في

الوصول بالأمر إلى غاية الطبيعة، حمل اللورد نيكولز فيلد الملكة فكتوريا في سنة ١٨٧٧ على الندادة بنفسها إمبراطورة للهند .

والهند وبريطانيا ترتبطان في الوقت الحاضر على هذه الأسس العجيبة الخارقة (١). ذلك أن الهند لا تزال إمبراطورية « للنولى العظيم » ، ولكن للنولى العظيم قد حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى للترجمة . فالهند دولة حكم مطلق ليس بها عاهل مطلق . فحكمها يجمع بين مساوىء الملكية للطاعة وبين مال الوطنين في ظل الديمقراطية من حكم غير مسئول ولا يمت إلى النواحي الشخصية بأى علاقة ، فالهندي الذى له ظلامة لا يهجد أمامه عاهلا يلجأ إليه ، فما إمبراطوره إلا رمز من ذهب ، قد لم يكن أمامه مفر من إذاعة النشرات بأجلته أو الإيحاء إلى النواب بالقاء سؤال بمجلس العموم البريطانى . وكلما زاد البرلمان انشغالا بالشئون البريطانية قل ما تلقاه الهند من التفاهة ورعايته ، وزاد وقوعها تحت رحمة زمرتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وفيا عدا الهند لم يتيسر لأية إمبراطورية أوربية الحصول على أى توسع عظيم حتى بلغت للراكب البخارية والسكك الحديدية أقصى أثر فعال لها ، وكانت مدرسة كبيرة من المفكرين السياسيين بريطانيات ميل إلى اعتبار التتسكات وزاء البحار معدرا لضعف الدولة لاقتها . ونمت للمستوطنات الأسترالية يبطء حتى أدى اكتشاف مناجم ثمينة للنجاس في سنة ١٨٤٢ ، وأخرى للذهب في سنة ١٨٥١ إلى إعطائها أهمية جديدة ، كما أن تحسن وسائل النقل جعل الصوف الأسترالى سلعة تجارية قابلة للتصريف للزائد في الأسواق الأوربية . هذا إلى أن كندا لم تصب قدما ملحوظا إلا في عام ١٨٤٩ إذ كانت تمزق كلها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، فلما حدثت بها عدة توارث خطيرة ، فلم يخفف من متاعها الداخلية في النهاية إلا صدور دستور جديد في سنة ١٨٦٧ أنشأ دومينيون كندا الاتحادى . والسكك الحديدية هى لاجرم صاحبه الفضل في تغيير مستقبل كندا فإنها مكنتها - مثلا مكنت من قبلها الولايات المتحدة - من التوسع غربا ، ومن يسع قبحها وغيره من المنتجات في أوربا ، كما مكنتها على الرغم من غوها السريع الترامى من أن تظل مجتمعا واحدا تجمعه اللغة والعاطفة والمصلحة .

(١) استقلت الهند في عام ١٩٤٧ وإن ظلت عضوا في الكومنولث (أى مجموعة الأمم البريطانية) ثم أعلنت بها الجمهورية [للترجم]

لشركة ، والواقع الذي لا شك فيه أن السكة الحديدية والسفينة التجارية وأسلاك التلغراف البحرى كانت تغير تماماً جميع أحوال التطور الاستعماري .

وكانت للإنجليز مستقرات بحزيرة نيوزيلندة قبل ١٨٤٠ ، كما أن شركة لأراضى نيوزيلندة كانت قد تأسست لاستثمار موارد الجزيرة ، ولم تلبث نيوزيلندة أن ألحقت هى أيضاً فى سنة ١٨٤٠ بالملكيات الاستعمارية للتاج البريطانى .

وكانت كندا كما ذكرنا آنفاً أول الملكيات البريطانية التى استعجبت بقوة للإمكانات الاقتصادية الجديدة التى فتحت أبوابها وسائل النقل الجديدة . وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية خاصة منها جمهورية الأرجنتين ، تشعر من حيث تجارة اللواشى واللحوم وزراعة البن ، بتزايد قرب السوق الأوربية . وإلى ذلك الحين كانت أهم السلع التى تجتذب دول أوروبا إلى اقتحام للناطق الممسية غير الآهلة بالسكان ، هى الذهب أو غيره من المعادن أو التوابل والأفاوية أو العاج أو العبد ، ولكن زيادة السكان بأوروبا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت تعبر الحكومات على البحث فى الخارج عن الأغذية الرئيسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على أسس علمية أوجد الحاجة إلى مواد خام جديدة ، كاللحوم والزيتون من جميع الأصناف وللطاطا ومواد أخرى كان يغفل عايتها قبل الآن ، وكان جلياً للعيان أن بريطانيا العظمى وهولندة والبرتغال كانت تعجز ثماراً وميزات تجارية عظيمة ومتزايدة بسبب سيطرتها الكبيرة على ممتلكات الأقاليم العارة ، ثم شرعت ألمانيا بعد سنة ١٨٧١ ومن ورأسها على الدور فرنسا وإيطاليا فيما بعد ، تشخص بصرها باحثاً عن مناطق للمواد الخام لم يضمها إليه أحد ، أو عن بلاد شرقية يمكن قيام الطابع المصرى بها بصورة مشرعة ومرجحة .

وهكذا بدأ تسابق وتزاحم جديد عم العالم كله ، ولم ينبج منه إلا أمريكا التى وقفت فيها مبدأ مونرو آنذاك حاللاً دون مثل تلك للقارات الباحثة عن أرض لا تعبد من حجمها سياسياً .

وكانت إفريقيا أقرب القارات إلى أوروبا وهى مليئة بالإمكانات التى يكتنفها الغموض والإبهام . كانت فى ١٨٥٠ بعداً تحيط به الأسرار القاعة السوداء ؛ فلم يكن معروفاً من أقطارها ، إلا مصر والأقاليم الساحلية ، وبضيق المقام هنا عن قصة (٢٣ — تاريخ العالم)

للمستكشفين والناشرين للدهشة الدين اخترقوا لأول مرة ظلمات تلك الجاهل الإفريقية، وعن ذكر العملاء السياسيين والديبرين والتجار والمستوطنين ورجال العلم الذين مالوا أن ساروا في إرثهم . وبفضل ارتياد إفريقيا رفع اللثام عن أجناس بشرية مدغشة كالأقزام مثلاً، وعن حيوانات غريبة كالأوكابي ، وعن فواكه وأزهار وحشرات بدية ، وأمراض قذرة ، ومناظر أخاذة للغابات والجبال ، وبحار داخلية هائلة وأنهار عظيمة ومساقط مائية ضخمة : عالم جديد بأسره . بل لقد بلغ الأمر أن اكتشفت (عند زمبابو) بقايا حضارة بائدة لم يسجلها التاريخ ، هي آثار مغامرة أصبحت جنوباً لشعب قديم غير معروف . إلى هذا العالم الجديد قد الأوربيون ، ووجدوا البندقية في أيدي تجار الرقيق العرب ، كما وجدوا حياة الزوج في اضطراب شامل .

وما انقضت خمسون عاماً وحلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت إفريقيا كلها قد رسمت خريطتها وارتدت مجاهلها وقدرت قيمتها وقسمت بين الدول الأوروبية ، ولم يكن أحد أثناء معركة التسابق والتطاحن هذه بمصلحة السكان الأصليين . أجل إن الخامس العربي لم يطرد من الميدان قطع بل أيدى عاماً ، ولكن الجشع والشراسة على اللطام الذي كان محمولاً برياً يجمعه الأهالي قسراً في إقليم الكونغو البلجيكي ، وهو جشع تفاقم شره بسبب الاصطدامات التي نشبت بين الحكام الأوربيين غير ذوي الخبرة وبين الأهالي أففى ذلك كله إلى اقتراف أشنع الفظائع ، ولا تستطيع دولة أوروبية واحدة أن تدعى طهارة اليد تماماً من آثام تلك الحقبة .



(خريطة رقم ١٩)

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الوسيلة التي تمكنت بها بريطانيا العظمى من الاستيلاء على مصر في ١٨٨٢ والبقاء فيها رغم أن مصر كانت من الناحية الدولية جزءاً من الإمبراطورية التركية ، ولا كيف أوجت هذا التحافظ على المستعمرات أن يؤدي إلى نشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما حاول الكولونيل مارشال في فاشوده ، أن يستولى على النيل الأعلى أثناء عبوره أواسط إفريقيا من الساحل الغربي .

ولن يتيسر لنا أيضاً أن نحدثك كيف سمحت الحكومة البريطانية أولاً للبور أو المستوطنين الهولنديين بمنطقى نهر الأورانج والترنسفال ، أن ينشئوا جمهوريات مستقلة بمناطق إفريقيا الداخلية ، ثم عادت فتدتمت على ما فعلت وضمت جمهوريات الترنسفال في ١٨٧٧ ؛ ولا كيف ناضل بور الترنسفال في سبيل الحرية حتى فازوا بها بعد معركة تل ماجوبا في ١٨٨١ ، وأثيرت حول معركة تل ماجوبا حملة صليبية لجوج جعلتهم كالنص في حلق الشعب البريطانى أو القرحة في ذاكرته . فلما تلبث الحرب أن اندلعت من جديد مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وكانت حرباً دامت ثلاث سنين كبدت الشعب البريطانى ثقافات طائلة وانتهت بتسليم الجمهوريتين .

على أنقرة خضوعهما لم قدم طويلاً . إذ لم يلبث حزب الأحرار البريطانى و ١٩٠٧ بعد سقوط الوزارة الاستعمارية التي قهرتهما ، أن أخذ على عاتقه حل مشكلات جنوب إفريقيا ، وأن أصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين ، وأن صارتا يهدفان رغبة شريفة عضوين مع مستعمرة الرأس وناتال في اتحاد ضم جميع ولايات جنوب إفريقية بين دفتى جمهورية موحدة تستمتع بالحكم الذاتي في ظل التاج البريطانى .

ثم تقسم إفريقيا في ربع قرن . وقيت هناك ثلاث ذول صغيرة نسبياً حافظت على استقلالها . هى ليبيريا وهى مؤسسة لأرقاء الزنوج المحررين أنشئت على ساحل إفريقيا الغربى ؛ ومراكشى التى يحكمها سلطان منم ؛ وبلاد الحبشة ، وهى قطر مهمى يذب يضرب من النصرانية عتيق عجيب ، وقد نجحت في المحافظة على استقلالها وإقاده . ر عادية إيطاليا في معركة عدوه ١٨٩٦

الفصل الثالث وبشرى

العدوان الأوربي على آسيا ونهوض اليابان

لا يمكننا أن نصدق بسهولة أن عدداً ضخماً من الناس قد قبل حقاً هذا التقسيم الأرعن للتسرع لإفريقيا بوصفه تمويلاً جديدة لشئون هذا العالم ، ولكن الواجب يحتم على المؤرخ أن يسجل أن الناس قبلوه على ذلك الوصف . لم يكن لقتل الأوربي في القرن التاسع عشر إلا نصيب ضئيل من العلم بالتاريخ ، كما أنه لم يكون لنفسه حتى آنذاك عادة النقد النفاذ . ولا يغرب عن البال أن للزاياء الموقفة البحتة التي أتاحها الانقلاب الليكانيكي ببلاد الغرب للأوربيين دون بقية سكان العالم القديم ، كانت شيئاً يده كل من يجمل جهلاً مطبقاً أحدائناً كبيرة كفتوح للنول وآيات تعهد بأن الأوربيين يتزعمون البشرية زعامة مستديمة وطيدة الأركان . فكأنهم لم يشعروا بأن في الإمكان قتل العلم واقتباس ثمراته . وكأنهم لم يدركوا أن الصينى أو الهندى كان يستطيع أن يتناول بيديه مشعل البحث العلمى بنفس مقدرة الفرنسى أو الانجليزى تماماً ، وكانوا يعتقدون أن للغرب دافعاً فكرياً فطر عليه ، وأن الشرق جبل على شئ فطرى من التسكاسل والمحافظة على القديم ، وأن هذه حال نضمن للأوربي السيادة العالمية إلى أبد الآبدين .

وكانت عاقبة ذلك التهور الجنونى أن وزارات الخارجية بمختلف أقطار أوروبا لم تكتف فقط بالتسابق مع البريطانيين طلباً للمناطق للتأخرة غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل راحت تفتتح أقطار آسيا الممدنة الأهلة بالسكان كأنما لم يكن أولئك الأهليون أيضاً إلا مواداً خاماً للاستثمار والاستغلال ومن البديهي أن استثمار الطبقة البريطانية الحاكمة ببلاد الهند ، ذلك الاستثمار للزعزع الأركان في باطنه وواقع حقيقته والناظر في ظاهره ، وأن ممتلكات الهولنديين المترامية الأطراف الكثيرة الأرباح والنفرات بجزر الهند الشرقية ، كانت علاء الدول الصبرى النافسة لها بأحلام أجماد مشابهة لهند فارس ، وبالإمبراطورية السمانية التي شرعت تتفكك ، وبأقاليم أخرى بالهند والصين واليابان .

واستولت ألمانيا في ١٨٩٨ على كياوتشاو بأرض الصين ، فأجابتها بريطانيا على ذلك بالاستيلاء على وى هاى وى . وما لبث الروس أن استولوا في السنة التالية على بورت آرثر . وانبثت في الصين روح الكراهية للأوربيين . وقاموا بكثير من المذابح أحموا فيها أيديهم في الأوربيين وفي الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية ، كما هاجموا في ١٩٠٠ سفارات الدول الأجنبية في بكين وحاصروها . وأرسلت إلى بكين حملة تأديبية لدول أوربية مختلفة . فقامت بإتخاذ السفارات وسرقت قدرا هائلا من الممتلكات الثمينة والتحف . وعند ذلك استولى الروس على منشوريا كاجتاح البريطانيون بلاد التبت في ١٩٠٤ .

هناك ظهرت في ميدان الكفاح بين الدول العظمى قوة جديدة هي اليابان . ولم تلعب اليابان حتى آنذاك إلا دوراً صغيراً في تاريخنا هذا ؛ ذلك أن حضارتها للعزلة لم تضرب بسهم كبير جداً في الصياغة العامة لحضارة البشرية ؛ فهي قد تلقت الشيء الكثير ولم تعط إلا القليل . والشعب الياباني الحقيقي ينتمى إلى الجنس الفول . وما حضارتهم وكتاباتهم وتقاليدهم الأدبية والفنية إلا فرع مما للصين - ولكن تاريخهم منع « ورومانسى » ؛ فقد تطور بينهم أثناء القرون الأولى للحقبة المسيحية نظام إقطاع وفروسية ؛ ولا إخال هجماتهم على كوريا والصين إلا النظير الشرقي لحروب الإنجليز بفرنسا وقد أرغمت اليابان على الاتصال بأوروبا لأول مرة في القرن السادس عشر ؛

ثم وصل إليها في ١٥٤٢ بعض البرتغاليين قادمين في سفينة صينية ، ثم زلها في ١٥٤٩ مبشر جيزويقي ، هو فرانسيس زافير الذي بدأ يبشر الناس هناك . وقد رحبت اليابان بصلاتها بالأوربيين ردحا من الزمن ، تيمناً للبشرى للسيحيين أثناء أن يضموا إلى عقيدتهم عدداً كبيراً من الأهالي . وجاء حين من الدهر كان فيه شخص اسمه وليم آدمز مستشاراً لليابانيين وموضع تقصم أكثر من الأوربيين جميعاً ، فأرام كيف يصنعون السفن الكبيرة . ومن ثم قام اليابانيون على سفن بنيت في بلادهم برحلات إلى بلاد الهند وبيرو . ثم نشبت خلافات معقدة بين الدومينيك الأسبان والجزويت البرتغاليين والبروتستانت الإنجليز والمولنديين ، وراح كل منهم يحذر اليابانيين من أطماع الآخرين وخططهم السياسية . وحطى الجزويت يوماً بدر من أدوار الرفعة والعزة ، فأخذوا ينهون أثناء على البوذيين بالاضطهاد والتليظ والإهانات الجارحة . وأخيراً اقنع اليابانيون أن الأوربيين مصدر تسكير لهم لا حبيب ، إلى الصبر عليه ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص لم تكن إلا ستار تستر وراءه أطماع البابا السياسية وأحلام ملوك أسبانيا (الذين كانوا يملكون آنفا جزائر البلبين) ؛ فأزلوا بالمسيحيين اضطهاداً عظيماً ، ثم

أقفلوا أبواب اليابان في ١٦٣٨ أقفالا تاما في وجه الأوربيين ، فظلت كذلك ما يربو على مئتي سنة . وانقطعت صلة اليابانيين أثناء هذين القرنين عن بقية أجزاء العالم تماما حتى اكتشفهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض . إذ حرم عليهم بناء أية سفينة يتكبر حجمها عن حجم زورق الانتقال الساحلي . وحظر على اليابانيين مغادرة البلاد إلى الخارج ، ومنع الأوربيون من دخول البلاد .

ظلت اليابان قرنين كاملين بمنزل عن مجرى التاريخ الرئيسى وواصلت العيش في عز إقطاع جذاب ، كانت خمسة في المئة من السكان أثناءها هي الساموراي ، أى للقائقة ومهم النبلاء وعائلاتهم ، تحكم بقية السكان حكما جائرا مطلقا لا ضابط له ولا حدود حدث ذلك كله والعالم الخارجى الضخم يواصل تقدمه ويوسع آفاق آرائه وفلك قواه . فتكاثرت السفن المعينة الشكل التى تمر بجوار الروس الأرضية اليابانية الممتدة في البحر ؛ وكانت بعض السفن تتحطم أحيانا ويوجب توثيقها إلى الشاطئ ، ثم جاءتهم النذر من طريق المستوطنة الهولندية القائمة على جزائر ديشيا ، وهى همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجى - إن اليابان لم تكن تسير ركب القوة في العالم الشرقى . وأقبلت في ١٨٣٧ - بنية دخلت خليج ييدو زافعة علماء عيسيا من نجوم وعشق ملونة ، وقد حملت بعض الناحين اليابانيين الذين التقطتهم والتيار يدفعهم بعيدا في المحيط الهادى . وعندئذ أطلقت المدافع على السفينة فاضطرت إلى الانسحاب . وسرعان ما عاد هذا الصلم إلى الظهور ثانية يرفرف فوق سفن أخرى . منها واحدة جاءت في ١٨٤٩ للمطالبة بإطلاق سراح ثمانية عشر بحارا تعطلت سفينتهم باليابان . ثم جاءت في ١٨٥٣ أربع سفن حرية أمريكية بقيادة قائد الأسطول Perry ورفضت أن تنسحب فألقى القائد مراسيه في المياه المهرمة على الأجانب ، وأرسل رسله إلى الحكام الذين الذين كانوا يشتركان وقتئذ في حكم اليابان . ثم عاد في ١٨٥٤ بحشرة سفن ، سفن ضخام مذهلة يدفعها البخار ، وقد زودت بالمدافع الكبيرة ، وقدم مقترحات تتعلق بالتجارة والاتصال بالخارج ، لم يسع اليابانيين إلا قبولها . وبزل القائد إلى البرحرف به حرس مكون من خمسة رجل لسكى يوقع الماهدة . ووقفت الجماهير وهى لا تنكاد تصدق أعينها تشهد هؤلاء الزوار الوافدين من العالم الخارجى ، وهم يخترقون شوارع مدينتهم .

وما لبثت روسيا وبريطانيا أن حدثا حذو أمريكا . ورأى نيل عظيم كانت أملاكه تطل على تضيق شيمونوسيكي أن يطلق مدافعه على السفن الأجنبية ، فجاءت

عمارة خيرية من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية فدمرت بطارياته وهدمت
شمل جنده للقائلين بالسيف ، وأخيراً جاء أسطول الحولاء الحلفاء في ١٨٦٥ ، فألقى
مراسيه خارج كيوتو وفرض على اليابان تمديدا للمفاوضات اضطرها إلى فتح أبوابها على
مضاريعها للعالم .

أذلت هذه الأحداث اليابانيين إلى أقصى حد . فهبوا بهمة وذكاء مدحش يملكون
على رفع ثقافتهم ونظمهم إلى مستوى الدول الأوروبية . ولم يحدث قط في تاريخ العالم
بأسره أن خطا شعب مثل تلك الخطوة للدولة التي خطتها عند ذلك اليابان . كانت في
١٨٦٦ شعبا يعيش في القرون الوسطى ؛ ويمثل صورة هزلية خيالية لأحد أنواع نظم
الإقطاع « الرومانسي » تطرقا ؛ على أن شعبا أصبح في ١٨٩٩ مصطنعا تماماً بالطابع الغربي ،
ويعيش على مستوى أرق الدول الغربية تقدما . فبددت تماما بذلك اقتناع الناس بأن
آسيا كانت تتأخر عن أوروبا تأخراً لا مبرر له ولا رجاء في إصلاحه . وجعلت كل تقدم
أحرزته أوروبا يبدو بالموازاة بليطا متوانيا .

ويضيق المقام هنا دون تفاصيل حرب اليابان مع الصين في ١٨٩٤ - ١٨٩٥ .
وحسبك أنها دلت على مدى تطبعها بالطابع الغربي . إذ دلت على أن لها جيشا قادرا
ذا نظام غربي ، وأسطولا متفيرا ولكنه سليم . على أن دلالة نهضتها ومغزها وإث
لعبت التقدير من بريطانيا والولايات المتحدة ، اللتين شرعنا آنفا تعاملانها كدولة أوروبية ،
إلا أن تلك الدلالة لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى للنشئة في البحث عن « هند »
جديدة بقارة آسيا . ذلك أن روسيا كانت تتقدم جنوبا خلال منشوريا إلى شبه جزيرة
كوريا . وأن فرنسا قد وطدت أقدامها آنفا بمنطقة تونكين وأنام ، على حين راحت
ألمانيا تترص كالثعبان الجائع باحثة عن مستقرة لها . واجتمعت الدول الثلاث على منع
اليابان من اجتئاء أي ثمرة للحرب مع الصين . وكانت منهكة القوي من جراء تلك
الحرب كما أن الدول الثلاث هددها بالحرب .

وخضعت اليابان إلى حين وأخذت تجمع قواها . فلم تنقض عشر سنوات حتى أصبحت
على أهبة الاستعداد للحرب مع روسيا ، وهي حرب تؤذن بحقبة جديدة في تاريخ آسيا
أى بانتهاء فترة الصلف الأوربي . ولا شك أن الشعب الروسي كان بطبيعة الحال جاهلا
بكل تفاصيل تلك اللثام التي كانت تدبر له في النصف الآخر من العالم وهو منها براء ،
كما أن العقلاء من ساسة روسيا كانوا يمارضون هذه الفتوح والمجبات الحفماء ، ولكن

القيصر كان يحيط به جمع من الناصرين لالين ، فهم الغرائذوقات أبناء عمومته .
وكانوا قد غرقوا إلى أذقاتهم في مقاماتهم التي أزمعوا بها نهب بحائس منشوريا والصين ،
فلم يعودوا يطيعون الانسحاب من هذا الميدان ، ولذا أخذت اليابان في نقل جيوشها عبر
البحر إلى كوريا ، كما شرعت روسيا في إرسال مئات القطارات المحملة بالفلاحين الروس
عبر سكة حديد سيبريا لكي يموتوا في تلك لليادين الحربية القاسية .

وهزم الروس برا وبحرا لسوء قيادتهم وعدم النزاهة في إمداداتهم . وأقلع الأسطول
الروسي يبحر البلطيق حول إفريقيا لكي يدمره اليابانيون عن آخره بمضيق تموشيا .
ونار العامة في روسيا وقد أغضهم إلى أقصى حد هذه الذبحة القاسية التي نزلت بأنفسهم
بتلك البلاد القاسية دون مبرر . فاضطر القيصر إلى إنهاء الحرب في ١٩٠٥ . فأعاد إلى
اليابان النصف الجنوبي من جزيرة سخالين التي استولت عليه روسيا في ١٨٧٥ ، وتخلّى
عن منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان ، لقد أقبلت نهاية اجتياح أوروبا لآسيا وأخذت
أيربا توقف كل محاولة لها أرادت بها في الماضي عجم عود تلك القارة أو سير أغوارها .

الفصل الرابع واستون

الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جاز لنا أن نلاحظ هنا شيء من الإيجاز اختلاف طبيعة الأجزاء التي تتكون منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ التي أمتاحت السفينة البخارية والسكك الحديدية ضمن أجزائها بعضها إلى بعض . كانت ولا تزال خليطا سياسيا فريدا في بابها تماما؛ إذ لم ير العالم لها من قبل مثيلا .

ومركز تلك المجموعة كلها وأول دولة فيها هي الجمهورية المتوجة المسماة بالملكة البريطانية المتحدة ، التي تحتوى أيضا على إيرلندا (ضد رغبة شطر عظيم من الشعب الإيرلندي^(١)) . وكانت الأغلبية في البرلمان البريطاني المكون من البرلمانات المتحدة الثلاث في إنجلترا (وويلز) واسكتلندا وإيرلندا ، هي التي تعين رئيس لوزارة ونوعها وسياستها ، وتحدد ذلك بناء عن اعتبارات السياسة البريطانية الداخلية ، فهذه الوزارة هي الحكومة العليا الفعالة ، ولها سلطات إعلان الحرب وعقد الصلح في كل أرجاء الإمبراطورية .

وبل الولايات البريطانية في ترتيب الأهمية السياسية الجمهوريات المتوجة بأستراليا وكندا ونيوفاوندلاند (وهي أقدم الممتلكات البريطانية ١٥٨٣) ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا ، وكلها مستقلة فعلا كما أنها دول تحكم نفسها بنفسها في تحالف مع بريطانيا العظمى ولكن يقيم بكل منها ممثل للتاج تعينه الحكومة المترتبة في دعم الحكم .

وبعد ذلك نجىء الإمبراطورية الهندية وهو صورة مكبرة لإمبراطورية المغول الأعظم ، وقد أصبحت الآن بما فيها من ولايات تابعة وعمليات ، تعتمد بلوختان إلى بورما وتضم كذلك عمية عدن ، وفي تلك الإمبراطورية الضخمة يلعب التاج البريطاني ووزارة الهند (تحت رقابة البرلمان) دور الأسرة التركانية القديمة .

(١) قد تثيرت منه الحال الآن بالنسبة لإيرلندا فأعلنت جمهورية مستقلة وأصبح لها برلمان خاص

ثم نجى مصر ذات المركز التامض التي لا تزال إسميا جزءاً من الإمبراطورية التركية ولا تزال تحتفظ بها لها الخاص وهو الحدودي ، ولكنها تحت حكم الوطنين البريطانيين ذلك الحكم الذي يكاد يكون استبدادياً .

ثم ولاية السودان المصري الإنجليزي الذي هو في حال أشد غموضاً ، والذي يحمله ويديره البريطانيون بالاشتراك مع الحكومة المصرية (الواقعة تحت الهيمنة البريطانية) ثم إن هناك عدداً من المجتمعات المستعنة بالحكم الذاتي إلى حد ما ، منها ماهو انجليزي الأصل ومنها ما ليس كذلك ، وفيها المجالس التشريعية المنتخبة والمهيات التنفيذية المعنية بأوامر ومراسيم ، مثل مالطة وجايبكا وجزائر بهاما وبرموده ، وبعد ذلك مستعمرات التاج ، التي قد يقرب فيها حكم الحكومة البريطانية (عن طريق وزارة المستعمرات) من نوع الحكم الاستبدادي المطلق كما هو الشأن في سيلان وتربنيداد وفيجي (التي كان لها مجلس معين) وجبل طارق وسفث هيلانة (اللتين لها حاكم) .

ثم مساحات مترامية من أقاليم مدارية (بوجه خاص) وهي أقاليم لإنتاج المواد الخام ، لها مجتمعات ضعيفة سياسياً ومتأخرة حضارة ، وكلها بحميات إسمية ، إما يديرها مندوب سام يعين فوق حكام من الأهالي (شأن باسوتولاند) أو فوق شركة تبتسمع بمرسوم ملكي (كما هو الحال في روديسيا) . وكانت وزارة الخارجية في بعض الحالات ووزارة المستعمرات في بعضها الآخر ، ووزارة الهند أحياناً ، هي التي عملت على الحصول على تلك الملكات التي تقع تحت هذا الصنف الأخير الذي يعد من حيث المركز أدنى الملكات شأنًا وتعديداً ، ولكن وزارة المستعمرات أصبحت الآن مشغولة عنها في معظم الحالات .

لهذا قد انضح الآن مما تقدم أن وزارة واحدة لم تتضم قط على الإمبراطورية البريطانية كلها ولا تفرد لإدراكها عقل واحد ، فهي خليط من أجزاء صغيرة كبرت أو فقدت تراكبت بعضها فوق بعض ، خليط يختلف تماماً عن كل شيء حمل اسم الإمبراطورية قبلاً ، كما أنها أصبحت تضمن قيام سلام وأمن مقسّى الرقعة ؛ من أجل ذلك تحملها وناصرها كثير من الشعوب التابعة لها — على الرغم مما أبداه موظفوها من مظالم وعدم خصافية ، وعلى الرغم مما تجلّى في جمهورها بريطانيا نفسها من إهمال وعدم رعاية للأمانة المتولدة بعنقه ، والإمبراطورية البريطانية تعد أملاً كبيراً وراء البحار شأن الإمبراطورية

الآتية ؛ فطرقها طرق بحرية ، كما أن همزة الوصل بين أطرافها هي الأسطول البريطاني
فإن تماسكها كمثل الإمبراطوريات يعتمد كل الاعتماد على وسائل اللواصلات ؛ وقد أدى
تطور فنون الملاحة وبناء السفن والبواخر بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر
إلى إمكان قيام سلم مناسب على يديها هو السلم البريطاني « Pax Britannica » ، كما أن
ظهور تطورات جديدة في وسائل النقل الجوي أو البري السريع زجما اقتضت في أية
لحظة من اللحظات إلى حرمانها تلك المزية وجعلها غير مناسبة .

الفصل الخامس والستون

عصر التسليح في أوروبا والحرب العظمى

١٩١٤ - ١٩١٨

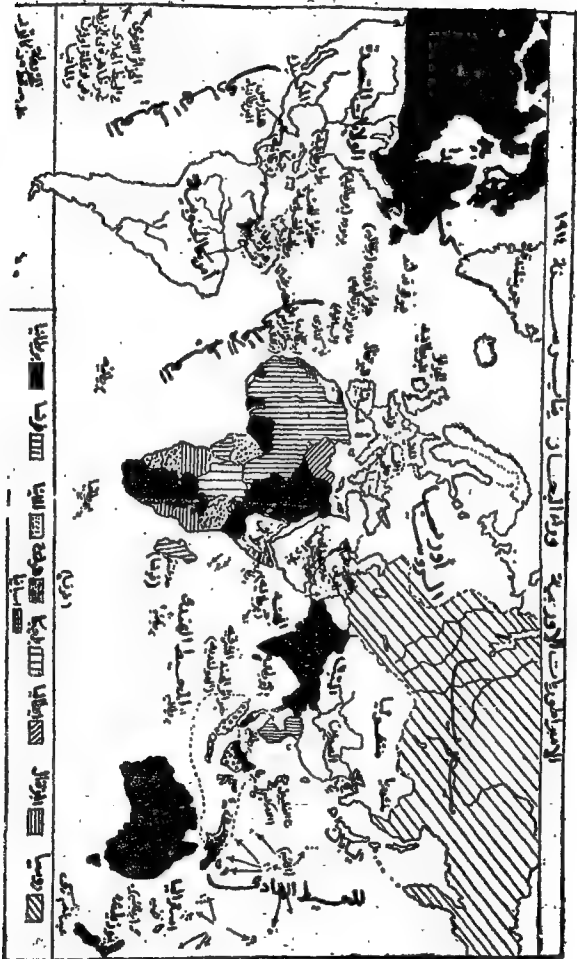
إن تقدم العلوم الطبيعية وللادى الذى تولدت عنه جمهورية أمريكا الهائلة هذه التى تعتمد على الزورق البخارى وسكة الحديد ، وتمنح عن قيام الإمبراطورية البريطانية للثقلة والقائمة على الباخرة ، وامتدادها فى كل أرجاء العالم قد أفضى إلى قيام نتائج أخرى مختلفة عن هذه تماماً فى الأمم للزدحمة بالسكان فى قارة أوروبا . ذلك أنها وجدت نفسها محصورة داخل تخوم وضعت أثناء عصر الحصان والطريق البرى ، وإن كل أمل لها فى التوسع وراء البحار قد سبقتها إليه بريطانيا العظمى إلى حد كبير . وكانت الروسية هى الوحيدة التى وجدت أمامها سيلاً إلى التوسع شرقاً ؛ فهدت عبر سيبيريا خطاً حديدياً عظيماً مازالت به حتى تورطت فى القتال مع اليابان ، ثم تقدمت جنوباً بشرق نحو حدود فارس والمند فأزعجت بريطانيا بذلك . أما بقية الدول الأوروبية فكانت فى حال من ازدحام السكان متزايدة التثاقم . فاضطروا إلى تنظيم شئونهم على أساس أرحب رغبة منهم فى الوصول إلى أقصى ما فى الحياة الإنسانية وجهازها من إمكانيات :- وذلك إما بإقامة ضرب من الاتحاد الإرادى أو بالخضوع لاتحاد تفرضه عليهم دولة أخرى متسلطة . وقد مالت الآراء المصرية فى معظم الدول إلى إنشاء تلك الاتحادات الإدارية ، ولكن التقاليد السياسية كانت تدفع بكل قواها قارة أوروبا نحو النوع الثانى من الاتحاد .

-- كان سقوط إمبراطورية نابليون الثالث ، وتأسيس الإمبراطورية الألمانية الجديدة إشارة وجهت الناس وهم بين خائف وجل وراج مستبشر - نحو فكرة توحيد أوروبا كلها بزعامة الألمان . وانقضت أربعة وأربعون عاماً من السلم القلق المضطرب كانت سياسة أوروبا اتناها تركز حول ذلك الاحتمال . ولكن فرنسا منافس ألمانيا الدائم على العظمة فى أوروبا منذ أيام تقسيم إمبراطورية شرلمان ، حاولت أن تصلح من صفها

الطبيعى بمقد عالفة وثيقة مع روسيا ، كما أن ألمانيا ربطت نفسها بأوثق رباط بالإمبراطورية النمساوية (التى زال عنها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ أيام نابليون الأول) كما ربطت نفسها إلى حد أقل بملكة إيطاليا الحديثة النشوء . وظلت بريطانيا العظمى في البداية مترددة كماداتها تقدم رجلا في غضون أوروبا وتؤخر أخرى . ولكنها اضطرت بالتدريج إلى الارتباط الوثيق بالفريق الفرنسى الروسى بسبب تخضم الأسطول الألمانى تضخما يادى العدوان . وقد أفضت أطماع الإمبراطور غليوم الثانى (١٨٨٨ - ١٩١٨) في العظمة الباذخة إلى اندفاع ألمانيا قبل الأوان في مغامرات وراء البحار انتهت إلى انتظام اليابان والولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى في دائرة أعدائها .

تنافست كل هذه الشعوب في التسليح . وأخذت نسبة الإنتاج القومى الموجهة إلى صنع للدفاع والعتاد الحربى والسفن الحربية وما إليها تزايد من سنة إلى أخرى . وأخذ ميزان الأمور ينجح مرتشأ عاماً بعد عام نحو الحرب ، ولكن الحكمة كانت تعود فتتقى بتجنب الحرب ثم ادلع لديها آخر الأمر ، فهاجت ألمانيا والنمسا كلا من فرنسا والروسيا وصرخا : واختزقت الجيوش الألمانية بلبیکا للوصول إلى فرنسا ، فدخلت بريطانيا الحرب على الفور مناصرة لبلجيكا ، وأدخلت معها حليفها اليابان ، وسرعان ما انضمت تركيا إلى صفوف الألمان . ثم عادت إيطاليا فدخلت الحرب مرة ثانية ضد النمسا في ١٩١٥ ، وانحازت بلغاريا إلى دول وسط أوروبا في أكتوبر من تلك السنة . ثم اضطرت رومانيا في ١٩١٦ إلى الدخول في الحرب ضد الألمان وتلقا الولايات المتحدة والصين في ١٩١٧ . وبضيق المقام في هذا الكتاب عن تحديد نصيب كل فريق من القوم على هذه الكارثة الفظيعة . فليس السؤال الأ أكثر أهمية هو « لماذا لم يتكهن الناس بنشوب الحرب العظمى » بل « لماذا لم يحولوا دون ذلك » ؟ فإن العلم بأن عشرات الملايين من الناس كانوا من شدة الوطنية العمياء أو النباوة أو بلاهة الحس بحيث لم يستطيعوا أن يمنعوا تلك الكارثة بخطوة يخطونها نحو الوحدة الأوروبية القائمة على أسس خضرة كريمة ، أخطر كثيرا لدى الإنسانية من العلم بأن طائفة قليلة من الناس قد عملت على إشعالها .

والحال الذى بين أيدينا لا يسمع بأى حال بتقصى التفاصيل للعقد للحرب . على أنه نين جلجا بعد خمسة عشر سنة أن تقدم العلوم الفنية العصرية قد غير طبيعة الحرب تغييرا



عجيبا ، ولا شك أن علم الطبيعة يمنح الإنسان القوة والتسلط على الفولاذ والسلاسل والأمراض ؟ وإن كان استخدام هذه القوة أو سوء استعمالها يعتمد على قسوة السام الخلقية والسياسية ، لذا فإن حكومات أوروبا التي كانت تستوحى الإلهام من سياسات حقيقة بالية قوامها الكراهية والشكوك ، وجدت طوعا مبيها قوى لا نظير لها تستطيع بها التدمير والمقاومة في وقت واحد ، وأصبحت الحرب شقة من نار شملت العالم كله وأتمت على الأخضر واليابس ، وأزلت من الخسائر بكل من الظافر وللنهم ما لا يتناسب البتة مع قيمة للسائل للتنازع عليها ، وابتدت الحرب بحركة من الاندفاع الهائل من الألمان نحو باريس قايه في الشرق اجتياح الروس لبروسيا الشرقية . ولكن هذين الهجومين صدا ورد إليهما على عقبه في الحالين ، ثم تطورت قوة الدفاع ؟ فأدخلت التحسينات السريعة على حرب الخنادق ، حتى اضطرت جيوش الفريقين أن تظل ردحا من الزمن في خنادق تمتد في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ، دون أن يمكنها القيام بأي تقدم بغير مكبد خسائر فادحة . وكانت جيوش كل من الطرفين تمد بالملايين ، وقد نظم من ورأهم السكان بكامل عددهم بنية إمداد جبهة القتال بالميرة (الطعام) والذخيرة . فكان كل أنواع النشاط الإنتاجي قد انقطعت تقريبا إلا ما أسهم بنصيب في العمليات الحربية .

- وأخذ كل شباب أوروبا ورجلها القادرون على العمل إلى الجيوش أو الأساطيل أو إلى المصانع التي أنشئت آنذاك على الفور لخدمة الجيش والأسطول وحلت النساء في الصناعة محل الرجال إلى درجة هائلة ، وأغلب الظن أن أكثر من نصف السكان في الدول الأوروبية للتحاربة قد غيروا أعمالهم ومنهم تفرأ تماما أثناء ذلك البكفاح للهلل . فكانهم نزعوا اجتماعيا من بيوتهم أنراها وأنزلوا بيئة أخرى . وقيدت الحرية والأبحاث العلمية العادية بقيود جعلتها قاصرة أو موجبة تماما إلى أهداف الحرب للباشرة ، كما أن توزيع الأخبار وتشرها قد أصيب بالعجز والفساد والتشويه بما فرض عليها من رقابة عسكرية وما داخلها من أعمال الدعاية .

ثم تحول دور التوقف عن الأعمال العسكرية بالتدريج إلى دور من الاعتداء على السكان في الخارجين وراء الجبهة وذلك بتدمير موارد الطعام والغارات الجوية ، كما أنه

حدث تقدم متواصل في حجم الدافع للشملة ومداهما وفي مستحدثات تنطوي على البراعة من أمثال قتال الغاز السام وتلك القلاع الصغيرة للتحركة السريعة بالدبابات ، وغيرها من وسائل تحطيم مقاومة الجنود بالخنادق ، على أن الحرب الجوية قد حدث بها دون غيرها من وسائل الحرب الحديثة أعظم انقلاب . فبعد أن كان للحرب اتجاهان أصبح لها ثلاثة ، وكانت الحرب قبل هذه اللحظة من تاريخ الإنسانية لا تحدث إلا حيث تزحف الجنود وتلتقي ، فأما الآن فإنها تدور رحاها في كل مكان ، وقد حملت مناطق زبلن أولا ثم قاذفة القنابل فيما بعد رعى الحرب فوق الجبهة ووراءها إلى منطقة متزايدة الاتساع للنشاط للدنى البعيد عن الجبهة . واختفى من الدنيا التمييز القديم الذي كان يفرق حسب أصول الحرب للتمدية بين للدين من السكان والمهاجرين منهم ، فشكل منتج الطعام ، وكل حائك للثياب ، وكل قاطع لشجرة أو مصلح لزلز ، وكل محطة للسكك الحديدية ، وكل مخزن من المخازن ، أصبح يعد صيدا مباحا للتدمير ووسائله ، وكان كل شهر ينقضى من الحرب يزيد مجال الحرب الجوية ويوسع نطاق الرعب منها ، ولم يبرح الحال كذلك ، حتى أصبحت مناطق عظيمة من أوروبا في حالة حصار دائم وتعرض لهجمات لاتقطع ليل واحدة ، فكانت للندن المكشوفة كلندن وباريس تقضى الليلة بعد الليلة ساهرة لا يخفض لها جفن — والقنابل تنفجر من فوق رأسها ، والمدافع المضادة للطائرات تحدث منواء لا تطاق ، على حين تجلبجلب آلات المطاق وسيارات الإسعاف بسرعة خلال الشوارع المظلمة المهجورة ، وكانت آثار ذلك في عقول المسنين وصغار الأطفال وصحتم عذبة ومدممة بوجه خاص .

على أن الأوبئة التي كانت من قديم تسمى متبعة دائما تخطى الجروب ، لم تظهر إلا عند ختام القتال نفسه في ١٩١٨ . فإن علم الطب ظل أربع سنوات يدفع عن البشرية كل وباء عام ؛ ثم انتشر في العالم وباء عظيم من الإنفلونزا قضى على بضعة ملايين من الناس ، وكذلك أجد شيخ المجاعة إلى حين ، ومع ذلك فإن معظم أوروبا كان عند بداية ١٩١٨ يعيش في حالة من المجاعة الخفية والمنظمة ، قد هبط إنتاج الطعام في كل أرجاء العالم هبوطا عظيما بسبب استدعاء الفلاحين إلى ميادين القتال ، فضلا عن أن توزيع ما أمكن إنتاجه من الأطعمة كان يحول دونه عبث التواصات وإفسادها في البحر ، انقطاع الطرق العادية بسبب إقفال الحدود بين الدول ، وبسبب ما اعتدى نظام لواصلات المالية من اضطراب وقساد . وعندئذ وضعت الحكومات المختلفة يدها على

موارد الطعام الضئيلة المتناحسة ، وراحت توزع الأطعمة جراثيم على شعوبها. فضلا عن الطعام أصبح العالم بأجمعه يكابد الشقاء في السنة الرابعة من قلة الثياب والمنازل ومن نقص كثير من لوازم الحياة العادية . وأصبحت الأعمال الحرة والحياة الاقتصادية بأعمق الاضطراب . وران القلق والملم على النفوس جميعاً . وأصبح معظم الناس يعيشون عيشة صئك لم يألوها قبلاً .

توقفت الأعمال الحرة في نوفمبر ١٩١٨ . إذ أن دول أوروبا الوسطى انهارت بعد جهد هائل بذلته في ربيع ١٩١٨ ، كاد يدفع الألمان إلى باريس نفسها . ذلك أنهم استنزفوا آخر قطرة من أرواحهم ومواردهم .

أفضل الناس أشتون

النظام الجديد بالروسيا

وقبل انهيار دول أوروبا الوسطى بنيف سنة كاملة انهارت القيصرية الروسية شبه الشرقية التي ادعت أنها استمرار للإمبراطورية البيزنطية . فقد ظلت تلك القيصرية تسرى فيها مظاهر الفساد العميق قبل الحرب يضع سنوات ، إذ كان البلاط القيصري واقعاً تحت سيطرة دجال ديني مضحك ، هو راسبوتين ، فضلاً عن أن الأداة الحكومية المدنية والمسكرية كانت في حالة مفرطة من عدم الكفاية والرشوة والفساد . ولما أعلنت الحرب انتشرت بالروسيا فورة عظيمة من الحماسة القومية . فاستدعى لملح السلاح جيش عرمرم من الجندين ، لم يكن له عتاد عسكري كاف ولا العدد الكافي من الضباط الأكفاء ، ولم يلبث ذلك الجيش العظيم السيء الإمداد الضعيف القيادة أن قذف بلا نظام إلى الحدود النمسية والألمانية .

ولا سبيل إلى الشك أن مباددة الجيوش الروسية إلى الظهور في بروسيا في سبتمبر ١٩١٤ صرفهم الألمان والتفاتهم عن تقدمهم السريع الأول المظفر على باريس : فكأن الآلام ووفات عشرات الألوف من الفلاحين الروس ذوي القيادة السيئة هي التي أوقعت فرنسا من الهزيمة التامة في تلك الحملة الأولى الخطيرة ، وجعلت أوروبا الغربية بأكملها مدينة بفضل لذلك الشعب العظيم الأسيء . وقد وقع عبء الحرب على هذه الإمبراطورية للترامية الأطراف شديداً مضيقاً لم تقو على احتاله قواها . فإن الجنود الروس العاديين كانوا يرسلون إلى ميدان القتال دون مدفعية تمهد لهم وتطاهرهم ، بل حتى دون ذخيرة للبنادق ؛ لقد أوقفهم ضباطهم وقوادهم في حالات من الهذيان الجنوني للشتغل بالحماسة العسكرية . فظلوا إلى حين يقاسون الآلام صامتين مثلما تقاسيها العجاوات . ولكن للصبر والتحمل حداً حتى لدى أشد الناس جهلاً . فأخذ يتفشى شعور من الازدهار العميق من القيصرية بين تلك الجيوش المهيبة من الرجال الذين غدر بهم كبارؤفهم وأضاعوا حياتهم هدرًا . لذا غدت الروسية منذ نهاية ١٩١٥ ، مصدر قلق

متزايد لخطاتها التوسعية . فإنها ظلت عام ١٩١٦ ملتزمة خطة الدفاع إلى حد كبير ، وانتشرت في الجو إشاعات تشير إلى قرب عقد الصلح للتفرد بينهما وبين ألمانيا .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين أثناء وليمة عشاء أقيمت بمدينة بروجراد ، وبذل المخلصون من الرجال جهداً متأخراً لتنظيم القيصرية . ولكن الأمور كانت تندفع في شهر مارس اندفاعاً سريعاً ؛ فإن الفتن التي شبت بـ بروجراد من أجل الطعام ما لبثت أن تحولت إلى حركة عصيان ثورية ، وحاولت الحكومة إلغاء مجلس الدوما ، وهو الهيئة التمثيلية في البلاد ، كما حاولت اعتقال زعماء الأحرار ، ثم ألف الأمير لافوف حكومة مؤقتة ، وتنازل القيصر عن عرشه في ١٥ مارس . وانقضت فترة من الوقت ظن الناس أثناءها أن في الإمكان قيام ثورة معتدلة ذات ضوابط ، ولكن في ظل قيصر جديد . ولكن اتضح جلياً أن تدمير الثقة الشعبية بالروسيا قد تجاوز للحد ، ولم يعد في إمكان مثل تلك التسويات إصلاح شأنه . ذلك أن الشعب الروسي قد سئم سمة اللوث كل ما في أوروبا من نظم قديمة : من قياصرة ومن حروب ومن دول عظيمة ؛ لقد كان يلتمس الراحة - والراحة السريعة العاجلة بما يقاسى من تعاسات لا تطاق . ولم يكن الحلفاء يدرسون البتة حقائق الموقف في الروسية ، فإن رجال الديبلوماسية فيهم كانوا يجهلون الشؤون الروسية جهلاً تاماً ، إذ كانوا من عليّة القوم الذين يوجهون اتهامهم إلى البلاط الروسي أكثر منهم إلى الروسية نفسها ، فلا غرابة إذن أن يتوالى صدور الخطأ منهم باستمرار إزاء الموقف الجديد . ولم تكن نقوس هؤلاء الديبلوماسيين تنطوي على الكثير من حسن النية نحو للذهب والنزعات الجمهورية ، قد أظهروا ميلاً واضحاً إلى إحراج الحكومة الجمهورية الجديدة جهداً مستطاعهم . وكان على رأس الحكومة الروسية الجمهورية زعيم فسيح جذاب هو كيرنسكي ، الذي وجد نفسه غرضاً لهجمات حركة ثورية أخرى أبعد غوراً ، هي « الثورة الاشتراكية » في داخل بلاده ، كما وجد حكومات الحلفاء في الخارج تامله بتفوق وقلّة اهتمام . لم يسمح له حلفاؤه أن يعطى الفلاحين الروس الأرض التي يتلفنون عليها ولا أن يمنحهم السلم وراء حدودهم . وأخذت الصحافة الفرنسية والبريطانية ترهق ذلك الحليف للتهلك بمطالبته بالقيام بهجوم جديد ، فلما أقدم الألمان في تلك الساعة على مهاجمة رينا براً وبحراً - غارت عزائم إمارة البحر البريطانية دون القيام بحملة في بحر البلطيق لإيقادها أو تخفيف الضغط عنها ، وبذا اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة

أن تقابل الألمان وحدها دون معاونة من أحد . وينبغي لنا أن نلاحظ هنا أن البريطانيين وحلفاءهم تركوا للألمان السيادة التامة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها فيما عدا بعض هجمات قامت بها غواصاتهم ، وذلك على الرغم من تفوقهم البحري ومن الاعتراضات للريرة التي قدمها لورد فيشر الأميرال الإنجليزي العظيم (١٨٤١ — ١٩٢٠) .

ومع ذلك فإن الشعب الروسي كان مصمماً على وضع أحد للحرب ، مهما كلفه ذلك من ثمن . فقد ظهرت إلى عالم الوجود بمدينة بتروغراد هيئة تمثل العمال وعامة الجند ، هي هيئة السوفييت ، التي أخذت تطالب بعقد مؤتمر دولي للاشتراكيين بمدينة استوكهولم . وكانت فتى الطعام تحدث في ذلك الأوان بيرلين ، وتغفل السأم من الحرب بكل من النمسا وألمانيا إلى قرارة النفوس ، وتدلنا الأحداث التالية دلالة لا سبيل إلى الشك معها أنه لو أن ذلك المؤتمر عقد لسجل بعقد صلح معقول في ١٩١٧ يقوم على أسس ديمقراطية ولأحدث بألمانيا ثورة في ذلك الوقت نفسه . وأخذ كيرنسكي يتضرع إلى حلفائه الغربيين أن يسمحوا بانعقاد ذلك المؤتمر . ولكنهم رفضوا ذلك الطلب مخافة أن يؤدي قبوله إلى انتشار للذهاب الاشتراكية والجمهورية في أرجاء العالم قاطبة ، على الرغم من قبول أغلبية صغيرة لحرب العمال البريطاني للفكرة وظلت الجمهورية الروسية للتدلة التمسة تقابل دون أن تلتقي عوناً معنوياً أو مادياً من الحلفاء ، وقامت بهجوم أخير يائس في يوليو . ولكن الهجوم أخفق بعد أن أحرز جضع انتصارات أولية وللمرة الثانية ذبح الروسيون ذبحاً عظيماً .

وهنا تجاوزت الأمور حد احتمال روسيا . فتمرد الجند في الجيوش الروسية وبخاصة في الجهة الشمالية ، ولم تلبث حكومة كيرنسكي أن خلت في ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، وأصبح استولى على مقاليد الأمور السوفييت ، الذين يسيطر عليهم الاشتراكيون البلاشفة برئاسة لينين ، وأن طلبوا عقد الصلح دون أدنى مراعاة للدول الثرية . وفي ٢ مارس ١٩١٨ عقد صلح منفرد بين روسيا وألمانيا بمدينة برست ليتوفسك .

وسرعان ما انضغ أن هؤلاء الاشتراكيين البلاشفة كانوا رجالاً يختلفون في طبيعتهم تماماً عن فصحاء الدستوريين والثوريين الذين أقاموا حكومة كيرنسكي . فإنهم كانوا شيوعيين ماركسيين متصبين . وكانوا يعتقدون أن توليهم زمام السلطان بالروسيا إن هو إلا بداية ثورة اشتراكية عالمية عامة ، فانطلقوا يغيرون والنظام الاجتماعي والاقتصادي

في البلاد ويبدون في ذلك أقصى غاية الإيمان للطلق وعدم الخيرة التامة. أما دول أوروبا الغربية وأمريكا فقد بلغها من أخبار السوء عن تلك الثورة ، كما أنها كانت من العجز التام بحيث لم تستطع أن تقدم الإرشاد لتجربتها الخارقة أو تعد إليها يد العون ، فضلا عن أن الصحافة هبت لتحقير هؤلاء المنتصين والخط من كرامتهم كما هبت الطبقات الحاكمة لتعظيمهم مهما يكن أساس ذلك التحطيم ومهما يكن الثمن الذي يدفعونه هم أنفسهم أو روسيا في سبيل ذلك . وتواصلت عليهم في صحافة العالم حملات الهجاء الحاملة لأسوأ التخرصات للزحجة البشعة ؛ وراحت تلك الصحافة دون رادع يدهمها تصور زعماء البلاشفة في صورة الوحوش البشعة الشنيعة اللطخة الأبدى بالدماء والتهب والذين يتعرجون في أحوال اللذات الهيمية تمرقا يجعل فضائح البلاط القيصري أثناء فترة تسلط راسبوتين تصبح بالنسبة لهم ناعمة البياض طاهرة الدليل . وسمرت الحملات العسكرية على تلك البلاد الحائرة القوى ، وشجع كل ثائر عليها وكل مغير ، وأمسد بالسلاح ومنع الأموال . .

ولم يترك أعداء النظام البلشفي للذعورون وسيلة من وسائل الهجوم أو الاعتداء لم يستخدموها مهما بلغت من السفالة أو البشاعة . وهكذا تجد في ١٩١٩ البلاشفة الروس الذين كانوا يحكمون بلادا قد أنهكتها تماما وأفست نظامها حرب شديدة استمرت خمس سنوات ، - يقاتلون حملة عسكرية بريطانية زلت عند أركانجيل - وغارة لليابانيين في شرق سيبيريا ، ويقاثلون الرومانيين في الجنوب ومعهم جنود فرنسيون ويونانيون ، ويقاومون الأميرال كولتشاك الروسي بسيبيريا ، والجنرال دينيكين بالقرم يماونه الأسطول الفرنسي .

ثم كاد جيفس إستوني بقيادة الجنرال يوديفيتش أن يصل إلى بطرسبرج في يوله من تلك السنة . وفي ١٩٢٠ هاجم البولنديون روسيا بتعريض من فرنسا . كما أن مغيرا رجيا جديداً . هو الجنرال رانجيل ، تولى العمل الذي تغلّى عنه الجنرال دينيكين وراح ينزف وطنه ويهبط في أرجائه فساداً . ثم إن بحارة الأسطول الراسي عند كرونستاد تمردوا في مارس ١٩٢١ . ولكن الحكومة الروسية برئاسة لينين تحمّلت كل هذه المحبات . بل لقد أبدت قوة تماسك عجيبة ، وظهرها عامة الشعب في روسيا دون تردد أثناء تلك الظروف القرملة الصبر . حتى إذا وافت نهاية ١٩٢١ كانت بريطانيا العظمى وإيطاليا قد اعتزقتا على صورة ما بالحكم الشيوعي في روسيا .

ولكن لئن وقفت الحكومة البلشفية في مكانها لتتدخل الأجنبي والثوران الداخلية ، فإنها كانت أقل حظا من التوفيق في إقامة نظام اجتماعي جديد بالروس مؤسس على الأفكار الشيوعية . ذلك أن الفلاح الروسى مالك صغير متلف هو امتلاك الأرض ، بعيد عن الشيوعية في فكره وأسالبيه بعد السماء عن الأرض ؛ أجا أعطته الثورة أراضي المالك الكبير السابق ، ولكن الثورة لم تستطع أن تحمله على زراعة المواد الغذائية مقابل أى شيء إلا العملة - القابلة للتداول ، كما أن الثورة دمرت قيمة النقود تقريباً . وأصيب الإنتاج الزراعى بضربة شديدة من جراء اختلال نظام السكك الحديدية وأجهزتها أثناء الحرب ، حتى لقد انكشف فأصبح مجرد زراعة المواد الغذائية يقوم بها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص . أما المدن فقد شملتها المجاعات ، وبذلت محاولات مستعجلة سريعة التنظيم والتدبير لتعديل نظم الإنتاج الصناعى بحيث تتماشى مع النظريات الشيوعية فبأت هى الأخرى بالفشل . فلو أنك نظرت إلى روسيا فى ١٩٢٠ شهدت فيها منظرا عيبيا لم تسبق مشاهدته هو منظر الحضارة المصرية وهى فى حالة من الانهيار التام .

فإن الصدا كان يأكل السكك الحديدية ويحيلها إلى خردة غير صالحة للاستعمال ، كما أن المدن ظلت تتحول إلى خرائب ، وارتفعت نسبة الوفيات فى كل مكان ارتفاعا شديدا . ومع ذلك كله ظلت البلاد تقاوم أعداءها الذين كانوا يعرقون أبوابها من كل جانب . وحل بالبلاد بين الفلاحين الزراعيين فى ١٩٢١ قحط ومجاعة شديدة فى المناطق الجنوبية الشرقية التى خربتها الحرب . ومات ملايين الناس جوعا .

إزاء هذه الظروف المزنة عزم البلشويين على التقليل من سرعة عملية البناء والتنمية . وتبنى القوم سياسة اقتصادية جديدة ، وأباحوا قدراً كبيراً من حرية الملكية الخاصة وأعادوا نظام النشاط الشخصى والجهد الخاص فترتب على ذلك أن عادت إلى حدى ما مياه النشاط الإنتاجى إلى مجاريها . وعندئذ أحس الناس كأنما روسيا تتحرر عن مذاهب الاشتراكية الإنشائية وتعيد إظهار أحوال تكاد تماثل تلك التى شملت الولايات المتحدة قبل ذلك بمئة عام . ونشأت بالبلاد طبقة من المزارعين الأثرياء هم الكوللاك ، وهم النظير الذى يقابل المزارع الأمريكى الصغير ، وتكاثر عدد صغار التجار للوسرين . على أن الحزب الشيوعى لم يكن ميالا إلى التخلي عن أهدافه على تلك الصورة ، وإلى السماح لروسيا بأن تتسع الخطوات التى اتخذتها أمريكا قبل ذلك بمئة سنة . لذا ما لبثت أن

ظهرت في ١٩٢٨ حملة قوية لإعادة البلاد إلى النهج الشيوعي في التطور والتنمية. فأشبه مشروع خمس سنوات ، رعى إلى إحداث توسع سريع عنوة في الصناعة تحت إشراف الدولة ، وخاصة في المنتجات الأساسية الثقيلة ، وفي نفس الوقت استبدلت الزراعة الحشدية (الجماعية) ذات النطاق الواسع بإنتاج المزارعين الفردي . وقد حرمت روسيا من قيادة لينين الحكيمة في ٢١ يناير ١٩٢٤ ، وكانت طريقة معالجة خليفته ستالين للأمور أحسن من طريقته . وضعت تلك الحطة موضع التنفيذ رغم ما اعترضها من صواب يهاة ؛ أهمها جهل العامة وأبيتهم وتأخرهم العام ، وقلة عدد الأكفاء من رؤساء العمال والصناع الفنيين ، وامتناع العالم الغربي عن بذل أية مساعدة بل واتخاذ جانب المحسومة الإيجابية .

ومع ذلك فإن القوم أعلنوا أن الجانب الصناعي من الحطة أصاب قدرًا جسيمًا من النجاح . نعم أضاعوا الشيء الكثير هدرًا ، وأعوزهم إيجاد التناسب الضروري بين الأمور ، غير أنهم أصابوا من الخير ما لا سييل إلى إنكاره ، ومع ذلك فإن أثر هذه التغيرات الجريئة السريعة لم يكن مرضيًا تمامًا في حالة الإنتاج الزراعي ، كأن شتاء أعوام ١٩٣٣-١٩٣٤ أزل بالروسيا للمرة الثانية نقصاً عظيماً في الأطعمة .

أما بقية أجزاء العالم التي كانت تواصل العمل بنظام أرباح رأس المال الفردي وتقيم نتائجه ، فقد كانت تنظر إلى تلك التجربة الروسية بعين اختلاط فيها حب الاستعلاء بعدم الثقة والاحترام . وذلك بينما كان النظام القديم نفسه يتعثر في سيره . فإنه كان يضيق قوة الشراء ويقسرها على جزء ضئيل متناقص من السكان ، كما أنه أخذ يفقد قوة اندفاعه التقدمية بسرعة كبيرة جداً . لقد أصبح قلقاً غير راض عن تصرفاته . وانتشرت لفظة « وضع للشروعات » في أرجاء العالم بسرعة البرق ، وبتزايد الضائقات الاقتصادية التي ستحدث عنها في الفصل التالي تكاثرت تلك للشروعات . حتى إذا وافق سنة ١٩٣٣ لم يجد أي ميساسي يحترم نفسه يستطيع أن يواجه العالم بغير خطة ومشروع وحسبك هذا على الأقل تقدير لروسيا من العالم كله .

وطلبت روسيا حتى ١٩٣٤ على الرغم من رداءة المحصول في ١٩٣٣ ، بحالها التناجح في جميع مراقبها ، فزاد الإنتاج مرة ثانية وتكاثر الأضرار واللاهية . ودخل البلاد أنواع من السياح الأوربيين والأمريكيين . وأخذوا يتناولون فيها الكافيار وشراب الفودكا .

وقامت في البلاد نهضة عظيمة في البحث العلمى ، وخاصة في المسائل التناسلية والاستكشافات القطبية . ونفذت أعمال عامة عظيمة - منها سد الدنيير وموتروا وسكة حديد التركستان سيبيريا ، وانجزت البلاد قدراً جسيماً من البانى الجديدة وعكفت على إعادة تجديد مراقمها وعتادها . غير أنها ظلت تعاني الكبت التام لكل تقدم بما اضطر أى نوع من المعارضة إلى الاستتار . ولا يقرب عن البال أن كل معارضة مكبوتة لا بد أن تتحول في النهاية إلى معارضة إجرامية . وكانت الفرقة والانقسام تنخر في كيان النظام الجديد . إذ قد تلت وفاة لينين قبل الأوان مناصرة شديدة على السلطان بين تروتسكى الذى يرجع إلى قيادته العسكرية الناجية الفضل الأكبر في نجاح المطامع عن الجمهورية ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، وستالين السكرتير السابق للحزب الشيوعى . ولا تزال التفاصيل المضبوطة والمقعدة لذلك النضال خافية علينا ، ولكن أحداً من الرجلين لم يوهب قوة لينين العسكرية ولا رحابة تفوذه الشخصى ، كان تروتسكى إنساناً موهوباً ولكنه كان مغروراً ؛ وأوتى ستالين صفة الصناد الرهيب ؛ وما لبث تروتسكى أن نفي خارج البلاد في يونيه ١٩٢٨ بعد أن طرد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، فزّل تركيا أولاً ثم فرنسا ثم الترويج ، واستقر به المطاف أخيراً بالمكسيك ، وهو يعمل في كل مكان حل به لواء المعارضة الجدلية المريرة المزايمة العنف ضد زملائه السابقين ، ويمزق وحدة أنصار اليسار في العالم كله إلى حزينين متنازعين .

أما في روسيا نفسها فالظاهر أن كفاحاً خفياً أخذ ينشب بين المواطنين والمستخدمين المعارضين وبين حكم ستالين ودولته ، على أن قدراً من هذا التاريخ لا يزال يكتبه النموس الشديد . إذ لا مجال للشك أنه كانت هناك مقاومة ، كما لا شك أنه حدث التدمير بوقلة الولاء للحكومة ومن المحتمل أيضاً أن هذا الضرب من المعارضة الذى ليس من الضروري أن يكون منظماً ، كان يحدث حتى في أيام لينين نفسه ، ولكنه اتخذ بعد وفاته صورة منسقة تماماً أكثر . وراحت حكومة السوفييت تسلك في هذا الكفاح حيناً من الدهر مسلك القصد والاعتدال . فإن موظفين ممثلين منهم مهندسون بريطانيون متنوعون قدموا للمحاكمة بتهمة تمديد عملية طبع الروسيا بالطابع المصرى واليكانيكى مع سبق الإصرار ، ثم ظهرت في الأفق أثناء المحاكمات التالية عناصر المؤامرات والتدبيرات السياسية . على أن معظم التهمين كان لا يحكم عليهم إلا بالسجن أو بالنفى ، حتى قتل واحد من أعد الوزراء الذين وثق فيهم ستالين وأطمأن إليهم في أول ديسمبر

١٩٣٤ . فبعد تلك الحادثة اشتدت الأمور في روسيا هصلا وتجهما . وقد توفيت زوجة ستالين على حين بئنة في ربيع ١٩٣٤ في ظروف لا يزال يشاها إلى اليوم القموض - ولقد زعم بعضهم أنها انتحرت حزنا على ما يقاسية الفلاحون من المذاب في ظل مشروع الخمس سنوات الأول ، ولا شك أن تزايد عدواة خلطائه القديما له قد زاد رويدا رويدا من مدى عزله وتباعد عنه . والظاهر أنه لم يبق له صديق مخلص إلا الكاتب مكسيم جوركي الذي مات في ١٩٣٦ . وتماقت المحاكمات السياسية الواحدة تلو الأخرى، وأخذت بوادر الفسوة تتجلى في استخلاص أدلة الإدانة وبيناتها ، كما أصبحت عقوبة الإعدام هي القصاص العادي . فأعدم زعماء البلشفية السابقون واحدا بعد آخر ، حتى لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة ، وأعدم أطباء جوركي بتهمة أنهم تسببوا في وفاته ، ولم يزل ستالين يزداد في عتوه درجة بعد أخرى حتى أصبح مستبداً ولا يقبل صلحا ولا تراجعا ، ولكن على الرغم من أن هذا هو حال الكرملن أثناء كتابة هذه السطور (في ربيع ١٩٣٨) فالظاهر أن حياة روسيا المادية تسير في طريق الجذ التام مع تناقص الصعوبات بالتدرج وتضاؤل التذمر الشعبي إلى درجة لا تنكاد تذكر . وليس لهذا الموقف من سابق في التاريخ ، كما أنه يكاد يكون من المحال التنبؤ باحتمال إبلا روسيا بما بها وبطبيعة ذلك الإبلا إذا حدث .

الفصل السابع والستون

عصبة الأمم

بلغ من فظاعة الحرب العظمى في ذلك الوقت ومما جلبت من الكوارث والأحزان، أن زعمت أخيلة الناس أنه ليس معقولا ألا تؤذن تلك الحرب بنهاية عصر، وبداية مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني تكون أسعد حالا، وذلك من وجهة نظر الظافرين فيها على الأقل. ومن المعلوم أن عقولنا نجح دائما إلى الاعتقاد بالتعويض - فإننا ندرك على مضض مفرط إغفال القدر لما تتصوره في أنفسنا من مزايا. ولم تنتشع هذه الأوهام والادعاءات التي أعقبت الحرب عن أذهاننا إلا ليطة شديد. ولكن هانحن قد شرعنا نتحقق أن ذلك الصراع على بشاعته وبشدة ضخامته لم يضع حداً لشيء، ولم يبدأ شيئاً، ولا سوى شيئاً. نعم إنه قضى على ملايين من الأنفس؛ وبددة ي العالم وأشاع فيه الفقر والفساد، خطم روسيا تحطياً مطلقاً. ولم يكن على كل جال إلا تذكرة حادة غميمة بأننا نعيش عيش الحاقة والارتباك دون خطة مرسومة ولا بعد نظر مرشد. في عالم خطر لا يعمل لنا عطفًا ولا ودًا. فإن الأنايات وشهوات الأطماع القومية والاستعمارية السيئة التنظيم التي جرفت البشرية إلى خضمرات تلك الفاجعة - خرجت منها سليمة إلى حد جعل في الإمكان تماماً حدوث كارثة أخرى مماثلة بمجرد انتعاش العالم قليلاً مما أصابه من إنهاك وإجهاد أثناء الحرب. أجل أزاحت الحرب عن كاهل أوروبا تهديد القيصرية الألمانية، كما حطمت القيصرية الروسية. وأزالت عدداً لا بأس به من الملكيات. ولكن أوروبا لا تزال تفرغ فيها كثرة من الرايات، ولا تزال الحدود تثير النفيظ في النفوس، كما لا تزال جيوش، بجرارة تكس في مخازنها مقادير جديدة من الصاد العربي.

ولم يكن مؤتمر الصلح الذي انعقد بفرساي إلا اجتماعاً سيئ التكيف وظروف الدنيا، لم يوفق إلا إلى دفع منازعات الحرب وهزائمها إلى نتائجها المنطقية. فلم يجمع للألمان ولا النموسيين أو الأتراك أو البلقان بأي نصيب في مداولاته؛ ولم يكونوا يملكون

إلا قبول القرارات التي تملى عليهم . كان مؤتمرا يضم الظافرين الفائحين . وكان اختيار موضع انعقاد المؤتمر غير موفق بوجه خاص ، وذلك من وجهة نظر الصلحة البشرية ، فإن فرساي هي المدينة نفسها التي أعلن فيها قيام الإمبراطورية الألمانية الجديدة في ١٨٧١ بكل مظاهر الانتصار السوقي الوضع . وتسلمت على الأذهان فكرة قاهرة تدعو إلى إقامة مشهد « ميلودرامى » غنيف يعكس للسرحة الأولى في قاعة الرايا نفسها .

ومهما تكن السكارم التي ظهرت إبان الراحل الباكورة للحرب العظمى فإنها ولت من زمن بعيد . وكان سكان الدول المتصارعة عديدي التيقظ لما عانوا من خسائر وآلام ، مضيق كل الإغضاء عن أن العدو للتهزم قد شرب من نفس الكأس . كانت الحرب نتيجة طبيعية لا بد منها لتنافس القوميات بأوربا وغية كل تنظيم أمهادى لتلك القوى المتنافسة ؛ والحرب هي النهاية القصوى للنطقية والضرورية للقوميات المستقلة ذات السيادة التي تمشي في حيز ضيق جدا وتملك عتادا عسكريا مفرط القوة ؛ ولو لم تجيء الحرب العظمى على الصورة التي جاءت بها ، لظهرت في صورة أخرى مماثلة — كما لاشك أنها ستعود على نطاق أقطع وأشد تدميرا في مدى عشرين أو ثلاثين سنة إن لم يسبقها اتحاد سياسى يمنع حدوثها . ولاشك أن الدول التي تنظم شئونها ابتغاء الحرب مضطرة بالتحقيق إلى الحرب اضطرار كل دجاجة إلى وضع البيض ، ولكن عواطف هذه البلاد المهزونة التي أنهكتها الحرب أغفلت تلك الحقيقة ، لذا عوملت جميع شعوب الأقطار للتهزمة كأنها هي مسئولة خلقيا وماديا عن كل ماحدث من أضرار ، وهي نفس الطريقة التي كانوا سيعاملون بها دون شك الشعوب للتصارعة لو كانت نتيجة الحرب في صالح أولئك للتهزمين . وزعم الفرنسيون والإنجليز أن الألمان ملومون على ماحدث ، وزعم الألمان أن اللوم هو الروس والفرنسيون والإنجليز ، ولكن أقلية ذكية أدركت أن اللوم في الموضوع هو الوضع السياسى لأوربا وكان المقصود من معاهدة فرساي أن تكون مثالية وانتقامية ؛ فحتمت على الملوكيين عقوبات فادحة ؛ إذ حاولت أن تمنح التمتعيزات للتهزمين وشعوبهم الجريحة المثألة بفرض ديون باهظة على أمم قد أفلست من قبل ، كما أن مجاولتها إعادة تكوين العلاقات الدولية بتأسيس عصبة للأمم تسمى لمنع الحرب — كانت محاولة تبلى صراحة أنها غير محصاة وغير كافية .

ومن المشكوك فيه أن أوربا — لو تركت وشأنها — كانت تبذل أى محاولة لتنظيم العلاقات الدولية تنظما يكفل سلاما دائما ، فإن فكرة عصبة الأمم قد أدخلها إلى متروك

السياسة العملية الرئيس ولين ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت دعائها الرئيسية هي أمريكا ، ذلك أن الولايات المتحدة - تلك الدولة العصرية الجديدة - لم تنتج حتى الآن أية فكرة مميزة تتعلق بالعلاقات الدولية عدا مبدأ مونرو ، الذي وقى العالم الجديد فائقة التدخل الأوربي ، وهاهي الآن تستدعي نجاة للمساهمة العسكرية في مشكلة ذلك الزمان الهائلة ، ولكن قريحتها لم تسعها بشيء ، وكان الشعب الأمريكي ينجح بفطرته نحو السلام العالمي الدائم ، وذلك بنض النظر عما يرتبط بذلك الاتجاه من عدم الثقة وسوء الظن التقليدي في سياسة العالم القديم وها أله الأمريكيون من عادة التباعد عن اشتباكات العالم القديم ومشاكله ، فكان الأمريكيين لم يكادوا عند ذلك يبدأون في تكوين فكرة عن إيجاد حل أمريكي لشا كل العالم عندما جرتهم حملة التواصت الألمانية إلى معترك الحرب في صف الحلفاء أهداء الألمان ، ولم يكن مشروع الرئيس ولين لتكوين عصبة الأمم إلا محاولة مبتسرة متعجلة لإيجاد مشروع عالمي أمريكي الزعة تماما ، فأنشأ لها تصميما فجييا وناقضا وخطرا ، ولكنه أخذ في أوروبا على أنه وجهة نظر أمريكية ناجحة ، ذلك أن البشرية عموما كانت في ١٩١٨ - ١٩١٩ قد اشتد بها الضيق بالحرب والتلف بأى ثمن أو تضحية على إقامة كل مامن شأنه منع حدوثها ثانية ، ولكن حكومة واحدة في العالم القديم لم تشأ أن تنزل قيد أعلة مما تستمتع به من سيادة واستقلال في حبل الوصول إلى تلك الغاية ، والظاهر أن التصريحات العلنية التي فاه بها الرئيس ولين حول مشروع عصبة الأمم العالية ، قد وقعت موقع القبول من قلوب شعوب الأرض كلها وإن تخطت الحكومات ؛ وزعم الناس أن تلك التصريحات تعبر عن مقاصد أمريكا العفة ، وكانت استجابتهم لها هائلة ، ومن سوء الحظ أن الرئيس ولين كان مضطرا أن يتعامل مع الحكومات لامع الشعوب ؛ وكان رجلا تصدر عنه ومضات هائلة من الرؤى والأحلام فإذا هو وضع موضع التجربة تبين أنه أثنى حدود ، فلا غرابة إذن أن تقبده موجة الحاسة العظيمة التي أثارها وتذهب سدى.

يقول الدكتور ديون في كتابه : « مؤتمر السلام » : « كانت أوروبا عندما مس الرئيس شواطئها كقطعة من صلصال لا يوزها إلا يد الصانع الساهر ، إذا لم يحدث قبل ذلك قط أن اعتد غرق الناس إلى أتباع زعيم كوسى يأخذهم إلى أرض للعباد التي طال انتظارها والتي تمنع الحروب وتجهل الصغار البحري ، وقد تصوروا أنه ذلك الزعيم وانحنى الناس أمامه في قرنا يدفع الرهبة والحب ، وأخبرني زعماء العمال بباريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن لإخوانهم مستعدون لخوض لجح اللاه والسنة

النيران لمحوته على تحقيق خططه النبيلة . وكان اسمه عند الطبقات العامة بإيطاليا يوقا
يدوى صوته في أفلاك السواوات قهراً جنبات الأرض له وعمود جديدة مطهرة ، واعتبره
الإنسان هو وعذبه وسيلة منجاتهم وملأهم الأكر ، وقال المر مهلن الشعاع الباسل :
لو أن الرئيس ولسن خاطب الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً ، لتقبلوه بصدر رحب
ودون أدنى تضر ولبدأوا في تنفيذه على الفور ، فأما بلاد النمسا الألمانية فقد بلغت
شهرة فيها شهرة المسيح الخالص . وكان مجرد ذكر اسمه بلسا للمسلمين وتزيافا
للمسكوبين

تلك أمثالها هي الآمال الجارفة التي أثارها في النفوس الرئيس ولسن ، ولكن
القصة المحزنة حقا هي أنه حبيب تلك الآمال تماما وأن العصة جاءت ضئيلة غير ذات
غناء ، فكانت هضما قد زاد من وقع فاجتتا الإنسانية للشركة ، إذ أنه بلغ الناية في عظم
أحلامه والنهاية في الكفاية في أعماله ، وقد عمدت أمريكا على تصرفات رئيسها ، وأبت
أن تقبل العصة التي تقبلتها منه أوربا . . . إذ أن الشعب أخذ يتحقق يبط أنه دفع بسرعة
في تيار تجربة لم ينهأ لها أبدا وتحققت أوربا من جهتها بأن أمريكا لم تعد تملك عيشا تستطيع
تقديمه للعالم القديم وهو يرزح في محنته . ولدت تلك العصة قبل الأوان ، وتشوهت
منذ ميلادها فأصبحت هي ودستورها التفصيلي غير العملي وتحدد سلطاتها الجلى الواضح ، —
عقبة كأداء في طريق أية تسوية فعالة وأي تنظيم جديد مثمر للعلاقات الدولية ، ألقت
تلك العصة على السائل ظلا من الإبهام التي ما كان يخشاها لو لم تنشأ تلك العصة ، ومع
هذا فإن ذلك الالهب الحماسي الذي شمل العالم في البداية ترحيباً بالمشروع ، ذلك الاستعداد
الجيل الذي أبداه الناس في كل صقع من أصقاع العالم — وأقول الناس ولا أقول
الحكومات — لإقامة ضوابط عالمية تتحكم في الحرب ، إنما هو شيء جديد ينبغي
تستبكه في أي ستر تاريخي مع القدر اللازم من التأكيد والتشديد ، ذلك أنه يقوم في
هذه الأيام وتنمو بإطراد من وراء ظهور الحكومات قصيرة النظر التي تفرق كلمة البشرية
وتسيء تدبير شئونها ، قوة حقيقة تطالب بالوحدة المالية والنظام العالمي .

غير أن تلك القوة لا تزال تتشمس التطبيق الفعال ، فإن صلح فرساي كان صلحا سياسيا
بعثا ، كما أن العصة نفسها كانت منظمة سياسية . كانت محاولة لترقيع أحوال البشرية
في الوقت الذي قبلت فيه على علاتها الحكومات القائمة والأفكار السائدة للتحلق بالدولة
بوصفها شئونا لا مفر منها : وهنا يكن الخطأ الذي أخذ يتضح بالتدرج لعين البشرية

فإن الحكومات والدول ليست إلا أموراً مؤقتة ، كما أن في الإمكان تعديلها ، بل لا بد من تعديلها بحيث تتناسب وتغيرت الحاجات الإنسانية واتساع مداها ، على أن القوى الاقتصادية أساسية وجوهرية أكثر ، وهي تعتمد على الفسكات الخاصة بالملكية والسلوك ، كما أن هذه الأفكار بدورها تتولد عن التربية ، ولا شك أن تكوين الأحوال البشرية - إن هو إلا اكتشاف مجموعات من الأفكار التي رسخت في عقول الناس وتطبيقها ، كما أن العلاج الناجع للتأعب الاجتماعية والاقتصادية إنما يقوم في إصلاح كل تأويل خاطيء وكل فهم مغلوط ، وقد دخل العالم من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ في عصر مؤتمرات تبذل جهوداً بطيئة صعبة لإعادة تكييف شئونه ، ولو تأملت مادار بها من المناقشات لوجدت فيها تقدمًا مطردًا ، فلنأخذ كانت تتشعق في البداية بروح قومية وسياسية بحث ، وإذا هي تحولت أخيراً إلى إدراك أوسع وأجراً للوحدة التي تجتمع تحتها رفاة البشرية للمالية والاقتصادية ، ولا يخفى مع ذلك كله ، أن الجماهير ورجال السياسة والصحافة يتعلمون يبطء وتكره ، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية أصيبت في غضون ذلك بارتباك كبير ، كما تفشت البطالة والفقر بصورة لم يشهدها العالم منذ أكثر من قرن ، إذ أن حيوية الجنس البشري أصيبت بالعطب ، كما أن الأمن العام قد تدهور ، فزاد عدد الجرائم وتجلت في الحياة السياسية حالة غير مألوقة من عدم الاستقرار . ولن نطيل هنا الخوض في تفاصيل تلك المحن ، فأنها قد تكون مؤذنة بانتهاء الحضارة وقد لا تكون وهي لا ترقى في الزمن الحاضر إلى التهديد بشيء يشبه الانهيار ، كما أنه لا يزال من المحال علينا أن نقدر ما إذا كان الجنس البشري قادراً على إنتاج القوة الخلقية ، أي الزعامة والإخلاص اللازمين لمواصلة ذلك التقدم المطرد الذي جعل القرن التاسع عشر صفحة حافلة بالفخر والسرة في تاريخ البشر .

الفصل الثامن والعشرون

إخفاق عصبة الأمم

كانت عصبة الأمم حتى منذ بدايتها الأولى عصبة محاربين متصمرين ، كما أن غرضها الصريح كان المحافظة على الحدود التي أقامتها معاهدة فرساي . وهي الحدود التي تمسكت في رسمها روح الانتقام كما ذكرنا آنفاً مع تجاهل المواقف الاقتصادية التي تلجم عنها ، وفرضت على المنتهزمين كما أسلفنا مبالغ فادحة يدفعونها على سبيل التوضيح ، كما أن شهوة التملك التقليدية لدى وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية قد اتسعت بنشأة شفاف من العبارات الرشيقة . حقاً إنه لم تظم على الطريقة القديمة المستعمرات الألمانية وراء البحار ولا أجزاء كثيرة من الإمبراطورية التركية المحطمة ، ولكنها وضعت تحت « انتداب » للتصمرين . وهي لفظة مباركة استجبتا قريحتهم الواقعة فإن عصبة الأمم أخذت تلك البلاد ثم سلمتها لأصحاب الشأن ، وحق الحلفاء أنفسهم لم يبدوا أى سماحة نفس في اقتسام الغنائم فيما بينهم . فالت فرنسا وبريطانيا نصيب الأسد ، وأصبحت مطامع إيطاليا واليونان واليابان على أسوأ صورة . ونكص الأحرار والاشتراكيون ببريطانيا العظمى والدول الديمقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة ، وفكر ، فأصبحت السياسة التقدمية في العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاماً تقريباً .

وكان الأطفال يعلمون في بريطانيا العظمى مثلاً ، أن العصبة تمثل العدالة الدولية وتضمن السلام العالمي ضماناً أكيداً . وصدر عدد لا يحصى من الكتب لتثبيت هذه الفكرة في الأذهان ، ولكن أطفال الأقطار التي لم تحصل على نصيب مرضي من الغنائم والعلقيات التي وزعت بفرساي كانوا يتلقون غذاء عقلياً أقل تهادنة لأنفس . ولم تكده تقضى عشر سنوات على أهل المنطقة الواقعة خارج حدود أولئك الذين نستطيع اليوم أن نسميهم باسم التصمرين الحق ، حتى أخذ ملايين وملايين من الألمان والمجريين والإيطاليين واليابانيين بين أطفال وعبان يلتقون دروساً توحى بضرورة إجراء تعديل عنيف في تسوية جنيف . لقد تخب هؤلاء الأطفال في عالم من الاضطراب الاقتصادي ،

الذى سببها أسبابه بحثاً أوفى في الفصل التالي . ذلك أن فيضا مندوقا من الاستياء . يسير بكل ما يتصف به الشباب من حيوية وخفة ولين عريكة ، كان يتجمع سنة بعد أخرى ، ولم يكن يفوت أى إنسان إلا موظف وزارة الخارجية المحنك أن يتحقق أنه لا مفر من حدوث انتصار دولي جديد . ولكن وزارات الخارجية المختلفة استمسكت ببناد بالمرابا الظاهرية التي اعتصرتها من الحرب العظمى

عقد أول اجتماع لمجلس العصبة يبارس في ١٥ يناير ١٩٢٠ ، ثم انعقد بعد ذلك بلندن وبروكسل ، حتى أقيم مقرها أخيراً بمدينة جنيف قبل انتهاء تلك السنة ، وهناك عقدت جميع جلساتها منذ ذلك التاريخ .

وجاءت أول إشارة تؤذن بأن تسوية ولسن العظيمة ببراء مصية قيل أن تستقر العصبة في مقرها الرسمي ، فإن قتالا اتصف بالخطورة في كثير من الأحيان دارت رحاه أثناء السنة التالية ييلاد المجر وبولندة ولتوانيا وسيريا وفيومى وتركيا وآسيا الصغرى وسوريا ومراكش والبرازيل والصين ، كما شبت الحرب الأهلية بإرلندة ، ولكن في الإنسان اعتبار قدر كبير من هذه الأحداث عمليات تصفية بعد الحرب العظمى — إن جاز مثل هذا القول .

قام اليونانيون بهجوم منظم على الأتراك انتهى بانهيار عسكري كبير على مقربة من من أقره في سبتمبر ١٩٢٢ ، فطرد اليونان من آسيا الصغرى وثرافيا على يد مصطفى كمال ، ونهبت مدينة أزمير وأحرقت وقتل فيها آلاف من الناس ، وكان الحلفاء قد وعدوا روسيا القيصرية أثناء الحرب العظمى بمنحها مدينة القسطنطينية ، ولكن روسيا السوفيتية لم تسكن لها رغبة خاصة في التورط في ذلك الأمر . ذلك أن تلك العاصمة الإمبراطورية القديمة قد احتلها الحلفاء برئاسة الجنرال ملن الإنجليزى في ١٩٢١ ، ولكنها ردت بمقتضى معاهدة لوزان ١٩٢٣ إلى الترك عقب هزيمة اليونان بعد مفاوضات طويلة ، ودخلت تركيا بزعامه كمال في دور سريح من أدوار الانطباع بالحضارة الأوربية ، فأزجج عن البلاد مظاهر النظام القديم ، وحى السلطان والطربوش وفصل النساء عن الرجال ، وأصبحت تركيا جمهورية ، ومع أن القسطنطينية ردت إلى أصحابها السابقين ، فإن كمال احتفظ بعاصمته أقره .

كانت السنوات التي أعقبت توقيع معاهدة فرساي سنوات محنة قاسية لإسبانيا ،

فإن تلك المعاهدة حكمت على النذحرين بالاعتراف على أنفسهم بمسئولية الحرب وبدفع تعويضات فادحة للظافرين . ومن الجلى أن القصور من ذلك هو استبعاد السكان اقتصاديا مدة جيل أو أكثر . فكان عليهم أن يشقوا ويكدحوا ويقدموا الثمرات ليستهلكها للتصرون . على أن ذلك كان ينطوى على عقدة خطيرة . إذ من الواضح أنه لاسبيل إلى تسديد هذه التزامات الباهظة إلا بالسلع المصدرة ، فلو صدر عن التهمز فيض كبير من السلع المصدرة ، لأدى ذلك إلى تعطيل الحياة الاقتصادية لدى الحلفاء للظافرين . لذلك اضطروا أن يحيطوا أنفسهم بحواجز من التعريفات الجمركية لوقاية عملهم ، بحيث أنه لو فرض أن الألمان جنحوا حقا إلى عيشة الكدح الشديد للتواصل لسداد الالتزامات المفروضة عليهم ، لما استطاعوا التخلب على تلك الحواجز ، ولغالوا بعد ذلك مثقلين اقتصاديا بما يتكدس لديهم من منتجاتهم غير المستهلكة .

ولا تروى لك الحلقة الثالثة من القرن العشرين إلا قصة الجهود النعسة الحائقة التي بذلتها ألمانيا والنمسا النذحرة للحصول على درجة مقبولة من العيش في ظل تلك الظروف القاسية ، وإلا قصة امتناع فرنسا وبريطانيا تماما عن النظر فيما يلحقون من صعوبات لاسبيل لهم إلى التخلب عليها وعن إعانتهم على معاودة ما كان لهم من احترام الذات ومن مشاركة معقولة وشريفة في الشؤون الأوربية . وفي غضون ذلك كان ذلك الجيل من الألمان يكبر سنا ويتجمع مرجلا ضخما من الطاقة الحائقة النافرة .

انتهى حكم أسرة هوهنزولرن بفرار القيصر إلى هولندا في نوفمبر ١٩١٨ ، وأعقبته فراره سلسلة محاولات لإنشاء جمهورية ألمانية . ويضيق مجال هذا الفصل عن تفصيل الميزات الاقتصادية النعيفة التي أملت بالدولة الألمانية والصوب التي لم يكن مفر من ترددها فيها ، والعزم والتصميم العنيد القاسى الذى أبداه السيو بوانكاريه على إزلال عقوبات المعاهدة بهم إلى أقصى حد ، إذ أنه كان يرى أن لا بد لألمانيا من أن تداس بالأرجل ؛ ولعل ذلك أقصى مايبلغه قصر النظر السياسى . وسرعانما احتلت الأراضى الألمانية احتلالا تأديبيا ، ورابط بوادى الروهر جنود سود من السنغال — وهى إهانة لم يشترها الألمان بسهولة ، وبذلت أيضا محاولة لبلغ منطقة الرين عن ألمانيا وإنشاء جمهورية بها تحت رعاية الفرنسيين ، كما حدثت بالبلاد عدة ثورات شيوعية . وظهرت إلى عالم الوجود ديكاتورية ملكية بزعامة الجنرال لودندورف دامت أياما قليلة بمدينة ميونيخ ، وكان الدكتور شرزمان (ومعه الرئيس إيرت) يكافح بكل جهده فى برلين فى ظل (٢٥ — تاريخ العالم)

هذه الولايات جميعا في ميل المحافظة على ضم شتات ألمانيا في ربح محرو .

وبينا ألمانيا غارقة في خضم هذا الارتباك اللغني أخذ صوت جديد يرتفع ويملأ الأسماع ، كان صوتا غليظا يمز الغضب نبراته ، ولكنه كان يقول ما كان يحس به ملايين من الألمان الذين جن جنونهم . خاصة منهم جماهير شباب ما بعد الحرب المزايدي المدد . « لقد خدع الأعداء ألمانيا وخانوها » — تلك هي النغمة التي أخذ يضرب عليها ذلك الصوت ؛ « ولا بد من جهد فائق لإرجاعها إلى مكانة العزة التي كانت تحتلها قبل ١٩١٤ — مهما تكن التضحية التي تبذل في سبيل ذلك » ، ثم يقول الصوت « إن ألمانيا لم تهزم قط ؛ لأن ذلك ضرب من المحال ، كما أنها غدر بها من الداخل . إذ خاتها بوجه خاص رعاياها اليهود وأرباب الفكر فيها ورجال الشيوعية الدولية . فلا بد لها من العودة إلى نقاتها العنصري ، إلى حياة المحارب العنيفة التي كانت للتوتوني الآري » ، ذلك هو صوت مصور نمسوي اسمه أدولف هتار ، لم تكد تستمع إليه الأذان حتى كان له صدى لاسييل إلى رده في قلوب طبقة الشباب الهائلة للترابذة العدد الذين صاروا آنذاك يسيثون دون مطمح معقول لهم في الحياة ، وتكونت على تلك الفكرة منظمة أخذت تنمو ويشد عودها . وقام عليها حزب سياسي عسكري هو الحزب القومي الاشتراكي (النازي) .

وكانت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى إصرارهم للزعج على العيش كشعب منفصل يختلف في كثير من الأوجه عن الروح القومي العام ، سببا في اختصاص الشعب لهم لا بالمعاملة الانتقامية فقط بل وبالتهب أيضا ، ولا يتسع المجال هنا لتتبع حظ حركة النازية هذه من النجاح وتقلبه بين العنف للتمرد والقوة والسلطان ، ولا كفاح العناصر الأكثر اعتدالا في الحياة السياسية الألمانية في سبيل إحتاف تيارها ، ولكن الذي حدث أن هتار أصبح في ١٩٣٢ مستشارا للإمبراطورية ، كما أنه وقف عندئذ على أبواب السلطة العليا في البلاد .

والظاهر أن الديلو ماسين ورجال السياسة كانوا طوال مدة ارتقائه مدارج القوة لا يقدرون قوته حق قدرها ، فلم يدرك أحد إلى أي حد أصبح ذلك الرجل ممثلا لمشاعر الغضب والكبرياء العميق التي تتزاحم في نفوس الألمان ، كما أن التفكير فيما يحتمل أن يحس به وأن يفعله ذلك الجيل الجديد من الألمان أبناء الحرب العظمى وما

بعدها ، كان فوق الطاقة العقلية لوزارات الخارجية ، ولا تزال السياسة الخارجية لية حقاء ، تدور بين الهيئات اللغوية التي يطلق عليها المؤرخون أسماء جرمانيا ولافرانس وبريطانيا وهلم جرا ، مع الوثائق والساومات السرية ، فهي لا تتناول الأجسام البشرية إلا حين تلجأ نهائيا إلى الحرب ، ولا تزال واجبا عليها أن تستكشف البيولوجيا البشرية وعلم نفس الجماهير .

وكانت تحدث في إيطاليا أيضا أحداث ظهرت فيها على الفور أوجه خلاف للحركة النازية ، (ذلك أنها لم تكن مثلاً تعادى اليهود .) وكلا تمت الحركتان زاد أثر إحداها للمحوظ في الأخرى . أجل إنها كانتا في البداية مستقلتين تماما ، وكان زعيم إيطاليا هو بنيتو موسوليني ، وكانت معلومات كل من الرجلين عن صاحبه ضئيلة جدا في مراحل حياتهما العملية الأولى ، ولكنهما ما لبثا حتى اكتشفا فيما بعد أوجه التماثل بينهما في شيء من الدهشة . والرجلان هما الثمرة الطبيعية لتطور الاجتياح للمصر - وأعني بذلك أنهما نظما طبقة الشباب للتمردة المهرومة من كل هدف التي تظهر الآن في كل قطر يتحطم اقتصاديا ، ومنعوها وسيلة للتعبير وإظهار الناشط .

بدأ موسوليني حياته اشتراكيا ثوريا ، إذ كان محررا لصحيفة اشتراكية هي الأفانتي *Avanti* ، واشتهر قبل الحرب بأنه زعيم جريء وقوى . فاختلف مع معظم زملائه اليساريين حول مسألة انضمام إيطاليا في تلك الحرب إلى صف الحلفاء ، واستقال من رئاسة تحرير صحيفة الأفانتي وأصدر صحيفة *Il Popolo del Italia* ليشرح فيها آرائه . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دون أن تحظى فيها إيطاليا بأي امتياز عسكري عظيم ، حدثت بالبلاد الشيء الكثير من الاضطراب الاجتياحي وضع حركات ثورية متنازرة . وكانت الحكومة ضعيفة مترددة حتى لاح لكثير من المراقبين أن في الإمكان حدوث انقلاب شيوعي . وأحس موسوليني بنفس القلق القومي الذي أحسه هتلر ، وشرع ينظم حركة قومية من القمصان السود هي حركة الفاشيستية ، ويدعو بقوة إلى تكوين حكومة حازمة لا تقوم فقط على جماهير الشعب بل على رجال المال والأعمال أيضا ، فلقى من كبار المايلين ورجال الصناعة تأييدا جسيما ، وذلك لأنهم كانت لديهم فيها يحمّل فكرة مبالغ فيها عن قدرة الثوريين المجر على تزيع أملاكهم وأموالهم ، كما ساورهم اقتناع أحق بأن في الإمكان التحكم في ذلك للعناصر متى أدى الفرض منه كإتباع للاضرابات ، ومن سوء حظهم أنهم بالغوا في الخوف من المجر وفي الاستهانة بالسود ،

على أن موسوليني لم يظهر في أية مرحلة من مراحل حياته أى ميل إلى اعتبار نفسه خادماً لرؤوس الأموال الخاصة . ذلك أن نظريته في الدولة للتكاملة الأفراد للوحدة الجهود كانت تنطوى ضمناً على تحكم صارم جداً في تصرفات الممارسين الاقتصاديين الأفراد .

تمت حركته قبل حركة هتلر بضع سنوات ، ولعل مرد ذلك أن شباب الطبقة الوسطى بالمدن الإيطالية لم يبادوا في الحرب بنفس المدى الذى بلغه مقتل نظرائهم عند الألمان ، وهبت على البلاد حملة إرهابية قوامها الغارات ، والجلد والاعتقال قام بها أتباعه ذوو القمصان السود وكبحوا بها تماماً إرهاب المتوسعين الشيوعيين المؤمنين بمبدأ حرب الطبقات ، وحدث الزحف على روما في أكتوبر ١٩٢٢ ، وهو استيلاء مطلق على زمام السلطان بيد المنظمة الفاشية ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ارتفاع شأن موسوليني سريعاً لا يسوق سببه عائق . لقد سبق ضريبه هتلر بحوالى عشر سنوات في الوصول إلى السلطة الديكتاتورية .

وكانت الظروف والأسباب الثلاثة في كل أرجاء أوروبا وبلاد الصين واليابان تبعث على قيام نوع واحد متماثل من الكفاح وتنتج نتائج متماثلة تقريباً ، وكان اليساريون الشديدو التبسك يلا هوادة بالمبادئ النظرية يحطمون النظام الاجتماعى والسياسى القديم في كل مكان ، ويتشاجرون فيما بينهم ، كما كانوا يهتثون السبيل في كل مكان لقيام الزعماء الميكريين والديكتاتوريين « أى الرجال أولى القوة » ، الذين ينشئون حكومات أساسها الحكم الشخصى الفردى الشديد ويقمعون بصورة أشد وأعنف حرية الكلام وحرية التصرف السياسى ولا يبيحونها إلا لأنفسهم . فأما المبادئ التى كانوا يعتقدون فأمر لم يكن له وزن ؛ فربما كانت هى الشيوعية أو الدولة المتكافئة ؛ وما كانت تلك المبادئ إلا حائلهم التى هم عليها وأقوالهم التى يفعلون . إذما الأهمية التى تعود فى النهاية من بلوغ منصب الديكتاتورية بالطرق غير المشروعة سواء أكانت يسارية أم عينية . لا شك أن النتيجة العملية واحدة فى الحالىين . وهجر الناس بكل مكان تحكمه ديكتاتورية ، كل بحث على خلاق وكل مثل على دولة وعادوا إلى نزعة الدولة القومية العسكرية . وكانت الديكتاتورية الروسية أخذ الديكتاتوريات ميلاً إلى السلم ، ذلك أنها كانت قائمة بمجهودها وحاولت أن تتعاون مع عصبة الأمم ذات الكيان الجزئى ، على أن ألمانيا وإيطاليا واليابان راحت تتعامل تلك المنظمة السيئة التصوين بقدر متزايد من الاحتقان .

كانت اليابان كاملة السلاح والعدة ، وظلت كمظم الحلفاء المتصرين محتفظة بتسلحها بعد الحرب ؛ وكانت تمد العدة لصرف أنظار خباياها التلقى بهجوم تشنه على الصين الهائلة المضممة بالفوضى ، على حين راحت ألمانيا وإيطاليا يتذلان جهوداً جبارة في سبيل تحسين أجسام جيلها الناشئ وتعبئته على النظام ، وتعملان على التهوض بقواتهما الجوية نهضة قوية عاتية ، وكان في تسليح ألمانيا مناقضة لمعاهدة فرساي ، ولكن إيطاليا كانت حرة لا يقيدنها ذلك القيد . وهكذا راحت مدارس تلك الدول الثلاث وصحافتها تثبت باستمرار في الشيية روح العدوان الحربي .

وقد حدث في بعض نواحي أوروبا أن الترخوم التي رسمتها العصبة لم تنفذ أبداً ، فإن مدينة فلانسا مثلاً التي منحت لدولة لتوانيا ، قد تقاطل عليها الروس والبولنديون واللتوانيون ، ثم ظلت في يد البولنديين ، وعلى سبيل التعريض استولت لتوانيا على المدينة في ١٩٢٣ واستولت معها على ميناء عمل من الحماية الفرنسية التي وضعتها بها العصبة ثم تركت المدينة لتوانيا في النهاية .

وتبدى الميل إلى إغفال شأن قرارات العصبة منذ وقت مبكر أيضاً عندما اغتالت عصابة يونانية جنرالاً إيطالياً يعمل في قومنسيون الحدود الألبانية اليونانية ، وعند ذلك ضربت إيطاليا جزيرة كورفو بالدافع دون انتظار لتفويض من العصبة وطالبت اليونان بالتعويض . ثم سوى الموقف بإعتماد العصبة لما عملته إيطاليا .

وهناك مصدر متاعب آخر هو مدينة فيومي ، وهي مدينة منحت لكرواتيا ؛ فأغارت عليها قوة من الفاضرين العسكريين بقيادة الشاعر المزهو بنفسه دانويزيو في ١٩١٩ ، وبعد أن تبادلتها الأيدي عدة مرات صارت ملكاً لإيطاليا إلى الأبد منذ ١٩٢٤ ، ويشي أن همد لم تكن إلا أمورا صغيرة نسبياً ، ولكنها كانت تحذيراً لا بأس به ينذر بقلة التقدير ، الذي كانت تحظى به في أعين الناس قوانين العصبة .

.. وكان الشرق الأقصى هو الميدان الذي تجلى فيه بطلان التسوية العالمية للعصبة لأول مرة على نطاق واسع ، ولم يظهر أي واحد من رجال السياسة والتدبير التربيين الموقرين الذين خلقوا العصبة وأداروا مقاليد شئونها آنذاك . — أنه كان يفهم فهماً جيداً المشاكل الخاصة العجيبة لمجتمع زبعا بلغ عدده أربعمائة مليون إنسان وقد انهار هيكله السياسي

المقديم والاجتماعى والاقتصادى فى مدى جيل واحد ، ذلك أن الصين لم تكن فى نظرم إلا واحدة من تلك الكائنات الأسطورية ذات الوجود القانونى [أعنى دولة] كفرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا ، التى كانت تستمتع بوحدة تجمع شملها ، والتى تستطيع أن تقاضى الدول ويقاضونها ، وأن تقوم بالتعهدات وتحمل الديون وتتجشم الجزاءات ، وبينما الصين غارقة فى لجة هذه الفوضى الشاملة ، أخذ نفر من للتعليم الصينيين يمثّلون للصين الجديدة صورة معنوية جديدة ، وأنشأوا منظمة هى الكومنتانج التى ظلت بضع سنوات بعد ١٩١٢ تكافح فى سبيل خلق « وطنية » ذات طابع عصرى بالصين ، ولم يكن مفر من أن تحدث فى ذلك القطر المائل خلافاً عظيمة فى الرأى وفى الشاعر المحلية الإقليمية ، وأن تتولد بها الفرص العظيمة للصوعية وقطع الطرق ، وبما زاد للوقف تفاقماً أنه على الرغم من كل مآدع النسيبة من احترام القوميات ، سلمت لليابان مقاطعة شانتونج التى استولت عليها ألمانيا قبل الحرب ، ثم تخلت عنها اليابان ثم عادت لاحتلتها . ويضيق هذا الكتاب للوجز عن متابعة ظهور وتوارى الزعماء المختلفين ، أمثال صن يات من ذى النزعة المصرية ، والجنرال للسبحى فنج ، وللغولى تشانج تسولن الذى كان يهدف إلى العرش الإمبراطورى ، كما يفتيق عن ذكر تنقلات قصة الحكم بين ييكين ونانكين وكاتون ، وأدوار كراهية الأجانب والانتقال عليهم ، وتوالى تدخل روسيا السوفيتية واليابان فى شئون الصين الرتبسة . ولكن مالمث الناس أن تبينوا جلياً أن اليابان هى للعدى الأكبر ببلاد الصين ، وأنها أخذت على عاتقها أن تواصل طبقاً للتقاليد الاستعمارية قبل الحرب العظمى للمضى قدما حتى تسود آسيا الشرقية سيادة شاملة . لذا فصلت منشوريا عن الصين فى ١٩٣٢ واعتبرتها دولة عجيبة تحت هيمنة اليابان .

وفى غضون ذلك أخذ التطور للطرده للطيران وإمكانات الحرب الجوية يغير روح للتابع الدولية بالعالم أجمع وإن غيرها إلى ما هو أسوأ . ولكن جميع وزارات الخارجية أبت أن تدرك أن هذه الأسلحة الجديدة لابد أن تعدل طرق الحرب البرية والبحرية القديمة . وقد أصبحت الفواصة من حيث قوة التأثير أداة حرية قديمة أنظرأز ، وحلت محلها قاذفة القنابل السريعة ، كما أن كل الأفكار القديمة المتعلقة « بالجبهة البرية » « والطرق البحرية » قد صارت إلى الضمحلل وزوال ، وكانت الدول الميالة إلى الانتقام والدوان أرهف الجوع إحساساً بهذا التغير فى الظروف ، لذا راحت ترمى

سلاحها الجوي تنمية سريعة وخفية وبالغة ، أما بريطانيا وفرنسا التي كان لها تفوق عسكري لا ينازعها فيه منازع في « المشرقات الحقاء من القرن » فإنهما أدركتا بشفة أنهما فقدتا تفوقهما الجوي إبان الفترة التي قد نسميها باسم « ثلاثينات الخوف » ، ولم يبرح روح ألمانيا الجديدة بزعامه هتلر وجورج وإيطاليا الفاشية يزداد على الأيام جسارة . فأخذوا واجهان دول الغرب بثقة واطمئنان متزايدين ، وأدركت الطائفة العسكرية باليابان قيمة توزيع التفات أوروبا فزادت من عدوانها بالصين ، ومن ثم شرعت الجيوش اليابانية التي تسيطر آنفاً على منشوريا في غزو ولاية جهول في نهاية ١٩٣٢ ، فبلغت سور الصين الأعظم في ١٩٣٣ .

ولم يمكن أى من بريطانيا أو فرنسا أو روسيا راضية في الحرب . فلن تعود عليهم إذا نشبت إلا بخسران كل شيء وعدم اكتساب أى شيء . ولم تكن واحدة منها تحت إرشاد سياسيين كبار لهم آراء عميقة واسعة الأفق أو إخلاص في إيمانهم بالعصبة كأداة من أدوات السلام ، ذلك أن الدول التي يسمونها بالديموقراطية كان يميزها الإيمان بكفاية وسيلتها هي ، كما أن ثلاثين كانت تمزقها - على أشكال مختلفة - عوادي للنائب الاقتصادية والمالية الخاصة بكل ، وراحت الدول العدوانية الثلاثة في خلط عجيب بين التهديد الحقيقي والتهويز والبلف - تمزق معاهدة فرساي وعصبة الأمم تمزقاً تاماً ونهائياً .

فما انتهت ١٩٣٤ حتى نشب خلاف حاد بين إيطاليا والحبيشة ، ولم تلبث إيطاليا أن خاضت في خريف ١٩٣٥ غمارة حرب علنية لفتح بلاد الحبشة ، استخدمت فيها بغير رحمة ولا هوادة القنابل المحرقة والنازات السامة حتى انتصرت على الحبشة في مايو ١٩٣٦ ، على أن الإيطاليين وجدوا الحبشة قفراً يصعب عليهم استيطانه واستغلاله .

وفي صيف تلك السنة نفسها واجهت أزمة عصبة الحكومة الجمهورية بمديريد بعد أن أضغمت صراع مديد مع الوطنيين ومتطرفة الشيوعيين القاتلوتين ؛ إذ قوتحت بعصيان عسكري يقوده الجنرال فرانكو على رأس الجنود للراكشين وتؤيده في السر ألمانيا وإيطاليا . وقد أخفق ذلك العصيان في القيام بثورة مضادة مفاجئة ، لأن الألمان

التفوا حول راية حكومة مدريد ، ودارت في شبه الجزيرة رضى حرب ضروس منارية
عدة سنتين ، كانت ألمانيا وإيطاليا تزدادان على الدوام اشتراكا علينا فيها .
فكان للثيرون يضربون للذين بالدافع بكل قسوة ، حتى قتل في هذه العمليات
الحرية الجديدة نسبة لم يسبق لها مثل من النساء والأطفال . ومع ذلك فإن أحداً
لم يعلن الحرب منذ البداية إلى النهاية ، وفي نفس الحين كانت ألمانيا وإيطاليا من
الناحية الدولية في حالة سلم مع أسبانيا ، مثلما كانت اليابان من الناحية القانونية في سلام
مع الصين .

وفي ربيع ١٩٣٨ اجتاحت جيوش هتلر فجأة بلاد النمسا وضممتها لألمانيا في تمرد
صریح للدع الذي نصت عليه معاهدة فرساي في هذا العدد ، ولم تلق الحركة أية
مقاومة فعالة لامن داخل النمسا ولا من خارجها ، ومنذ ذلك الوقت صار هتلر (من
ورائه موسوليني حليفه التيقظ) للتسلط للتحكم بصورة ملحوظة وشعورية في شئون
العالم كما زاد بروز ألمانيا النازية بوصفها الدولة العززة الجانب للسموعة الكلمة . على
أن الحرف من الهجوم الجوي (ولعله كان خوفاً مبالغاً فيه) قد شل الدول الديمقراطية
عن كل فكر أو حركة . وعندئذ ابتدأ سباق جنونى على التسليح - يفوق في فداحة
تكاليفه وإنهاكه للدول السبالي الذي انتهى بنشوب الحرب العظمى ١٩١٤ -
١٩١٨ .

إن عدم اتباع سياسة راندما العزم والبساطة في تلك اللعبة الدولية ، وتبخر كبرياء
أمريكا وفرنسا وبريطانيا بك حتى ثقها بنفسها ، أمور لن تتضح إلا إذا أدركنا أن
كل واحدة من هذه الدول صاحبة السلطانات والقوة في الماضي القريب كانت تقاسى
من الاضطراب العام الناجم عن الظروف الاقتصادية للتخيرة والقياس فهمما وإن اختلفت
ضوء العناء في كل منها . فإنها هي أيضاً كان يحدث بها انقلاب جوهرى في طرائق الإنتاج
وامضطراب في التوزيع أخذاً يقضيان على الطلب للمستديم للعمال الدائمين ، كما أخذاً مع
مضى الزمن وعمو الصغار يضعان عمل طبقة العمال للذرية القديمة طبقة أخرى من الماطلين
التقليين الساخطين ، وظهر أثر ذلك التور بالولايات المتحدة في شكل هبوط في استهلاك
السلاح ، ولما كان استئثار الأموال قد انتشر انتشاراً كبيراً جداً أثناء الحرب ، ثم في فترة

الاستقرار اللالى بعد الحرب ، فقد نشأ عن ذلك تهاقت الناس على بيع الصكوك المالية ، ومن ثم تولدت عنه أزمة مالية ، ولم تلبث الأزمة أن مست عددا كبيرا من المصارف الأمريكية كان حرا قبل ذلك من كل رقابة مالية ، على أن البلاد كانت حسنة الحظ أثناء فترة الدعم اللالى (١٩٣١ - ١٩٣٣) التى نجمت عن تلك الحال إذ وجدت على رأسها زعيما هو فرانكلين روزفلت . فوضع البنوك تحت رقابة لم يسبق لها مثيل وحول وجهة الدول من النزعة الفردية التقليدية التى كانت تمكس الثروات وتبهدد موارد البلاد فى عملية التكديس تلك إلى اقتصاد مرسوم الحظوة مطبوع بالطابع العصرى ، هو حركة النظام الجديد The New Deal . ولكن ذلك المشروع كان يتطلب قدرا من الطابع الاختراكي الذى يستلزم بدوره طائفة من الموظفين المدنيين يزيد عددها كثيرا عما كان لديه من الرجال للدرين وللتعلمين ، وكانت جماعة أخلاق الرئيس الجديد سببا فى تأخير أعماله منذ البداية كما عوقته انقسامات وزرائه وضيقت ألقهم فضلا عما يستشعره النظام القضائى الأمريكى من المحكة العليا فنازلا - من التحيز العميق للجهد واللبادة الفردية وكانت أمريكا لازال تقاسى الآلام للبرحة من تلك التجربة الكبرى فى الإنشاء والتجديد فى ١٩٣٧ - ١٩٣٨ يوم بدأت تهب عليها أول بوادر احتمال نشوب الحرب فى العالم القديم . فأخذت تدرك الخطر الذى قد يهدد كلا من منطقة الساحل الشرقى والغربى لو أصيبت الإمبراطورية البريطانية بأية كارثة خطيرة ، كما أن الخطر الجوى أخذ يترامى قريبا دانيا واضحا للعيان أكثر فأكثر كما زادت حجوم الطائرات وسرعها . هذا إلى أنه لاح أن الاعتماد للحرب قد يعود على البلاد بتخفيف أزمة البطالة إذ إننا وإن ظلت تتلق بأحلامها فى العزلة قد انسافت بدورها فى سباق التسلح الذى كانت تزعمه من قبل بريطانيا وفرنسا .

ترأكت الصعوبات الاقتصادية فوق رأس بريطانيا العظمى . فلإنها سبقت أمريكا بأشواط فى ثورة الشعب على التقى الحر القوى ، حيث فرضت ضرائب باهظة جدا على الدخل ، وقررت ضريبة التركات وصرقت للمعاطلين معاشات تسد الرمق أو تكاد وبذلك أجبرت عيش التور الثورى وإن كانت طبقة الشباب المعاطل فيها تنسكع فى الطرقات : وم عبء على أنفسهم وعلى المجتمع أيضا ، على أن شئون البصة والتهديب وزيادة التلم أو الاستفادة من هذا الشباب اليأس للتبئس لم تلق إلا عناية قليلة نسبيا ، إذ أن صاحب الثروة الفردية وصاحب الجهد الفردى والمالية الفردية

كانوا من القوة السياسية بريطانيا العظمى بحيث منعوا كل تطبيق للمذاهب الاشتراكية في الصناعة أو للوارد الطبيعية ، ونهت بريطانيا العظمى بدورها في ١٩٣٧ إلى أن خطر الحرب أمر واقع وأخذت تنساق كارهة مع بقية العالم في تيار العبودية للضرورات العسكرية. أدرك أذكاء الناس بأنه مادام استقلال الدول القومية ذات السيادة قائما ، وتعليم الأكاذيب المنصرية مستمرا بطريقة منظمة ، والتحيزات القومية والثقافية رافعة الرأس ، وكذلك مادام نظام الامتلاك المقيم لوارد الثروة من أجل مصلحة الفرد قائما ، ومادام التلاعب للمال في ذليل وضع اليد على الممتلكات مستمرا ، فلن يبرح يزداد الاضطراب وعدم الاستقرار الضارب أطنابه الآن بيننا ، كما لن تبرح الحياة والفكر البشرى تكرر إلى أقصى حد لحمة تدريبات الحرب وعبودياتها ومخاوفها وشهواتها التي تزداد على كر الأيام هدمًا وتدميرًا. والواقع أن جنسنا البشرى يهدده نوع من الجنون العسكري ، الذي قد ينحدر بنا خطوة بخطوة في طريق حرب قاسية ترجع بنا الفقهري ، وتهوى بنا إلى حياة لا يملك لها شيء إلا الألم والبغضاء والشهوات البدائية ، ولا تهتم إلا بفنائيل قليلة لاتجاوز التجلج الإسبرطى .

على أن اكتشاف الانجهاات أسهل كثيرا من الاهتداء إلى الدواء ، كما أن ما أنقذه جميع الاعتراكيين والاقتصاديين من نشاط عقلي في سبيل تشخيص متاعبنا وتعيين سياسة تقوم على التكيف ، قد لقي بسبب حاجتنا لللمعة كل احتقار . فلقد عقد عدد لا يحصى من المؤتمرات والاجتماعات وأعلن الشيء وانكثروا من التصريحات وظهرت ثروات عظيمة من التفاهات وأنصاف الحقائق التي لارابط بينها ، وامتلاّت الأفلاك بدعوة التآزر والتناسق دون أى ضعية بالذات . وعم العالم تلهف على شيء اسمه السلام ، دون مبادرة عظيمة إلى إنشاء حياة سليمة وقوية وخلافة . ومن العجيب أن كل دعوة للتهدئة والسلم تنطوى على عنصر جسيم من الكسل والتراخي ، وإذا قسدر للناس يوما أن يجمعوا في أيديهم من القوة ، ما يكفل قيام منظمة للسلام تتصف بالكفاية في أرجاء العالم وصياتها ، فلن يتم ذلك عن طريق مخوف بالورود خال من كل مقاومة . ألا ترى أن السلم الرومانى Pax Romana كان ثمرا الاستيلاء والفتح . فكذلك السلام العالمى (Pax Munbi) يتطلب بالتأكيد تصميا وعزما راسخا ومعالجة خازمة لكل تمنع أو معاندة .

افضل الناح و استون

الحرب العالمية الثانية

سنقص الآن في تفصيل نيا الأحداث للتعاقة التي أدت إلى نشوب الحرب التي لا تزال رجاها تدور اليوم (١).

ففي مارس ١٩٣٨ اقترح للسترلتنينوف وزير الخارجية الروسية أن تعقد حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا والروسيا السوفيتية مؤتمراً للتباحث في ضرورة القيام بجمعية مشتركة لمنع العدوان في المستقبل ، وخاصة في أواسط أوروبا . ولم تدع ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان للمشاركة في هذا المشاور ، وذلك كما قال للسترلتنينوف : « لأننا لا نريد أن تتناقش في أمر العدوان مع المعتدى نفسه » وكان ذلك اقتراحاً واضحاً بسيطاً ربما أمكن به تجنب الحرب الأوربية تماماً أو القضاء عليها على الأقل قبل أن تستفحل ، بيد أن - جنون كراهية الشيوعية - لدى الأغلبية البريطانية المحافظة كان أقوى كثيرا من خوفها من الخطر الألماني . وقد ظل هذا الاقتراح الذي ردد صداه ستالين في مارس ١٩٣٩ ومولوتوف في مايو ، سياسة روسيا العنينة الداعمة إلى ما قبل إعلان الحرب على ألمانيا بوقت يسير حتى بعد أن ظهر أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد أبت أن تتضامن مع روسيا لحماية الولايات البلطيقية من الاعتداء الألماني .

وكانت الخطوة التالية في البرنامج الألماني هي القضاء على تشيكوسلوفاكيا . فلنضم النمسا لألمانيا جعل ذلك البلد الصغير الهام القوى الشكيمة محوطا بالألمان من ثلاث نواح ، وعندئذ بدأت أبواب البداية في بث دعوة صاحبة مجلسة دفاعا عن الألمان الذين أصروا وضعا معاهدة فرساي تمسكا بفسكرة التخوم الإستراتيجية الحربية - على ضمهم إلى بوهيميا وتلت ذلك تهديدات بإعلان الحرب وببعض مفاوضات هزلية عجيبة . والواقع أنها كانت هزلية وعجيبة حقاً . فلئن اختارت ألمانيا أن تواجه العالم في شخص مجنون معتد فها هو ،

(١) كتب المؤلف هذا الفصل قبل أن تنتهي الحرب كما هو واضح من السياق .

فإن بريطانيا بدورها قد وقع اختيارها على الستر تشمبرلن للفرور عديم الكفاية العائد الفرر رئيساً للدولة . ذلك أن غدواته وروحته إلى ألمانيا في سبتمبر ١٩٣٨ أصبحت اليوم مصدر الأُخف الشديد وللهاارات للربة لدى كل انجليزى ذكى ، ولكن لا يرغب هن البال أنه عندما عاد إلى مطار هستن بعد تخليه عن الدكتور بنيش وبذه الضرورة الواضحة القاضية بالمبادرة إلى قح ألمانيا قما جماغيا مشتركا بين روسيا وفرنسا وبريطانيا وتشكوسلوفاكيا ، وبعد تسليمه كل ميزة عسكرية امتازت بها تشيكوسلوفاكيا وحصوله مقابل ذلك كله على قصاصة لاقحة لها من الورق بتوقيع هتار، وذلك عندما أعلن للجمهور المجتمع بداونج ستريت : « إنه السلام في زمنا أيها الأصدقاء الطيبون . وإنى لأنصحك الآن أن تعودوا إلى بيوتكم وتناموا في فراشكم قربرى الأعين » . وانطلقت السن الجماهير بهتاف الفرح والسرور . وهى حقيقة ينبغي أن لانساها أبداً . وذهب الجمهور إلى ميتة لينام قرير العين .

ومن البديهيات في تدبير الطبيعة ونظامها القاسى للربان جزاء الحماقة والضعف يكون على الدوام شديداً صارماً كجزاء الجريرة والإجرام سواء بسواء ؛ وهى ذى بريطانيا ومعها البشرية جمعا تدفعان عن الفلص الدنى مما قضى به الشرف والواجب . ذلك أن ألمانيا لم تبر بعداتها لحظة واحدة ، ولا يكاد أحد يصدق اليوم أنه كان يجوز أن يبلغ إنسان من السذاجة وسرعة التصديق مبلغا يجعله يعتقد أنها كانت تنوى حقاً أن تبر بكلمتها . وظلت ألمانيا ساهرة متيقظة ، على حين أن شعب انجلترا «أصدقاء الستر تشمبرلن الطيبين» ذهب إلى فراشه قرير العين وتقدعت الجيوش الألمانية إلى المناطق التشكية المحددة لها ثم واصلت سيرها... فأثارت استياء الستر تشمبرلن وزالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود في مارس ١٩٣٩ ، وأخذت مصانع سكودا تنتج الدخائر للجيوش الألمانية التى أخذت قوتها متضاعف بمرور الوقت . ولم تلبث بولنده والمجر-إن وثبتا بشراة على التولية الصرمة ، غير آبهة بما قد يصيبها هى نفسها . فالتهمت بولنده منطقة تشكن Teschen واستولت المجر على سلخة من منطقة أوكرانيا .

ولم تترك بولنده مدة طويلة تنهأ فيها بسلام باستلاك أملاكها الجديدة . إذ أنها كانت الهدف الثانى للزخف الألماني . وهنا جعلت مسألة دانزج سيياً ظاهراً للخلاف الواضح للعروف . وأخذ للوقوف يتطور سريعاً ، ولكن تردد الستر تشمبرلن وبلاده بريطانيا أصبح يدعو إلى اللزيد من الرثاء . ومن قبل ، خيفت بريطانيا عن الدطاع عن

تشيكوسلوفاكيا ، وكان ذلك راجعاً إلى خد كبير إلى خشيتها من البلشوية وشكوكها فيها . وكانت لا تزال فيما يظهر تصدق قول هتلر بأن غرضه الحقيقي هو تهميم الشيوعية ، كما لا تزال تداعبها الآمال في أن ترحف ألمانيا شرقاً ، على حين أن كل مافله الترب هو القيام بالدور غير الكريم — وإن يكن مريحاً — الذي يقوم به متقبو المسكرات ولكن بولندية كانت بها حكومة استبدادية لا تخجل للمعارضة ؛ رجية وكاثوليكية كما كانت تناصب الروسيا العداء . هذا إلى أن الستر تشمبرلن كان يكابد الآلام بسبب تزايد نفور الناس من مغامراته في ميونيخ ، فتولدت في نفسه روح انتقامية شديدة ضد هتلر ومن ثم بدأت من جديد مفاوضات تهدف إلى جمع الشمل لكبح جماح ألمانيا ، لكن تلك المفاوضات باءت بدورها بالفشل بسبب ما تبديه الطبقات البريطانية العليا من نفور من القيام بأي تعاون مخلص مع الروسيا . ذلك أن الثورة الاجتماعية ، وليس ألمانيا ، هي الشبح الرهيب الذي يفرزعهم .

وتمت مدينة عمل اللتوانية في مارس إلى الربيع الألماني . وفي أبريل ١٩٣٩ . ضم الإيطاليون إليهم ألبانيا بنته وفي تحد رصين لصبة الأمم ، إلى غير ذلك من الاعتداءات فأنارت رشاش الاحتجاجات المألوف غير المجدي ، وعندئذ انسحبت من العصبة وخلا كرسى آخر من كراسيها . وفي مايو أعطى الستر لتينوف البول الترية آخر إشارة تحذيرية ، بأن استقال من منصبه ، بعد أن ظل على اللوام يتخذ موقف التعاون الجلى للتواصل مع الديمقراطية الترية انسحب لتينوف إلى للقاعد الخلفية حيث أقام حصينا أوريا مجربا موثقاً به ، وخلفه الستر مولوتوف الذي كان استجاريا روسيا أكثر من صلفه وأقل منه ميلا إلى دول الترب . ولم تفهم وزارة الخارجية البريطانية معنى إشارة لتينوف ، والواقع أنها لم تظهر منذ الثورة الروسية أنها لاحظت أى حدث جرى في الروسيا أمكنها تجنب رؤيته . ذلك أن رغبته في زوال الروسيا من الوجود كانت رغبة واضحة جلية .

على أن بريطانيا ما لبثت أن تحركت في الساعة الثالثة والشرين فمقدت مع بولندية في ٢٤ أغسطس حلفا للتساعده للتبادة . وقد سبقت هذا الحلف معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا والروسيا . ذلك أن فون ريبنتروب وزير الخارجية الألمانية ذهب إلى الروسيا ، ومن الجلى أنه تمكن من إقناع ستالين ومولوتوف بأن بريطانيا تلعب على

حبلين ، وعندئذ أدارت روسيا ظهرها للديمقراطيات الغربية وهى فى حال من الغضب والشك التى لم يديره ، وتحت ألمانيا تماماً عن كل ما كانت تدعيه من العداء للكونترن^(١) ، ذلك العداء الذى كان له حتى آنذاك أكبر الفضل فى وجود عطف على النازية بين الطبقات للسموعة الكلمة بفرنسا وبريطانيا العظمى ، فان هذا العداء قد أدى الغرض للطلوب منه . فان الألمان اجتازوا حدود بولنده فى أول سبتمبر ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب فى الثالث من سبتمبر ، وهكذا صحا سكان بريطانيا الطيبون القرو الأيمن من نومهم وإذا بلادهم مشبكة فى الحرب مع أحكم وأدق الشعوب للمقاتلة منظميا ، وإذا بهم يجدون أنفسهم ناقصى العتاد وغير مستعدين للحرب ، وعلى رأسهم حكومة ظاهرة العجز عديعة الكفاية غير جديرة بالثقة ، وقد نفر منهم تماما فى ذات الحين أقوى حلفائهم شكية . ومع ذلك فانهم قضوا نصف السنة التالية فى حال من السبات العميق ، وذلك لسوء استعدادهم عسكريا ونفسيا ولأنهم طمشوا نظمينا غير كريم .

وكانت الحملة الألمانية على بولنده قصيرة الأجل ولكنها تقسم بالكفاية . ولعله قد سبقها قدر عظيم من نشاط الطابور الخامس ، كما أن معظم المطارات البولندية ضربت بالقنابل وعطلت أعمالها بواسطة المهجمات الجوية الحاشدة ، على أن الجيوش البولندية التى قاومت ببسالة عظيمة ما لبثت أن ردت على أعقابها بسبب تسلل الدبابات الألمانية وراء ظهرها ، وبسبب تفوق الألمان الجارف فى العتاد ، كما أن القيادة الألمانية العليا أعلنت فى ١٢ سبتمبر أن المدن المفتوحة والقرى والعزب ستضرب بقنابل المدافع والطائرات أيضاً « لسحق كل مقاومة ينسبها الأهالى المدنيين البولنديون » ، وذبح المدنيين البولنديون فى مذابح كثيرة . ومع ذلك لم يبدل سلاحا الجو البريطانى والفرنسى أدنى جهد لتخفيف الضغط عن بولنده بضرب ألمانيا بقنابل الطائرات . ولم تلبث الجيوش البولندية أن أخذت تتراجع إلى لتوانيا والمجر ورومانيا ، وفرت الحكومة إلى رومانيا ، وسقطت وارسو فى ٢٨ سبتمبر .

وفى السادس عشر من سبتمبر عبرت الجيوش الروسية الحدود البولندية دون أن تلقى إلا مقاومة ضئيلة ، وذلك بعد أن أدركت الحكومة الروسية أن بولنده قد غلبت

(١) الكونترن : هى الهيئة الصيوعية الدولية أو الهيئة الدولية الثالثة . [للترجم]

على أمرها تماماً . وتقدمت تلك القوات إلى نفس النخوم التي كانت للروسيا بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ بمقتضى اتفاقية كيرزون ، وقل جدا من أجزاء تلك المنطقة التي عادوا إلى امتلاكها ما كان به سكان بولنديون حقيقيون . وعند ذلك ردت إلى لتوانيا مدينة قلنا التي أخذت من قبل تحديا لصبة الأمم ، ثم اتجهت روسيا بعد ذلك إلى عقد الاتفاقيات مع دول البلطيق الثلاث (التي رفضت فرنسا وبريطانيا كما ذكرنا قبل ذلك أن تمنعها ضمناً مشتركاً) ، وتم لها بمقتضاها التحكم الفعلي في وسائل دفاعها الجوية والساحلية بواسطة القوات الروسية . واضع للبيان أن روسيا رأت أن تستفيد من الموقف لتقوية قبضتها وهيمنتها على سواحل بحر البلطيق . ذلك أنها كانت على الدوام في خوف من أن تهاجمها الدول الرأسمالية مجتمعة ، وكان لها ما يبرر اعتقادها في أن تعد فنلندة رأس الحربة التي يأتيها هذا الهجوم من قبلها . وربما كانت روسيا مبالغاً في هذه المخاوف . أجل إن للدفاع الفنلندية كانت تتحكم في للدخول إلى بطرسبرج على صورة لم تكن أية دولة أخرى لتقبلها ولعل من المستحيل علينا أن نتصور أن أميركا تقبل وجود تحصينات أجنبية قوية على جزيرة ستاتن في استلام صبر نجيل . لذا بدأت بين الطرفين سلسلة من المحادثات لم تؤد إلى نتيجة ، فعمدت روسيا إلى الحرب وهاجمت طائراتها للندن الفنلندية بسلسلة من الغارات . وهي وحشية كان في إمكان روسيا أن تستغنى عنها تماماً وكانت الحرب حرباً شاقة باهظة الثمن على السوفيت . على أن فنلندة ما لبثت في النهاية أن اعترفت بالهزيمة وغدقت الصلح بعد قتال عظيم دام ثلاثة أشهر ونصف .

وفي نفس الجبهة كانت الحرب في الناحية الغربية من أوروبا مقصورة على البحر بوجه خاص . فإن الفرنسيين والألمان كانوا يواجهون بعضهم بعضاً من وراء خطوط قوية التحصينات هي خطا ماچينو وسجفريد . . أجل قام الفرنسيون بهجوم قاتل على الجناح الشمالي من الجبهة . ثم عاد الألمان لواصلت حرب التواصات بقيادة بالشل والخران فإن الأسطول البريطاني عمد إلى استخدام وسائل فنية جديدة ، استطاع بها القضاء على تلك الآفة بهمة عظيمة ، ولم يلق في سبيل ذلك إلا خسارة ضئيلة لا مناص منها ، وهي بارجة أو ما إلى ذلك ، وحاملة طائرات ضخمة اسمها الكوراجيوس فضلاً عن بضع سفن صغرى ، وكانت خسارة السفن المحروسة في القوافل أقل كثيراً .

من كل ما كان متوقفاً ، قدما وصلت للوّن والإمدادات بوفرة إلى بريطانيا العظمى بل لقد استولى البريطانيون على عدد من السفن يفوق ماقدونه ، فإن البارجة جرافسي قد ضيق عليها الحناق وقضت عليها ثلاث سفن أصغر منها وأضعف هي اكستر Exeter وأخيل Achilles وأجاكس Ajax ، حتى اضطرت فيما بعد إلى تفصيل إغراق نفسها على معاودة القتال ، ثم انتحرت رباتها .

ثم جاءت نصف سنة أخرى دامت أثناءها حالة الخمول والتوقف التي شملت الجبهة الغربية ، وزادت همة بريطانيا في الاستعداد للحرب ، وأخذت حشود أكثر فأكثر من الجنود ومقادير هائلة من للدافع والعتاد الحربية تعبر بحر المانش .

وتخللت فترة الخمول هذه حركة قدر للفرنسيين أن بأسفوا عليها فيما بعد هي مطاردتهم واضطهادهم لزعماء الشيوعيين والعمال اليساريين . والظاهر أنها لم تكن موجبة فقط إلى الشيوعيين بل إلى زعماء اتحادات العمال أيضا ، واعتقلت السلطات أعضاء مجلس النواب الشيوعيين الذين يحاوزون الحسنيين نائبا أو اضطرتهم إلى الاختفاء كما أن المجالس البلدية الشيوعية قد حلت في طول البلاد وعرضها وعين مكاتبا موظفون خصوصيون وأقل ما يوصف به هذا التصرف أنه كان حماقة بحتة ، وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة الانتشار بين الجنود وصف الضباط ، سواء أتوا من المدن أو من بين الفلاحين ، وكان كثير منها لا يزالون يرون الروسبارمزا للثورة الاجتماعية فأخذوا يتساءلون : أم يقاتلون فقط من أجل الأثرياء في فرنسا ؟ وأخذ روح التخريب يمتد إلى مصانع الذخيرة فضلا عن صفوف الجند ، وللمرة الثانية استطاع للعدى أن يدس إسفينه بين الرجعية وبين باعث الثورة في الرجل العادى . وذلك لأن الحياة تكتلت أيضا في أحزاب التيمين للؤيدة لفسيو دلاديه ، ولكنها خيانة من نوع أقوى وأشد أخذت تقسرب دون أن يدركها أو يتحداها أحد .

وزاد من متاعب الجند قسوة الشتاء بدرجة غير مألوفة وتفضع الأمل إلى أقصى حد في الحصول الجديد بأوربا كلها ، ثم انتقل محور الالتفات فجأة في منتصف فبراير إلى بلاد النرويج . إذ أصبح حياذ تلك البلاد موضع الشك ، ذلك أن الملك هاكون كان عديد الليل للانجليز والولاء لهم ، كما أن عامة الشعب كانوا ديموقراطيين بروحهم ولكن الحلفاء شرعوا يدركون فجأة أن شقة اللياء الضيقة الهاذية لشاطئ النرويج وفي

حدود الأميال الثلاثة التي تمدها القوانين مياها إقليمية ، كانت تستخدم عمرا ، تجاب فيه السفن الألمانية مواد كثيرة وتنسل منه إلى عرض البحر لمهاجمة البريطانيين . وتفاخر الأمر تماما عندما حدث ما يسمى باسم حادثة آلتارك . فإن عددا يتراوح بين اثني عشر والأربعين من بحارة السفن التي أغرقها البارجة جراف سي قبل تدميرها قد هربوا في ذلك الجواز الساحلي بإغضاء من سلطات بلوآفي النرويجية . وأُرسلت مدمرة بريطانية لتعقبهم ، وعلى الرغم من اعتراض زورقين نرويجيين مسلحين وإنكار موظفي اللين النرويجيين وجود أى أسرى على ظهر السفينة ، فإن للدمرة تقدمت في يوسنغ فيورد واعتلى محاربتها السفينة اللندنية ، التي شعطت على الأرض أثناء المعركة ، ثم أطلقوا سراح الأسرى .

تطور الموقف بإسكندنافيا منذ تلك اللحظة . فغزا الألمان النرويج والدانمرك في وقت واحد وسالت الدانمرك على الفور . وقاومت أوسلو هجوم اللندنيين ، ولكن خاها الحزب الفاشي النرويجي نفسه . وانقضت بعد ذلك بضعة أسابيع من المقاومة المضطربة . وفي تلك الأثناء كان الجمهور يريطانيا ينفذ بما لانهاية من الأكاذيب والفخر الأجوف . فكان كل من المستر تشمبرلن والسير إدموند إيرنسايد Ironside رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية ، يتباريان في الفخر الأجوف الكاذب . فيقول الجنرال إيرنسايد إن هتلر قد « فاته القطار » وردد المستر تشمبرلن هذه العبارة الحافلة بالإلهام ١١٩ خاصة وأن هتلر قد كشف نفسه الآن ؛ وأخرجت التهمة رأسها من بين أطباق درقتها ١١١ وستضرب بريطانيا ضربتها الآن ١١ وربما كان يمكنها توجيه ضربتها فعلا ، ولكنها لم تفعل ، وذلك لأن قيادتها العليا وإدارة البحرية فيها لم يؤميا السكافية والعزم اللازمين للقيام بذلك . وقال الجنرال إيرنسايد : إن الجيش الألماني جيش رفيع الامتياز حقا ، ولكن لبس فيه ضابط خدم في الحرب السابقة برتبة أعلى من رتبة اليوزباشي . غير أن البريطانيين كان لديهم أمثال إيرنسايد من القواد الخناكين ١ وقد غزا الألمان الدانمرك والنرويج في ٩ أبريل . ولاحل يوم ٨ مايو أجرى مجلس السوم البريطاني تحقيقا حول تلك المزعمة الشتماء . وتعلم أن خطط وأساليب هؤلاء أمادة الخناكين لم تكن إلا حماقة وبلاهة عمياء . وإليك بضع عبارات من خطبة ألقاها :
للمستر لويد جورج :

« لقد نجح هتلر في وضع وطنه في مركز استراتيجي أحسن كثيرا مما يلفه أسلافه
(٧٦ — تاريخ العالم)

في ١٩١٤ . فقد وقعت في أيدي الألمان اسكندنافيا والنرويج ، وهي من أعظم
الإمكانيات الاستراتيجية في الحرب . وليس ثمة فائدة تعود من لوم السويد ، والألمان
يتركون من يمينها ويدارها . وبأي حق نستطيع أن نلوم الدول الصغرى ؟ ونحن
قد وعدنا بإحافها وحمايتها . ونحن لم نرسل طائرة واحدة إلى بولندا وتأخرنا أكثر
من اللازم في بلاد النرويج . فهل يستطيع عاقل أن يشك أن هيتلر قد انعمت ؟
لقد ألقينا الوعود لتشيكوسلوفاكيا وبولندا وفنلندة . وأصبحت وعدونا قمامة في عرض
الطريق . . .

« لقد وعدونا بإعادة تسليح البلاد في ١٩٣٥ ، وعرضت على المجلس اقتراحات
عملية في ١٩٣٦ ، وعرف الكل أن كل ما عمل قد تم بغيره تحذره وبغير أثر
فعال عادمه ودون باعق قوي أو ذكاء ، ثم جاءت الحرب . فلم تزد سرعة الأمور
شيئا يذكر بل بقي الحال على ما كان عليه من التواني وعدم الكفاية . وعرف العالم
كله أن بلادنا وضعت في أسوأ مركز استراتيجي وقت في تاريخها . »

« لقد قال المستر تشمبرلن إنه ورأى أصدقاء ، وليست السبالة مسألة من هم
أصدقاء رئيس الوزراء . بل الأمر أعظم من ذلك كثيرا وأخطر . إذ لابد لرئيس
الوزراء أن يتذكر أنه التقي بهذا العدو الجبار في وقت السلم والحرب ، وأنه لقي على
يديه الهزيمة دائما . لقد طالبنا بالتضحية . والشعب مستعد لاشك لبذلها ما دامت له
زعامة . وإن أقولها الآن بأن تام إن في إمكان رئيس الوزراء أن يضرب لنا مثلا في
التضحية ، إذ لا يستطيع شيء أن يؤدي إلى النصر في هذه الحرب أكثر من تضحيته
بعقائد الحكم . »

وبينا بريطانيا لا تزال تحاول بكل جهد إزاحة كابوس المستر تشمبرلن الجاثم على
صدرها كرئيس لوزرائها ، ظلت ألمانيا تجسد بلا هوادة في صورة الثالث الشرس
الرهيب جورج وجوبلز وهتلر واستمرت آمال البشرية تتحطم وترجع القهقري .
ولم يفكر أحد حق في عزل السير إدمووند إيرنسايد من منصبه . وما لبث أن رتب
للاشتراك في كارثة جديدة أدهى وأمر بفرنسا ، فإن الضربة التالية لفنوت الحرب
الفرنسية البريطانية للتداعية قد أزيلت في المباشر من مايو ، عندما اجتاحت ألمانيا بلاد
هولندة والبلجيك ولكسمبرج في وقت واحد .

ومهما بدا عجباً لعين دارس التاريخ في السنوات التالية (إن بقي التاريخ دارس في السنوات التالية) فالواقع أن واحدة من تلك الأنظار الثلاثة لم تتفكر يوماً رغم هذا الخطر المحتمل البسيط، في إعداد خطة للدفاع بالإشتراك مع فرنسا وبريطانيا. ولعبت نفس العناصر الخائفة للتردد دورها فيما أعقب ذلك من كارثة. ومن الأسف أن الفرنسيين لم يعدوا خط ماجينو بعد الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء للقيام بحرب « حركة » في الجناح الأيسر للكشوف كانت ناقصة براء جداً وقاتل للوالون والمخلصون من الهولنديين والبلجيكيين قتال الأبطال، ولكن قضت عليهم الخيانة وراء حدودهم، كما غلبهم استخدام الألمان المائل لرجال الظلمات، وهو أمر لم يكن مستعداً له بالرة خيال قواد الحلفاء، الذين لم يتبع لهم إلا خمس أوست سنوات ليدرسوا فياتلاك الفكرة. ولقيت مساحات عظيمة من روتردام نفس الصير القدي لقيته جرينكا، فدفن آلاف من السكان تحت الأنقاض، ولم تمض أربعة أيام حتى انتهزت كل مقاومة هولندية. وفرت للسيكة إلى إنجلترا وأذاعت من قصر بكنجهام رسالة مليئة بمواطفت البطولة.

وتواصل ضغط الألمان على خطوط الحلفاء للتفص. وكان في أيديهم سلاح شديد فعال هو دبابات سكودا التي أهداها للستر تشمبرلن لألمانيا في السنة السالفة. وأخذ الحط الفرنسي في الانكسار قرب سيدان. واندفع الألمان في الاتجاه الشرق عتريقين الثفرة التي فتحوها. فتركوا باريس عن يسارهم وهدموا نحو بحر للانش وإنجلترا. لم يستطيع الحلفاء سد الثفرة، فدا حيل بين قوة كبيرة من الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين في الشمال وبين الاتصال بوسائل الدفاع الرئيسي بفرنسا، ولاح أسرها وشيكا دانيا. وكانت نسبة ضخمة من هذا الجيش الشمالي بريطانية، فدا كان في قدها كشفا لبريطانيا وتبريضا لها للأخطار. وعندئذ خطر للملك ليوبولد الذي كان قد التمس للمعونة من فرنسا وبريطانيا عندما اجتاحت بلاده، أنه قد حان الآن وقت عمل ينطوي على أعظم مظاهر الجبن والخيانة. ففتح باب للمفاوضات مع الألمان وأمر جيوشه بالكف عن القتال وإيقاف إطلاق النار في ٢٨ مايو، دون إخطار حلفائه وفي تخط لجمعية حكومته الإجماعية، « ودون أن يلقى بالا إلى الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين جاءوا لمساعدة وطنه تلبية لندائه في ساعة البسرة ».

وأوشك الجيش البريطاني على الوقوع في الأسر لولا أن أنقذه من التسليم صفات جنده وصف شباطه الجديرة بالإعجاب. قيادة سيئة وخيانة داهية وجناح أيسر مكشوف

للأعداء ، ومع ذلك فإنه شق طريقه قتالا حتى عاد إلى دنكرك ، وتمسك بها بضعة أيام عصبية ، كما استطاع رغم تركيز الألمان لقواتهم هناك تركيزا هائلا ، أن يعبر بحر اللانش ، إلى إنجلترا مع الجيوش الفرنسية والجنود البلجيكيين الموالين . وبلغ من إبداع ملوك الجيش ، وما انطوى عليه نقل هذه الكتلة الضخمة من الرجال من ألوان البطولة الرائعة ، أن امتلا الجمهور البريطاني بالسرور أكثر منه بالاستياء والكدر . وقال المستر ونستون تشرشل الذى خلف فى النهاية للمستر تسمبلان فى رئاسة الوزارة محذرا الشعب : « ليس الانسحاب الناجح نصرا » وخسر الحلفاء قدرا هائلا من للدفاع والمواد الحربية ، كما أن للقاومة الفرنسية الرئيسية أخذت تنهاوى .

وتنفسى التمهق بين صفوف الجند . وشرع المستر تشرشل فى التفكير فى انسحاب الإمبراطورية البريطانية إلى كندا . على أنه لم يقبل ذلك إلا ليؤكد للألمان أنه لإمبراطورية ستواصل القتال إلى النهاية للرة نفسها وإن سقطت إنجلترا صرمة فى اللدان . ولكن أكثر الناس أساءوا فهم عباراته إلى أقصى حد ، وبناء على هذه الإشارة منه ، أسرعت الطبقات الثرية والنافذة الكلمة تتدافع تدافعا غير كريم للفرار بأولادهم إلى كندا وأمريكا . على أن بريطانيا ربحت الكثير بسبب هذا الجلاء ، ومما تكن نتيجة الحرب ، فإننا نشك فى أن يتحس هؤلاء النفيون بإرادتهم للعودة إلى بلادهم .

وعندئذ رأى موسوليني أن قد آن له أن يعلن الحرب ، فأعلنها فى ١٠ يونيه وأخذ الجنود الإيطاليون يكثرون من الإغارات وتحريك الأيدي على الحدود الألية كما أخذت صور للدوتشى على الأراضي الفرنسية . وتحول انهيار الجيوش الفرنسية إلى تشتيت شامل . وغادر الناس باريس وانسحبت الحكومة الفرنسية إلى بوردو . وخطب السيورينو فى ١٣ يونيه خطبة نهائية يائسة التمس فيها العون من الرئيس زوؤفلت . وقال إن الكفاح هو من أجل حياة فرنسا نفسها . ورد عليه الرئيس بسرعة معبرا عن أسمى أنواع العواطف ووعد بتقديم المساعدات اللادية ، ولكنه ختم حديثه بهذه الألفاظ ذات المعنى : « إنى أعرف أنك تفهم أن أقوالى هذه لا تحل أى معنى يدل على تعهدنا بالدخول فى المسائل العسكرية . إذا لا يملك أحد القيام بمثل ذلك التمدد إلا الكونجرس وحده . »

وعند ذلك استقال السيو رينو وخلفه في رئاسة الوزارة للاريشال بيتان الشيخ الكبير الفاني وتولى معه وزارة الدفاع الجنرال فيجان الأصغر منه قليلا . وعند ذلك تقدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم وطنها للعدو تسليما تاما ، يكاد يخالطه شيء من التعميس . ثم عدت الحكومة البريطانية في اللحظة الأخيرة إلى تقديم اقتراح بتوحيد بريطانيا وفرنسا معا .

وكانت بريطانيا وفرنسا قد تاهدتا على عدم القيام بصلح منفصل ، ولكن ذلك العهد نسي آنذاك ، وللمرة الثانية وجد البريطانيون أنفسهم يسحبون من فرنسا جنودا يحيط بها الأعداء . وانهالت الجيوش الألمانية للظفرة على فرنسا ، وذهل البريطانيون حين وجدوا جزائر بحر اللانثي ، وهي البقية الأخيرة من ذوقية نورمندی التي ظلت تابعة للناج البريطاني ١٠٦٦ — تقع في يد الألمان . وعندئذ شعر البريطانيون بخطورة مركزهم ، ولكن قوة فعالة جديدة دبت إليهم ، ووجدت لسانها للبر في المستر تشرشل .

وكانت موانئ فرنسا الحرية وأسطولها أيضا وفوق كل شيء ، مصدر تهديد لا يمكن الاستهانة به . وانضمت بعض السفن الفرنسية إلى البريطانيين طامعة ، وأقيمت في لندن لجنة قومية فرنسية برئاسة الجنرال ديغول (de Gaulle) ، لتنظيم استرداد فرنسا من برائن الأعداء . على حين أن بقية الأسطول الفرنسي قد قبض عليه أو عطل من السلاح أو ضم إلى بريطانيا . وهاجم الأميرال سومرفيل قوة معارضة لبريطانيا عند وهران ، منها بارجتان من الدرجة الأولى هما استراسبورج ودنكيرك وعظلمان العمل . ولما التقى البريطانيون بالأسطول الإيطالي أول لقاء بحري خطير ، راحت ضخيمته البارجة الإيطالية الممتازة بارنولوميو كولوني ، وهي من أسرع بوارج العالم ، إذ أصابها رغم ذلك قذيفة من للمدرة الأسترالية سدني وأغرقها . حتى إذا عاد البريطانيون فاستقروا على ظهر جزيرتهم وعلى متن الهواء وصفحة الماء ، أحد معدتهم الحري تنفض عنه الصدا الذي ظل يتجمع على سطحه أثناء سنوات الأعطال الطويلة .

ولعل غيثا من الحور قد داخل بعض النفوس للرتابة عندما عاد السير إدmond برنارد إلى إنجلترا لتنظيم الدفاع الداخلي ، ولكنه سرعان ما راق إلى رتبة المارشالية ومنح لقب اللوردية ، وأحيل إلى الاستقداع بنصف مرتب وأبعد عن طريق الثر . ونشأ حرس وطني أخذت كفايته تزداد ، وحل الترقب الانتعالي محل التخوف للفرزوع . وأخذ يتفصح ليمان ازدياد تفوق القوات الجوية البريطانية ، التي أخذت تجتنب إليها

الشباب من كل طبقة من طبقات الشعب ، ومن أبناء الإمبراطورية وأبناء الحلفاء سواء بسواء ، وأثبتت الأيام صفاء مبدنهم إلى أقصى حد . وكان احتمال الغزو يتقص درجات عديدة كلما تأخر يوما .

وتركز الاهتمام آنئذ على أسبانيا والبحر الأبيض المتوسط ؛ فكأنه قد عاد أدراجة إلى الشرق . واتضح للناس جميعاً أن الروسيا رأيا خاسماً بمستقبلها جعلها على الأقل لا تميل إلى العطف على الألمان كما لا تميل إلى العطف على الطبقة البريطانية الحاكمة . فعادت إلى تقوية نفوذها المواجهة لألمانيا وتحصين مركزها على نهر الدانوب والبحر الأسود . ثم طلبت بحزم تام إعادة منطقتي بيسارابيا وبوكوفينا الشمالية ، اللتين اقتطعتها منها رومانيا في ١٩١٨ ، ولم تلبث رومانيا أن أذعن ذلك الطلب بعد أن لجأت إلى ألمانيا دون جدوى . ثم استجاب الروسيا بعد ذلك لحركة اشتراكية ظهرت بدول البلطيق وفي وقتها المناسب بشكل عجيب ، ومن ثم دخلت ثلاثها الاتحاد السوفيتي .

وأثار هذا العمل شعوراً معنوياً جيداً لدى لدى حكومة الولايات المتحدة فإنها استنكرت اختفاء تلك الدول أكثر مما استنكرت طرد فنلندا من مصب نهر النيفا ، فأدلى المستر كوردل هل وزير الدولة الأمريكي بخطاب شديد ضد ضمها ، فأجابته المستر مولوتوف قوميسير الشؤون الخارجية الروسى إجابة شديدة ولقمة المذهب الشيوعي المألوفة . حيث قال إن في إمكان أمريكا أن تعنى بأمورها الخاصة . ولم تلبث شقة الخلاف أن زادت بين هاتين الدولتين العظيمتين المهتمتين كليهما بقضية السلام والعاجزتين إن افرقتا عن الوصول إليه . ومع ذلك لم تكن هناك في العالم حقيقة واحدة تدعو إلى اختادفهما في الرأي إلا مسألة نصيب الطرفين من سعة الحبال .

ولئن أخذ اتحاد الدول البريطانية في صيف ١٩٤٠ في تجميع قواته ليقاوم قتالا جدياً ، فإن دعاية ذلك الاتحاد كانت لازال مبهمة حمقاء . وأنشئت هيئة خفية وشبه سرية هي لجنة سويتون - لمعالجة شئون جموع اللاجئين والأجانب الحاشدة المتزايدة ببريطانيا العظمى وكان على رأس هذه اللجنة شخص اسمه المستر لويد جريم اتخذ اسم كانليف ليستري في ١٩٢٤ ثم منح لقب اللوردية في ١٩٢٩ تحت اسم اللورد سويتون . ويلاحظ أنه باشر عمله بصورة تذكرنا بذوى الزعرة السادية^(١) في بغض الأجانب

(١) السادية : ضرب من الانحراف الجنسي ، النسوة أبرز مظاهره . وهناك نوع من الجنون يسمى جنون بغض الأجانب .

الجنونى أو بعيل من عملاء النازية ، وتلا ذلك إنزال أقصى وأعنف الاضطهاد بأبناء الشعوب نفسها التى كان ينبغي على بريطانيا أن تشخص اليهم طلباً للمعونة أثناء كفاحها فى سبيل إعادة ألوية الحرية إلى أوروبا . فقد لقوا معاملة شريرة وحشية لاتطوى على أى حكمة ، معاملة ألحقت بشرف بريطانيا ضرراً لايسيل إلى إصلاحه . فاعتقل أعداء الداء للنازية والفاشية ولقوا معاملة فظيمة جداً ، وحيل بينهم وبين زوجاتهم وعائلاتهم ، وأبعدوا عن البلاد ، ودفع كثير منهم إلى الانتحار . وقديماً إبان اللأضى العظام لعمد كنتنج وبلمرستون وملبورن الذى واجهت فيه بريطانيا المحالفة للقعدة ، جرت سياستها على مصادقة وإيواء ومساعدة رجال الحركات الثورية فى كل دولة أوربية . وبريطانيا الظلمى على التى أوقفت تجارة الرقيق ، وكان مما يخبر به البريطانيون أنه حينما رفر ف علمهم انشعج الناس بثوب الحرية . فأما الآن فإن العالم وقف كالصهوق يسأل نفسه أنسيت إنجلترا ذلك للأضى الجيد ؟ أكان كل ذلك الحديث عن الديمقراطية مجرد دعوى جوفاء ؟

ومما زاد من الوقع السىء لهذا الاضطهاد أن الحكومة البريطانية تشبثت فى عناد بعدم إصدار أى بيان واضح عن أهدافها من الحرب وكانت كل قوة حرة فى العالم خارج الإمبراطورية وداخلها تتوصل مطالبة بإصدار ذلك البيان . ومع ذلك فإن الشعوب البريطانية التى أخذت تستيقظ وجدت نفسها غير قادرة على تخليص أنفسهم من أغلال نزعات المحافظين الثورية (١) للقاسية التى أوقتهم فيها الحرب . . .

هكذا وإصل البريطانيون القتال فى الوقت الذى ساد فيه يلادم كفاح اجتماعى مطرد التمر وحدث هجوم جوى عظيم ومتواصل على لندن فى سبتمبر وأكتوبر ، وأبرز للعبان تجلدة عامة الشعب وصبرهم القوى كما أظهر التزايد المتواصل فى السلاح الجوى للبريطانى ، وأخذت أمريكا بزعمارة فرنكلين ديلاانو روزفلت زداد على الأيام عطفا على ما يذل البريطانيون من جهد فى الحرب ، وإقتضاء السنة دخلت الحرب فى مرحلة جديدة . فلأن جيوش موسولنى كانت تسير حثيثا فى طريقها إلى مصر وقناة السويس ، وبلغ من قهته بالنصر أنه ضم إليه ألبانيا (١٩٣٩) وهاجم بلاد اليونان (١٩٤١) . وكانت هذه مرحلة مجد أخيرة تلك الخلق للنتخ الأوداج . وعند ذلك كان أمثال جورت وأشباه إرنسايد قد أبدوا

(١) التورية Torysim منبج شعبي المحافظ على القديم .

عن رئاسة القوات البريطانية ، كما أن الجيوش اليونانية قد مما بكفائها الرئيس متسكاسر إلى الدرجة القصوى . وظهر قائد بريطاني من طراز جديد أكثر كفاية هو الجنرال ويندل ، فغضب الجيوش الإيطالية شمال إفريقيا وأريتريا والحبشة ضربة قاصمة وسريعه أدهشت أبناء قومه كما أدهشت الإيطاليين أنفسهم . ولم تنقض عشرة أسابيع حتى عمزت للثانة الفاشيستية للتفخة . وهزمت قوات الكومونولث البريطاني الناهضة القليلة العدد والقوية العزم الجيدة العناد الجيوش الإيطالية للتأثرة من البحر الأحمر إلى طرابلس وأسرتها ، كما قهر اليونانيون بمؤازرة السلاح الجوي البريطاني الجيوش الإيطالية بألبانيا ولا شك أن لو أتبع للبريطانيين قيادة كهذه تمتاز بالذكاء والعزم لأمكنهم في ١٩٤٠ تخطيط هزيمة النازيين على الترويج . ولم تبرح الأ كذوبة المساة بالنازية قائمة حتى صاعة كتابة هذه السطور (مارس ١٩٤١) ، ولكن لو أن أمريكا مدت يد العون المادي فليس من شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون أن يعالجوا شأنها على النحو الذي عالجوا به الفاشية . ولا يزال المحيط الأطلنطي معتركا لكفاح غير مضمون العاقبة . فالسفن البريطانية تفرق فيه بوفرة كما تفرق أخرى موالية لبريطانيا وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل في قيام عالم جديد لا يزال يعلأ النفوس بالرجاء . فهل يتحقق ذلك الأمل ؟

الفصل السبعون

أزمة التكيف البشرى

ليس ضرباً من المبالغة أن البشرية مصابة في الوقت الحاضر بحس من الجنون ، وأنتنا
لسنا بحاجة إلى شيء كحاجتنا إلى معاودة ضبط النفس العقلى فى الجنس كله . إننا نتم الفرد
بالجنون إن جانب أفعاله الغالبة جادة التوافق مع ظروفه التى فيها يعيش عجاجة تجعله
مصدر خطر على نفسه وعلى الآخرين . والظاهر أن هذا التعريف للجنون ينطبق فى
الوقت الحاضر على الجنس البشرى بأكمله ، وليس من المجازى فى شيء بل هو الحقيقة
المجردة بعينها ، أن يقال إن على الإنسان أن يتأكد عقله أو يتأكد أو يهلك ويذهب
جفاء . أجل عليه أن يهلك أو يبدأ مرحلة جديدة يظهر فيها قوة وجهداً أوضح ، وكأن
به لا يجد سبيلا وسطا بين هذين النقيضين . فهو مخير بين السالك الأعلى والحضيض الأوهده
وهو لا يستطيع أن يظل حيث هو .

تعبنا فى هذه الخلاصة اللوجزة للتاريخ البشرى خطى النمو التصل للمجتمع البشرى .
ولسنا كيف كان كل تحسين فى وسائل اللواصلات والنقل يضطر الناس إلى تكيف أنفسهم
لحياة اجتماعية موسعة الآفاق على الرغم من كل مقاومة تنبعث عن ضروب الولاء الوطيدة
والديانات الصيقة والتعيز ومألوف العادات ، مع ما يقترن بذلك غالباً من الإسراف الهائل
فى النفوس والتبديد القريع للسعادة - كما أننا أخصنا فى الفصول ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ بوجه خاص
عن صنوف الارتباك والفرس التى خلقها العلم والاختراع الحر أثناء القرن الماضى ووجهنا
البحث خاصة نحو موضوع للشقات التى ينتجها تصدد أو صناع للملكية عندنا إزاء تلك
الترية العامة المزعلة للموجودة لدينا اليوم ، لقد أصبحت كتلة السكان العظمى متمردة .
وربما كان الفصل التاسع والحسون أهم ما فى قصتنا من فنون ، وربما كان جدراً بأن
يلقى عليه القارئ نظرة أخرى . وهناك ميزة خاصة اختصت بها للملكية هى
صورتها السائلة كنفوذ أو كوعود بدفع النقود . ومنذ الحرب العظمى أخذت شئون
النقد تشغل قدراً متزايداً من عناية الناس واهتمامهم ، ولكن قدراً كبيراً من الأبحاث
التي جرت كان غير ذى جدوى لما جرت به عادة الناس من معالجة النقود كشيء أو نظام

في حد ذاته ، على حين أنها جزء مركب من « مجموعة معقدة » من العلاقات ، هو مركب لللكية والنقد ، الذي كلما عدل منه جزء عدل معه السكل . مثال ذلك أنه عندما تضخم العملة وترتفع الأسعار ، يبرد الدائنون بما يملكون ، فإذا زال التضخم وانكسرت العملة حمل المدينون عبئاً ثقيلاً . والنقد تغير طبيعتها إذا أنت غيرت ما يمكن شراؤه وبه . وبصرح المعلمون في شيء من القوية أن إيجاد الائتمان على يد البنوك الخاصة يعد ضرباً من اختصاب السلطة ، والنقد تغير طبيعتها بتغير الفواحي التي تستخدم فيها ، وليس هناك عملة واحدة ، بل عملات عديدة . وللشيوعية نوع من النقود كما أن هناك نوعاً آخر لأنصار المذهب الفردي^(١) المتطرف ونوع لكل نظام آخر يمكن أن يتواضع عليه في شئون التملك والتوجيه وحرية التصرف .

فإذا أعوز جهاز العملة والائتمان القدر الكافي من القوة العقلية ومن التنظيم والقيادة ظل ميداننا يرتع فيه المغامر والمضارب ، وظل مصدراً لإنسداد لانهاية له لنظام الحياة الاقتصادية اليومية ، ولكن أين لنا بالتعويذة التي تجدد هذا الارتباك . لاجرم أن ذلك يستلزم جهداً عقلياً هائلاً ومنظماً . ولن نبرح نقاسى حتى نبذل ذلك الجهد فضلاً عما سنعرض له من مخاطر ذريعة في حياتنا الدولية للهوسة ، - نقاسى قلقاً اطمئنان ربما لاحت في أحد الأيام شيئاً لا يصدق العقل ، في ظل ظروفنا الاقتصادية الفائلة . وليس في أيامنا هذه رجل على في أي مكان يمكن أن يقال إنه بماأمن من الفقر والحاجة .

وقد شرعنا الآن فقط في إدراك المعيار والمعيق الحق لثغرات ظروف الحياة البشرية التي تدور الآن . وفي القرن التاسع عشر كان الرجل الناشط يختطف هبات القوة والثروة التي كان العلم يهبها له ، دون أن يحس إلا بأقل قدر من الشكر ودون أن يدرك الخلل الذي ربما أصبح من الواجب دفعه مقابلها ، والآن تقدم الأيام قائمة الحساب وتتطلب بسداد الثمن ، فقد بلغ من تغير معيار المسافات وبلغ من عظم القوة « المادية » التي في يد البشر ، أن أصبحت السيادة للفنعة التي للدول العاصرة أمراً مستحيلاً ومع ذلك فإننا نتعلق بتلك السيادة بناد غير علينا المصاب . فلا بد من أن تبدو بشكل ما ، الأوهام المتصلة بالمال ؛ وبشكل ما ، لا بد للتحكم المالي في الحياة السياسية والاقتصادية

(١) مذهب الفردية : مذهب اجتماعي واقتصادي يناد بحقوق الفرد ومصلحته على حقوق الجماعة والدولة ومصلحتها : [المترجم] .

وفي بيولوجيا النوع بصفة عامة من أن يعالج بالتنظيم .

والضرورة نعلم تفسير كثير من الأشياء الثابتة تغيرا يطمس معالمها القديمة تماما ،
ويذهب للقارىء الإنجليزي أن لا يحز في نفسه كثيرا احتمال انتهاء السيادة البريطانية العالمية
فإننا نحن الإنجليز قبضنا على تلك السيادة برهة واستخدمناها أسوأ استخدام . أجل إننا
أثينا أمورا ممتازة تنطوي على السباحة والحرية ، ولكننا لم نأت منها القدر الكافي لتبرير
زعامتنا العالمية ، لذا وجب علينا خلال الضيق النفسي الذي يمر بنا أن نهيب أنفسنا
للاعترا ف بحقيقة ما كنا لنعترف البتة به في أيام دزرائيلي والغرور الذي أثاره كبلنچ : وهو
أن الصبر التالي للانسان هو للتجه نحو المساواة والوحدة . في أرجاء العالم قاطبة . أما
العزة والسؤدد ففكرة بالية ومرفوضة ، كما أن الهية مثل أعلى غير جدير بالثقة فعلينا
الآن أن نوطن أنفسنا طوعا أو كرها ، على الديمقراطية العالمية . والمالة العالمية ، حق
لا يصيبنا جميعا ما هو أسوأ من ذلك .

والآن يتضح لدينا تماما أنه لا بد للبشرية من القيام بمجهود تعمري هائل إن شاءت أن
تتجنب شدة الزيادة في تلك الهزات النيفة وتلك اللذائج العالمية التي أنتجتها الحرب العظمى .
ولذلك فإن فكرة مرتجلة متعجلة كفكرة إنشاء عصبة الأمم ، وإن مجموعة مهملة
مترعة من المؤتمرات تجمع هذه الطائفة من الدول أو تلك ولا تغير في العالم شيئا مع
ادعائها تسوية كل شيء ، لن تكون علاجا للحاجات السياسية المعقدة للعصر الجديد
الذي ينتظرنا . ومهما تسكن الأمور مستعجلة وخطيرة ، فلا بد من أن يسبق كل تنظيم
عالمى جديد وفعال نهضة عقلية كبرى ، ولا بد من نشوء تطور منظم وتطبيق منظم لعالم
العلاقات البشرية ولعلم النفس الفردي ولعلم النفس الجماعى ولعلم المالية والاقتصاد والثرية ،
ركلها عاوم لا زال في مهد طفولتها . فأما الأمكار النيفة والبائدة والميتة والمتضررة سواء
منها الخلقى والسياسى فلا بد من استبدالها بفكرة أخرى أوضح وأبسط توضح اشتراك
الجنس البشرى كإانة في الأصول والمصائر .

وإذا كانت الأخطار والارتباكات والكوارث التي تتكدر على رأس الإنسان في
هذه الأيام هائلة فوق كل خبرة ماضية مرت به ، فما ذلك إلا لأن العلم جلب له من القوة
ما لم يكن له من قبل إطلاقا ، كما أن النهج العلمى القائم على الفكر غير الهباب والتعبير
الواضح إلى أقصى حد ، والتخطيط الباقد والمتمركز إلى أقصى حد ، يقول : إن ذلك النهج

نفسه الذى وهبه هذه القوى التى لم يتبرأ له بعد التحكم فيها ، يمنحه أيضاً الأمل فى التحكم فى تلك القوى . فالبشرية لا تزال بعد يافعة لم تتجاوز الراهقة . وليست متاعبها متاعب الشيخوخة والإنهاك ، بل متاعب القوة للزيادة التى لم تلق بعد تنظيمها . وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ كله بوصفه عملية واحدة وركباً واحداً ، شأننا فى هذا الكتاب ، وإذا نحن شهدنا صراع الحياة المستمر للتجه إلى أعلى والمهادف إلى الإلمام والتحكم ، لشهدنا آمال هذا الزمان ومخاطره فى صورها النسبية الحلقة . ونحن الآن فى أول مطالع جفر العظمة البشرية . ولكننا نلس وميضاً بما نستطيع الحياة أن تفعله لنا ، نحسه فى جمال الزهر والغروب وفى الحركة السعيدة المتقنة لصغار الحيوانات وفى سحر آلاف الآلاف من مناظر البر والبحر ؛ كما أننا نجد إشارة إلى ما تستطيع الإرادة البشرية عمله بوساطة الإمكانيات المادية ، نجدها فيما أنتجت يد الصناع من فنون التشكيل والتصوير ومن الموسيقى الفاخرة الرائعة ، وفى قليل من المباني الشائعة العظيمة والحداثق البديعة الفناء . لا جرم أن الأحلام تملأ رؤوسنا ، وأن فى أيدينا فى الزمن الراهن قوة غير منظمة ولكنها لا تبرح تزداد . فهل يستطيع شك أن يداخلنا فى أن جنسنا لا بد أن يحقق تماماً أحراً تخيلاتنا وأشدها غلوا ، وأنه سيحصل على الوحدة والسلام ، وأنه سيعيش ، أى أن أبناء أصلابنا وثمرات حيواتنا سيعيشون فى عالم سيصبح من الفخامة والجمال بحال تفوق كل قصر أو جنة نعرفها ، وأنه سينطلق من قوة إلى قوة فى دائرة من المغامرة والتحصيل لا يبرح قطرها يزداد ؟ فما صنعه الإنسان ، والإتصارات الصغيرة التى أحرزها فى حالته الراهنة ، وكل هذه القصة التى سردناها عليك ، ليست إلا مقدمة للأشياء التى بقى على الإنسان أن يتمها بعد .

الفصل الحادى والعشرون

من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤

العقل البشرى فى أقصى توتره^(١)

— ١ —

الأحداث بين ١٩٤١ و ١٩٤٤

أوصلت الفصول السابقة هذا السفر فى تاريخ الحياة حتى عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ . وليس هناك ما يستحق التغير إلا النذر اليسير من حيث تتابع الحوادث . وقد حذفت بعض المبارات فى بعض النسخ لدواع سياسية ولكنها أعيدت الآن إلى هذه النسخة . وقد سجل الكتاب اليوم وحفظت حقوق نشره للمؤلف ككل متكامل ، ولن يكون لأحد حذر ولا إذن بأجراء مثل ذلك الحذف .

ولئن ظل تتابع الحقائق فى هذا الكتاب منزها عن كل تغير ويمكننا الآن إعادة سيرته الأولى الكاملة ، لقد ألم تغير جسم القيم الناطقة بتتابعها . على أنه يجدر بنا قبل الخوض فى ذلك الموضوع أن نتذكر أحداث تلك الفترة . وفى إمكاننا أن نفعل ذلك باختصار ، وذلك لأن كثيرا من تلك الأحداث لا تزال ناضرة فى ذاكرة القارىء . وفى ١٩٤٠ - ١٩٤١ كان جميع العالم غير المستعد بحتال التماسا للوقت ويضمر الاسترابة بأصدقائه المحتملين . واستطاع هتلر رغم ما كان يصدر عنه من أكاذيب لا يكاد يصدقها عقل أن يمتد للماهدات ويتفاهم مع جميع ضحاياه الذين قرر إيقاعهم فى شركه عدا اليهود الذين كانت تقيمت عليهم قاطعة . ويولوج أن الأمريكيين كانوا بمثابة عن دائرة أطماعه فى تلك الآونة . فكان هدفه غزو العالم للتركز حول أوروبا . وسار مولوتوف وبوريس ملك بلغاريا وممثل للحكومة الألوية المزيبة القائمة فى يوغوسلافيا ،

(١) هذا الفصل أضافه المؤلف قبل وفاته وظهر فى أحدث طبعة للكتاب . [الترجم]

في إثر خطوات الستر تشمبرلن وذهبوا للمفاوضة مع هتلر . وظلت بريطانيا تتحمل وحدها عبء الهجوم لم تبح شدة تردد كل يوم ، على أن هتلر أحس بعد التفاهة مع مولوتوف بالقلق من ناحية روسيا . وكانت روسيا تسترد قوتها من ساعة لأخرى لذلك كانت أقرب مصدر للخطر عليه . أجل قد تكون بريطانيا قوية في دفاعها ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم .

لقد اجتاحت هتلر بلاد الروس في ٢٢ يونيه ١٩٤١ . وذلك لأن غزو بريطانيا كان من اليسور إرجاؤه حتى يقضى على روسيا . كانت السلطات للشولة في أمريكا منقسمة إلى معسكرين ، ولكن الهجوم على بريطانيا لم يكن بد من أن يفضى إلى تحالف وثيق بين روزفلت والقطر السجوز . وربما سهل على الألمان إيصال الجنود إلى إنجلترا ، ولكن استرجاع الجند منها ثانية كان من أعسر الأمور رغم وجود أتباع موزلى ومن إليهم ومساعدتهم لهم وكانت قبضة الألمان ممتدة هنا وهناك وفي كل مكان ، ولكنهم كانوا متفرقين إلى أقصى حد ، على حين اكتسب الإنجليزى العادى شهرة صلابة العود . وربما استند منه فيها مليوناً من الرجال بينما ليس لديه ربع مليون يستطيع الاستثناء منهم لنفس العمل . وربما أصبحت بريطانيا معسكراً لاعتقال أسرى الحرب ومن ثم ينزل النازيون إلى أرض إنجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور .

ولكن لئن استبقى النظام الهتلري رأسه خارج للصيدة البريطانية فإنه لجأ مع ذلك إلى شن هجوم عنيف على الروح اللصوية لسكان لندن الشديدى التخاط السئى التعليم الأقوياء للراس . وعندئذ بدأت الغارات الجوية التى تسمى باسم معركة بريطانيا ، فشهدت بنمو الكفاية الجوية لدى البريطانيين ، وما وفى ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ ، حتى كانت ١٨٦٧ طائرة معادية قد أسقطت مقابل ٦٢١ طائرة بريطانية قتل من ملاحها ٦٠٠ ونجا الباقون بالظلمات الواقعة ثم عادوا إلى معمران القتال . ولكن سكان لندن للذين دفعوا ثمناً أفرح من هذا . فقد كان القتلى حتى ٥ نوفمبر أربعة عشر ألفاً ، وكان الجرحى عشرين ألفاً ، أربع أخماسهم جميعاً فى لندن وحدها . ودمرت فى ذلك الهجوم الجوى النازى دلة هياكل المال بلندن وثمانية من الكنائس التى بناها السير كريستوفر رن وتكلم تشرشل بلسان المجتمع البريطانى قائلاً لأمريكا : « أعطونا الأموات تم لكم اللهمة » وذلك لأن أمريكا كانت لازال جالسة فى مقاعدها تصفق لبريطانيا تصفيقاً خاداً ، ولكن نون أن يدو عليها أى مظهر ينفذ بعدها يد العمل

في ذلك الكفاح . وفي أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب في تدبير إنجلترا وساعدوا في القيام بالمجهود .

ولكن حدث في السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، أن شيئاً أشد عمقا وأكثر فطنة وأوسع مجالا من مؤامرة النازي على سائر البعيرة ، ظهر تحت الشمس فجأة وأخذ كلا من البريطانيين والأمريكيين على غرة . ذلك أنه قد تواصلت في آسيا الدعاية المضادة للأوربيين سنين طويلة ، وكان مبثوث تلك الدعاية خيال اليابانيين المناشط الحثيث العدواني ولم تجد تلك الدعاية لنفسها منفذاً كبيراً في اللغة الهندوستانية ، تلك اللغة التي تضيق الخناق على كل داعية إلى نظم الغرب وعاداته ولكنها وجدت من يبرع عنها باللغات الوطنية في صحافة الشرق من الهند إلى الصين وكانت اليابان في كل مكان تتخذ صورة الزعيمة الناصرة للعالم الآسيوي الناهض ، الذي سطرت للقادر أن يتسلط في النهاية على هذا الكوكب ، والذي كان قد ملأ أبنائه البقاع من الشرق إلى الغرب بطريق هونولولو وكاليفورنيا ، حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان الآسيويين شديدي الاستطباع بالحضارة الأمريكية ، يندس بينهم الجواسيس والوكلاء السريون ؛ ومن أيسر الأمور ردم ثانية إلى تقاليدهم القومية ، ولم يكن اليابانيون يضرعون للألمان إلا نفس القدر القليل من الاحترام الذي يضرعونه للأوربيين كافة ، وكان رأى هتلر في البداية في ذلك الشعب الأصغر الصغير الأجسام لا يقل عن هذا انحطاطا واحتقاراً .

ولم يلبث هذا للشروع الذي طال الأمد بإعداده ، أن قذف على العالم في ٧ ديسمبر ١٩٤١ على حين كان الديبلوماسيون اليابانيون لا يرحلون يخفون من الشبهات ضد بلادهم بإجراء المفاوضات في واشنطن ، وكان أسطول الولايات المتحدة الباسيفيكي يرقدهاداً في مياه بيرل هاربور قاعدته البحرية عندما فاجأه اليابانيون ، وفقدت في تلك المفاجأة أو دمرت بارجتان وثلاث مدمرات وسفيتان أخريان ، وأعلنت القيادة اليابانية أنهما في حرب مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . وأغرقت البارجتان البرنس أوف ويلز والريبالس (لأنهما كانتا بلاهون جوى ١١١) بطرايد ألقيت من الطائرات اليابانية . وهل لي أن أكرر هذه الكلمات للشحونة بالمعاني الأسيفة . . . لأنهما كانتا بلاهون جوى ١؟ ولستأ نعرف إلى يومنا هذا من كان المسئول عن ذلك التقصير . . .

لقد مدّ وِفْل هجوم الإيطاليين ، وتقدم إلى غزاله ولكن سحب جيوشه إلى البلقان أضف حملته ، فتقدم رومل حتى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلا من الإسكندرية و فاز الجنرال مونتجمري في أكتوبر ونوفمبر ١٩٤٢ بمعركة العلمين للدوية ، ومن ثم بدأ تقدم سريع على حين زلت بجراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية بقيادة الجنرال أيزنهاور . فوق الألمان بين نارين فسلموا في سبتمبر سنة ١٩٤٣ . ثم استوجب الحال بعد سقوط الإمبراطورية الإيطالية بشيرق إفريقيا تقوية مركز الحلفاء في الشرق الأوسط فاحتلت العراق وسوريا بعد أن أظهرتا شيئا من العطف على المحور .

وفي أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز لإمداد وتكوين عظيم .

ولم تلبث القوات التحالف أن اجتاحت إيطاليا بطريق صقلية من ١٩٤٣ - ١٩٤٥ وفي يولييه سقطت موسولوى ، وفي ٣ سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة الهدنة وأعلنت الحرب على ألمانيا في ١٣ أكتوبر .

وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة ، أخذت تحارب حربا مريرة حتى كسرت في مايو ١٩٤٤ على الخط القوطى بالقرب من بيراثم استسلم الألمان بعد ذلك في أبريل ١٩٤٥ .

وقتل الألمان عند ستالينجراد عشرة مرات ، ثم قام الروس بهجومهم العظيم في ربيع ١٩٤٤ وحرروا جميع أوكرانيا ودخلوا رومانيا . ثم بدى هجوم عام أخرجت به فنلندة ورومانيا وإيطاليا من الحرب ، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندة ويوغوسلافيا . ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان في أكتوبر ، وفي نهاية ١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدي الألمان ، وأسدى أنصار تيتو إلى الحلفاء مساعدة ثمينة . وثمة هجوم روسى أخير حرر بولندة ودخل تشيكوسلوفاكيا وبلغ برلين (يناير - مايو ١٩٤٥) .

ومهد الطريق للجهة الثانية في الغرب : جذف ألمانيا بالطائرات بغاية الشدة . وفتح الجبهة شمال فرنسا الغربية بقيادة أيزنهاور ثم تقدمت الجنود للتحالف من الساحل الجنوبي بسرعة إلى الشمال . فلما وصلت الجيوش إلى حدود ألمانيا هاجمها رونشتد

منطقة الأردن Ardennes فصدها إلى حين ، ثم مالبت أن تكتز خط شيفردي وعبرت الرين في مارس . وفي ٧ مايو سلبت ألمانيا بلا قيد ولا شرط .

وسرعان ما اجتاحت اليابانيون شبه جزيرة اللايو وبسطوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندي والمحادي . ثم أخذت الهزائم تتوالى على اليابانيين فاستردت بورما في يناير ١٩٤٥ .

ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يولييه ١٩٤٥ تم استرداد الفلبين . وكان الاستيلاء على أوجيا وأوكيناوا مقدمة للهجوم على اليابان نفسها .

وجاءت النهاية فجأة ، فإن قنبلة ذرية أسقطت على هيروشيما في ٦ أغسطس وأخرى على نجازاكي في أغسطس . وأعلنت روسيا الحرب على اليابان ، وغزت منشوريا ، وفي ١٤ أغسطس أعلن هيروهيتو قبوله لشروط الحلفاء .

- ٢ -

معرفةنا الحاضرة بطبيعة الحياة

أوصل الفصل السبعون تاريخنا هذا إلى عام ١٩٤٠^(١) . ومنذ ذلك الحين حدثت سلسلة متعاقبة من الأحداث أرغمت للشاهد الذكي إرغاماً أن يدرك أن قصة البشرية قد بلغت غايتها آنفاً وأن الإنسان العاقل Homo sapiens ، وهو الاسم الذي سره أن يطلقه على نفسه يند في صورته الحالية شيئاً شبهوك لا غناء فيه . ذلك أن النجوم في مسالكها قد انقلبت عليه ولا بد له من أن يخل مكانه الحيوان آخر أحسن تكيفاً لمواجهة للصير الذي لا يبرح يطبق على البشرية بصورة أسرع وأوسع .

وربما كان ذلك الحيوان للتكيف الجديد صنفاً آخر غريباً عنا تماماً ، وربما شيئاً كتمثيل جديد للفصيلة البشرية Homindae بل حتى كاستمرار مباشر للأمة

(١) وأننا في التبريم نبتدع عما سبق ذلك من أحداث الحرب العظمى . (٧٧ - تاريخ العالم)

البشرية ، ولكن لاشك أنه لن يكون بشرياً ، فليس أمام الإنسان إلا مخرجان أحدهما يرتفع قائماً إلى السماء ولثانيهما يهوى سحيقاً إلى الحضيض . فأمر الطبيعة الحتم الذي لاهوادة فيه في زماننا هذا وفي كل أوان هو أن يتكيف أو يهلك

وما أكثر من لا يستسيغون منا بشدة هذا التحير العجيب بين السماء والحضيض . فإن القوى التي أنشأتنا في نهاية تلك السلسلة للديدة من الكائنات الحية حينئذ بتثبت فكرة الاعتداد بالنفس تنور به نفوسنا عند مجرد التفكير في إخلاء العالم للفئران أو لوحوش بشعة طفيلية أخرى قادرة مزودة بالجراثيم الويلة للعدو للقضاء علينا . ولم أعني أن أحضر الجنس البشري وهو موجود بأنفسه ، وأن يكون لي رأى في حلول السيد الجديد للخلقة محله في النهاية ، وإن كانت النتيجة أن يصبح أول عمل لخليفته للرتقب ذاك أن يعاملني كما عامل أوديب أباه ، فيقتضى على أنا أيضاً .

قلب الطرف فيما حولك من هذا الكوكب تجد بقايا الإنسان وأعماله منتشرة في أرجائه ولا بد لعظمتنا من بذل جهد فكري هائل قبل أن يدركوا أن هذا التوزيع الناعم للمنتجات الإنسانية ليس إلا ثمرة لثلاثة آلاف سنة الأخيرة . ولا بد أن اللواد ذات النشاط الإشعاعي وعملية تحليل الراديوم قد بدأت في المجموعة الشمسية في مدة تقارب ثلاثة آلاف مليون من السنين ، وأنها توقفت فعلاً قبل أن صارت الحياة ممكنة على الأرض زمن طويل . يقول الدكتور ن . ه . فذر بعمل كافندش بكبرديج : « إن جميع الأنواع ذات النشاط الإشعاعي طبيعة ممتدة بمعنى أنه لا بد أن أحوالاً قد حدثت في مرحلة ما من مراحل التطور للكوكب ، ولعلها لا تزال تحدث في بطون النجوم الأشد حرارة ، التي حدث فيها إنتاجها ولا يزال ممكن الحدوث ، على أن هذه الأحوال لم تنشأ على الأرض منذ مائة انقضاءها عن الشمس ، كما أننا كسكان للأرض قد جرت عادتنا التقليدية بأن لا نعد من الأمور الطبيعية إلا تلك العناصر الإشعاعية التي يظهر لنا أنها عاشت على كوكبنا تلك الفترة التي تقارب الثلاثة آلاف مليون سنة (٣ × ١٠^٩ سنة) منذ أن حدث الاتصال » .

وقد حدثناك في الفصول الأولى لهذا الموجز التاريخي حديث الحياة على هذا الكوكب بقدر علمنا به في ١٩٤٠ . ولم يكن حديثنا آنذاك واضحاً بأي حال عن حدود الزمان التي يذكرها الدكتور فذر بجملاء تام . فإذا نظرنا في اتجاهات أخرى ونوجدنا أنفسنا اليوم

نواجه أشد أنواع الكشف عن الستور من طبيعة الحياة قلباً للأوضاع . وسيفيد الكاتب في هذا الفصل الحثاى الذى سيكون من الأنسب له تقسيمه إلى عدد من الأقسام لكل منها عنوانه ، - إلى النقاط قصة الحياة قبل دخول الإنسان إلى مسرحها وإعادة سردها على الأسماع فى نور التحقيقات الجديدة التى فرضت نفسها قسراً فى عقول الشاهدين الأذكياء ، وهى لن تكون من حيث الجوهر إلا نفس القصة التى سردها من قبل ولكنها ستصاغ صوغاً جديداً فى إطار من الآفاق للوسعة توسيعاً هائلاً . وهذا الإطار الرضى شأنه شأن الفضاء ، إنما هو ضرب من الفكر الذى يشكل عقولنا ، فنحن نشكر فيه ونستشعر صفة خادعة فيه ، ونستطيع أن نتحدث عن الخروج على حدود الزمان وعن الأبد على أن هذه ليست إلا مضطعلحات سلبية لا تحوى أى مدلول مطلقاً ، فإن أحييتنا الإيجابية لا نستطيع أن نتفد إلى ما وراء الدقات الأولى لساعة الراديوم .

ثم أصبح الكوكب الأرضى فيما بعد على التدرج موطناً ممكناً لذلك الوافد العجيب : الحياة - وكان يدور حول الشمس بسرعة لا يحلها أحد وعلى مسافة لا ندرها - ثم اكتسبت الأرض بعد ذلك قراءاتاً عمكت موجة من موجات اللد أن تهيئ من سرعته حتى ألزمتها فى النهاية أن يدبر وجهه نحو أمه الأرض إلى أبد الأبدى ومن ثم يكون الشهر القمرى يوماً قرياً وربما يكون كوكبنا نحن قد ألم به تأخير مشابه إزاء الشمس ، بحيث أن السنوات الأولى وأعمار الحياة على الأرض كانت تندفع بسرعة تخرج عن كل تناسب مع هذه الأيام الأخيرة للزمنة . لقد كانت الآلة تسير بفرامل أضعف . وفى زمن ما من ذلك الطور المتدفق وفى ظل خيمة من كثيف السحاب البخارية بدأت سلسلة الدقات الإيجابية التى نسميها الحياة .

على أن ظلمات البحر العميق التى لا نهاية لها . وجفاف الأرض اليابسة التى لا هودة فيه ، لم يطلوا على أية إمكانيات للدقات الإيجابية . فهى شئ لم يكن ليوجد - كما قال الأستاذ ج . ب . س هولدين فى إحدى مقالاته المبسطة الجديدة بالإعجاب - إلا فى المنطقة التى يتبادلها على الساحل للبحر والجزر . فكان النور يقب الظلام وتقب الظلمة النور ، وبدأت الحياة - تلك الدقة العجيبة فى المادة الموات . فلن علماء الحفريات الذين يبحثون على العوام عن شئ يهديهم فى ظلمات سجل الصخور ، يحدون إشارات غموض بوجود طور جرم كل أثر للحياة لا يعلم أجدها قبل أن تكتشف أشعة الشمس فلا خلال ذلك الستار البخارى واقتضت العملية المسهولة بالحياة .

ولذا زالت قنرات تعاقب هذه الدقات الإيقاعية البعيدة شيئاً غير محقق . فإنها كانت في درجة أولية قصوى بحيث لا يوجد أقرب نظير لها إلا في العناصر الغشائية الميكروسكوبية للحياة للعاصرة أو في مياه البحر السطحية ، فكان هناك تكاثرهاائل في الديايطيم^(١) وما ماتلها ، وحدث في زمن مبكر جداً من القصة أن أنتجت طفرة مواتية مادة خضراء هي الكلوروفل ، التي كانت تلتج تحت نور الشمس مزيجاً شبيه دائماً يستمر مادام النور موجوداً . ولذا فإن سجل الصخور يتحول فجأة من انعدام الحياة إلى أضرب كثيرة من أشكال الحياة بمنطقة للدوالجزر .

وهذه الأشكال بكل ما حوت من أضرب يتجلى فيها ميل مشترك ، هو النزوع إلى فرض وجودها Jeanvite وهي تظهر في أبسط الصور ذلك التنازع على البقاء الذي أصبح للوضع الجوهري لتاريخ الحياة ، ثم لا تلبث هذه المادة الحية أن تنقسم في لحظة باكرة جداً إلى أجزاء فردية ، يمكنها أن تواجه الظروف للتغيرة وتظل حية هنا وإن جف غيرها هناك وهكذا وكأني بهذه الأفراد خالية من أي دافع للصراع مع الطعام الذي تتناوله أو مع إحداهما الأخرى . فإذا هي التفت تدقت معا ثم تباعدت ثانية وقد زادت الالتقاء قوة ظاهرة ، ويحدث تجديد الشباب والحيوية ذلك دون وجود أي علامة للتنازع الجنسي ، فهي أمر يتم بين أعداد .

نزوع فجر العائلة

من الأمور التي بدأت بداية واضحة في تاريخ الحياة تكوين فارق بين أفراد بحيث يسرد فريق منهم للمخاطرة ويتعرض للتجارب والموت التهاوي ، على حين يواصل صنف آخر بقاء النوع بلا نهاية .

والغالبية العظمى للكائنات ذوات الخلايا المتعددة على هذا الكوكب تبدأ وتنتهي كبريات خصبة ، ومنها ما يتبرعم وينقسم ، ومنها ما ينتشر بالتقطع ، أو التوالد

(١) الديايطوم (Diatom) : أحد أفراد فصيلة من فصائل الطحالب المجهرية ذات الخلية الواحدة ولها عارتان تنطبقان كالصندوق وعطائه

العذرى (كما في البداية الخضراء) وما مائل ذلك ، ولكن أمثال وسائل التواء هذه تبقى النوع ثابتا ، غير قابل للتكيف وبعيداً عن كل مناعة ، ولا بد أن يحدث إن عاجلاً أو آجلاً ، إن قدر للنوع البقاء — تغيير غايته اتقوة والتوسع في الذكر والأنثى اللذين نجدهما مستقرين آنفاً في صورتها الراهنة في أبكر فصل من فصول الحفريات عثرنا عليه .

وهناك تقلبات جيدة في تمايز الجنسين حتى في النوع نفسه تقتضيها الضرورات الضرورية التي تفرضها الحياة . وقد من وقف ليمعن في جنس النمر أو النمره عندما يلتقي به صدفة ، ولكن كيف يتضح جنس قطرة مارة بنا أو أرنب أو قنفذ ، أو ذئب في سربه حين يقتنى أثرنا أو ذبابة أو سحلية ؟

وحق مياسم الجنس في « الإنسان العاقل » أقل ظهوراً اليوم بكثير مما كانت عليه منذ مئة سنة ، ذلك أن البالغة في تضيق الحصر بالضغط الشديد عليه بالمشدات قد توقفت اليوم . وكذلك اختفى أيضاً قدر كبير من تدليل البنات تدليلاً لانتهن له معنى . وكان للدراجة بعض الفضل في ذلك الانطلاق . فإن البنت النامية تنشط نفسها بالانطلاق بدراجتها بلطف وتجد الفائدة تعود عليها من ذلك بينما جدتها تأخذ قسطاً من الراحة في فراغها . وكلا ألت بنا أزمة أغمى على جداتنا ولكن من ذا الذي يسمع اليوم عن نساء يمشى عليهن ؟ فالآن ينشئ على الرجال أكثر من النساء ؟

لقد حدث في أمد وجيز لا يتجاوز عمر رجل مسن تغيير عظيم في علاقة الجنسين بعضهما ببعض في المجتمع البريطاني ، وبالعلاقات المتعلقة بالمر في الزواج ، وبالتوافقات الاجتماعية للترتبة على تلك التغيرات . فكان رجال مسنون يتزوجون نساء صغيرات ؛ على حين يزخر العالم اليوم بالزوجين الشابين . ومن الشواذ القليلة أن تجد خريفاً هراً متزوجاً من ربيع مزهر . وربما عاد رأى الناس أدراجهم ثانية . وربما لم يكن ما نشهده خروجاً على الحالة الأولى . وربما استطاع التشريع للنشأ على خطة مقصودة وتقص الطعام وما مائه من عمليات اقتصادية ، وموجبات العطف على الأمومة أو النفور منها والشعور القوي أو انعدامه ولليل الطيبى إلى الوقوع في شرك الترام مقترنا بالرغبة في تثبيت إحدى العلاقات بوساطة مصلحة مشتركة ومستديمة والفخر بالأطفال الحسنى التكوين جثمانياً وعقلياً ، ربما قدر لهذه جميعاً أن تلعب أدواراً

لا حصر لها في إنتاج إنسانية جديدة قادرة على التكيف الكافي لإزاء الضرورات التي تهدد من حولنا كالرجل وتضطرننا أن نقصص قصة الحياة على الأرض حتى نهايتها .

وتدعى الهيئات الدينية عامة والكاثوليكية خاصة أنهم يقومون على حماية نظام العائلة . والواقع أنهم لا يعملون في ذلك السبيل أى شيء . فإن العائلة موجودة منذ تناسلت الحيوانات وتزاوجت ثم افترقت لحماية صغارها وتربيتها . ولكن التدخل الكهنوتي قد حط من قدر هذه العلاقة الواضحة البسيطة حين وسم الأطفال الذين لم يولدوا لأب شرعي بأن حملهم تم في ظل الخطيئة ، جاعلا من مولدهم غير الشرعي شيئاً محزناً بطريقة لا تفهم لها معنى ومقياً سداً منيعاً بين الحقائق والإمكانات الجهرية المتعلقة بحياة العائلة وبين الصغار حتى يغترب الأوان فلا يعودون يستفيدون من معرفتهم بها .

انتحار الجنس بالتضخم

يمتد الفرد البشري إلى سن كبيرة جداً ، بالقياس إلى حياة الحيوانات المحيطة به . وساعة الراديوم^(١) تعطينا كمعمر للحياة فترة عظيمة أقل كثيراً من عشرة آلاف مليون من السفين الأرضية ولعلها أقل كثيراً من خمسة آلاف مليون سنة ، وفي كل هذه الفترة الزمنية كان يحدث تعاقب مستمر في أشكال الحياة التي تسود الموقف على ظهر البسيطة . أجل لقد ساد كل منها بدوره ثم عاده كل منها فأزجج من المشهد بدوره أيضاً وحل محله شكل أحسن تكيفاً . واضاع كل منها مجموعة معينة من القوانين لأمفر من إطاعتها ، لاح أنها كانت قطعة من طبيعة الأشياء نفسها .

وكان أول هذه القوانين هو أن العدوان أمر حتم فلا أمر الذي لا مزايا له هو أن عش — أجل عش وبأ كبر ما يمكن من الوفرة الزاخرة . عش أكثر من إخوانك

(١) للرئيس أن المؤلف يفهم إشعاع الراديوم العظيم على تر الصور بعبارة الساعة بالتي تعجب الزمن .
[للترجم]

وكن أكبر حجماً منهم والتم منهم أكثر . وفي الألبم الأولى ، كان ذلك الأمر الحتم غير مقيد بأى دافع يدعو إلى المساعدة للتبادة ضد منافس مشترك . لذا أكل الأفراد الكبار طعام الصغار ، وإن لم يأكلوهم فعلاً ، فكبرت أجسامهم أكثر وأكثر ، فسجل الصخور لا يظهر فيه دائماً في نهاية كل فصل من فصوله إلا الأفراد الضخام .

وبدور كوكبنا ويتغير مناخه تغيراً يجعل سيد الخليفة القديم للفرط النمو غير متجانس مع ما يحيط به من بيئة ، وإذن فلا مفر له من أن يذهب . والعادة - وإن لم يكن ذلك دائماً - أن يخلفه شكل للحياة مختلف تماماً . ولعله يصنع صنيع القروش فيتضاد عدده حتى يدركه الطعام ، وعندئذ يعود إلى وفرة عدده الأولى ، وإن لم تكن الطبيعة قد أعدت بديلاً منه . ومن المعلوم أن القروش وأشباهها تعيش وتموت بعنف ولا يبقى منها شيء يصبح حفرة . ونحن نعرف أن هناك في هذا العصر قروشاً هائلة تصطلي هي وأمثالها في ضياء الشمس . ولعلها بلغت ضخامتها الحاضرة في عصر قريب جداً أو لعلها تصلى في الشمس منذ عصور متعاقبة ، منذ أن وجد لها القدر الكافي من الأسماك لتلتهمه وتتغذى به . فنحن في ذلك كله نتخبط في غياهب الحس والتخمين .

- ٥ -

النضج المبكر : إحدى وسائل البقاء

استجبت الطبيعة في لعبها الأبلي بإمكانات الحياة مستحدثات مباغتة في السجل بزيادة سرعة إخصاب البويضة وإفراجها بالنسبة للأطوار الأخرى من دورة الحياة . ويتنبى أن لا يذهب عن بالنا دائماً في مثل هذه السائل أن ما رثته إنما هو دورة حياة كاملة وليس شكلاً ثابتاً بلانح ، وحدث المرة بعد المرة أن الطبيعة قد فصلت شكلاً بانحاً من السجل فصلاً تاماً وألته وجعلت مرحلة اليرقة Larva الشكل الفاجح تناسلياً .

وجاء على السجل حين مبكر كانت سيدة الخليفة فيه الشوكيات Echinoderms والسماك النجمي وما إليها ، بما حوت من تكوين إشعاعي . ولم يكن لديها شيء من قوة التنقل الحركي أثناء طور بلوغها أو كان لديها منه قسدر قليل ، كما كان الكثير منها كالزنبقيات Crinoids مثبتاً في الجنود وقد تحولت للزترات Juncata هي وبعض

الأشكال الشعة الأخرى إلى إنتاج السلولوز وكانت بارزة الزرعة النباتية في طريقة عيشها وعاداتها . وكانت تنقي في الماء ، يعضها الخشب ، وساعد على انتشار هذا البيض لشوء تكويريات إضافية صلب بها عود اليرقات المتدفقة على غير هدى ووهبت حركتها قوة دافعة مستقلة وسمى العمود الفقرى لهذه الأشكال للنبضة المنتقلة باسم الحبل الظهري Notochord كما أطلق اسم الحبلية على شكل الحياة المسمى الطبيعة الجديدة New Form والطراز المتأخر Ait « الذى كان الحبل الظهري هو البشير الآن ؛ هما ؛ سميا الحبلية Chordata كنقيض لسلسلة الأشكال التى ليس لها حبل ظهري من أمثال السمك النجمى وقتئذ البحر وخيزر البحر وهكذا دواليك . وكلها كانت سادة للخلق في زمانها . ولا غنى أن عالم الحيوانات الفقارية الضخم بأجمعه بما فى ذلك الإنسان يدين بوجوده لهذه الزرعة التى أصابت الطبيعة ، ولم تكن تنطوى على أى سبب عقلى بأى حال ، لقد حدثت هكذا وكفى .

يتبدى الحبل الظهري في تطور الحيوانات الفقارية جميعا ، ولكن تنزوه وتحل محله في جميع الأشكال العليا مادة غضروفية أو عظمية ، وهو يظل في سمك الجريث Hagfish والجلديات Lampreys طول حياتها ، وهو يصل إلى موادنا عملا في هذا النوع الأخير .

— ٦ —

الخصومة بين الهرم والشباب

ولعل هذا أنسب للموضع الذى يستطيع كاتب هذه السطور أن يقول كلمة موجزة عن الصدام الذى لا مفر من حدوده والناخب الآن بينه وبين الشباب . إن المؤلف يتقبل حقائق الحياة هذه بهدوء واقتناع تام ولا يقبل لها أى شكل آخر ، ولكنه لا يعتقد أن أى شاب يصغر مثلاً عن سن الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير سيتقبلها بنفس الروح التى يتقبلها بها . فإن كل شاب يظل حتى قرابة ذلك السن فى حالة صراع مع العالم ويخى أن يحصل على ما يريد منه فإن هو قبل ذلك فلا بد أن يكون شاباً ضئيل الحظ جداً من الحيوية حيث يظهر مثل ذلك الاستعداد للتسليم « وتقبل الأشياء على هلاتها » .

ولكن كاتب هذه السطور يدلف في سنته التاسعة والسبعين ، بعد أن عاش عيش
للريح واليسار وقد دفاً كلنا يديه على نار الحياة ونها هو الآن مستعد للرحيل عنها وقد
أخذت تتجدد به في دور من العلة والوسوسة وهكذا ينتظر خاتمة وهو رقب البشرية وهي
لا تزال متحمسة لاستخدام ما جمعه من خبرة استخدماً قافياً بينها في هذا الزمن زمن
الاضطراب العقلي . ولكنها لا تكابد تلك القوة المتهورة التي تدفعها للوصول مع الحياة
إلى نتيجة حاسمة ، وهو جزء ضروري من تكوين أى فنى سوى ذكر كان أم أنثى .

وكل إنسان يجاوز فترة التكوين يحس نفس إحصائيات المؤلف . فهو قد كون
نفسه عندئذ . ومنذ تلك الساعة ظل هو وأمثلة من كبار السن يصوغون ويستكملون
ويصلون بكل بساطة صيغ الفكر التي صبا فيها معتقداتهم ولكن مع زيادة معينة في
الحدة في معظم الأحوال . وهو يميل إلى الظن بأن اهتمامه للتواصل بلم البيولوجيا ربما
كان السبب في اتصاله الوثيق بالحقائق الحسية اتصالاً أوثق من اتصال السياسيين أو
للضاريين للتالين أو رجال الدين أو رجال الأعمال الكثيرى للمشاكل ، على أن ذلك
ليس وسيلة رفق الصدع القائم بين السنين والشباب . ومما أ كنا نحن للسنين رقب
ما حولنا بأمل أو بسوء نية ، بحسد أو بكرم خلق ، فإننا لا نملك إلا أن رقب ولا نستطيع
تجاوز ذلك ، لقد عشنا بالضرورة أربعين سنة تقريباً ، والشباب هم الحياة ، ولا يعقد
أمل إلا عليهم .

- ٧ -

ضوء جديد على سجل الصخور

سبق أن أشرنا (ص ٤) إلى أن دوران الأرض حول نفسها ودورتها السنوية في
مدارها قد أخذت شرعتهما في المربوط . فكل ما اكتشفناه منذ أن كتبت مسودات تلك
الفصول الأولى يؤكد الفكرة القائلة بأن امتداد الصور الباكورة لسجل الصخور (إذا
هو قيس بدقة وضبط ساعة الرادوم) لابد أن يلحقه تخفيض هائل يتناسب تماماً وسرعة
العصر الكائنوزوى . أجل إن الأشكال هي نفسها لم يتأصلها تغيير ، ولكن النسب
مختلفة . ومن بما كان ذلك التباطؤ العديوى مستمرًا ورعالم يكن كذلك على أن استمراره

هو الأرجح في نظر المؤلف . ولكن من يدري ؟ على أن أحوال حيوات الفرد والنوع يلوح أنها كانت تتقنب تقبلاً سريعاً ومتسماً في تلك الأزمنة للتقدم .

ولكننا على يقين من شيء واحد . ذلك أنه رغمما اجتمع لنا من المجموعة الهائلة من الحقائق فإن حقيقة لم تستطع أن تلقى ظلاماً من الشك على ما يسميه العلماء إلى الآن باسم « نظرية » النشوء والارتقاء العضوى . وعلى الرغم من عنيف الكذب والدواء الذى أذاعه لـمقن للتدينون ، فليس ثمة عقل يحكم النزعة العقلية Rational يستطيع أن يصح بأى سوء الطبيعة للنسبة لقضية النشوء والارتقاء . وهناك كتيب جدير بالإعجاب كتبه أ . م . دافيز وأسمه « النشوء والارتقاء وناقده المحدثون ^(١) » ولخص فيه هذه القضية تلخيصاً واثماً وقصاً . فإلى ذلك الكتيب ينبغي أن يلجأ القارئ الذى لا يجد مورداً جديراً بالثقة يهتم به .

أما الشيء الذى يظهر الآن بالفعل فهو تباطؤ هذه الحيوية الأرضية في سرعتها . ذلك أن السنوات والأيام أخذت تطول ؛ والعقل البشرى لا يزال فعالاً ناشطاً يتقنب التهايات وللولت ويدبر لهم الوسيلة .

وكاتب هذه السطور - مع تذكر منه - يرى أن العالم منك خال من كل قوة ممد إليه العافية وقد أبدينا في الأقسام السابقة من هذا الكتاب نزعة ترجو متلهفة أن يوفق الإنسان إلى التخلص مما يقبده من اشتباكات ويبدأ طوراً جديداً خلافاً للحياة الإنسانية . ولكن خاب الفأل في السنتين الأخيرتين إزاء ما تجلى منا من عدم كفاية عامة ، وحذ عل التفاؤل ضرب من الاستخفاف المادى ، فكبائر السن يسلكون في معظم أمرهم مسلكاً نسبياً يدعو إلى الانتمزاز ، كما أن الشباب يتصف بالحماسة وسرعة الاتصال ومهولة انقوع في شرك اللذائذ ، فلا بد للإنسان من أن يرتفع إلى السالك أو يهوى إلى الجحيفين وكأى بكل الظروف يعمل على تربيته إلى حضيض الحياة وإخراجه من مسرح الحياة فإن هو ارتفع إلى السالك كان التكيف المطلوب منه عظيماً يضطره أن لا يظل إنساناً ؛ ولعلكم تذكر من العنوان الثانى لهذا الفصل أن الناس الماديين في أشد التوتر ؛ فليس فيهم من لعله يستطيع البقاء إلا أقلية قوية القابلية للتكيف ، فأما بقيتهم فهم قوم لن يهتموا بالأمر ، لأنهم يجدون أنواع المحدثات والعزاء التى يحبونها ، لذا ينبغي لنا أن نختم هذا

التأمل الفكرى حول التطور الأخير فى التاريخ. العيب الشئ الذى ينمو به الحياة باستمرار بتدريجات النوع الإنسان التى تحدث فى هذه الأيام .

تظهر الحيوانات الراقية كخلافات غابات تصل صلة القرى بمجموعات من أكلة الحشرات ، بدأت حياتها شجرية واكتسبت بين الأغصان حدة الأعين والتوافق البصرى ؛ كانت مبالغة إلى العشرة وازدهرت ازدهاراً واسعاً ، حتى إذا حدث لها الازدياد المتداد فى الحجم والوزن والقوة ، اضطرت إلى النزول إلى ظهر الأرض ، وقد بلغت آنذاك من الكبر ما جعلها تستطيع أن تتحدى وتنافس وتتفوق فى الدهاء والحيلة على آكلات اللحم الكبرى من أبناء عالم الغابة . وقد مكنتها هيتها شبه القائمة أن تنصب على قدميها وتضرب أعداءها بالأعجاز ، وهى سلاح جديد لم يسمع بمثله أصيب إلى الأسنان والمخالب . ولكن ميلها إلى التناثر تناقص لأنها كانت آنذاك بحاجة إلى مساحات رحبة من اللواتى النضائية . وذوى الصغار أمام الكبار ، وفقاً لنظم الحياة القديم الأمد وطورت القدرة على نظام العائلة الخاصة إلى مستوى عال . وعلى امتداد هذا الحث ماروا حتى أصبحوا ملوكاً حولنا فى الوقت الحاضر من غوزيلا وقبائزى وأورانج يوتانج .

— ٨ —

النار والسلاح

ولكن الوحوش الراقية تعرضت لظروف قاهرة أخرى خارج مناطق الغابات أثناء مرحلة تقاعست فيها تلك الغابات . فانتشرت مكانها متسعات ومساحات مليئة بالعشب والسهوب القاحلة . وتقلص مقدار الأطعمة المتخذة من الخضرة ، لذا أصبحت الحيوانات للصغيرة واللحم بوجه عام جزءاً متزايد الأهمية فى الطعام . وكان أمامهم كما هو الحال دائماً الاختيار بين بدلين : فيما التكيف وإلا فالمهلكة ، وكان من حسن حظ سلسلة جديدة من أشكال الحيوانات الراقية أن نجت من مذبحه عالية لها . كانوا أكثر انصياعاً من القدرة العليا بالغابة ؛ وكانوا مجرون بغيضادون وأوتوا من الذكاء ما جعلهم يتعاونون فى سعيهم

كانت هذه القردة الأرضية - هي الفصيلة البشرية Hominidae ، وهي سلسلة حيوانية جاهلة وكاسرة . ولما كانت حيوانات تعيش في الغراء ولها قدر كاف من الذكاء يجنبها الفرق كانت البقايا المنحرفة والدالة على ظهورها قليلة العدد متباعدة . ولكن فيها السكينة . فلئن لم يتركوا كثيراً من العظام ، لقد تروا في العالم أدواتهم ، ذلك أن وضعها القائم حرر يدها وعينها وأوجد بينهما تعاوناً أدق وأضبط ، كانت هذه الوحوش تتواصل بأصوات غليظة شاذة . وكانت تستطيع القبض على المراتات والأحجار لتستخدمها في أغراضها . وكانت تطرق الأحجار العظيمة لتجعل لها شكلاً أكثر حدة فإذا تطاير الشرر بين الأوراق الجافة التي كان يحجم بينها وظهرت النار الحمراء كالآزهار كان ظهورها هادئاً ومألوفاً بحيث لم يبعث في قلبها الخوف ولم يكن أي كائن حي آخر قد شهد النار إلا في إنشاء التكبات الباعثة الرعب في قلوب الحيوانات . حيث كانت تتبع كل شيء دون رحمة وكافت الدية - حتى دية الكهوف - تفر من النار والدخان . على حين أن الفصيلة البشرية أخذت من النار صديقاً وخادماً . وكلما قرصها البرد أو هاجمها أعداؤها من أكلة اللحم ، قابلت ذلك بالزحف إلى داخل اللغارات وأمثالها من الأماكن المستترة وركت نيران الدار موقدة .

وهكذا سادت هذه الوحوش العظيمة الغليظة شبه الإنسانية وانتشرت في أثناء أطوار الزمهرير لصور الجليد المتعاقبة . كانت تخرج لصيد جيجاتها وحركاتها الغليظة الشاذة . وكانت وهي في شكلها البالغ أكثر وأثقل كثيراً من الإنسان ، فالأيدي الثقيلة التي اقتطعت من الصخر الأدوات الشليانية كانت أكبر من أية يد بشرية ، ويستطيع مهرة عمال للظفران (الصوان) أن يصوغوا تلك الآلات الرقيقة نسبياً التي صنعها رجال العصر الحجري القديم للتأخر بمنهى النجاح ، بيد أن الأدوات الشليانية الزائفة لا تشل صعوبة وثقلا عن أي آلة حجرية شبه إنسانية فالأداة الشليانية إنما هي قالب غرانة عظيمة : بينا الأدوات الإنسانية التالية شطقة من قلب غرانة بضربة .

يخرج المخلوق للسمى بالإنسان العاقل من بين الأنواع المبكرة للفصيلة البشرية خروجا جلياً جداً بوصفه فئة أخرى من فئات دورة الحياة نحو صورة طفلية . وشكل أكثر مرونة من الناحية البيولوجية ، وهي فئات لعبت دوراً هاماً جداً في التاريخ للثقل للكائنات الحية وهو ليس العادل للبالغ القيسخ من إنسان هيدلبرج أو نياندرتال وإنما هو وهو في أطوار الاستهلاكية الطفل التجريبي المعب القابل لتعلم المرحع النضج

الذى لا يزال مكلفا بالخضوع الإجتماعى بعد أن يتجاوز حد البلوغ الجنسى ، ذلك أن أحوال الحياة الدائمة التغير يقل تساهجها أننا بعد أن إزاء كل طور بلوغ نهائى وضخم ومستبد ولذا يتر هذا الطور من الدورة فالإنسان البدائى البالغ الغليظ الضخم يختفى ويحل محله طراز أشب منه ، طراز آخر مختلف تماما كما بين السجل ذلك بجلاء تام ، ولكن أطوار الانتقال وطريقة لاتزال موضع التأمل والبحث وجميع أنواع الإنسان العاقل تزواج وتتوالد ، وربما كان هناك تزواج وتوالد متواصل بين أبكر أنواع الجنس وربما عادت فترات من الانزوال بإنتاج أشكال أخرى عملية شبه فياندرتالية أو شبه زنجية أو شقراء أو قاعة أو طويلة أو قصيرة لاتزال قادرة على الزواج والتوالد على نفس الشاكلة التى أنتج بها السكاب عددا لانهاية له من الأجناس التى تستطيع بسهولة أن تهين بل لا مفر لها من ذلك عندما تنهار الحاجز بينها ، وربما اقتلت العائلات والقبائل فيما بينها وبها الظافرون يميزاتهم الفارقة بالزواج منع أسرارهم من النساء . هذا وإن علم البشرىات للثان يحل يبطه معقدات قصة الطريقة التى ذوى بها الإنسان البدائى Homo الذى بلغ جنسه حد الكهولة والذى لم يعد لوجوده الآن ضرورة تاركا من ورائه الإنسان العاقل الشبيه جنسه بالطفل ، الذى هو فى أحسن أحواله محب للاستطلاع قابل للتعلم مبال للتجريب من مهد إلى لحد .

هذا وإن عبارة « فى أحسن أحواله » هى زبدة هذا القسم . أجل إن من الممكن أن تكون هناك اختلافات بعيدة فى مدى قابلية البشرية للماصرة لتسكيف العقل ، ومن الممكن أيضا أن كتلة البشرية للماصرة قد لا تكون سهلة التقبل للأفكار الحديثة كعقول الأجيال الأبكر والأصغر منها والأكثر طفولة ، كما أن من المحتمل كذلك أن التفكير الخائل العميق الشديد لم يزد إلى الحد الذى يساير به امتداد الجماعات والمنظمات الإنسانية ومعقداتها وتلك هى أحلك ظلال اليأس التى تسقط على آمال الإنسانية .

ولكن زوحى ومزاجى يحصلانى لا أشك مطلقا كما قلت آتفا فى أنه ستوجد تلك الاثلية الصغيرة التى ستوفق إلى تتبع الحياة حتى نهايتها .

جدول تاريخي زمني

أخذت الشعوب الآرية تستقر حوالى عام ١٠٠٠ ق. م. في شبه الجزيرة الأيبانية وفي إيطاليا والبلقان ، كما أنهم كانوا مستقرين في تلك الأثناء بشمال الهند ؛ وكانت يد التدمير قد امتدت آنفا إلى كنوسوس ، كما أن عصور مصر للترامية ، عصور تحتهمس الثالث وأمينوفيس الثالث ورمسيس الثاني ، كانت ولت منذ ثلاثة قرون أو أربعة . وكان يحكم وادى النيل ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضفاف . وكانت إسرائيل متحدة في ذلك الأوان تحت حكم ملوكها الأوائل . وربما كان شاول أو داود أو لعله سليمان مترعما آنذاك على العرش . وفي ذلك العام كان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق. م) ملك الإمبراطورية الأكادية المومرية ذكرى حقيقة في التاريخ البابلي ؛ أبعد في عالمهم من بعد قسطنطين الأكبر من عالمنا الحاضر . وقد توفي حمورابي قبل ذلك بألف سنة . وصار الآشوريون متسلطين على البابليين الأقل صفات حرية . وكان نملات بلسر الأول قد استولى في ١١٠ ق. م على بابل . ولكن لم يدم غزوه لها ؛ وكانت آشور وبابل لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . أما الصين فكانت تزدهر فيها أسرة تشو الحديثة العهد . وكان عمر ستون هنج بالملته في ذلك الأوان يضع مئات من السنين .

وشهد القرنان التاليان نهضة لمصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وتمزقت مملكة سليمان العبرانية القصيرة الأجل ، وانتشر اليونان يبلاد البلقان وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى وحكمت إلم عظمة الأتراك بإيطاليا الوسطى . ونحن نبدأ قائمة التواريخ الحقيقة بالآتي :

قبل الميلاد

٨٠٠ بناء قرطاجنة

٧٩٠ غزو الإثيوبيين مصر (وتأسيس
الأسرة الخامسة والعشرين)

٧٧٦ إقامة أول أولياد بيلاد اليونان

٧٥٣ بناء روما

٧٤٥ فتح نيملاث بلسر الثالث بابل
وأسس الإمبراطورية البابلية
الآشورية الجديدة

٧٢٢ سلب سرجون الثاني الآشوريين
بأسلحة من الحديد

٧٢١ نقل الإسرائيليين من بلادهم

٦٨٠ أسرحدون يستولى على طيبة بمصر
ويخلع الأسرة الخامسة والعشرين
الإثيوبية

٦٦٤ استرجع إسماتيك الأول حرية مصر
وأسس الأسرة السادسة والعشرين
(حتى ٦١٠)

٦٠٨ غزاو ملك مصر يهزم يوشع ملك
يهودا في معركة مجدو

٦٠٦ استيلاء الكلدان والبيديين على
نينوى . تأسيس الإمبراطورية
الكلدانية .

٦٠٤ رد غزاو إلى نهر الفرات وتطلب
نبوخذ نصر الثاني عليه (أوجع

قبل الميلاد

نبوخذ نصر اليهود إلى بابل)

٥٥٠ خلف قورش الفارسي سياكارس
البيدي . قورش يقهر كرويسوس

٥٥٠ بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان
وكذلك أيضاً ككونتشوس
ولاهورتى

٥٣٩ استولى قورش على بابل وأسس
الإمبراطورية الفارسية

٥٢١ حكم دارا الأول ابن هستاسبس من
الفرديين إلى نهر السند . حملته على
بلاد الإسكندرية (روسيا)

٤٩٠ معركة ماراثون

٤٨٠ معركة ثرموبيلاي . سلاميس

٤٧٩ معركة بلاتيا وميكالي ثيرمان طرا
فارس

٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرون أسطوا
الأترسك

٤٣١ بدء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)

٤٠١ تراجع الشرة آلاف

٣٥٩ أصبح فيليب ملكاً على مقدو

٣٣٨ معركة خايرونا

٣٣٦ عبور الجند المقدونية إلى آ.

ومقتل فيليب

٣٣٤ معركة جرانيكوس

قبل الميلاد

٣٣٣ معركة إيسوس

٣٣١ معركة أريلا

٣٣٠ مقتل دارا الثالث

٣٣٣ وفاة الإسكندر الأكبر

٣٣١ قيام شندراخوتا بالتهناب: السمنيون

يهزمون الرومان تماماً معركة مفارق

كودين Caudine Forks

٢٨١ غزا يروس إيطاليا

٢٨٠ معركة هرقليا

٢٧٩ معركة أمكولم

٢٧٨ أثار التمرد على آسيا الصغرى

واستوطنوا غلاطية

٢٧٥ يروس يغادر إيطاليا

٢٦٤ الحرب البونية الأولى (بدأ حكم

أسوكا بإقليم بهار حتى ٢٢٢)

٢٦٠ معركة ميلاي

٢٥٦ إكنوموس

٢٤٦ أصبح شي هوانج في ملكا على

تشان

٢٢٠ صار شي هوانج في إمبراطورا

للمصين

قبل الميلاد

٢١٤ بدء بناء سور الصين الأعظم

٢١٠ وفاة شي هوانج في

٢٠٢ معركة زاما

١٤٦ تدمير قرطاجنة

١٣٣ وهب تالوس مملكة برجامة لروما

١٠٢ صد ماريوس الألمان

١٠٠ انتصار ماريوس .. (الصينيون

يفتحون وادي نهر تاريم)

٨٩ أصبح الإيطاليون جميعاً مواطنين

رومانيين

٧٣ ثورة الرقيق بقيادة سبارتاكوس

٧٢ هزيمة سبارتاكوس ونهايته

٦٦ رومي يقود الجيوش الرومانية إلى

بحر قزوين ونهر الفرات . ويلتقى

بقبائل الآلاي

٤٨ هزم يوليوس قيصر رومي عند

فاراسالوس

٤٤ مقتل يوليوس قيصر

٢٧ تعيين أوغسطس أميرا (حتى ١٤

ب ٢٠)

٤ التاريخ الحقيقي لولاء يسوع الناصري

Biblioteca Alexandrina
National Library of Alexandria

0259076